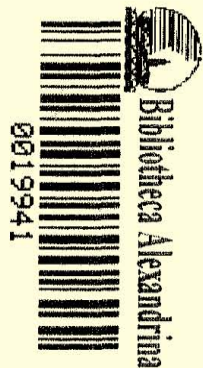
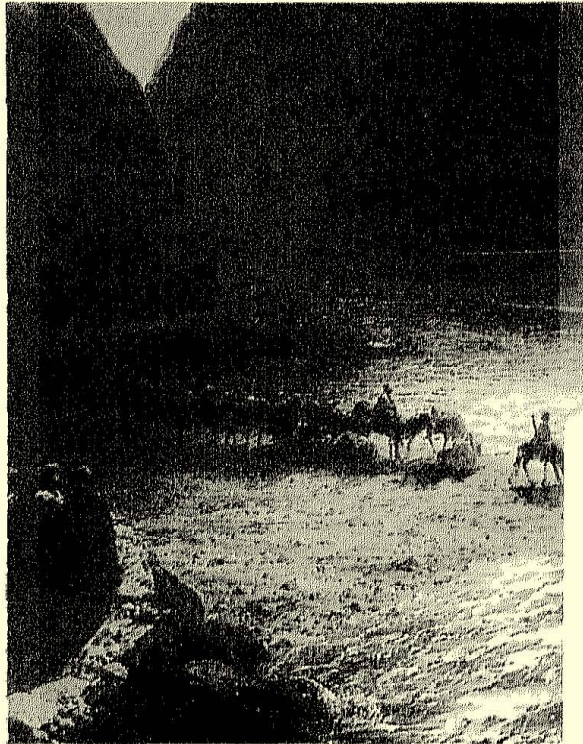


امين معلوف

ليون الإفريقي

ترجمة:
د. عفيف دمشقية



ليون الإفريقي

AMIN MAALOUF

*Léon
l'Africain*

J.-C. LATTÈS

أبيد معلوف

ليون الإفريقي

ترجمة:
د. عفيف دمشقية



الكتاب	ليون الافريقي
التأليف	امين معلوف
الترجمة	د. عفيف دمشقية
الناشر	دار الفارابي - بيروت - لبنان ص.ب. ٣١٨١ / ١١ - ت: ٣٠١٤٦١ - فاكس: ٣٠٧٧٧٥
التنضيد	شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.
الطبعة	الأولى ايلول ١٩٩٠ الثانية كانون الثاني ١٩٩٤ الثالثة كانون الثاني ١٩٩٧
	جميع الحقوق محفوظة

الى اندريه...



«لا تَرْتَبْ مع ذلك بأن ليون الإفريقي، ليون الرحالة،
كان أيضاً أنا».

و. ب. بيتس
شاعر إيرلندي
(١٨٦٥ م - ١٩٣٩ م)

خُيِّنْتُ، أنا حسن بن محمد الوزَّان، يوحنا - ليون دومديتشي، بيد مزين
وعُمدت بيد أحد البابوات، وأدعى اليوم «الإفريقي»، ولكنني لست من
إفريقية ولا من أوروبا ولا من بلاد العرب. وأُعرِّف أيضاً بالغرناطي
والفاسي والزياتي، ولكنني لم أصدر عن أي بلد، ولا عن أي مدينة، ولا عن
أي قبيلة. فأنا ابن السبيل، وطني هو القافلة وحياتي هي أقل الرحلات
توقّماً.

لقد عرف معصاي على التوالي دغدغات الحرير وإهانات الصوف،
ذَهَبَ الأمراء وأغلال العبيد. وأزاحت أصابعي آلاف الحُجُب ولوتت
شفتاي بحُمرَة الحجل آلاف العذارى، وشاهدت عيني احتضار مدن وفناء
إمبراطوريات.

ولسوف تسمع في فمي العربية والتركية والفشتالية والبربرية والعبرية
واللاتينية والعامية الإيطالية لأن جميع اللغات وكلّ الصلوات ملك يدي.
ولكنني لا أنتمي إلى أي منها. فأنا لله وللتراب، وإليهما راجع في يوم قريب.

وستبقى بعدي يا ولدي، وستحمل ذكراي، وستقرأ كتبي. وعندها
سترى هذا المشهد: أبوك في زي أهل نابولي على متن هذه السفينة التي تعيده
إلى الشاطئ الإفريقي وهو منهمك في الكتابة وكأنه تاجر يُعدّ لائحة حساباته
في نهاية رحلة بحرية طويلة.

أليس هذا ما أفعله تقريباً: ماذا ربحت، ماذا خسرت، ماذا أقول للديان
الأعظم؟ لقد أقرضني أربعين عاما بدّتها في الأسفار، فعشت الحكمة في
روما، والصبابة في القاهرة، والغمّ في فاس، وما زلت أعيش طهري
وبراتي في غرناطة.

كتاب غرناطة

عام سلمى الحرّة

١٩٤ هـ (٥ كانون الأول «ديسمبر» ١٤٨٨ م -

٢٤ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٤٨٩ م)

وافق وقوع شهر رمضان المبارك ذلك العام في إبان الصيف، وكان أبي نادراً ما يخرج من البيت قبل المساء لأن الناس في غرناطة كانوا في أثناء النهار نائري الأعصاب كثيرة مشاجراتهم، وكان مزاجهم المعكّر آية على التقى لأن غير الصائم وحده كان قادراً على الاحتفاظ بابتسامة تحت شمس محرقة، ولأن اللامبالي بمصير المسلمين كان قادراً وحده على البقاء هاشأً هاشأً في مدينة ملغومة بالحرب الأهلية ومهددة من الكفّرة.

وقد وُلدتُ بفضل الله تعالى ومنه في أواخر شهر شعبان قبيل بداية الشهر المبارك فأعفيتُ أمي سلمى من الصيام بانتظار انقضاء النفاس، وأعفي أبي محمد من التذمّر، حتى في ساعات الجوع والحرق، لأن ولادة ابن سوف يحمل اسمه، ويكون ذات يوم سلاحه، مدعاة فرح مشروع بالنسبة إلى كل رجل. وكنت علاوة على ذلك الابن الأول، وكان أبي ينفخ صدره بشكل خفي لمجرد سماعهم ينادونه «أبا الحسن»، ويمسّد شاربيه ويخلّل لحيته بإبهاميه على مهل وهو ينظر بطرف عينه نحو مخدع الطبقة العليا حيث كنت مَقْمطاً في مهدي. ومع ذلك فإن فرحته العارمة لم تكن بعمق فرحة سلمى وحدتها، إذ كانت على الرغم من آلامها المبرّحة وضعفها الشديد تشعر بأنها وُلدت مرة ثانية بفضل قدومي إلى الدنيا، لأن ولادتي جعلت منها أولى نساء البيت وأتاح لها الخطوة عند أبي لسنوات طويلة مقبلة.

ولقد باحت لي بعد مدة طويلة بمخاوفها التي إن لم أكن قد بدّتها فقد لطفتها من غير أن أدري. وإذ كانت وأبي ابني عمّ منذوراً أحدهما للآخر منذ الطفولة، ومتزوجين طوال أربع سنوات من غير أن تحمل هي، فقد شعرا حوليهما مند السنة

الثانية بلغط شائن. حتى إن محمداً رجع ذات يوم ومعه فتاة مسيحية ذات شعر أسود مضفور اشتراها من جندي كان قد أسرها في غزاة بجوار «مُرسية». وقد سمّاها «وردة» وأسكنها حجرة صغيرة مطلة على صحن الدار، وذهب إلى حدّ القول بأنه سيرسلها إلى إسماعيل المصري لتعليمها الضرب على العود والرقص والكتابة مثلما يفعل بحظّيات السلاطين.

وقد قالت لي أمي: «كنت حرّة وكانت جارية، ولم يكن الصراع بيننا متكافئاً. كان يوسعها أن تستخدم على هواها جميع أسلحة الغواية، وأن تخرج من دون حجاب، وأن تغني وترقص وتصبّ الخمر وتغمز بعينها وتتعرّى، في حين كان لزاماً عليّ بحكم وضعي ألا أتخلّى قطّ عن وقاري، وألا أظهر كذلك أي اهتمام بملذّات أبيك. وكان يدعوني «بنت عمي». وإذا تحدّثت عني قال بإجلال، «الحرّة» أو العربيّة»، وكانت وردة نفسها تُبدي لي الاحترام الواجب على خادم حيال سيّدها. وأما في الليل فكانت هي السيّدة.

وأضافت أمي قائلة: «وذات صباح قرعت بابنا «سارة المبرقشة» مشدودة النحر رغم مرّ السنين، مصبوغة الشفتين بجذور شجرة الجوز، مكحولة العينين، مخضوبة البنان بالحناء، مبهرجة من الرأس حتى أخص القدمين في أثواب حريرية قديمة من جميع الألوان مدعوكة ومرشوشة بالمساحيق المعطرة. وكان من عاداتها أن تزورني تغمدها الله برحمته أينما كانت. لتبيعي أحجبة وأساور وعطوراً. مصنوعة من الليمون والعنبر والياسمين والنيلوفر، ولتقرأ لي الطالع. وقد لاحظت على الفور احمرار عينيّ، ومن غير أن أحتاج إلى إخبارها بسبب حزني أخذت تقرأ في كفيّ وكأنها تقرأ في صفحة مدعوكة من كتاب مفتوح.

ومن دون أن ترفع عينها نطقت على مهل بهذه الكلمات التي لا أزال أذكرها: «نحن نساء غرناطة حرّيتنا عبودية مستورة، وعبوديتنا حرّية بارعة». ومن غير أن تضيف شيئاً أخرجت من فمّتها حقاً صغيراً أخضر اللون وقالت: «تصيين هذا المساء ثلاث قطرات من هذا الأكسير في كأس من شراب اللوز وتقدمينه بنفسك إلى ابن عمك. وسوف يأتيك كما تقترب الفراشة من القنديل. وتعيدين الكرّة ثلاث ليالٍ، ثم سبعاً.

وعندما عادت «سارة» لزيارتي بعد بضعة أسابيع كان قد سبق لي أن بدأت أصاب بالغثيان. وفي ذلك اليوم أعطيتها كل ما كنت أحمل من مال، قبضة من الدراهم المربعة والمرابطيات، وشرعت أضحك وأنا أراها ترقص وتهز ردفها خابطة بقوة أرض غرفتي بقدمها، منطّطة بيديها النقود التي اختلط رنينها برنين الجُلجل، الجرس الصغير المفروض على اليهوديات حملة.

كان الأوان قد آن لكي تحمل سلمى لأن العناية الإلهية شاءت أن تكون وردة قد حملت على الرغم من حرصها على إخفاء ذلك تحبباً للمتاعب. وعندما اكتُشف الأمر بعد شهرين دار السؤال عمّن ستنجب غلاماً، وإذا كانت الاثنتان تحملان ذكّرين فمن التي ستلد قبل الأخرى. وكانت سلمى وحدها القلقة إلى حدّ الأرق لأنه يكفي وردة أن تضع ناي الصبيّين، أو حتى بنتاً، إذ إن الإنجاب يكفل لها في شرعنا وضع المرأة الحرّة من غير أن تفقد مع ذلك الدلال الذي يسمح به أصلها كجارية.

أما أبي فقد بلغ به رضاه عن نفسه بأن يقدم برهاناً مزدوجاً على رجولته حدّ الغفلة عما كان يدور تحت سقفه من تنافس غريب. حتى إنه عندما تكوّر بطن زوجته أمرها ذات مساء باصطحابه قبيل غروب الشمس إلى مشارف الحانة التي اعتاد أن يلتقي فيها أصدقاءه بالقرب من باب الرايات. وكانتنا تمشيان وراءه وقد أمسكت كل منهما بيد الأخرى وهما خجلتان، ولا سيما أمي، من نظرات الرجال المحملقة وضحكات عجائز حيناً المكبوتة - وكن أكثر نساء ضاحية ألبيسان ثرثرة وتعطلاً - اللاتي كنّ يرقبها من أعلى شرفات البيوت وهنّ مخبئات خلف الستائر التي كانت تزاح لدى مرورهما. وإذ عرّضهما أبي على هذا النحو، وكان هو أيضاً قد أحسّ ولا ريب بوظة النظرات، فقد تظاهر بنسيان شيء وعاد إلى المنزل سالكاً الطريق نفسه وقد بدأ الظلام يحجب الأخطار التي لا حصر لها في أزقة ألبيسان التي كان بعضها موحلاً وزليلاً في ذلك الربيع الممطر، والأخرى مبلّطة وإن أكثر خطراً لأن كل بلاطة ناقصة كان يمكن أن تكون شركاً مهلكاً لمن ستكونان أمينّ عما قريب.

وارتمت سلمى ووردة اللتان تضامنتا للمرة الأولى وقد أنهكها التعب وأضناها الخجل على سرير واحد، سرير الخادم، لأن الحرّة كانت عاجزة عن ارتقاء الدرج إلى مخدعها، في حين عاد أبي إلى الحانة جاهلاً أنه كاد يفقد ولديه المرتقبين دفعة واحدة،

مستعجلاً ولا ريب - كما قالت أمي - أن يتلقى تمنيات أصدقائه الخالصة بولادة صبيين مكتنزين جميلين، وأن يتحدثى في الشطرنج جارنا حمزة المزين.

وما إن سمعت المرأتان الباب يُقفل بالمفتاح حتى أطلقنا ضحكة طويلة مشتركة استغرق كبح جماحها وقتاً طويلاً. وقد احمرَّ وجه أمي وهي تتذكر ذلك بعد خمسة عشر عاماً خجلاً من تلك التصرفات الصببانية منبهة إياي بلا فخر إلى أن وردة كانت حينها في السادسة عشرة تقريباً، وأنها هي كانت تزحف نحو الحادية والعشرين. وبفضل الأحداث قام بينهما نوع من التواطؤ أدى إلى التخفيف من غلواء منافستها، وعندما قامت (سارة المبرقشة) في اليوم التالي بزيارتها الشهرية لسلمي كان أن دعت هذه الخادم لتجس لها بطنها البائعة البراجة اليهودية التي كانت أيضاً، إذا اقتضى الأمر، قابلة ومدلّكة وماشطة ومزيلة للشعر الثابت في بعض أنحاء الجسد، وكانت تحسن فوق ذلك نقل الأخبار والأقاويل إلى زبونات الكثيرات القابعات في دورهن عن ألف فضيحة وفضيحة من فضائح المدينة والمملكة. وقد أقسمت سارة لأمي أنها تراها من القبح بمكان، الأمر الذي سرّها أشد السرور لأنه كان علامة لا شك فيها على أنها تحمل صبياً؛ وهنأت بالمقابل وردة بشيء من الشفقة على نضارة وجهها البديعة.

كانت سلمى واثقة من صحة التشخيص بحيث لم تستطع عمالك نفسها عن إخبار محمد به في مساء اليوم عينه. وظنّت أنها تقدر بهذا على تمرير ملاحظة جديدة أبدتها سارة، ملاحظة محرّجة جداً مفادها أن الرجل ينبغي أن يمتنع عن الاقتراب من زوجته هذه أو زوجته تلك خوفاً من إيذاء الجنين أو التسبب في ولادة قبل الأوان. وعلى الرغم من تغليف البلاغ بالحبيطة والحذر، وتقطيعه بتردّدات طويلة، فقد كان من الواحة بحيث ألهب أبي في لحظة واحدة وكأنه قطعة من الحطب الجزل، فانطلق في شتائم تكاد تفهم، وكان يتكرّر فيها كضربات المطرقة في الهاون أمثال «هراء» و«مُشعوذات» و«إبليس الخبيث»، وأقوال لا توحى بمدح الطبّ واليهود وعقول النساء. وظنّت سلمى أنه كان من الممكن أن يضرها لو لم تكن حُبلِي، ولكنها قالت في نفسها كذلك إنه ما كان الشجار ليقع في تلك الحالة. ولكي تتعزّى خلصت برجاجة إلى أن فضائل، لأوممة كانت تتعدّى مساوئها العابرة.

وعقاباً لها منعها عمّد من أن تستقبل من جديد في بيته «طابخة السموم» هذه (سيرة) - نفت اسمها باللهجة الخاصة بغرناطة، وهي اللهجة التي احتفظ بها طوال حياته وكانت تجعله يدعو أمي «سلمي» ومحظيته «وردة» والباب «بيب» ومدينته «غرناطة» وقصر السلطان «الحمر». وظلّ أياماً معكراً المزاج شكساً، ولكنه لم يكن، بدافع الحذر كما بدافع المناكفة، يتردد على حجرتي زوجته إلى أن وضعتا.

وقد تمت الولادتان بفارق يومين. وكانت وردة أول من أحست آلام الطلق متباعدة في المساء، ثم متقاربة في الفجر. وعندها فقط شرعت بالانتحاب عالياً كي يسمعها من حولها. وهرع أبي إلى جارنا حمزة ونقر على بابه ورجاه إعلام أمه، وهي امرأة فاضلة ورعة حاذقة جدا، بقرب الولادة. وقد وصلت بعد دقائق مشتملة رداء أبيض ومعها طست عريض وفوطة وصابونة. وكان يقال إن يدها ميمونة، وقد قبلت من الصبيان أكثر بكثير مما قبلت من البنات.

وُلدت أختي مريم حوالي الظهر. وبالكّد نظر إليها أبي. فلم يكن يتطّلع إلا إلى سلمى التي جرّوت على التأكيد له: «أما أنا فلن أحيب رجاءك!». ولكنها لم تكن واثقة تماماً على الرغم من صفات سارة التي لا تحيب، ومن عودها المتكررة. ولا سيّما أنه كان أمامها بعد يومان لا نهاية لهما من الغم والالام قبل أن ترى أعزّ أمانيتها تتحقّق: أن تسع ابن عمّها بناديبها «أم الحسن».

في اليوم السابع على ولادتي استدعى أبي حمزة المزيّن لختاني ودعا جميع أصدقائه إلى مأدبة. ونظراً للحالة التي كانت فيها أمي ووردة فقد تولّت جدّتي وخادمتها أمر تحضير الطعام. ولم تحضر أمي الاحتفال، ولكنها باحت لي فيما بعد أنها انسلت على مهل خارج غرفتها لرؤية المدعويين وسماع أحاديثهم خلسة. وكان تأثرها من الحدة في ذلك اليوم بحيث انحفرت في ذاكرتها أدق التفاصيل.

وإذ اجتمع المدعوون في صحن الدار حول الفسقية المصنوعة من الرخام المنحوت مرطّباً ماؤها الجوبخريه والرذاذ الذي كان يرشّه فقد أخذوا يأكلون بشهية فائقة نظراً لأنهم كانوا في الأيام الأولى من رمضان، وكانوا يُفطرون في الوقت الذي يحتفلون فيه

بانخراطي في جماعة المؤمنين. وحسبها قالت أمي التي كان عليها أن تتقوت في اليوم التالي بما تبقى من طعام فإنّ المأدبة كانت وليمة جديرة حقاً بالملك. فقد كان الطبق الرئيسي «المروزية»، وهي طعام مؤلف من لحم الضأن المحضّر بقليل من العسل، وبالكرزبرة والنشاء واللوز والكمثري والجوز الأخضر الذي كان قد بدأ موسمته على التو. وكان هناك أيضاً «الطفاية» الخضراء، وهي لحم جدي يضاف إلى إضاماة كزبرة طازجة، و«الطفاية» البيضاء المصنوعة بالكرزبرة اليابسة. وهل أذكر الفراريج والزغليل والقُبرَات بمرق الثوم مخلوطاً بالجبن، والأرانب البرية المشوية المغموسة بالزعفران والخل، وعشرات الأطباق الأخرى التي طالما سردها عليّ أمي تذكراً لآخر احتفال كبير أقيم في بيتها قبل أن ينصبّ عليها وعلى أهلها غضب السماء؟ وإذ كنت أسمعها وأنا بعدُ صبيّ فقد كنت أنتظر في كل مرة بفارغ الصبر أن تصل إلى «المجبنات»، هذه الفطائر الساخنة بالجبن الأبيض، المرشوشة بالقرفة المغموسة في العسل، وإلى الحلوى المصنوعة من معجون اللوز أو التمر، وإلى الكعك المحشو بالصنوبر والجوز المعطر بماء الورد.

وقد أقسمت لي والدتي في ورع أن الضيوف لم يشربوا في تلك المأدبة غير شراب اللوز. ولقد امتنعت أن تضيف أنه إذا لم تكن قطرة خمر واحدة قد صبّت فإنما كان ذلك احتراماً للشهر الفضيل. فلطالما أتاح الختان في بلاد الأندلس فرصة الاحتفالات التي تُنسى فيها تماماً المناسبة الدينية التي يُحتفل بها. أفلا تُذكر حتى اليوم أهمّ الحفلات كلها، الحفلة التي أقامها يوماً الأمير ذوالنون في طليطلة لختان حفيده وسعى كل أحد من يومها إلى محاسناتها دون أن ينجح قط؟ ألم تجرّ فيها أنهار من الخمر وأنواع الشراب في حين كانت ماثت من الجوارى الجميلات يرقصن على أنغام تحت «داني اليهودي»؟

ولقد أكّدت أمي أنه كان في ختاني أنا أيضاً موسيقيون وشعراء. حتى إنها كانت تذكر شيئاً من الشعر أنشده أبي بالمناسبة:

غدا ابنك بهذا الختان أشدّ بهاء

لأن نور السراج يتوهج لدى قصّ الفتيل

وإذ أنشد المزيّن بنفسه وغنى على جميع الأنغام هذا البيت لشاعر قديم من سرقسطة فقد اختتمت به المأدبة وبدأ الاحتفال الحقيقي . وصعد أبي إلى الطبقة العليا ليحملني بين ذراعيه، في حين تحلّق المدعوون بصمت حول المزيّن ومساعدته، وهو غلام لم يطرّ شارباه، وقد أشار إليه حمزة فشرع يدور في صحن الدار ويده قنديل متوقفاً أمام كل ضيف . فلقد كان ينبغي تقديم هدية صغيرة للمزيّن، وحسب التقليد المتبع كان كل واحد يلصق قطع النقود التي تسمح بها نفسه على وجه الغلام فيعلن اسمه بصوت عالٍ ويشكره قبل التوجّه إلى جاره . وإذ جُمعت كلّ العطاءات فقد طلب المزيّن أن يُقرّب منه قنديلان قويّان وأخرج موساه وهو يقرأ الآيات الملائمة وانحنى فوقي . وقد قالت أمي إن الصرخة التي أطلقتها حينذاك دوت في كل أرجاء الحيّ وكأنها أمانة على نباهة مبكرة، ثم إنه، بينما كنت مستمراً في الصراخ بكل جسدي الضئيل وكأنني كنت أرى أمام ناظريّ جميع المصائب المقبلة، استؤنّف الاحتمال على أنغام العود والناي والربابة والطلبة حتى ساعة السحور .

ولكنّ لم تكن جميع القلوب تتطلّع إلى الاحتفال . فقد وصل إليه خالي أبو مروان، وكان حينها كاتباً في ديوان الدولة في قصر الحمراء، متأخراً وعلى وجهه أمارات الأيام العصبية . وتحلّق حوله جمع من المتسائلين . وأصاحت أمي السمع فوصلتها عبارة أغرقتها دقائق طويلة في كابوس كانت تظنّ أنها نسيته إلى الأبد .

لقد قال: «إننا منذ العرض الكبير لم نعرف عاماً واحداً من الهناء! .» .

«ذلك العرض الملعون!» لقد عاود الغثيان بسببه أمي كما في الأسابيع الأولى من حملها، ورات نفسها من جديد في ذهنها الملبّد بالضباب صبّية في العاشرة من العمر حافية القدمين جالسة في الوحل وسط زقاق مقفر كانت قد مرّت فيه مئة مرّة ولكنها لم تعد تعرفه، وقد رفعت حاشية ثوبها الأحمر المدعوك المبلل القدر لتخفي وجهها الباكّي . «كنت أجمل صبايا ضاحية البيسان وأكثرهن دلالاً، وكانت جدّتك - غفر الله لها - قد علّقت في ثيابي حجابين متماثلين أحدهما ظاهر والآخر خفيّ لحمايتي من كل سوء طالع . ولكنّ لم ينفع شيء في ذلك اليوم» .

«كان السلطان في ذلك العهد، وهو أبو الحسن علي، قد قرّر أن يقيم يوماً بعد يوم، وأُسبوعاً بعد أسبوع، عروضاً عسكرية ضخمة لأجل أن يرى الناس عظم قوته - الله وحده القوي، وهو لا يحبّ المتكبرين! وكان هذا السلطان قد أقام على التلة الحمراء في قصر «الحمراء» قرب «باب الحيانة» مدرجات كان يجلس عليها مع حاشيته كل صباح ويستقبل عمّاله ويصرف شؤون الدولة، في حين كانت فصائل من الجنود الآتين من جميع أرجاء المملكة، من رُنْدَة إلى بَسْطَة ومن مالقة إلى أَلْمَرِيَة، تمرّ بلا توقّف وهي تحييه وتمنّى له الصّحة وطول العيش. وقد اعتاد سكان غرناطة والقرى المجاورة أن يجتشدوا كباراً وصغاراً على منحدرات «السيبكية» عند أسفل قصر الحمراء بالقرب من المقبرة حيث كان بوسعهم أن يشاهدوا فوقهم الاحتفال الذي لا ينتهي. وكان يقيم بالجوار باعة متجولون يبيعون كل شيء من النعال إلى نقائق المركاس إلى الفطائر إلى الشراب بماء الزهر».

وفي اليوم العاشر من العرض، وإذ كانت السنة العربية ٨٨٢ (هـ) قد انتهت فإن الاحتفال برأس السنة الذي يتمّ على الدوام بلا أيّهة لم يكد يُلحظ في زحمة تلك الاحتفالات التي لم تكن تنقطع. وكانت هذه ستواصل خلال «المحرّم»، الشهر الأول من السنة الجديدة، وقد لاحظت أمي التي كانت تذهب كل يوم إلى «السيبكية» مع إخوتها وأبناء عمّها أن عدد المشاهدين كان في تزايد، وأنه زاد عدد الوجوه غير المعروفة. وتضاعف عدد السكارى في الشوارع، وأقترفت السرقات، وشجّر الخصام بين عصائب الفتيان فكانوا يتقاتلون بالهراوات إلى حدّ سفك الدماء. وقد وقع قتل وعدّة جرحى، الأمر الذي حمل المحتسب على نشر الشرطة.

وإذ خشي السلطان الفوضى والاضطرابات فقد قرّر أخيراً وقف الاحتفالات. ورَسَمَ أنّ اليوم الأخير من الاستعراض سيكون الثالث والعشرين من المحرّم ٨٨٣ (هـ) الموافق للخامس والعشرين من نيسان (إبريل) من السنة المسيحية ١٤٧٨ (م) مضيفاً مع ذلك أن المسرّات النهائية ستكون أفخم من التي كانت في الأسابيع السابقة. وفي ذلك اليوم اختلطت في «السيبكية» نساء الأحياء الشعبية محجّبات وسافرات بالرجال من جميع الطبقات. وخرج أطفال المدينة، ومن بينهم أمي، بثيابهم الجديدة منذ ساعات الصباح الأولى، ولم ينسوا أن يتزوّدوا بضع قطع

من النقود النحاسية لشراء التين الجاف الآتي من مالقة. وانتشر في طول حيّ «السيبكية» المشعوذون والحواة والمهرجون والبهلوانات والقرّادون والمسوّلون من عميان حقيقيين ومزيّفين وقد جذبهم حشد الناس المتزايد. وإذا كان الفصل ربيعاً فقد كان بعض الفلاحين يجولون ومعهم فحول من الجياد يشبون بها مقابل أجر معلوم الأفراس التي يحضرها أصحابها لهذا الغرض.

وأخذت أمي تستعرض ذكرياتها عن ذلك اليوم فقالت: «لقد صحنا وصفّقنا طوال تلك الصبيحة على ضربات الطبلة التي كان يحاول في اثنائها الفرسان البربر الزناتيون الواحد بعد الآخر أن يصيبوا هدفاً خشبياً بعصيهم التي كانوا يقذفون بها وهم يركضون بجيادهم. ولم يكن في مقدورنا أن نرى من كان الفائز الأفضل، ولكن الهتاف الذي كان يبلغنا من التله، من المكان المسمّى تحديداً «الطبلة»، كان يعين لنا من دون خطأ محتمل من الفائزون ومن الخاسرون.

«وفجأة ظهرت غمامة سوداء فوق رؤوسنا. وقد كانت من السرعة بحيث شعرنا بأن الشمس انطفأت وكأنها مصباحٌ نفخ عليه جنيٌّ. لقد خيم الظلام ظهراً وتوقفت الألعاب من غير أن يأمر السلطان بوقفها لأن كل واحد كان يحسّ بوطأة السماء فوق كتفيه.

«ثم ابرقت ودوى صوت الصاعقة، وأبرقت من جديد وأرعدت رعداً شديداً وانهمرت علينا شأبيب المطر. وإذا علمت أن المسألة مسألة عاصفة لا مسألة لعنة مشؤومة فقد تطامن خوفي وأخذت مثل آلاف الأشخاص المحتشدين في «السيبكية» أبحث عن ملاذ. وكان أخي الأكبر يمسك بيدي، الأمر الذي طمأنني وإن كان قد أرغمني على الركض فوق قارعة الطريق التي كانت قد أوحلت. وفجأة هوى على بُعد خطوات منا أطفال وشيوخ، وجنّ جنون الناس وهم يدوسونهم بأقدامهم. وكان الظلام لا يزال مخيباً، وكانت صرخات الألم تختلط بصيحات الدُعر. وانزلت بدوري وأفلتت يدي يد أخي وتعلقت بحاشية ثوب مبلّل ثم بأخرى من غير أن أتمكّن قطّ من التعلّق حقاً. وكان الماء قد بلغ ركبتيّ، وكنت أصرخ ولا شكّ بأعلى ممّا كان يفعل الآخرون.

«وسقطت ونهضتُ خمس مرات أو ستاً من غير أن تدوسني الأقدام حتى اكتشفت

شيئاً فشيئاً أن الجمع غداً أكثر تشتتاً من حولي وأكثر بظناً في التحرك كذلك لأن الطريق كان مصعداً والسيول التي تنحدر من فوقه كانت تزداد عزمًا. ولم أعد أعرف الناس ولا الأمكنة، ولا بحثت عن إخوتي ولا عن أبناء عمي. وارتيمت تحت سقيفة أحد البيوت وغرقت في النوم من التعب والقنوط على السواء.

«واستيقظت بعد ساعة أو ساعتين. كانت الدنيا أقلّ إظلاماً، ولكنّ الواابل كان لا يزال منهماً. وبلغني من كل صوب رعد يُصمّ الأذان ويقلقل البلاطة التي كنت أجلس عليها. وأما الزقاق الذي كنت فيه فكم من مرة كنت قد ذرعته جيئةً وذهاباً! ولكني لرؤيته مقفراً وقد اجتاحه السيل لم أتمكن من تحديد موقعه. وكنت أرتجف من البرد، وكانت ثيابي مبلّلة ونعلابي قد ضاعا في أثناء جريي، وكان شعري يقطر ماء مثلاًجاً لا ينفك خيطه يغسل عينيّ اللتين أهبتها الدموع. وكنت لا أزال أرتعد وأسعل بكل ما في صدري من قوة عندما نادني صوت امرأة: «بُنيّة، بُنيّة، من هنا!» وإذ أجلت ناظري في كل الجهات فقد رأيت عالياً جداً فوقي، في إطار نافذة مقوّسة وشاحاً مقلماً ويداً تلّوح.

«وكانت أُمّي قد حدّرتني على الإطلاق من دخول بيت لا أعرف أصحابه، وأفهمتني أن عليّ في مثل سني أن أحذر، لا من الرجال وحدهم، وإنما من بعض النساء أيضاً. ومع ذلك لم يطل ترددي. فعلى بُعد ثلاثين خطوة، ومن جانب الطريق نفسه، جاءت التي نادتني تفتح بالفعل باباً ثقيلاً من الخشب وهي تسرع بالصياح لتطميني: «أعرفك، أنت بنت سليمان الورّاق، الرجل الفاضل الذي يجيا بتقوى الله». وأخذت اقترب منها خطوة كلما نظقت بكلمة. «لقد رأيتك كثيراً تمرين بصحبته للذهاب إلى خالتك تيممة زوجة الكاتب بالعدل الذي يسكن قريباً من هنا في طريق «السفرجلة» المسدود». ومع أنه لم يكن يُشاهد أي رجل فقد غطت وجهها بمنديل أبيض لم ترفعه إلا بعد أن أرّجت الباب خلفي. وعندما أخذت بيدي وقطعت بي دهليزاً ضيقاً على شكل مرفق، ثم ركضت تحت المطر من غير أن تتركني عبر صحن صغير قبل أن ترتقي سلماً صغيراً ثابت الدرجات قادنا إلى غرفتها. وجرتني برفق إلى النافذة وقالت: «انظري، إنه غضب الله!».

«وانحنيت بخوف. لقد كنت فوق ذروة تلة «مرور». على يميني قصبة قصر

الحمراء الجديدة، وعلى يساري بعيداً القصبه القديمة، ووراء الأسوار مآذن حبيبي
البيسان البيضاء. وكان الدوي الذي سبق أن سمعته في الشارع قد أصبح الآن مُصنماً.
وإذ كنت أبحث عن مصدر الصوت فقد نظرت إلى أسفل، ولم أملك من إطلاق
صرخة فرح. «إيرتحمنا الله، إنه طوفان نوح!» هذا ما كانت تتمتم به مضيفتي
خلفي».

إن أمي لن تنسى أبداً الصورة التي كانت تتمثل لعينيها طفلةً مذعورة، كما لن
ينساها جميع من كانوا في غرناطة في يوم العرض المشؤوم ذلك. فها قد تشكّل في
الوادي الذي يسيل فيه عادةً نهر «درو» الصاحب، لكن المسالم، سيل عرم كاسحاً في
طريقه كل شيء، مخرباً الحدائق والبساتين، مقتلعاً آلاف الأشجار، من دردار مهيب
وجوز عمره مئة سنة ومُرّان ولوز وعبيّراء، قبل أن يلج قلب المدينة جاحفاً جميع
غنائمه مثل فاتح تترّي، لافاً أحياء الوسط، مدمراً مئات المنازل والخوانيت
والمستودعات، دارساً المساكن المبنية فوق الجسور، حتى إنه أَلَف في آخر النهار من
جِراء الحطام الذي كان يسدّ مجرى النهر مستنقعاً شاسعاً ابتلع رحبة الجامع الأعظم
وقيصرية التجار وسوق الصاغة وسوق الحدادين. ولا يعلم أحد عدد الناس الذين
هلكوا غرقاً أو تحت الأنقاض أو الذين اختطفتهم السيول. وعندما أتاحت مشيئة
السماء في المساء أن يتبدّد الكابوس حمل السيل الحطام إلى خارج المدينة في حين
انحسر الماء بأسرع ممّا تدفق. وفيما كان الضحايا يُغطون الأرض المتلاشّة عند
انبلاج النهار كان القاتل قد ابتعد.

وكانت أمي تقول برتابة العبارات القاطعة: «وكان ذلك جزاءً وفاقاً لجرائم
غرناطة. فقد أراد الله أن يُظهر قدرته على ما يُعدها من قدرات، وأن يعاقب صلف
الحكام وفسادهم وجورهم وانحلالهم. وسعى إلى تحذيرنا بما سيُنزل بنا إذا ظللنا
سادرين في الغي، ولكنّ العيون والقلوب بقيت مغلقة».

وفي اليوم التالي على المأساة كان جميع سكّان المدينة قد اقتنعوا بأن المسؤول الأول
عن هذه المصيبة، الإنسان الذي جلب عليهم غضب الله، لم يكن غير المتكبر الجائر
الفاقد المفسد أبا الحسن، عليّ بن سعد النصرّي، سلطان غرناطة الحادي

والعشرين، وقبل الأخير، مح الله اسمه من جميع الخوافظ!

لقد خلع أباه وحبسه ليجلس على عرشه. وقطع رؤوس أبناء أشرف عائلات المملكة، ومن بينهم بنو سراج البواسل، ليوطد سلطانه. ومع ذلك فقد كانت جريمة السلطان التي لا تُغتفر في نظر أمي هي هجره زوجته الحرّة، ابنة عمّه فاطمة بنت محمد الأيسر، من أجل سبيّة مسيحية اسمها إيزابيل دو سوليس، وقد سبّاها هو ثرياً.

وكانت تقول: «يُروى أن السلطان جمع ذات صباح أفراد حاشيته في ساحة الريحان» ليشاهدوا هذه الرومية وهي تستحمّ. وكان يروّع أمي أن يكون عليها نقل مثل هذا التجديف. وكانت تغمغم وهي تنظر إلى السماء: «أستغفر الله»، وتكرّر: «أستغفر الله» لأنها كانت عازمة على متابعة حكايتها: وإذا انتهت عملية الاستحمام فقد دعا الأمير كل واحد إلى شرب طاس من الماء الذي خرجت ثرياً منه، وهلّلوا جميعاً، نثراً وشعراً، للطعم الزكي الذي اكتسبه ذلك السائل. جميعاً ما عدا الوزير أبا القاسم فينيغاس الذي بقي في مكانه بكل وقار من غير أن ينحني فوق البركة. ولم يفت هذا التصرف السلطان فسأله عن السبب. وأجاب أبو القاسم قائلاً: «أخاف يا مولاي إن أنا ذقت المرق أن تعتريني رغبة في الحجل». وكرّرت أمي قائلة من غير أن تسعى إلى خنق ضحكاتها: «أستغفر الله».

لقد سمعت هذه النادرة تُروى عن عدّة أشخاص في بلاد الأندلس، ولا أدري حقاً إلى من أنسبها؛ وأمّا في غرناطة فقد كان كل إنسان يسعى غداً يوم العرض اللعين إلى البحث في سيرة صاحب الحمراء الفاسدة عن الحدث الذي يمكن أن يكون قد أغضب الله تعالى، والسعيد من يعثر على التفسير القاطع الذي لم يكن في الغالب سوى بيت من الشعر أو مزحة أو مثل سائر قديم حُرّف ليلائم ذوق العصر.

وكان انفعال السلطان نفسه لما حلّ بعاصمته من كوارث أشدّ إزعاجاً من ذلك الهذر. فبدلاً من أن يرى في الفيضان الجائح نذيراً من الله تعالى استخلص منه أن ملذات هذه الدنيا عابرة، وأن الحياة تجرّ في الهرب، وأن على المرء أن يُفقد ما استطاع من كل لحظة. وقد تكون هذه حكمة شاعر، ولكنها ليست بالتأكيد حكمة أمير بلغ الخمسين ومملكته في خطر.

وهكذا انصرف إلى الملذات على الرغم من تحذيرات طبيبه إسحاق حمون المتكررة، فاستبطن الجوارى الجميلات وأحاط نفسه بالشعراء المُجَّان، شعراء كانوا يصفون في بيت تلو آخر مفاتن الراقصات العاريات والغلمان ذوي القدود الرشيقة، ويشبهون الحشيش بالزمرّد ورائحته بالبخور، ويتغنّون بلا كلل بالخمّر، حمراء وصفراء، معتقة ومنعشة على الدوام. وكانت كأس ضخمة من الذهب تنتقل من يد إلى يد، ومن شفة إلى شفة، وكان من يُفرغها يفخر بنداء الساقى ليملاها له من جديد حتى الجمام. وكانت تنهال أمام الضيوف صحاف صغيرة لا تُحصى مليئة باللوز والصنوبر والجوز والفاكهة المجففة والطازجة والخرشوف والبقلاء والمرّيات وأنواع الحلوى فلا يُدرى أهي لتهدئة سُورة الجوع أم لربيّ العطش. وقد علمت فيما بعد لدى إقامتي الطويلة في روما أن عادة القضم في أثناء السُكر كانت دارجة عند قدماء الرومان، وأنهم كانوا يسمّون كل صحيفة من تلك الصحف «نوقلوس»، أفيكون ذلك هو السبب في تسمية الصحف نفسها باسم «النُقْل» في غرناطة؟ الله وحده يعلم أصول الأشياء!

وإذ كان السلطان غارقاً في ملذّاته فقد أهمل شؤون المملكة، وأتاح للمقرّبين منه جمع ثروات حقيقية عن طريق الضرائب غير المشروعة ومصادرة الأملاك. وأمّا جنوده الذين لم يكونوا يقبضون رواتبهم فقد وجدوا أنفسهم مضطربين إلى بيع ثيابهم ومطاياهم وأسلحتهم لإطعام عائلاتهم. وأمّا في المدينة حيث يسود انعدام الأمن والخوف من غدٍ، وحيث كان مصير كل عسكريّ سرعان ما يُعرف ويُعلّق عليه، وحيث كانت أخبار مجالس السُكر تترامى بانتظام بفعل ما يديعه الضيوف والخدم، فقد كان مجرّد التفوّه باسم السلطان أو اسم ثرياً يستدعي الشتائم واللعنات ويدفع بالناس أحياناً إلى حدّ الفتنة والشغب. وإذ لم يكن بعض خطباء الجمعة بحاجة إلى مهاجمة «أبي الحسن» مباشرة، ونادراً ما كانوا يجرؤون على ذلك، فلم يكن عليهم سوى رذّل الفساد والخسة وعدم التقوى ليعلم جميع المؤمنين، بلا أدنى ظلّ من شكّ، من المقصود، ويصيحوا عالياً: «الله أكبر» صيحات تنطلق كالمقارع ويجيب عنها الإمام في بعض الأحيان متظاهراً بالإلغاز: «يد الله فوق أيديهم». هذا والعيون تقدح شرراً بأنحاء «الحمراء».

وبالرغم من إجماع الناس على كراهية السلطان فقد كان لا يزال له بين الجموع

عيون وآذان تنقل إليه ما يُقال، الأمر الذي كان يجعله يزداد حذراً وقسوة وجوراً. وتستذكر أمي قائلة: «ما أكثر وجهاء القوم وأعيان المدينة الذين قبض عليهم لوشاية من خصم، أو حتى من جارٍ حسود، واتهموا بشتم الأمير وهتك عرضه، ثم طيف بهم في الشوارع على الحمير ووجوههم إلى أذيالها قبل أن يُلقى بهم في سجن أو تُقطع رؤوسهم!» وبسلطان من «ثرياً» وضع «أبو الحسن» زوجته «فاطمة» وولديه «محمدًا» الملقَّب بأبي عبدالله و«يوسف» في الإقامة الجبرية داخل برج القمر، وهو قلعة جبّارة في الشمال الشرقي من «الحمراء» قبالة «جنت العريف». وكانت المحظية تأمل من وراء ذلك في أن تمهد سبيل الحكم أمام أبنائها هي. ولقد كان البلاط على كل حال موزعاً بين أنصار «فاطمة»، وهم كثر ولكنهم متكتمون، وأنصار «ثرياً»، وهم وحدهم المسموعة كلمتهم من الأمير.

وإذا كان عامة الناس قد وجدوا في حكاية تلك الصراعات داخل البلاط ما يقضون به على التضجر من لياليهم الطويلة الباردة فإن أُوخَمَ عواقب كرههم المتفاقم للسلطان كان موقفه حيال «قشتالة». فقد قرّر أبو الحسن الذي لم تكن الشجاعة البدنية لتنقصه أن يجارب المسيحيين تحت وطأة التهم الموجهة إليه بتفضيل «رومية» على حساب ابنة عمه، وإهمال الجيش، وقضاء حياة لا مجد فيها ولا عزة.

وقد تجاهل السلطان تحذيرات بعض الناصحين الحكماء الذين لفتوا نظره إلى أن «أرغون» كانت قد ربطت مصيرها بمصير «قشتالة» بزواج «فرديناند» و«إيزابيلا»، وأن عليه أن يتحاشى أدنى ذريعة قد يتخذانها للهجوم على مملكة المسلمين، وقرّر أن ينهي أمد الصلح المضروب بين غرناطة وجيرانها الأقوياء عندما رأى مفرزة من ثلاثمئة فارس غرناطي تنقض على قصر «الزهرة» الذي كان المسيحيون قد احتلوه قبل ثلاثة أرباع القرن فتستولي عليه.

وإزاء ذلك عمّت الفرحة غرناطة، واستعاد أبو الحسن بعض الحظوة لدى رعاياه. ولكن سرعان ما أخذ كثير من الناس يتساءلون عما إذا لم يكن السلطان قد أظهر طيشاً يبلغ حدّ الإجمام بجره المملكة إلى حرب لا يعلم عواقبها إلا الله. ولسوف تثبت الأحداث اللاحقة أنهم كانوا على حق. فقد ردّ القشتاليون بالاستيلاء على «الحامة»، أمنع قلاع الجزء الغربي من المملكة، بالرغم من قيامها على شعفة

صخرية. ولقد باءت بالفشل جهود السلطان المضنية لاستعادتها.

ودارت رحى حرب طاحنة لم يكن في مقدور المسلمين أن ينتصروا فيها، ولكن كان في وسعهم أن يؤخروا على الأقل اندلاعها إن لم يستطيعوا تفاديها. وسوف تدوم تلك الحرب عشر سنوات وتنتهي بأشدّ الأشكال عاراً. وعلاوة على هذا فإنه سرعان ما سترافقها حرب أهلية ساحقة ماحقة هي النصيب المكتوب للممالك السائرة على طريق الاندثار.

وبالفعل فإن أبا الحسن أقصي عن الحكم بعد مئتي يوم، وبالتحديد بعد انتصاره في «الزهرة». وقد قامت الثورة في السابع عشر من شهر جمادى الأولى عام ٨٨٧ هـ، الموافق للرابع عشر من تموز (يولية) ١٤٨٢ م. وكان فرديناند في ذلك اليوم على رأس الجيش الملكي عند ضفة نهر «جنيل» تحت أسوار مدينة «لوشة» التي كان يحاصرها منذ خمسة أيام عندما باغته مفرزة من المسلمين بقيادة علي العطار أحد أمهر ضباط غرناطة. وكان ذلك يوماً تذكاريّاً كان من الممكن أن يزوه به أبو الحسن لأن بطل ذلك اليوم الذي كان ينقذ أوامره استطاع أن يزرع الهلع في معسكر الملك المسيحي الذي قرّب باتجاه قرطبة تاركاً وراءه عرّادات وذخائر وكمية كبيرة من الدقيق ومئات من القتلى والأسرى. ولكنّ جاء ذلك متأخراً ولا ريب. فعندما وصل الخبر العظيم إلى غرناطة كانت الثورة قد هدّرت: فقد تمكّن أبو عبدالله، ابن «فاطمة»، من الهرب من برج القمر منزلقاً على حبل حسيباً يقال. وما لبث أن نودي به في ضاحية «البيسان» وأتاح له بعض المتواطئين أن يدخل «الحمراء» في اليوم التالي.

وعلّقت سلمى على الخبر بقولها: «لقد شاء الله أن يُخلع أبو الحسن في يوم نصره، مثلما أرسل عليه الطوفان يوم «العرض»، ليكرهه على إحناء ظهره أمام خالقه».

لكنّ السلطان الهرم لم يعترف بالهزيمة فلجأ إلى مالقة وجمع أنصاره من حوله وجهد في تهيئة انتقام من ابنه. وغدت المملكة منذ ذلك الحين مشطورة إلى إمارتين عدوّتين لن تلبثا أن تتناحشا على مرأى من القشتاليين المهتللين.

وتتذكّر أمي وتقول: «ها قد مرّت سبع سنوات من الحرب الأهلية، سبع سنوات من حرب يقتل فيها الابن أباه، ويخنق الأخ أخاه، ويرتاب الجار في جاره ويخونه،

سبع سنوات لا يقدر فيها الناس في ضاحيتنا «البيسان» أن يذهبوا ناحية جامع قرطبة من غير أن يهزأ بهم أو أن تُساء معاملتهم أو يُضربوا أو حتى أن يذبحوا في بعض الأحيان».

وعندها كان فكرها يسبح بعيداً جداً عن حفلة الختان التي كانت تجري على بُعد خطوات منها، بعيداً جداً عن تلك الأصوات وعن قرع الكؤوس، وكانت تترامى إليها خافئة كما في حلم. وانتهت إلى نفسها وهي تردّد: «يا لذاك العَرَضِ المللعون!». وتهدّت وهي نصف نائمة.

«ما زالت «سلمى» أختي غارقة في أحلامها؟»
لقد حوّل صوت خالي الأجدح أمي إلى صبيّة صغيرة. ووثبت على عنق أخيها الأكبر وغطّت جبينه وكتفيه، ثم ذراعيه ويديه، بقبلات حارة ومكتومة. ورق لها، ولكنّه، وقد شعر ببعض الحرج إزاء هذا الدفق من العواطف الذي زعزع وقاره، ظلّ منتصباً في جتّه الطويلة الحريرية ذات الرُدين الفصفاضين، وطيلسانه الملفوف بأناقفة حول كتفيه، من غير أن يرتسم على وجهه سوى ظلّ ابتسامة متعطفة لإثبات فرحته. ولكنّ هذه البرودة الظاهرة لم تفتّ في عضد سلمى. فطالما علمت أنه ليس في وسع رجل ذي مكانة أن يُبدي مشاعره من غير أن يُشعر بخفّة لا تليق بمكانته.
«فيمَ كنتِ تفكرين؟»

لو أن السؤال كان صادراً عن أبي لكان جواب سلمى غامضاً، وأمّا خالي فكان الرجل الوحيد الذي كانت تعرف كيف تكشف له عن مكنون قلبها وهي تكشف في حضرته عن شُعرها.

«كنت أفكر في مصائبنا، في يوم «العَرَضِ»، في هذه الحرب التي لا تنتهي، في مدينتنا المقسّمة، في الناس الذين يموتون كل يوم»،

وسحق بإبهامه الغليظة التي ضغطها فوق حدّ أخته دمعة متوحّدة.

وصاح على غير اقتناع: «ليست هذه أفكار أمّ لم يمض على ولادتها ابنها البكر كبيرٌ

وقت»، وذلك قبل أن يقول بنبرة أكثر فخامة على الرغم من كونها أشد صدقاً: «لقد قال النبي: كما تكونون يُؤتى عليكم».

وقالت بسذاجة:

«ماذا تريد أن تقول؟ ألم تكن من أوائل أنصار السلطان الخالي؟ ألم تُهَيِّج «ألبيسان» لساندته؟ ألسنت من المرموقين في «الحمراء»؟

وتهيأ خالي، وقد أصيب في الصميم، للدفاع عن نفسه بمهاترة صاحبة، ولكنه أدرك أنه لم يكن قبائلته غير أخته الصغرى، هزيلة مريضة، وأنها فوق ذلك أغلى عليه من كل ما في الدنيا.

«لم تتغيري يا «سلمى». يعتقد المرء أنه يكلم مجرد امرأة، وإذا هو يحاور بنت سليمان الوراق، زاد الله في عمرِك ما نقص من عمره. وقصّر من لسانك بقدر ما أطال في لسانه».

وانفجرتا بضحكة مجلجلة وهما يباركان ذكرى والدهما. لقد أصبحت الآن متواطئتين كما في الماضي. ودفع خالي بذيل جبته أمامه وترجع فوق حصير من القش المصفور عند باب غرفة أخته.

«أستلتك تمرق العقل بلطف مثل ثلج جبل «شُلين» الذي يحرق الوجه بأشدّ ممّا تفعل شمس الصحراء».

وقالت سلمى بلا تحفظ وقد غدت فجأة واثقة وخبيثة بعض الشيء:

«وجوابك»؟

ويحركة لم يكن فيها شيء من العفوية طأطأت رأسها وجمعت ذيل طيلسان أخيها وخبّأت فيه عينيهما المحمّرتين. ثم قالت وكأنها تلفظ حكماً أصدره أحد القضاة ووجهها لا يزال مستوراً:

«قل لي كل شيء».

لم تكن كلمات خالي بالكثيرة.

«هذه المدينة يحميها لصمصها بالذات ويحكمها اعداؤها بالذات. وسيكون علينا أن ننفي أنفسنا عمّا قريب خلف البحار».

وتلجج صوته فأقلت من سلمى وانفتل خشية افتضاح انفعاله.

ولم تحاول، وقد خارت قواها، أن تستوقفه. حتى إنها لم تلاحظ أنه كان يبتعد. ولم يترام إليها من الجنينة ضجة ولا نبرة ولا ضحكة ولا قرع كؤوس. ولا حتى خيط من نور.

كان الاحتفال قد خمد.

عام التمانم

١٩٥ هـ - (٢٥ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٤٨٩ م -
١٣ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٤٩٠ م)

في هذا العام سلك خالي راضياً مرضياً طريق المنفى . ومهما يكن فعلى هذا النحو شرح لي قراره بعد سنوات بينما كانت قافلتنا تتهادى في الصحراء الكبرى حنوبي «سجلماسة» ذات ليلة عذبة هادئة كان عواء بنات آوى البعيد يهددها أكثر مما يزعجها . وقد أجبرت ريح خفيفة خالي على قصّ روايته بصوت مرتفع أدخل السكينة إلى نفسي وجعلني أشمّ روائح مسقط رأسي غرناطة . وكان نثره من السحر بحيث خُيل إليّ أن جملي لم يكن يسير إلا على إيقاعه .

لَوِدِدْتُ نقل كل كلمة من كلماته، ولكنّ ذاكرتي لا تتسع وبياني عاجز عن الجموح، ولن يظهر - وأسفاه! - كثير من زخارف حكايته في أيّ كتاب .

«في اليوم الأول من ذلك العام بكرت في الذهاب إلى «الحمراء»، لا لألتحق كالعادة بالديوان حيث كنت أكتب رسائل الأمير، وإنما لأقدم مع بعض أعيان أسرتي التهنائي برأس السنة . وكان المجلس المنعقد للمناسبة في قاعة السفراء يفضّ بالقضاة المعممين والوجهاء ذوي اللبديات العالية الخضراء أو الحمراء، والتجار الأثرياء ذوي الشعور المخضوبة بالحناء والمفروقة، مثل شعري، بفرق مرسوم بعناية .

«وانسحب معظم الزوّار بعد انحنائهم أمام أبي عبد الله إلى روضة الآس حيث جالوا بعض الوقت حول البركة وهم يتبادلون التحيات . وكان الأعيان الرئسيون يجلسون على الأرائك المفروشة بالسجاجيد والمرصوفة إلى جدران القاعة الفسيحة وهم يتدافعون بالأرداف للاقتراب ما أمكن من السلطان أو من الوزراء لتقديم بعض الالتباسات أو لمجرد إظهار أنهم يحظون بالرضا .

«وإذ كنت كاتباً وخطاطاً في ديوان الدولة - الأمر الذي يشهد به أثر الحبر الأحمر

على أصابعي - فقد كنت أتمتع ببعض الامتيازات الهزيلة مثل التنقل على هواي بين المجلس والبركة والمشي بضع خطوات مع الشخصيات التي كانت تبدو لي ذات شأن، ثم العودة إلى الجلوس للتربص بفريسة جديدة. وتلك وسيلة ممتازة لتسقط الأخبار والآراء في شؤون الساعة، إذ كان الناس يتكلمون بحرية في عهد أبي عبدالله، في حين كان المرء يتلفت أيام أبيه سبع مرّات حوله قبل أن يتلفظ بأذى نقد معبراً عنه بعبارات مُبهمة مستخدماً الآيات والأمثال ليكون في وسعه التنصل إذا تعرّض لوشاية. وإذ شعر الغرناطيون بأنهم كانوا أكثر تمتعاً بالحرية وأقلّ تعرّضاً للترصد فقد ازدادوا صرامة مع السلطان، حتى وهم تحت سقفه، وحتى عندما كانوا يأتون للدعاء له بطول العمر والسلامة ودوام النصر. فشعبنا لا يرحم الملوك الذين ليسوا ملوكاً.

«كانت الأوراق المصفرة في ذلك اليوم الخريفي أشدّ تشبهاً بشجراتها من أعيان غرناطة بعاهلهم. وكانت المدينة منقسمة، كما كانت منذ سنوات، بين محبّدي السلم ومحبّدي الحرب، ولم يكن أيّ منهم ليقف مع السلطان.

«وكان الراغبون في مسالة قشتالة يقولون: إننا ضعاف والروم أقوياء؛ لقد تخلى عنّا إخوتنا في مصر والمغرب، بينما يحظى أعداؤنا بمساندة رومة وجميع المسيحيين؛ وقد خسرنا جبل طارق والحامة ورندة ومربلة ومالقة وكثيراً غيرها من الأماكن، وإذا لم يعمّ السلام فلن تنفك اللائحة تطول؛ الجيوش تعيثُ فساداً في البساتين، والفلاحون يتطلّمون؛ الطرقات غير آمنة، والتجار عاجزون عن التّمون، وقيسارية والأسواق بدأت تفرغ، وقد ارتفعت أسعار السلع باستثناء اللحم الذي يُباع الرطل منه بدرهم لأنه وجب ذبح آلاف رؤوس الماشية تخليصاً لها من النهب؛ على أبي عبدالله أن يبذل قصارى الجهد لإسكات أنصار الحرب والتوصّل إلى هدنة قابلة للدوام مع القشتاليين قبل أن تُحاصر غرناطة نفسها.

«وكان الراغبون في الحرب يقولون: لقد اتخذ العدو قراراً لا رجوع عنه بإبادتنا، وليس استسلامنا هو السبيل لحمله على التراجع. انظروا كيف استرقّ سكان مالقة بعد استسلامهم! انظروا كيف تقيم محاكم التفتيش المحارق ليهود إشبيلية وسرقسطة وبلنسية وترويلة وطليلة! وغداً تُقام المحارق هنا في غرناطة لأهل السبت وحدهم وإغما للمسلمين كذلك! وكيف السبيل إلى منع ذلك إن لم يكن بالمقاومة والاحتشاد

والجهاد؟ إننا في كل مرة قاتلنا فيها بحمىة تمكنا من عرقلة تقدّم القشتاليين، ولكن كان يوجد بيننا بعد كل انتصار خونة لا همّ لهم سوى مصالحة عدوّ الله، يدفعون له الجزية ويفتحون أمامه أبواب مدينتنا. ألم يعد أبو عبدالله نفسه فرديناند بتسليمه غرناطة ذات يوم؟ لقد مرّ أكثر من ثلاث سنين على توقيعه له رقعة بهذا الشأن في «لوثة». إن هذا السلطان خائن. ينبغي أن يُستبدل به مسلم حقيقي مصمّم على الجهاد فيعيد الثقة إلى جيشنا.

«وكان صعباً أن تجد جندياً أو ضابطاً، أمير عشرة أو مئة أو ألف، وأصعب من ذلك أن تجد قاضياً أو كاتباً بالعدل أو عالماً أو إمام مسجد لا يقول بهذا الرأي، في حين كان التجار والزراع يجنحون إلى السلم. وكان بلاط أبي عبدالله نفسه منقسماً. ولو ترك السلطان لزعاته لعقد أيّ هدنة مهما يكن ثمنها لأنه وُلد مولى ولم يكن يطمح في أن يموت إلا كذلك؛ لكنّه لم يكن في مقدوره تجاهل إرادة جيشه الذي كان يراقب بنفاد صبر المعارك التي كان يخوضها ببسالة أمراء آخرون من الأسرة النُصريّة المالكة.

«وكان مثالٌ مبين يتردّد خلال كل الأحاديث الدائرة على السنة أنصار الحرب: مثلاً «بسطة» المدينة المُسلمة الواقعة شرقي غرناطة، وكان الروم يحاصرونها ويضربونها بالمدافع منذ خمسة أشهر. وقد رفع الملوك المسيحيون - ليهدم الله ما بنوا وبين ما دمّروا - أبراجاً من الخشب قبالة أسوارها وحفروا خندقاً لمنع المحاصرين من الاتصال بالخارج. ومع ذلك، وعلى الرغم من تفوق القشتاليين الساحق بالعديد والعُدّة، وعلى الرغم من وجود فرديناند نفسه على الساحة، فإنهم لم يتمكنوا من الفوز بها، وكانت حاميتها تقوم كل ليلة بخرجات قتّالة. وهكذا كان صمود المدافعين الباسل عن «بسطة» بقيادة الأمير النُصريّ يحيى النجار تثير حمىة الغرناطين وتُلهب خيالهم.

«وما كان ذلك ليفرح أبا عبدالله. فيحى، بطل «بسطة»، أحد ألد أعدائه. بل لقد كان يطالب بعرش «الحمراء» الذي سبق أن تربّع عليه جدّه، وكان ينظر إلى السلطان الحاليّ نظره إلى مغتصب.

«وبلغ مسامع الغرناطين نبأ مائة جديدة للمدافعين عن «بسطة» فقد قيل إن القشتاليين علموا بتناقص المؤن في «بسطة»، وأن يحيى أعمل الحيلة لإقناعهم بعكس

ذلك فجمع كل ما بقي من أطعمة وعرضها بشكل جليّ في متاجر السوق ثم دعا وفداً من المسيحيين إلى القدوم لمفاوضته . وإذ دخل مبعوثو فرديناند فقد عجبوا لرؤية هذه الوفرة من المنتجات من جميع الأنواع ، ولم يقصّروا في نقل ذلك إلى ملكهم ناصحين إياه بالكفّ عن السعي لإجاعة «بسطة» واقتراح تسوية مشرفة على حُماها .

«وقد نقل إليّ عشرة أشخاص على الأقل بسرور بالغ نفس الحكاية في الحُمام والمسجد وأروقة «الحمراء» على مدار عشر ساعات متقطّعة؛ وكنت أظاهر بالدهشة في كل مرّة كيلا أسيء إلى مخاطبي ، ولكي أفسح له في المجال ليزيد في الحكاية شيئاً من عندياته . وكنت أبتسم كذلك ، ولكن بمقدار أقلّ في كل مرّة لأن القلق كان ينهش صدري . وشرعت أتساءل لماذا ترك يحيى ممثلي فرديناند يدخلون المدينة المحاصّرة ، وكيف رجا على الأخصّ أن يُنجني عن العدو المجاعة التي كانت تمصر بين فكّيها «بسطة» ما دام كل الناس في غرناطة ، وربما خارجها أيضاً ، كانوا يعلمون الحقيقة ويسخرون من الحيلة .

وتابع خالي قائلاً:

«وصحّ أشدُّ مخاوفي نُكرأ يوم رأس السنة في أثناء أحاديثي مع زوّار «الحمراء» . فقد علمت بالفعل أن يحيى ، «حسام الدين» و«سيف الإسلام» ، لم يكن قد قرّر تسليم «بسطة» وحسب ، بل الانضمام أيضاً إلى الجيوش القشتالية لتمهيد السبيل لفتح سائر مدن المملكة ، ولا سيما «قادس» و«المرية» وأخيراً غرناطة . وقد تجلّت مهارة هذا الأمير الفائقة في إلهاء المسلمين بحيلته المزعومة لإخفاء الغرض الحقيقي من محادثاته مع فرديناند . ويقول بعضهم إنه اتّخذ قراره لقاء مبلغ كبير من المال ووعدّ بالإبقاء على حياة جنوده وسكّان مدينته . ولكنّه حصل على أكثر من ذلك : إن هذا الأمير سليل الأسرة المالكة وحفيد أحد سلاطينها سوف يصبح باعترافه دين المسيح أحد رجالات قشتالة المرموقين . وسأحدّثك عنه فيما بعد .

«لم يكن أحد ليرتاب في إمكان مثل هذا التحوّل في مطلع سنة ١٨٩٥ هـ . ولكن أخذت تترامى إلينا منذ الأيام الأولى من شهر محرّم أظنّ النُّذر . لقد استسلمت «بسطة» وما لبثت أن تبعتها «برشانة» و«المرية» ثم «قادس» . ووقع الجزء الشرقي من

المملكة بأكملها - وكان أنصار الحرب فيه أقوى منهم في أي مكان - بلا قتال في أيدي القشتاليين .

«لقد فقد أنصار الحرب بطلهم وتخلص بذلك أبو عبدالله من عدو مزعج ؛ غير أن انتصارات القشتاليين كانت تختزل مملكته إلى النزر اليسير، إلى غرناطة ونواحيها المباشرة التي كانت هي أيضاً عرضة لهجمات متكررة . فهل كان على السلطان أن يفرح أم كان عليه أن يشكو ويتأوه؟

وقال خالي :

«في مثل هذه الأوقات يظهر السموّ أو تنكشف الضّعة . وكانت هذه الأخيرة هي التي طالعتها بجلاء في وجه أبي عبدالله يوم رأس السنة في قاعة السفراء . وكنت قد عرفت الحقيقة الجائرة عن «بسطة» من ضابط بربري شاب في الحرس يقيم بعض أفراد أسرته في المدينة المحاصرة . وكان كثيراً ما يأتي لزيارتي في ديوان السلطان ، وقد أسرّ الأمر إليّ لأنه لم يكن يجرؤ على التوجّه إلى السلطان ، ولا سيّما للإخبار بمصيبة . وقدته على الفور إلى أبي عبدالله فدعاه إلى قول ما عنده بصوت خافت . وانحنى على أذن الملك المرهفة فكرر له متمماً الأنباء التي كان قد جمعها .

«ولكن كان كلما تقدّم الحديث بالضابط انفتح وجه السلطان بابتسامة عريضة ووجه بشعة . وما زلت أرى أمامي شفّتيه الغليظتين تنفرجان ، وخديّه المكسّوين بالشعر يتباعدان نحو أذنيه ، وأسنانه المفروقة التي تظنّ أنها تقضم النصر ، وعينيّه اللتين كانتا تنغلقان على مهل وكأنّه على وشك تلقي قبلة حارة من حبيبة ، وذلك الرأس الذي كان يترجّح بتلذذ من الأمام إلى الخلف ومن الخلف إلى الأمام وكأنه يستمع إلى أشجى الأغاني . ولسوف تظلّ تطالعني تلك الابتسامة البغيضة ، ابتسامة الضّعة ، ما دمت حيّاً» .

وتوقّف خالي عن الكلام . كان الليل يُخفي عني وجهه ، ولكنني كنت أسمعه يلهث ويتنهد ثم يتمتم ببعض الأدعية فكنت أرددها بعده . وبدا نباح بنات آوى أكثر قرباً .

واستأنف خالي قائلاً بصوت عاوده الهدوء :

«ما كان تصرف أبي عبدالله ليفاجئني. فلم أكن أجهل طيش صاحب «الحمراء» ولا ضعف طبعه، ولا حتى علاقاته المشبوهة بالقشتاليين. وكنت أعرف الفساد في أمرائنا وأعلم أنهم لم يكونوا قط يفكرون في الذود عن المملكة، وأن المنفى لن يلبث أن يكتب على شعبنا. ولكن كان عليّ أن أرى بأمّ عيني آخر سلاطين الأندلس وقد انزاح عن قلبه كل حجاب لأشعر بأني مرغم على الثورة. «والله يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء»!

لم يلبث خالي بعد ذلك في غرناطة سوى ثلاثة أشهر، الوقت اللازم لتحويل أملاكه سرّاً إلى قطع ذهبية سهل نقلها. ثم إنه انطلق في ليلة لا قمر فيها بفرس وبضعة بغال، ومعه أمه وامراته وبناته الأربع وخادم، إلى «المرية» حيث حصل من القشتاليين على إذن بركوب البحر مع غيره من المهاجرين إلى «تلمسان». ولكنه كان ينوي أن يستقرّ في «فاس»، وفيها التقيناه أنا ووالداي بعد سقوط غرناطة.

وإذا كانت أمي قد ظلّت تلك السنة تبكي رحيل خالي فإن عمّداً أبي طيّب الله ذكره لم يكن يفكر قطّ في الاقتداء بنسيبه. وما كان جوّ مدينتنا بالميرؤوس منه تماماً. وكانت حكايات مشجّعة جداً تسري على مدار السنة، وغالباً ما كانت تشيعها «سارة» العجيبة، كما قالت لي أمي. «كنت أعلم في كل مرّة كانت تأتيني فيها «المبرقشة» أنه سيكون في وسعي أن أنقل إلى أبيك أحاديث تجعله فرحاً مطمئناً أسبوعاً بأكمله. وفي نهاية الأمر كان هو الذي يسألني بفروغ صبر عمّا إذا لم يرّن «الجلجل» في بيتنا أثناء غيابه».

وأقبلت سارة ذات يوم وملء عينيها أخبار. وقد بدأت تسرد حكايتها مرفقة بالآف حركة حتى قبل أن تجلس. وكانت قد علمت لتوها من ابن عمّ لها مقيم في إشبيلية أن الملك فرديناند استقبل بسرّيّة كبيرة رسولين من سلطان مصر وراهبين من القدس كلّفوا كما يقال بأن ينقلوا إليه تحذيراً شديداً للهجة من صاحب القاهرة: إن لم تتوقّف الهجمات على غرناطة فإن غضب السلطان المملوكي سيكون شديداً!

وفي بضع ساعات طاف النبا حول المدينة متعاطلاً بلا حساب ومغتنياً بالتفاصيل على الدوام حتى نُظِر في اليوم التالي من «الحمراء» إلى «مرور»، ومن «ألبيسان» إلى حيّ الخزّافين، نظرة احتقار وربّ شديداً إلى كلّ من تسوّل له نفسه الارتياح في

مَقْدَمُ الجيوشِ المصريةِ الوشيكِ الحاشدِ. وذهب بعضهم إلى التأكيد بأن أسطولاً مُسلياً كبيراً قد ظهر في عُرضِ «الرابطة» جنوبي غرناطة، وأنه انضمَّ إلى المصريين أتراك ومغاربة. وكان آخر المرتابين يُواجهون بأنه لو لم تكن تلك الأخبار صحيحة فكيف يُفسَّرُ توقُّفُ القشتاليين المفاجيء منذ أسابيع عن هجماتهم في جميع أنحاء المملكة في الوقت الذي يقوم فيه أبو عبدالله الشديد الوجل قبلاً بالغزوة تلو الغزوة للأراضي التي يهيمن عليها المسيحيون من غير أن يتعرَّضَ للانتقام؟ إن نشوة نصر عجيبة كانت قد استحوذت على المدينة المحتضرة.

لم أكن سوى رضيع محروم من حكمة الرجال، ولكن من جنونهم أيضاً، الأمر الذي جنبني المشاركة في التصديق السائد. وإذا أصبحت بعد ذلك بكثير رجلاً يحمل بفخار لقب الغرناطي لتذكير الجميع بالمدينة الذائعة الصيت التي كنت قد نُفيت منها، فلم يكن في مقدوري الامتناع عن التفكير في كثير من الأحيان في ذلك العمى الذي أصاب الناس في بلدي، بدءاً بذوي الذين استطاعوا إقناع أنفسهم بمَقْدَمِ وشيك لجيش مخلص في الوقت الذي لم يكن يترصد لهم فيه غير الموت والهزيمة والعار.

كانت تلك السنة بالنسبة إليّ أيضاً أخطر السنوات التي سأخوضها. ولم يكن ذلك بسبب التهديدات التي كانت تنوء بها مدينتي وذويّ وحسب، وإنما لأن السنة الأولى في حياة كل ابن آدم هي السنة التي تكون فيها الأمراض أشدَّ فتكاً، السنة التي يختفي فيها من الوجود كثير من الناس من غير أن يخلفوا أثراً لما يمكن أن يكونوا أو يضعوا. فكم من ملك عظيم، وكم من شاعر مُلهم، وكم من رحالة يُقدِّم لم يتمكنوا قط من تحقيق المصير الذي بدا أنهم نُدروا له لأنهم لم يستطيعوا قطع هذه المرحلة الأولى والصعبة، المرحلة الشديدة البساطة الكثيرة المهالك. وكم من أم لم تجرؤ على التعلُّق بولدها خوفاً من أن يُكتب عليها ذات يوم أن تداعب شبحاً. لقد قال الشاعر:

يُمسِكُ الموتُ بحياتنا من طرفيها

وليست الشيخوخة أقرب إلى الفناء من الصبا.

لم يكن الناس في غرناطة يقولون إن أخطر لحظات الحياة على رضيع هي اللحظة

التي تلي مباشرة يوم فطامه في حوالي نهاية السنة الأولى؟ فكثير من الأطفال لم يتمكنوا وقد حُرِّموا حليب أمهاتهم من البقاء طويلاً على قيد الحياة، ولذا راجت العادة بأن تعلق في ثيابهم للوقاية تمام السَّبَج والأحجة المغلفة بأكياس صغيرة من الجلد وفيها أحياناً كتابات سحرية يفترض أنها تحمي حاملها من شرّ العيون والأمراض؛ حتى إن حجاباً منها يُعرف بـ «حجر الذئب» كان يُفترض فيه أن يدجن الحيوانات الضارية بوضعه على رؤوسها. وقد حدث لي أن أسفت في حقبة لم يكن لقاء السبع فيها نادراً في منطقة «فاس» على أن ذلك «الحجر» لم يكن في متناول يدي؛ لكنني لا أظن أني كنت سأقترب من تلك الضواري اقتراباً يتيح لي وضع الطلسم على لبداتها.

ويرى الأتقياء أن هذه المعتقدات وتلك الممارسات مخالفة للدين، ومع ذلك فإن أولادهم غالباً ما يحملون التائم لأنه نادراً ما يتمكن أولئك الرجال الأفاضل من هداية أزواجهم أو أمهاتهم سواء السبيل.

ولم يحدث أن فارقت أنا نفسي - لماذا الإنكار؟ - قطعة السَّبَج التي باعتها سارة لأمي عشية ذكرى مولدي الأولى، وقد خُطت عليها علامات سحرية لم اتمكن من فك رموزها. ولا أظن أن هذه التيممة مزودة بأي سلطان سحري، ولكن الإنسان من الضعف بإزاء القدر بحيث لا يستطيع إلا أن يتعلق بأمر تكتنفها الأسرار.

أيواخذني الله الذي خلقتني ضعيفاً على ضعفي في يوم من الأيام؟

عام «أستغفر الله»

٨٩٦ هـ (١٤ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٤٩٠ م -
٣ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٤٩١ م)

كانت عمامة الشيخ «أستغفر الله» عريضة وكانت كتفاه ضيقتين وصوته صوت أئمة الجوامع الأبح، وقد مالت لحيته الكثة المحمرة الشعر إلى اللون الرمادي في ذلك العام مُضْفِيَةً على وجهه الحادّ القسّات مظهر الغضب المقيم الذي سوف يحمله متاعاً أوحد ساعة المنفى. وكان قد عزم في لحظة وهن على ألا يخضب قطّ شعره بالحناء، والويل لمن كان يسأله عن السبب: «إذا سألك ربك عما فعلت يوم حصار غرناطة فهل تجرؤ على أن تجيبه بأنك تزيت؟».

وكان في كل صباح يركب ساعة الأذان سطح منزله، أحد أعلى منازل المدينة، لا لكي يدعو المؤمنين للصلاة كما كان يفعل سنوات طوالاً، بل ليحدّق بعيداً إلى ما كان مثار حنقه المحقّ فيه.

وكان يصيح في جيرانه الذين لم يكونوا قد استيقظوا تماماً بعد: «انظروا، إنه قبركم ذلك الذي يُشاد هناك على طريق «لوشة» وأنتم هنا راقدون منتظرين قدومهم لدفنكم! تعالوا وانظروا إذا كان الله يريد أن يفتح أعينكم! تعالوا وانظروا تلك الجدران التي ارتفعت في يوم واحد بقدرة إبليس الخبيث!»

وكان يشير بأصابعه النحيلة ويده ممدودة باتجاه الغرب إلى أسوار «سائتافيه» التي كان الملوك الكاثوليكيون قد بدأوا بناءها في الربيع وما لبثت أن اتّخذت في أواسط الصيف مظهر المدينة.

وكان الناس جميعاً في هذا البلد الذي درج أهله منذ زمن طويل على عادة المشي البغيضة في الشوارع حاسرين، أو اعتمار كوفية تُلقى كيفما اتفق على الرأس فلا تلبث أن تنزلق على مهل في أثناء النهار لتستقرّ فوق الكتفين، يتعرفون من بعيد على طيف

«أستغفر الله» الشبيه بنسفة الفطر. لكن قلة من الغرناطين كانت تعرف اسمه الحقيقي. ويقال إن أمه كانت أول من أطلق عليه لقبه بسبب الصيحات المفزعة التي كان يطلقها منذ نعومة أظفاره إذا ذكر أمامه شيء أو عمل يرى أنه يستوجب النكير. فكان يصرخ لمجرد ذكر الخمر أو جريمة قتل أو شيء من ملابس النساء: «أستغفر الله! أستغفر الله!».

وأتى عليه حين من الدهر كان يُهزأ به بلطف حيناً وقسوة حيناً آخر. وباح لي أبي بأنه كان قبل مولدي بزمن كثيراً ما يجتمع وعصبة من الأصحاب يوم الجمعة قبل صلاة الظهر الجامعة في دكان وراق لا يبعد كثيراً عن الجامع، وأنهم كانوا يتراهنون فيما بينهم على عدد المرات التي سيتلفظ فيها الشيخ بعبارة المفضلة في أثناء خطبته. وكانت الأرقام تراوح بين خمس عشرة مرة وخمس وسبعين، وكان أحد الشبان المتأمرين يحصي العدد بأمانة طوال مدة الخطبة وهو يبادل الآخرين الغمزات في حبور.

ويتابع أبي قائلاً وهو يفكر متحيراً في صبيانياته القديمة:

«لكن أحداً لم يعد يسخر في أثناء حصار غرناطة من نزوات «أستغفر الله». فقد بدا الشيخ لعيون عامة الناس شخصاً جليلاً، ولم يكن قد تخلّى مع العمر عن تلك الكلمات ولا عن تلك التصرفات التي كان يتميز بها، بل ازدادت حدة على العكس من ذلك الملامح التي كانت تجعل منه أضحوكة في نظرنا. بيد أن روح مدينتنا كانت قد تبدلت.

«أعلم يا حسن يا بني أن هذا الرجل كان قد أمضى عمره يبصر الناس بأنهم إذا ما استمروا في العيش على ما هم عليه فإن الله تعالى سيعاقبهم في هذه الدنيا وفي الآخرة؛ لقد أخذ من المصيبة شغله الشاغل. وما زلت أذكر إحدى خطبه وكان قد استهلها تقريباً كما يلي:

«مررت وأنا قادم هذا الصباح إلى الجامع عبر باب الرمل وسوق الأشياء العتيقة بأربع حانات «أستغفر الله!» يُباع فيها خفية تقريباً خر مالقة «أستغفر الله!» وأشربة محرمة أخرى لا أريد معرفة أسائها».

وشرع أبي بمحاكاة الخطيب بصوت متقبّض شديد التصنع مبهرج بعدد لا يحصى من عبارات «أستغفر الله!» جعلتها سرعة التفوّه بها غير مفهومة، باستثناء بضع منها كانت الوحيدة الحقيقية ولا ريب. لكنه خيّل إليّ على الرغم من الإفراط في المبالغة أن تلك الأحاديث قد رويت بما يكفي من الدقة والأمانة.

«ألم يتعلّم أولئك الذين يَغشَوْنَ هذه الأماكن اللعينة، ألم يتعلّموا منذ نعومة الأظفار أن الله قد لعن بائع الخمر وشاربها؟ أنه لعن شاربها وساقبها؟ لقد تعلّموا، ولكنهم نسوا، أو فضّلوا الشراب الذي يحوّل الإنسان إلى دابة على قول الله الواحد بالجنة. إن إحدى هذه الحانات تديرها امرأة يهودية، ما من أحد يجهل ذلك، وأما الثلاث الأخرى فيديرها «أستغفر الله!» مسلمون. ثم إن زبائنهم ليسوا يهوداً ولا مسيحيين على ما أعلم! وربما كان بعضهم بيننا في يوم الجمعة هذا متوجّهين بخشوع إلى خالقهم في حين كانوا البارحة ساجدين أمام كأس أو مرتعنين في أحضان بغي، بل ربما كانوا وقد زاغت عقولهم وأفلتت ألسنتهم من عقابها يجذّفون على الذي حرّم الخمر، على الذي قال: «لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكّارى»، «أستغفر الله!» وتنحج محمد، والذي، ليجلو حنجرته التي أزعجها الصوت المستعار قبل أن يتتابع قائلاً:

«أجل أيها الإخوة المؤمنون، إن هذه الأمور تحدث في مدينتكم على مرأى منكم ولا تتورون، وكأنّ الله لا ينتظركم يوم الحساب ليسألكم عن أعمالكم. وكأنّ الله سوف يُعينكم على أعدائكم وأنتم تخالفون كلامه وكلام رسوله، صلى الله عليه وسلّم، أو عندما تتجوّل في شوارع مدينتكم المزدهمة نساء بلا حجاب كاشفات عن وجوههن وشعورهن للنظرات الشبيقة يطلقها مئات من الرجال لا أظنّ أنهم جميعاً أزواجهنّ ولا أبائهنّ ولا أبناءهنّ ولا إخوتهنّ. ولماذا يحفظ الله غرناطة من الأخطار المحيطة بها ما دام أهلها قد عادوا إلى سيرة الجاهلية وجدّدوا ما كان مألوفاً قبل الإسلام من البكاء على القبور والتفاخر بالأنساب وتعاطي الكهانة والاعتقاد بالطيرة والإيمان بالأنصاب والأزلام والتنازع بالألقاب التي حدّثنا الله منها تحذيراً لا وراء فيه؟».

ورمقني أبي بنظرة موافقة، ولكن من غير أن يقطع الخطبة أو حتى يلتقط أنفاسه:

«وما دامت قد دخلت بيوتكم خلافاً للتحريمات القاطعة تماثيل الرخام والعاج التي تحاكي بالرَّجْس أشكال الرجال والنساء والحيوان، وكان الخالق بحاجة إلى مساعدة مخلوقاته لإتمام خلقته؟ وما دام قد داخَلَ عقولكم وعقول أبنائكم الشكُّ الكافر المُفْسِد، الشكُّ الذي يُبعدكم عن الله وكتابه ورسوله والمؤمنين، الشكُّ الذي يصدِّع أسوار غرناطة وأسسها بالذات؟»

وغدت نبرة أبي على امتداد كلامه أقلَّ دعابةً مما كانت، وحركاته أقلَّ اتساعاً وانتظاماً، وعبارات «أستغفر الله» أكثر تدرية:

«ما دتم تنفقون بلا خجل ولا تحفظ على ملذاتكم أموالاً كان من الممكن أن تُشبع ألف فقير وتُعيد البسمة إلى ألف يتيم؟ ما دتم تنصرفون وكأن البيوت والأراضي التي تتمتعون بها ملككم، في حين أن الملك لله تعالى، له وحده، منه جاءت وإليه ترجع متى شاء، مثلما ترجع إليه نحن أنفسنا من غير أن نحمل معنا من الخيرات غير الأكفان والأعمال الصالحة؟ إن الغنى أيها الإخوة المؤمنون لا يُقاس بما نملك من الأشياء وإنما بالتي نعرف كيف نستغني عنها. اتقوا الله! اتقوا الله! اتقوه وقد فارقتم الشباب، ولكن اتقوه أيضاً وانتم في ريعانه! اتقوه في الضعف، ولكن اتقوه أيضاً في إبان القوة! بل أقول إن عليكم أن تكونوا أكثر اتقاً له وأنتم أقوياء لأنه سيكون في هذه الحال أقلُّ رافة بكم، واعلموا أن عينه مخترق سور قصر مُنيف بالسهولة التي تخترق بها جدار كوخ من طين. وماذا تبصر عينه داخل القصور؟»

ولم تعد نبرة أبي عند هذا الحدِّ من الخطبة نبرةً مقلِّد، وإنما نبرةً عريف من عرفاء الكتاتيب؛ فقد كان صوته الآن ينساب بلا تعمل، وكانت عيناه مُثبَّتتين في البعيد وكأنها عينا شخص يسير وهو نائم:

«عندما تنفَّذ عين الله تعالى إلى داخل القصور فإنها ترى أنه يُصغى إلى المغنِّيَات أكثر مما يُصغى إلى الفقهاء، وأن صوت العود يمنع الناس من سماع الأذان، وأنه لا يُميِّز بين رجل وامرأة في اللباس ولا في المشية، وأن المال المسلوب من المؤمنين يُرمى به عند أقدام الراقصات. أيها الإخوة، إنه كما يفسد أول ما يفسد رأس السمكة التي نصطادها، كذلك في الجماعات البشرية يدبُّ الفساد من أعلى إلى أسفل.»

وتلا ذلك صمت طويل، وعندما أردت طرح سؤال قاطعني أبي بحركة من يده.
وعليه فقد انتظرت حتى يتخلص تماماً من ذكرياته ويحدثني بنفسه:

«إن العبارات التي رددتها عليك يا حسن مقتطفات من الخطب التي ألقاها الشيخ قبل بضعة أشهر من سقوط غرناطة. وسواء وافقت أو لم أوافق على كلامه فإنه يهز كياني حتى حينما أستذكره بعد انقضاء عشر سنوات. وعليه ففي وسعك أن تتصور الأثر الذي كانت مواعظه تحدثه في المدينة المنكوبة التي كانت غرناطة عام ٨٩٦ هـ.

«وكلمًا كان الغرناطيون يدركون أنّ النهاية قد قريت، وأن المصائب التي لم يفتأ «أستغفر الله» يتنبأ بها قد بدأت تنهال عليهم، كان يزداد اقتناعهم بأنّ الشيخ كان على حقّ منذ البداية، وأنّ السماء طالما تحدّثت بلسانه. وعندها لم يعد يرى في الشارع، حتى ولا في الأحياء الفقيرة، وجه امرأة. فكانت بعض النساء، حتى اللاتي بلغن الحلم من وقت قريب، يغطّين وجوههن مخافة الله، وبعضهنّ مخافة الناس، إذ تألّفت زُمرٌ من الشبان المسلّحين بالهراوات للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولم تعد حانة تجرّو على فتح أبوابها حتى في السرّ. وغادرت البغايا المدينة أفواجاً إلى معسكر المحاصرين حيث استقبلهنّ الجنود بالترحاب. وأخفي الوراقون عن الأنظار الكتب التي تشكّك في العقائد والسُنن، ودواوين الشعر التي تتغنى بالخمير والمليّذات، والأبحاث التي تعالج التنجيم وكشف الطالع. حتى إنّهُ صودرت بعض الكتب ذات يوم وأحرقت في صحن المسجد الجامع. واتفق أن كنت ماراً من هناك وقد بدأت المحرقة الصغيرة بالخمود وأخذ المتسكّعون بالتفرّق مع تبدّد الدخان. وقد عرفت من ورقة متطايرة أنه كان في المحرقة كتاب لطبيب شاعر من الأيام الخوالي يعرف بالقلندر. وتمكّنت من أن أجد في هذه الورقة التي التهمت النار نصفها هذه الكلمات:

جَرْتُ مِنِّي الخمرُ مجرى دمي فَجُلُّ حَيَاتِي من سُكْرِهَا»

كانت الكتب المحترقة في ذلك اليوم ترجع، كما قال لي أبي، إلى طبيب آخر كان الدّ خصوم «أستغفر الله». وكان اسمه «أبا عمرو»، ولكن أصحاب الشيخ حرّفوه إلى «أبي خمر».

ولم يكن يجمع بين الواعظ والطبيب سوى الصراحة في القول، وذلك هو بالضبط ما أَسَّجَ بينها بلا انقطاع نار المشادات التي كان الغرناطيون يتابعون أحداثها. وأمّا ما عدا ذلك فقد كان المرء يشعر بأن الله تعالى قد أوجد منها أشدّ مخلوقين اختلافاً على وجه الدنيا.

كان «أستغفر الله» ابن مسيحيّ اعتنق الإسلام، وهذا ما يفسّر بلا ريب حماسته وتفانيه، في حين كان «أبو خمر» ابن قاضٍ وحفيد قاضٍ، وبالتالي فإنه لم يكن يشعر أنّه بحاجة إلى تقديم برهان على تعلقه بالعقيدة والسُنّة. وكان الشيخ أشقر نحيلاً سريع الغضب؛ وكان الطبيب في مثل سُمرة التمرة وأكثر امتلاء من خروف عشية العيد، وقلّما فارقت شفثيه البسمة سروراً أو سخرية.

وكان قد درس الطبّ في الكتب القديمة، كتب أبقراط وجالينوس والرازي وابن سينا وأبي القاسم وابن زُهر وميمون، وكذلك في الكتب المُحدّثة عن الجُدَام والطاعون أبعدهما الله! وكان من عادته أن يوزّع كل يوم على الأغنياء والفقراء على السواء عشرات القوارير من ترياق كان يصنعه. ولكنّه كان يفعل ذلك فقط للتحقّق من تأثير لحم الأفعى أو معجون العسل، لأنّه كان أشدّ انصرافاً إلى العلم والتجربة منه إلى ممارسة الطبّ. وهل كان في وسعه على كل حال، بيديه اللتين كان الكحول يرعشهما على الدوام، أن يجري جراحة في عين أصابها الماء الأزرق، أو حتى أن يخيط جرحاً؟ وهل كان في مُكنته أن يصف لمرضاه الحِمِيّة - قال النبي: «الحِمِيّة رأس كلّ دواء» - أو أن ينصحهم بالألّا يفرطوا في الشراب والطعام في حين كان هو ينصرف بلا تحفّظ إلى جميع ملذّات الحيوان؟ لقد كان في مقدوره على أبعد تقدير أن يوصي بالنيبذ المعتق لعلاج الكبد كما فعل أطباء آخرون قبله. وإذا كان يُدعى «الطبيب» فذلك لأن الطبّ كان من بين جميع العلوم التي اهتمّ بها - وكانت تراوح بين الفلك والنبات مروراً بالكيمياء والجبر - الحقل الذي لم يكن يُقصرُ دوره فيه على مجرد القراءة. بيد أنه لم ينتفع منه بدرهم لأنّ رزقه لم يكن منه: كان يملك في سهل غرناطة الخصب، غير بعيد من أراضي السلطان، بضع عشرة قرية تحيط بها حقول القمح والشعير، وكروم الزيتون، وبشكل خاص الحداثق الرائعة الأثمار. ويُقال إن غلته في الموسم الواحد من الحنطة والكمثرى والأترج والبرتقال والموز والزعفران وقصب السكر

كانت ثلاثة آلاف دينار ذهباً، وهو ما لا يكسبه طبيب في ثلاثين سنة. وكان يملك فوق ذلك على قلة «الحمراء» بالذات دارة واسعة رائعة غائصة بين أشجار الكرم.

وحين كان «أستغفر الله» يُعرّض بالأغنياء فإنه غالباً ما كان يغمز من قناة «أبي خمر»، وكانت صورة الطبيب المكرش الرافل في الحرير هي التي ترسم في أذهان العامة. فحتى الذين كانوا ينعمون مجّاناً بعقاقيره كانوا يشعرون ببعض الانزعاج في حضرته، إمّا بسبب ممارساته التي كانت تبدو وكأنها ضرب من السحر، وإمّا بسبب حديثه المزخرف جداً بالتعابير العلمية، الأمر الذي يجعله غير مفهوم إلا من زمرة صغيرة من المتعلمين المتعطلين الذين كانوا يقضون معه أيامهم ولياليهم في الشراب والحديث عن المناعة المتحصلة من تعاطي السموم بكميات خفيفة، وعن الاضطراب، وعن التقمص. وكثيراً ما وجد بينهم أمراء من الأسرة المالكة، وكان أبو عبد الله نفسه يألف مجالس شربهم، على الأقل إلى اليوم الذي اضطّر فيه السلطان إلى إبداء مزيد من الحرص في اختيار صحبه بفعل الجوّ الذي أشاعه «أستغفر الله» في المدينة.

ويعلّق أبي قائلًا: «كانوا رجال علم وجهالة؛ وكانوا كثيراً ما يعبرون، خارج سلطان الشراب، عن أمور رشيدة، ولكن بطريقة كانت تثير حفاظ العامة بخروجها عن التقى كما ياغراقها في التعمية. وعلى المرء إذا كان غنياً، بالذهب أو بالمعرفة، أن يراعي فقر الآخرين».

ويضيف في نبرة مسارة: «كان جدك لأمك، سليمان الوراق رحمه الله، قد اجتمع مرّات بهؤلاء الناس. ولم يكن ذلك لأجل الخمر بالطبع، وإنما لأجل الحديث. ثم إن ذلك الطبيب كان أحسن زبائنه. وكان يجلب له كتباً نادرة من القاهرة أو بغداد أو أصفهان، وحتى من روما والبندقية وبرشلونة في بعض الأحيان. وعلى كل حال فقد كان «أبو خمر» يشكو من أن إنتاج الكتب في البلاد الإسلامية قد قلّ عمّا كان في الماضي، وبات الأمر محصوراً على الأخصّ في مجرد نقول عن الكتب القديمة أو مختصرات لها. وهذا ما كان جدك يوافق عليه. وكان كثيراً ما يردّد في مرارة أنه في عصور الإسلام الأولى لم تكن تُخصى في المشرق كتب الفلسفة أو الرياضيات أو الطب أو الفلك، وأن الشعراء أنفسهم كانوا أكثر عدداً وتجديداً في

الأسلوب والمعنى.

وفي الأندلس أيضاً كان الفكر مزدهراً، وكانت ثماره كتباً تُنسخ بأناة ويتداولها رجال العلم من الصين إلى المغرب الأقصى. ثم كان نضوب الفكر والقلم. وأُخذ من السُّنة حصن لاذ به الناس دفاعاً عن أنفسهم من الفرنجة، أفكارهم وعاداتهم. ولم تُنجب غرناطة سوى مقلّدين بلا موهبة ولا جراءة.

وتألم لذلك «أبو خمر»، وأما «أستغفر الله» فارتاح إليه. فقد كان البحث الجاهد عن الأفكار الجديدة رذيلة في نظر هذا الأخير، وكان المهمّ عنده أن يتبع المرء تعاليم الله تعالى كما نقلها القدماء وناقشوها. «فمنذا الذي يجروء على الزعم بأنه أقرب إلى الحقّ ممّا كان النبي وصحابته؟ إن المسلمين ما ضعفوا أمام أعدائهم إلا لأنهم حادوا عن الصراط المستقيم وتركوا أفكارهم وأخلاقهم نهياً للفساد». وكانت تعاليم التاريخ مختلفة عن ذلك تماماً في نظر الطيب. وكان يقول إن «أزهى عصور الإسلام كانت يوم كان الحلفاء ينثرون ذهبهم على العلماء والمترجمين، ويوم كانوا يقضون الأمسيات في الحديث عن الفلسفة والطبّ بصحبة شعراء أنصاف سكارى. وهل كانت حال الأندلس سيئة في أيام الوزير عبد الرحمن الذي كان يقول ضاحكاً «أنت يا من ينادي: حيّ على الصلاة، الخير لك أن تنادي: حيّ على الشراب». إن المسلمين لم يضعفوا إلا يوم أظلمت عقولهم بفعل الصمت والخوف والخضوع».

وبدا لي أنّ أبي كان قد تابع عن كتب كل تلك الصراعات، ولكن من غير أن يتخذ قطّ بشأنها حكماً قاطعاً. وظلّت أحاديثه بعد عشر سنوات عارية من كل يقين. «كان قلة من الناس يتبعون الطيب على طريق عدم التدنّين، بيد أنّ بعض أفكاره كانت تزعزعهم. يشهد بذلك أمر المدفع. هل سبق أن قصصته عليك؟

حدث ذلك حوالي آخر عام ٨٩٦ هـ. وكانت جميع الطرق المؤدّية إلى السهل قد أصبحت في يد القشتاليين، وقلّت المؤن. ولم يكن من وسيلة لحساب الوقت في غرناطة سوى عذيف القذائف وكتل الصخور التي كانت تنهال على المنازل، وغير نواح النائمات؛ وكان مئات البائسين في الأسغال يتنازعون في الحدائق العامة أغصان الشجرة الأخيرة المقطّعة لمواجهة شتاء منذر بالاستطالة والقسوة؛ وكان رجال الشيخ

المدفعون على غير هدى يطوفون الشوارع بحثاً عن عاصٍ لمعاقبته .

وكانت المعارك حول المدينة المحاصرة أكثر تقطعاً وأقل ضراوة . ولم يكن فرسان غرناطة ومُشاتها يجرؤون على التجول زرافات بعيداً عن الأسوار لأن المدفعين القشتالية كانت تبيدهم عن بكرة أبيهم عند كل خرجة . وكانوا يكتبون بعمليات سطو ليلية صغيرة لمهاجمة زمرة من جنود العدو، أو لسلب أسلحة، أو للاستيلاء على بعض الماشية، وكلها أعمال جسورة وإن كانت لا طائل تحتها لأنها لم تكن كافية لفك الطوق ولا لتموين المدينة ولا حتى لاستعادة الشجاعة .

وفجأة سرت شائعة . لا من تلك التي تتساقط كالرذاذ من سحابة عريضة وإنما من تلك التي تهمر كوابل صيفي مغطّية بضجيجها المصمّ ضالّة الأصوات اليومية . شائعة حملت إلى مدينتنا هذه المسحة من السخرية التي لا تخلو منها مأساة . «عُلم أن «أبا خمر» قد استولى على مدفع سلبته من العدو ثلثة من الجنود البواسل الذين ارتضوا أن يجرّوه إلى بستانه لقاء عشر قطع من الذهب» .

ورفع أبي إلى شفثيه قدحاً من عصير اللوز وعبّ منه عدّة جرعات متتالية قبل أن يتابع غير متأثر بما كنت أسبح فيه من بُحران عدم الفهم :

«لم يكن قد سبق للغرناطين أن امتلكوا المدافع، ولما كان «أستغفر الله» لا يني يردّد على مسامعهم أن هذا الاختراع الشيطاني يُجِدث من الضجيج أكثر مما يُجِدث من الضرر فقد سلّموا بأن آلة يمثل هذه الجلدة وذاك التعقيد لا يمكن أن توجد إلا عند العدو . وقد أوقعتهم مبادرة الطبيب في حيرة . وانقضت أيام وسيل لا ينقطع من المستطلعين شباناً وشبيهاً يقفون على بُعْدٍ لا يُستهان به من «الشيء» وهم يتحدّثون همساً عن استداراته المتقنة وشدقه المتوعّد . وأما «أبو خمر» فكان هناك باستداراته هو نفسه متلذّذاً بانتقامه . «اذهبوا إلى الشيخ وقولوا له أن يأتي بدلاً من قضاء أيامه في الصلاة! وأسألوه إن كان يعرف أن يشعل فتيلاً بالسهولة التي يحرق بها كتاباً!» وكان أكثر الناس تقى يسرعون في الابتعاد مغمغمين ببعض اللعنات، بينما كان آخرون يلحفون في سؤال الطبيب عن كيفية استخدام المدفع وعن آثاره إذا استخدم لضرب «سانتافيه» . ولم يكن هو نفسه يعرف بالطبع شيئاً من ذلك ولم تكن شروحه إلا لتريد

الأمور غموضاً

«لا بد أنك حزرت يا حسن يا بني أن هذا المدفع لم يستخدم على الإطلاق. فما كان عند «أبي خمر» قذائف ولا بارود ولا مدفعيون، وكان زواره قد بدأوا يسخرون. ولحسن حظه حضر المحتسب صاحب الشرطة وقد أقلقته التجمعات فأمر بعض رجاله بسحب ذلك الشيء إلى قصر الحمراء لعرضه على السلطان. ولم يظهر بعدها قط. لكن حديثه ظل يُسمع طويلاً، على لسان الطبيب طبعاً، فهو لم يفتأ يردد أنه بالمدفع وحده يستطيع المسلمون الانتصار على أعدائهم، وأنهم ما لم يجزموا أمرهم على اقتناء عدد كبير من هذه الآلات أو صنعها بأنفسهم فستظل ممالكهم عرضة للخطر. وأما «أستغفر الله» فكان يبشر بأمور أخرى: سوف يتم سحق المحاصرين باستشهاد المقاتلين في سبيل الله.

«ولسوف يوفق أبو عبد الله بينهما لأنه لم يكن من جهته راغباً في المدافع ولا في الشهادة. وفيما كان الشيخ والطبيب يتباحثان بلا هوادة، وكانت غرناطة بأسرها تتساءل من خلاهما عن مصيرها، لم يكن صاحب المدينة يفكر إلا في الهرب من العراك. فكان يرسل إلى الملك فرديناند الرسالة تلو الرسالة، ولم يكن يُذكر في تلك الرسائل غير موعد الاستسلام يحدده المحاصير بالأسابيع والمحاصر بالشهور لعل يد الله تعالى تبطل في أثنائها تدابير الناس الهشة بمشيئة مباغته كطوفان أو زلزال أو طاعون يهلك كبار إسبانيا».

إلا أن السماء كانت تدبر لنا غير ذلك.

عام السقوط

٨٩٧ هـ (٤ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٤٩١ م -

٢٢ تشرين الأول «أكتوبر» ١٤٩٢ م)

«كان الجو بارداً هذا العام في غرناطة، وكان مع البرد الخوف، وكان الثلج أسود بفعل التربة المفلوحة والدم. وما كان أشد الألفة مع الموت، وما كان أقرب المنفى، وما كان أقسى تذكّر أفراح الماضي!»

لم تكن أمي هي إياها عندما كانت تتحدّث عن سقوط مدينتنا؛ وكان يصدر عنها حيايل هذه المأساة صوت ونظرة وكلمات ودموع لم أكن أعرفها لها في أية مناسبة. وأما أنا فلم أكن قد بلغت الثالثة من عمري في تلك الأيام الصاخبة، ولست أدري إذا كانت الصيحات المزدحمة في مسمعي في هذه اللحظة تذكّرة لما كنت قد سمعته حينذاك حقاً أو أنها فقط صدى ألف حكاية حُكيت لي مُذاك.

لم تكن تلك الحكايات تبدأ كلها بالطريقة نفسها. فحكايات أمي كانت تتحدّث أول ما تتحدّث عن المجاعة والكرب. كانت تقول:

«جاء الثلج منذ الأيام الأولى من السنة يقطع الطرق القليلة التي كان المحاصرون قد عَفَوْا عنها مُنجزاً عزل غرناطة عن سائر البلاد، ولا سيّما عن السهل وجبال البجراس في الجنوب، ومنها كان يأتينا القمح والشوفان والذرة البيضاء والزيت والزبيب. وفي جوارنا كان الناس خائفين، حتى أقلهم فقراً؛ وكانوا يشترون في كل يوم جميع ما يقع تحت أيديهم، وإذ كانوا يرون خوابي المئوّن مرصوفة إلى جدران الغرف فقد كان خوفهم من الجوع والجرذان والناهيين يزداد بدلاً من الشعور بالطمأنينة. وكانوا جميعاً يقولون إنه إذا فُتحت الطرق مجدداً فإنهم سيرحلون بلا إبطاء إلى بعض القرى التي لهم فيها أقارب. وفي أشهر الحصار الأولى كان أهل القرى المجاورة هم الذين يبحثون عن ملجأ في غرناطة منضمّين إلى اللاجئيين من

قانس وجبل طارق؛ وكانوا يقيمون كيفما اتفق عند أقاربهم أو في ملحقات المساجد أو في الأبنية المجهورة؛ حتى إنهم أقاموا في الصيف الماضي في الحدائق والأراضي المشاع داخل خيم مُرتجلة. وكانت الشوارع تغصّ بالمسؤولين من كل حذب وصوب، أسراً بكاملها أحياناً، الأب والأم والأولاد والشيوخ، وكلهم هياكل عظمية زائغة الأبصار؛ وحيناً زمراً من الشباب الذين يبعث مظهرهم القلق في النفوس؛ وكان الشرفاء الذين لا يطيقون التسول أو السرقة يموتون على مهل في مساكنهم بعيداً عن الأنظار».

لم يكن ذلك مصير ذوي. فحتى في أسوأ لحظات القحط لم يكن ينقص بيتنا شيء بفضل مكانة أبي. فقد ورث بالفعل عن أبيه منصباً بلدياً مهماً يقضي بوزن الحبوب والتأكد من سلامة الممارسات التجارية؛ وهذا ما أضفى على أفراد عائلتي لقب «الوزان» الذي ما زلت أحمله؛ ولا يعرف أحد في المغرب أنني أدعى اليوم ليون أو يوحنا - ليون دومديثي، ولم يلقبني أحد بالإفريقي؛ فهناك كنت الحسن بن محمد الوزان، وكان يضاف في الوثائق الرسمية «الزياتي» نسبة إلى قبيلتي الأصلية، و«الغرناطي»، وعندما كنت أبتعد عن «فاس» كانوا يقولون «الفاسي» نسبة إلى أول بلد أقمت فيه بعد نزوحي عن بلدي، ولم يكن موطني الأخير.

كان في استطاعة أبي بوصفه وزاناً أن يقتطع من السلع الخاضعة لإشرافه التسميات التي يشاءها في حدود المعقول، أو حتى أن يقبض بالدنانير الذهبية ثمن سكوته عمّا يرتكبه التجار من غش؛ ولا أعتقد أنه حاول أن يثري، لكن مكانته كانت تبعد عنه وعن أقاربه كل شبح من أشباح المجاعة.

وكانت أمي تقول لي: «كنت في ذلك الحين طفلاً بديناً فلم أكن أجسر على إخراجك معي إلى الشوارع خوفاً من عيون السوء»؛ كان ذلك أيضاً لكيلا يفتضح أمر رخائنا النسبي.

وإذ كان أحد هواجس أبي ألا يفقد محبة جيرانه الموثوقين فقد كان كثيراً ما يجعلهم ينتفعون بما يحصل عليه، ولا سيما اللحم وبقاير الخضّر والثمار، بيد أنه كان يعطي دائماً بمقدار وتواضع لأن كل بحبوحة كانت استفزازاً، وكل تشوّف إهانة.

وعندما أبدى أهل العاصمة في الشوارع - وقد خارت قواهم وطفح كيل أوهامهم - سخطهم وضيقهم، وذهب وفد منهم إلى السلطان لحمله على إنهاء الحرب بأي شكل، رضي أبي أن يكون في عداد ممثلي «البيسان».

وهكذا فإنه عندما كان يقصّ عليّ خبر سقوط غرناطة كان من المحتمّ أن تبدأ حكايته من قاعات «الحمراء» المنجّدة.

«كنّا ثلاثين قادمين من جميع أنحاء المدينة، من نجد إلى عين الدمع، ومن حيّ الخزّافين إلى بستان اللوز، ولم يكن الذين يرفعون عقائرهم بالكلام أقلّ ارتعاداً من الآخرين. ولا أخفي عليك أنّي كنت أنا نفسي هليعاً، وأنّني وددت أن أرجع أدراجي لو لم أخف سواد الوجه، فتصوّر إذن جنون مسعانا: لقد زرع آلاف الأهالي الفوضى في الشوارع خلال يومين كاملين زاعقين بأبشع المثالب في وجه السلطان، شاتمين أصحاب مشورته وساخرين من نسائه، فارضين عليه بلا تحفّظ أن يقاتل أو يسالم بدلاً من أن يطيل إلى ما لا نهاية أمدّ وضع تخلو معه الحياة من البهجة، والموت من المجد. وها نحن أولاء مبعوثين صاحبين زاعقين نحضر إلى قصره وننحّده أمام حاجبه ووزرائه وضباط حرسه وكأننا نحمل إلى مسمعيه الشتائم التي سبق أن حملها إليه ولا شكّ عيون وجواسيسه. وكنت أنا الموظف في ديوان المحتسب، أنا من يُفترض فيه السهر على احترام القانون والنظام العام، هناك مع مسبّي الشغب، في حين كان العدو على أبواب المدينة. وكنت أقول لنفسي وأنا أفكر بارتباك في كل هذا إنني لن ألبث أن ألقى في زنزانة وأجلد بالسياط حتى تسيل دمائي، أو حتى أن أصلب فوق متراس في أحد الأسوار.

«لم تلبث مخاوفي أن بدت مضحكة، وسرعان ما أعقب الخجلُ الفزع؛ ولحسن الحظّ أن أحداً من صحبي لم يدرك هذا ولا ذاك. إنك لن تلبث يا حسن يا بنيّ أن تفهم لماذا أكشف لك عن لحظة الضعف هذه التي لم يسبق قطّ أن حدّثت عنها أيّاً من أقاربي. فأنا أريد أن تعرف ما حدث بالضبط في مدينتنا غرناطة في عام الشقاء ذاك؛ فلعلّك تتجنّب أن تدع من في أيديهم مصير الجماعة يعيشون بك. وأنا بالذات لم أخبر شيئاً ثميناً من أشياء الحياة إلا بالكشف عن قلوب الأمراء والنساء.

«دخل وفدنا إذن قاعة السفراء حيث كان أبو عبدالله متربّعاً في مكانه المعتاد يحيط

به جنديان بسلاحهما وبعض المستشارين . وكانت غضون وجهه عميقة بشكل يدعو إلى التعجب بالنسبة إلى رجل في الثلاثين من العمر، ولحيته شيباء وجفونه مسترخية؛ وكان أمامه منقل نار ضخمة من النحاس المرصع يخفي عناً ساقيه وصدرة . وكان ذلك اليوم نهاية شهر المحرم الموافق في ذلك العام للأول من شهر كانون الأول (ديسمبر) من السنة المسيحية، وكان البرد من الشدة بحيث يذكر بأقوال الشاعر ابن صارة الشنتريني الواقعة يوم زار غرناطة:

يا أهل هذه البلاد لا تزاولوا الصلاة
ولا تتعدوا عن المحرمات
وبذا يكون في وسعكم أن تكسبوا مأوالم في السعير
حيث تبعث النار الدفء والسكينة
عندما تهبّ ريح الشمال .

«استقبلنا السلطان بابتسامة كادت ترسم على شفّيه وإن بدت لي مرحة . ودعانا بحركة من يده إلى الجلوس فجلست على طرف المقعد . ولكن قبل أن يبدأ الحديث رأيت ويا لعجبي عدداً كبيراً من وجهاء القوم ضباطاً وعلماء وأعياناً وقد جاءوا من كل صوب، وبينهم الشيخ «أستغفرالله» والوزير المليح والطبيب «أبو خمر»، وبالجملة نحو مئة شخص كان بعضهم يتحاشون التلاقي منذ زمن .

«وتكلم أبو عبدالله على مهل وبصوت خافت أكره زواره على السكوت والانكباب ناحيته وهم يتنفسون بمشقة فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم، رغبت في أن يجتمع هنا في قصر الحمراء كل الذين يرون رأياً في الوضع الشاغل الذي رمى القدر به مدينتنا . تبادلوا الرأي في الموقف الواجب اتخاذه لخير الجميع، وسوف انصرف وفقاً لمشورتكم . إن وزيرنا المليح سيكون أول من يدلي برأيه، ولن أتكلّم إلا في النهاية» . وهنا أسند ظهره إلى الطنافس المرصوفة إلى الجدار ولم ينيس بكلمة .

«كان المليح مساعد السلطان الأول، وكان يُتوقع من فمه مديح بنثر مسجع للسلوك الذي يتبعه سيده حتى الآن . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . وإذا كان قد وجه خطابه إلى «سليل المجد من الأسرة النصرانية المجيدة» فقد تابع بنبرة تختلف كل

الاختلاف قائلاً: «مولاي هل تعطيني الأمان إذا قلت ما أفكر فيه في هذه اللحظة بلا مراوغة ولا تحفظ؟» ووافق أبو عبدالله بهزة خفيفة من رأسه فأضاف الوزير قائلاً: «في رأيي أن السياسة التي نتبعها لا نخدم الله ولا عباده. وسوف نخطب هنا عشرة أيام بلياليها فلا تسقط حبة أرز واحدة في صحاف أطفال غرناطة الفارغة. فلنواجه الحقيقة حتى وإن كانت بشعة، ولتجنب الكذب حتى وإن كان مزيفاً بالجواهر. إن مدينتنا كبيرة، وليس من السهل حتى في أيام السلم تأمين حاجتها من المؤن. وكل يوم يمر يزيد فيه نصيبها من الضحايا، وسوف يحاسبنا الله تعالى ذات يوم على جميع هؤلاء الأبرياء الذين تركناهم يموتون. ولكان في وسعنا مطالبة السكان بالضحيات لو أمْلناهم بخلص قريب، لو كان جيش قوي من المسلمين في طريقه لفك الطوق عن غرناطة ومعاينة محاصريها. بيد أننا نعرف الآن أنه لن يأتي أحد لنجدتنا. لقد كتبت أنت يا مولاي إلى سلطان القاهرة والسلطان العثماني فهل أجابك؟» ورفع أبو عبدالله حاجبيه علامة النفي. «وكتبت من قريب أيضاً إلى الحكام المسلمين في فاس وتلمسان ليهبوا بجيوشهم، فكيف ردوا؟ إن دمك النبيل يمنعك من قول ذلك، وأما أنا فسأفعل عنك. لقد أرسل حكام فاس وتلمسان الرُّسل مثقلين بالهدايا، لا إلينا، وإنما إلى فرديناند، مُقسمين له بأنهم لن يرفعوا قط السلاح في وجهنا إن غرناطة تقف اليوم وحدها لأن سائر مدن المملكة قد ضاعت، ولأن مسلمي البلاد الأخرى يُصمّون أذانهم عن نداءاتنا. فما الحل الذي تبقى لنا؟».

«وران صمت مطبق على الحضور الذين كانوا يكتفون بإرسال هدير بالموافقة بين الحين والحين. وفتح المُلح فمه وكأنه يستعدّ لمتابعة حججه. ولكنه لم يقل شيئاً، وخطا خطوة إلى الوراء وجلس وبصره إلى الأرض. وتتالي ثلاثة خطباء لا يُعرف أصلهم ولا فصلهم فقالوا بضرورة الإسراع في المفاوضة لتسليم المدينة، وذهبوا إلى المسؤولين قد أضاعوا كثيراً من الوقت غير شاعرين بالآلام الضعفاء.

«ثم كان دور «أستغفر الله» الذي كان يتمللم منذ البداية في مقعده. ونهض رافعاً يديه بحركة لا إرادية إلى عمامته فأصلحها وسرّح بصره في السقف المزّين بالنقوش وقال: «إن الوزير المُلح مشهور بذكائه ومهارته، وإذا أراد إقناع سامعيه برأي تسنى له الأمر بسهولة. لقد أراد أن ينقل إلينا رسالته فحضر أذهاننا لتلقيها ثم

صمت لأنه لا يريد أن يقدم لنا بيديه الكأس المرة التي يسألنا شربها. وماذا في هذه الكأس؟ إذا كان لا يريد قول ذلك بلسانه فسأقوله أنا: يريد الوزير أن نقبل بتسليم غرناطة إلى فرديناند. فقد شرح لنا أنّ كلّ مقاومة باتت الآن بلا جدوى، وأنّ أية مساعدة لن تصل إلينا من الأندلس ولا من الخارج؛ وكشف لنا أن مبعوثين من الأمراء المسلمين قد تواطأوا مع أعدائنا أنزل الله بهم جميعاً جزاءه الوفاق! غير أن المُلِيح لم يكشف لنا كل شيء. لم يقل لنا إنه يُجري منذ أسابيع مفاوضات مع الروم. لم يُبَح لنا بأنه قد اتفق معهم على أن يفتح لهم أبواب غرناطة».

«ورفع «أستغفر الله» صوته ليعلو على المهمة المتصاعدة. «لم نخبرنا المُلِيح أنه ذهب إلى حدّ القبول بتقديم موعد التسليم، وأنّ هذا الموعد سيكون في الأيام القادمة، وأنّه سعى فقط إلى تهيئة أذهان الغرناطيين للهزيمة. وما إغلاق مخازن المؤن منذ عدّة أيام إلا لإكراهنا على التسليم؛ وما المظاهرات التي نظّمها في الشوارع عملاء الوزير إلا للتعجيل في حُورنا، وإذا كانوا قد أتوا بنا اليوم إلى الحمراء فليس ذلك لنقد أعمال حكامنا كما أراد الوزير إقناعنا، وإنما للموافقة على قرارهم الكافر بتسليم غرناطة». كان الشيخ يصبح تقريباً؛ وكانت لحيته تنتفض غضباً وسخرية مُرّة. «لا تستنكروا أيها الإخوة المؤمنون، فإذا كان المُلِيح قد أخفى عنا الحقيقة فما كان في نيّته خداعنا؛ بل لأنّ الوقت لم يُسعه. ولكن لا تُقاطعه بحق الله، ولنُدعّه يشرح بالتفصيل ما فعله خلال هذه الأيام الأخيرة، ثم يكون في وسعنا إبداء الرأي في الموقف الذي علينا اتّخاذه». وصمت فجأة وجلس جامعاً بيد مرتعشة ذيل ثوبه المتسخ في حين لفّ القاعة صمت كصمت القبور واتجهت جميع الانظار نحو المُلِيح.

«وانتظر هذا الأخير أن يتدخّل أحد الحاضرين؛ ولكن عبثاً. وعندها نهض منتفضاً وقال: «إنّ الشيخ رجل تقوى ومروءة، وكلّنا نعلم ذلك؛ وإنّ حبّه لهذه المدينة أجدر بالتقدير لأنها ليست مسقط رأسه، وإخلاصه للإسلام أحقّ بالثناء لأنه ليس في الأصل دينه. وهو كذلك واسع المعرفة منكبّ على علوم الدين والدنيا، ولا يتردّد في طلب المعرفة من مَعينها مهما بُعد؛ وإذ سمعته يتحدّث عمّا جرى بيني مبعوثاً من سلطان الأندلس العظيم وبين مبعوث الملك فرديناند لم أمالك من إظهار إعجابي وعجبي ودهشتي لأنني لست الذي نقل إليه هذه الوقائع. وعليّ الاعتراف من جهة

أخرى بأن ما قاله لا يُجانب الحقيقة . وكلّ ما آخذه عليه هو أنه عرض الأمور بالطريقة التي توصف بها عند أعدائنا . فالهمّ في نظر هؤلاء هو موعد الصلح لأن الحصار يكلفهم غالباً؛ وليس هدفنا تأخير النهاية التي لا محيد عنها بضعة أيام أو أسابيع ينقضّ علينا بعدها القشتاليون بضراوة مضاعفة؛ وإذا كان النصر في الوقت الحاضر بعيداً عن متناول يدنا بأمر لا يُردُّ من يقدر الأشياء جميعها فعلينا محاولة الحصول على أفضل ما يمكن من شروط . أي الإبقاء على حياتنا وحياة نسائنا وأولادنا؛ أي الحفاظ على أرزاقنا وحقولنا وبيوتنا وبهائمنا، وعلى حقّ كلّ منا في مواصلة العيش في غرناطة على دين الله ورسوله، مصلّين في مساجدنا، غير دافعين من ضريبة سوى الزكاة والعشور التي نصّت عليها شريعتنا؛ وكذلك حقّ الذين يريدون الرحيل وراء البحر إلى المغرب حاملين كلّ ما يملكون بالإضافة إلى مهلة قدرها ثلاث سنوات لتقرير خيارهم وحرية بيعهم ممتلكاتهم بالسعر القائم إلى مسلمين أو إلى مسيحيين . ذلكم هو ما أردت انتزاع موافقة فرديناند عليه بجعله يُقسم على الإنجيل باحترام الأمر حتى مماته، وحمل خلفائه من بعده على احترامه . فهل أخطأت؟» .

«ولم يتوقّف المليح ليستمع إلى الأجوبة وتابع قائلاً: «يا كبار غرناطة ووجهاءها، إنني لا أعلن لكم عن نصر، ولكنني أريد تجنيبكم مرارة كأس الهزيمة المذلة، والذبح وهتك أعراض الزوجات والبنات والعار والامستراق والنهب والدمار . ولذا أحتاج إلى موافقتكم ومساندتكم . وفي وسعي إذا طلبتم أن أقطع المفاوضات أو أجعل أمدها يطول، وهذا ما كنت أفعله لو كنت لا أبحث إلا عن مداخل البلهاء والمتظاهرين بالتقوى . ولكنك قدّمت لمبعوثي فرديناند ألف ذريعة لتأخير الصلح . ولكنّ أياكون ذلك حقاً لخير المسلمين؟ إننا في الشتاء وقوات العدو مشتتة، وقد أرغمه الثلج على اختصار هجماته . إنّه يختبئ خلف أسوار «سانتافي» والتحصينات التي بناها، مكتفياً بقطع الطرقات عنا . وبعد ثلاثة أشهر يحلّ الربيع ويكون لفرديناند جيوش على أتمّ الأهبة لتوجيه الضربة الحاسمة لمدينتنا التي يكون قد استنزفها الجوع . الآن وقت المفاوضات! الآن يرضى فرديناند بشروطنا لأنّ في مقدورنا تقديم شيء إليه في المقابل» .

«وثب «أبو خمر» الذي كان صامتاً منذ بدء النقاش من مكانه بغتة دافعاً جيرانه

بكتفيه العريضتين وقال: «تقول في وسعنا تقديم شيء إليه، لكن أي شيء؟ لماذا تُخفي الكلمات في أعماق حلقك؟ إن ما تريد تقديمه لفرديناند ليس شمعديناً من الذهب، ولا طيلساناً، ولا جارية بنت خمس عشرة. إن ما تريد تقديمه هو هذه المدينة التي قال فيها الشاعر:

غَرْنَاطَةٌ مَا لَهَا نَظِيرٌ مَا مِصْرُ مَا الشَّامُ مَا الْعِرَاقُ؟
مَا هِيَ إِلَّا الْعُرُوسُ تُجَلَّى وَتَلَكُ مِنْ جُمَلَةِ الصَّدَاقِ

«إن ما تريد تقديمه إلى فرديناند أيها الوزير هو قصر الحمراء هذا، مجد الأجداد وعجبية العجائب. انظروا حولكم يا إخوتي! أجيلوا على مهل أنظاركم في هذه القاعة التي جهد آباؤنا وأجدادنا في نقش كل طرف من أطراف جدرانها وكأنه جلية لطيفة نادرة! احفروا في ذاكرتكم إلى الأبد هذا المكان الجليل الذي لن تطأه قدم أي منكم بعد، إلا أن يكون عبداً من العبيد».

«كان الطبيب يبكي، وأخفى كثير من الرجال وجوههم. وتابع بصوت منكسر لاهت: «لقد أنرنا خلال ثمانية قرون هذه الأرض بعلمنا، ولكن شمسنا تُؤذِن بالمغيب، وقد أظلم كل شيء. وأنت يا غرناطة أعلم أن نارك تتأجج للمرة الأخيرة قبل أن تنطفئ، لكن لا يعتمدن أحد عليّ للنفخ فيها لأن ابنائي سوف يتفلون على ذكراي حتى يوم الدين». وجلس وكان جلوسه أقرب إلى التهاك، ومرّت بضع لحظات بطيئة ثقيلة قبل أن يقطع «استغفر الله» الصمت من جديد ناسياً في الوقت الحاضر عداه لـ «أبي خمر» ويقول: «لقد نطق الطبيب بالحق. إن ما يريد الوزير تقديمه إلى ملك الكفار هو مدينتنا بمساجدها التي ستصبح كنائس، ومدارسها التي لن يدخلها بعد القرآن، ومنازلها التي لن تُرعى فيها أية حرمة. وما سيقدمه كذلك هو حق الحياة والموت علينا وعلى ذوينا لأننا لا نجهل ما تساويه المعاهدات والأيمان في نظر الروم. ألم يعدوا سكان مالقة منذ أربع سنوات باحترابهم والإبقاء على حياتهم قبل أن يدخلوا المدينة وبأسروا النساء والأطفال؟ أقتضمن لي يا مَلِيح ألا يحصل لغرناطة ما حصل لتلك؟».

«وأجاب الوزير بصوت كليل: «ليس في مقدوري أن أضمن لك غير أنني سوف

أبقى أنا نفسي في هذه المدينة وأقاسم ابناءها مصيرهم وأسخر كل ما يشاء الله تعالى أن يهبني إياه من الطاقة لتأمين احترام الاتفاقات. إن مصيرنا ليس في يد فرديناند، وإنما هو في يد الله، وهو وحده القادر على إيتائنا يوماً النصر الذي يأبى أن يُؤتينا إياه اليوم. وأما الآن فالحالة هي التي تعرفون، ولا جدوى من إطالة النقاش. ينبغي التوصل إلى قرار. فليعلن الذين يوافقون على إبرام اتفاق مع القشتاليين شعار الأسرة النصرية!».

وتذكر أبي أنه «تعالت في جميع أرجاء قاعة السفراء عبارة واحدة «الله وحده قادر على إيتائنا النصر». قيلت بحزم وإن خلوأ من كل بهجة لأن ما كان قبلاً صحيحة حرب غدا في هذه السنة صيغة استسلام؛ وربما كان في أفواه بعضهم عتباً على الخالق، جنبنا الريب والكفر!

وإذ وثق أبو عبدالله من دعم أكثرية الحاضرين فقد عزم على تولي الكلام عن وزيره. وأسكت رعاياه بحركة ملحّة من يديه قائلاً بصوت هادئ: «لقد أجمع المؤمنون واتخذوا قرارهم. وسوف نتبع سبيل الصلح مؤمنين بأن الله يهدينا إلى خيرنا، إنه سميع مجيب».

«وقبل أن يتم عبارته كان «استغفر الله» يتجه صوب الباب وقد ضاعف الغضب ظلّعه وتمتت شفتاه بهذه الكلمات الرهيبة: «أنكون الذين عناهم الله بقوله في كتابه الكريم: لقد كنتم خير أمة أخرجت للناس؟».



ومساء يوم الاجتماع بالذات في الحمراء كانت غرناطة بأسرها تعرف ما دار من حديث. وعندها بدأت محنة الانتظار القاسية بنصبيها اليومي من الشائعات التي كانت تدور جميعاً حول موضوع موثس واحد: اليوم والساعة اللذان سيدخل فيها القشتاليون المدينة.

وقد روت لي أمي قائلة: «في أثناء الأسبوع الأخير من شهر صفر، وكان ذلك غداة عيد ميلاد عيسى المسيح عليه السلام، حضرت سارة المبرقشة لزيارتي وهي تحمل كتيباً ملفوفاً بعناية في خمار من الحرير البنفسجي سحبتة بحذر من قعر سلّتها

فقلت لها جاهدة في الابتسام: «لا أنا ولا أنت نعرف القراءة»، ولكنّ بدا أنها فقدت كلّ مرحها. وشرعت تقول بنبرة باردة جداً: «جلبت هذا لأريه لابن عمك. إن كاتبه رجل حكيم جداً من جماعتنا هو الحاخام إسحاق بن يهودا. وهو يقول إن طوفاناً سوف يعمنا، طوفان دم ونار، عقاباً سوف يناله جميع الذين تركوا حياة الفِطْرة إلى فساد المدينة». وقد كانت عبارتها متلجلجة ويدها ترتعشان.

«وكنت جالساً على ركبتيّ يا بنيّ، وأخذت أشدّ عليك بقوة وأقبلت بحرارة في رقبتيك. وصرخت في وجه سارة يحدوني الانزعاج أكثر ممّا يحدوني الشرّ: «يا كاهنة النحاس! ألا ترين ما يساورني من آلام كل يوم؟ وهل ينبغي أن تنبئي حقاً بمصير أشدّ هولاً؟» ولكنّ اليهودية لم تنصرف عن مقالها: «إن الحاخام إسحاق إلف للملك فرديناند ويعرف كثيراً من الأسرار، وإذا كان قد استعار لغة الأنبياء فلكي نسمعنا ما لا يستطيع نشره بطريقة أخرى. وربما سعى إلى تحذيركم من أن غرناطة سوف تؤخذ، بيد أنّ هذا ليس سراً. إنّ أقواله تذهب إلى أبعد من هذا. فهو يؤكد أنّه لن يكون لليهود هواء يستنشقونه ولا ماء يشربونه في ملاذهم هذا».

«وكانت، هي الذرية اللسان في العادة، تنطق بمشقة كبيرة لفرط فزعها. «أهو كتابك الذي أفزعك هكذا؟ - هناك غير ذلك. فقد علمت هذا الصباح أن أحد أبناء أختي قد أحرق حياً في محرقة لاغوارديا بالقرب من طليطلة مع عشرة أشخاص آخرين. لقد اتهموا بممارسة أعمال السحر وخطف طفل مسيحي وصلبه كما صُلب عيسى. ولم يتمكن أعضاء محكمة التفتيش من إثبات شيء؛ لم يستطيعوا تقديم اسم الطفل المزعوم قتله، ولا تقديم جثّة ما، ولا حتى البرهان بأن طفلاً من أطفال المنطقة قد اختفى، ولكنّ كان على يوسف وأصحابه أن يعترفوا بأيّ شيء للإفلات من التعذيب بالماء والضرب بالحبال. - أتظنين أن مصير جماعتك في غرناطة سيكون مثل هذا المصير؟» وحدجتني سارة بنظرة ظننت أنّي لمحت فيها الحقد. ولم أعرف ما إذا كنت قد أسأت إليها، بيد أنّي عزمت نظراً للحالة التي هي فيها على أن أقدم لها اعتذاري. ولم تترك لي الفرصة، بل قالت: «أتظنين أنه عندما سيُصار إلى أخذ هذه المدينة سيكون الطمع في أراضيكم وبيوتكم وذهبكم أقلّ ممّا هو في أراضينا وبيوتنا ومالنا؟ أتظنين أن نار المحرقة تُؤثر ابناً من أبناء سام على آخر؟ إنّنا في غرناطة كما فوق

فُلك، نعوم معاً أو نغرق معاً. وغداً، على طريق المنفى...»

«وإذ شعرت بأنها غالت كثيراً فقد توقفت عن الكلام وأحاطتني بذراعيها الفضفاضتي الرُدين العابقتين برائحة المسك لتلطف من حدة أقوالها وشرعت تنتحب فوق كتفي. مع أنني لم أكن واجدةً عليها لأن الصور التي كانت تُحفيها كانت تُخامر ذهني في اليقظة والمنا، وفي هذا كنا أختين سبق أن أضحتا يتيمتي المدينة المحتضرة.

«وكنا على هذه الحال من الشكوى والأين عندما سمعتُ وقع أقدام أبيك العائد إلى المنزل. وناديته من مخدعي، وبينما كان يرقى الدرجات كنت أمسح خديّ بذيل ثوبي في حين غطت سارة على عجل رأسها ووجهها. كانت عينا محمد بلون الدم، ولكني تظاهرت بعدم ملاحظة ذلك كيلا أخرجها. «لقد أحضرت لك سارة كتاباً لنفسر لنا ما يتضمّن». ولم يكن لأبيك منذ مدة أدنى تحفظ على المبرقشة التي أضحت تأتينا كل يوم، والتي كان يحلو له أن يبادلها الآراء والأخبار؛ كما أنه كان يحبّ مداعتها بشأن زيتها المضحك، الأمر الذي كان يجعلها تضحك من كل قلبها. ومع ذلك فإنه لم يكن يجد أكثر مما تجد متسعاً للضحك. وأخذ الكتاب بيديه من غير أن ينس بكلمة وتربّع فوق عتبة الغرفة يقلّب صفحاته. وانكبّ عليه أكثر من ساعة ونحن نرقبه بصمت؛ ثم أغلقه ولبث مفكراً. ونظر إليّ من غير أن يظهر عليه أنه يراني وقال: «كان أبوك سليمان الوراق قد قال لي إنه عشية الحوادث الجسام تظهر كتب مثل هذا تبشّر بنهاية العالم وتسعى لأن تشرح ذلك عن طريق حركة النجوم أو معصية الناس نواهي الله تعالى. وأن الناس يتناقلونها في الخفاء فتطمئنهم قراءتها لأن مصيبة كل إنسان تضيع وتُنسى وكأنها قطرة في سيل. وهذا الكتاب يقول يا سارة إن على أهلك أن يرحلوا قبل أن يقرع القدر بابهم. وما إن تؤنسين القدرة فاحلي أولادك وابتعدي عن هذا البلد». وكشفت سارة عن وجهها أمانة على التفجع وقالت: «أذهب إلى أين؟» وكان قولها صرخة كرب أكثر مما كان سؤالاً، بيد أن أباك أجاب وهو يقلّب صفحات الكتاب: «يوصي هذا الرجل بإيطاليا أو بالبلاد العثمانية، لكن في وسعك أيضاً الذهاب إلى المغرب وراء البحر وهو أقرب من غيره. وإلى هناك سوف نذهب نحن.» وترك الكتاب وذهب من غير أن ينظر إلينا.

«كانت تلك المرة الأولى يتحدث فيها أبوك عن المنفى، ولوّددتُ أن أسأله عن هذا

العزم وعن الاستعدادات التي اتخذها، بيد أنني لم أجرو، ولم يعد هو إلى الكلام عليها غير مرة واحدة في اليوم التالي قائلًا لي بصوت هامس ألا أثير هذه المسألة أمام وردة».

وظلت المدافع والمجانيق صامتة في الأيام التالية؛ وظلّ الثلج يتساقط على غرناطة موشحاً إياها بالسلام ويدعّ ما كان يبدو أنّ شيئاً ينبغي أن يقطع معها أوصالها. فلم تكن هناك معارك، وكانت بعض صبيحات الأطفال وحدها تبعث الحياة في الشوارع. ولوّدت المدينة كثيراً لو ينساها الزمان! غير أنه كان يسير: بدأت السنة الميلادية ١٤٩٢ في آخر يوم من شهر صفر عام ٨٩٧ هـ وقُرِع بابنا بشدة قبل الفجر. واستيقظت أمي مجبّلة ونادت أبي الذي كان نائماً في تلك الليلة بجانب وردة. وذهب يفتح. كان الطارقون بعض ضباط السلطان، وقد طلبوا إليه أن يتبعهم على جواده؛ وكان قد سبق لهم أن جمعوا بضع عشرات من الناس بينهم يافعون كان الثلج يضيء وجوههم الخالية من اللحم. ودخل محمد فلبس ما يدقّ من الثياب وذهب بين جنديين يفكّ مطيته في مخزن الغلال القائم خلف البيت. ووقفت أمي في خصاص الباب وأنا على ذراعها نصف نائم ورأس وردة ممدود من فوق كنفها وأخذت تلحّ على الضباط لكي تعرف منهم إلى أين يقودون زوجها. وأجابوا بأنّ الوزير المُلح قد أعطاهم لائحة بأسماء الأشخاص الذين يرغب في مقابلتهم على وجه السرعة؛ وأضافوا أنه ليس هناك ما تخشاه. وبذل أبي جهده وهو ذاهب في طمأننتها بدوره.

وإذ بلغوا ساحة الطلبة بالقرب من الحمراء رأى محمد مع بزوغ ضوء النهار زهاء خمسمئة مُحْتَجِّز راكبين ومشمّلين على معاطف صوفية سميكة ومحاطين بألف من الجنود راجلين وراكبين لم يكونوا يستخدمون تجاههم أية فظاظاة، وإنّ بالكلام، مكتفين بالإحاطة بهم لمنعهم من الابتعاد. ثم تحرّك الراكب الضخم في صمت وعلى رأسه فارس ملثم وعلى جانبيه الجنود في صف طويل. ومرّ من أمام باب الطبايق السبع وحاذى الأسوار وخرج من المدينة من باب نجد فبلغ «الجنيل» الذي كان سطحه قد تجمّد. وتوقفت القافلة الصامتة المرتجفة للمرّة الأولى في بستان كرز عند ضفة النهر.

كان النهار قد انبج، ولكن كان بالإمكان بعد رؤية هلال الشهر الجديد. وأماط

الرجل المثلث لثامه ونادى إليه بضعة عشر رجلاً من الأعيان اختارهم من بين المحتجزين. ولم يدهش أحد لكون الرجل هو المليح. وبدأ بالطلب إليهم ألا يقلقوا واعتذر عن تأخره في تقديم الإيضاحات إليهم.

«كان ينبغي أن نخرج من المدينة لتفادي كلِّ حدث وكلِّ مواجهة ليست في الحسبان. لقد طلب فرديناند خمسمئة رهينة من الوجهاء المنتمين إلى أعرق الأسر الغرناطية ليتمكن من إدخال جيوشه إلى المدينة دونما خوف من وقعة. وفي مصلحتنا نحن أيضاً أن يجري التسليم بلا أدنى عنف. طمئنوا الآخرين، قولوا لهم إنهم سوف يُعاملون معاملة حسنة، وإن كلَّ شيء سيتمَّ بسرعة فائقة».

وبُلغ الخبر إلى الجميع من دون أن يُواجه بغير بعض الهمهمات التي لا طائل تحتها لأن الغالبية كانت تستشعر الزهو لكونها اختبرت، وبعض الأمان لُبُعدها عن المدينة حينها تُجتاح، الأمر الذي كان يعوّض كثيراً عن الانزعاج من أسر مؤقت. وكان آخرون يفضلون كأبي أن يكونوا بالقرب من نسائهم وأولادهم في اللحظة العصبية، ولكنهم كانوا يعلمون أنهم لا يملكون لهم شيئاً، وأن مشيئة الله تعالى يجب أن تنفذ حتى النهاية.

لم يطل الوقوف أكثر من نصف ساعة انطلق الركب بعدها نحو الغرب من غير أن يبتعد عن «الجنيل» أكثر من مرمى حجر. وما لبثت فرقة من الجنود الفشتاليين أن لاحت في الأفق، وعندما وصلت إلينا تحدّث رئيسها عن بُعدها إلى المليح الذي أمر الجنود الغرناطين بالعودة أدرجهم خبياً نحو المدينة في حين حلَّ محلهم جنود فرديناند مُحَدِّقين بالرهائن. وفي السماء لم يُعد الهلال يُرى. وتابع الركب سيره أشدَّ صمتاً وغمماً حتى أسوار «سانتافي».

«غربية هي مدينتهم الجديدة المبنية بحجارتنا العتيقة». هذا ما دار في خلد محمد وهو ينفذ إلى هذا المعسكر الذي طالما لاحظته المرء عن بُعد بفرع وفضول. وكان يسوده هرج منذر بالهجمات الكبرى، إذ كان جنود فرديناند يتهاون جِهارةً لخوض المعركة الأخيرة، أو بالحري للذبح المدينة التي سقطت في يدها مثلما يُجهز في حَلَبات غرناطة على الثور الذي تناهشه قطيع من الكلاب من كل جانب.

وفي مساء الأول من كانون الثاني (يناير) ١٤٩٢ م بالذات عاد الوزير الذي كان قد بقي إلى جانب الرهائن إلى غرناطة يصحبه هذه المرة عدد كبير من الضباط المسيحيين الذين كان عليه إدخالهم إلى المدينة وفقاً لبنود الاتفاق. ودخلوها ليلاً سالكين الطريق التي سلكها أبي ورفاقه في الأسر، الأمر الذي كان من شأنه ألا يثير شكوك الناس في وقت مبكر جداً. ومثلوا في صباح اليوم التالي أمام أبي عبدالله في برج القمر فسلمهم مفاتيح الحصن. وما لبث أن وصل بالطريق نفسها بضع مئات من الجنود القشتاليين فاستوثقوا من الأسوار. ورفع راهب صليباً فوق برج المراقبة فهتف له الجنود ثلاثاً «قشتالة»، «قشتالة»، «قشتالة»، وكانت هذه عادتهم عندما يستولون على مكان. وإذا سمع الغرناطيون هذه الصيحات فقد أدركوا أن المقدّر كان قد وقع، وإذا أذهلهم أن يحصل مثل هذا الحدث الخطير بمثل هذه الضالة من الضجيج فقد أخذوا يدعون ويرتلون وقد اغرورقت عيونهم وتراخت ركبهم.

وما إن شاع الخبر حتى خرج الأهالي إلى الشوارع وقد اختلط الرجال بالنساء، والمسلمون باليهود، والأغنياء بالفقراء، وهم يجولون مدهولين مجفّلين لأقلّ صوت. وحلّتي أُمّي من زقاق إلى زقاق حتى «السبيكة» حيث قبعت ساعات مراقبة كل ما كان يتحرّك حول الحمراء. وأظنني أذكر أنني رأيت في ذلك اليوم جنوداً قشتاليين يغنون ويصيحون ويتبخثرون على الأسوار. وحوالي الظهر بدأوا ينتشرون في المدينة وقد ثملوا، فعزمت سلمى على الذهاب إلى البيت لانتظار زوجها هناك.

وبعد ثلاثة أيام أعيد أحد جيراننا، وهو كاتب بالعدل يزيد عمره على السبعين كان قد أخذ مع أبي ومن أخذ من الرهائن، إلى منزله؛ وكان قد تظاهر بوعكة فحشي القشتاليون أن يموت بين أيديهم. وقد علم منه أيّ طريق سلك ركبهم، وقررت أُمّي أن تذهب في فجر اليوم التالي للترقب على باب نجد جنوبي المدينة غير بعيد عن «الجنيل». ورأت من الحكمة أن تصطحب وردة التي بإمكانها مناقشة إخوتها في الدين إذا تعرّضوا لنا.

وهكذا ذهبنا في أولى ساعات النهار تحمّلني أُمّي، وتحمل أختي مريم أمها، وكلتا الوالدين تسيران الهويناء لتفادي الانزلاق على الثلج المتجمّد. واجتازنا القصبية القديمة وجسر القاضي وحيّ «مرور» وغرناطة اليهود وباب الخزافين من غير أن نلتقي أحداً

من المارة؛ وكانت قعقعات بعض الآنية المعدنية تذكرنا وحدها بين الفينة والفينة بأننا لم نكن في مخيم مهجور مسكون بالأشباح، وإنما في مدينة كانت كائنات من لحم ودم لا تزال تحسّ فيها بالحاجة إلى قرع القدور.

وتساءلت أُمي بصوت مرتفع: «صحيح أن النهار كاد يطلع، ولكن هل يفسّر هذا عدم وجود ديدبان يتولى الحراسة عند باب نجد؟».

ووضعتني أرضاً ودفعت مصراع الباب فانفتح بلا عناء لأنه كان قد سبق فتحه. وخرجنا من المدينة من غير أن ندري بالضبط أي درب نسلك.

وكنا لا نزال على بضع خطوات من الأسوار عندما بدا لأعيننا المحملقة مشهد عجيب: فرقتان من الجنود بدا أنهما تتوجّهان نحونا، واحدة على اليمين مصعّدة من «الجنيل» وكارة خيولها على الرغم من الانحدار، والثانية على يسارنا آتية من الحمراء وتسير متهادية. وما هي إلا أن انفصل فارس عن هذه وانطلق يعدو. وسارعنا على الفور في العودة نحو المدينة واجتزنا باب نجد من جديد ولكن لم نغلق المصراع كي نستمرّ في المشاهدة من غير أن نرى. وما إن اقترب فارس الحمراء حتى خنفت أُمي صيحة وقالت:

«إنه أبو عبدالله!». وإذ خشيت أن تكون قد تكلمت بصوت مرتفع فقد ألصقت راحتها إلى فمي لإسكاتي في حين كنت صامتاً مطبقاً، وكذلك كانت أختي لأننا كنا مستغرقين بالمشهد الغريب الذي كان يدور أمامنا.

لم أر من السلطان غير عمامته التي كان قد لاثها حول رأسه فغطت جبينه إلى الحاجبين. وبدا لي جواده باهتاً بإزاء جوادتي الحفلات الملكيين الذين كانا يتقدّمان من الناحية الأخرى بخطى وثيدة وقد غطّاهما الذهب والحرير. وتظاهر أبو عبدالله بالترجل، بيد أن فرديناند أوقفه بحركة مُطمئنة. وعندها تقدّم السلطان من قاهره وحاول إمساك يده لتقبيلها، ولكنّ الملك سحبها، ولم يستطع أبو عبدالله الذي كان قد انحنى عليه أن يقبل غير كتفه علامة على أنه لا يزال يُعامل كأمر. لا كأمر لغرناطة على أيّ حال: لقد منحه سادة المدينة الجدد إمارة صغيرة في جبال ألبيجراس وسمح له أن يقيم فيها مع أهله.

لم يدم مشهد باب نَجْدٍ غير لحظات تابع بعدها فرديناند وإيزابيل طريقهما باتجاه الحمراء، في حين دار أبو عبدالله ذاهلاً دورة حول نفسه قبل أن يستأنف مسيره بخطى كانت من البطء بحيث لم يلبث أن انضم إليه جيشه المؤلف من مئة من الخيل والبغال حاملة رجالاً ونساء وأطفالاً وعدداً كبيراً من الصناديق والأشياء المغنّمة بالقماش. وفي الغداة كان الناس يقصّون أنه نبش قبور أجداده وحمل معه رفاتهم خوفاً من وقوعه في أيدي الأعداء.

وزعموا كذلك أنه لم يتمكّن من حمل جميع ممتلكاته، وأنه خبأ ثروة طائلة في كهوف جبل «شُلين». وما أكثر مَنْ وعدوا أنفسهم يومذاك بالعثور عليها! أليصدقني أحد إذا قلت إنني التقيت طوال حياتي أناساً لم يكونوا يحملون بغير هذا الذهب المظمور؟ حتى إنّي عرفت أشخاصاً يُدعّون في كل مكان «الكنّازين»، ولا عمل لهم سوى البحث عن الكنوز، ولا سبياً كثر أبي عبدالله؛ وهم من الكثرة في فاس بحيث يجتمعون بانتظام في ندوة، وقد انتخبوا لهم في الأيام التي قضيتها في تلك المدينة حاكماً للاهتمام بالدعاوى التي كان يقيمها عليهم باستمرار أصحاب الأبنية التي كانوا يزعمون أسسها في أثناء تنقيباتهم. وقد أدرك أولئك الكنّازون أنّ الثروات التي كان الأمراء في الماضي يخلفونها كانت تُرصد وتُسحر كيلا يُعثر عليها، ومن هنا كان استنجادهم في معظم الأحيان بمشعوذ لفق الرصد. ولم يكن في الإمكان التحدّث إلى كنّاز من غير أن يُقسم الأيمان بأنه سبق له أن شاهد كُثباناً من الذهب والفضة لم يكن في وسعه لمسها لأنه كان يجهل التعزيمات والرُقى الخاصّة بها أو لأنّه لم يكن يحمل العطور اللازمة. وها هوذا يُريك كتاباً ذُكرت فيه الأمكنة التي توجد فيها هذه الكنوز، من غير أن يسمح لك مع ذلك بتصفّحه!

أما أنا فلست أدري ما إذا كان الكنّز الذي جمعه طويلاً الحكّام النصريون لا يزال مدفوناً في تلك الأرض من بلاد الأندلس، بيد أنّي لا أظنّ ذلك لأنّ منفي أبي عبدالله لم يكن يُرجى معه الرجوع، وقد سمح له الروم بأن يحمل معه كل ما يرغب في حمله. وهكذا فإنه رحل إلى النسيان غنياً ولكنّ بائساً، وعندما اجتاز آخر عمر جبلي كان في وسعه أن يرى بعدُ منه غرناطة، ظلّ طويلاً ساكناً مضطرب النظرات شارداً الذهن من الهول؛ ولقد سمّى القشتاليون هذا المكان «زفرة العربي الأخيرة»، إذ

ذرف فيه السلطان المخلوع على ما يقال بعض عَبرَات الخزي والندم . ولربما رمته أمه فاطمة في تلك اللحظة بالقول: «تبكي كالنساء مُلكاً لم تُحسِن الذود عنه كالرجال!»

ولسوف يقول لي أبي فيما بعد: «إنَّ ما حدث لم يكن في نظر تلك المرأة انتصاراً للقشتاليين وحسب، وإنما كان، وربما قبل كل شيء، انتقاماً لضرتها. فإذا كانت فاطمة ابنة سلطان وزوجة سلطان وأم سلطان فقد كانت مجبولة على السياسة والمكائد أكثر مما كان عبدالله الذي ربما قنع مختاراً بحياة هو لا طموح فيها ولا مخاطر. وهي التي دفعت بابنها إلى الحكم طمعاً في أن يخلع زوجها أبا الحسن عن العرش لأنه اقترف ذنب هجرها إلى أحضان الأسيرة المسيحية الجميلة ثريا. وفاطمة هي التي هربت أبا عبدالله من برج القمر ودبرت تمرده في أدق تفاصيله على الملك العجوز. وهي التي أزاحت على هذا النحو المحظية وأبعدت أولادها عن الحكم إلى الأبد.

«ولكنَّ القَدْر أشدَّ تقلباً من جلد الخرباء كما قال أحد شعراء «دانية». وبينما كانت فاطمة تهرب من المدينة المفقودة، استعادت ثرياً بسرعة اسمها القديم، «إيزابيل دوسوليس»، وعمدت ابنها سعداً ونصراً فَعَدَّوْا «دون فرناندو» و«دون جوان» ورشي عرش غرناطة. ولم يكونا سليلي الأسرة الملكية الوحيدين اللذين هجرا دين آبائهما ليصبحا من كبراء إسبانيا، فقد سبقهما إلى ذلك مَنْ كان إلى حين بطل «حزب الحرب»، يحيى النجار، وتلقَى لقب «دوق غرناطة - فينيغاس». وما هي أن سقطت المدينة حتى عُيِّنَ صاحب الشرطة فيها، الأمر الذي يكفي لإثبات أنه كان قد حظي بثقة الغالبين التامة. وحذا هذا الخذو أشخاص آخرون من بينهم أحد كتّاب السلطان، واسمه أحمد، وكان يُرتاب من زمن في أنه جاسوس لحساب فرديناند.

«كثيراً ما تكشف الأيام التي تلي الهزيمة عن فساد النفوس. وإذا قول هذا فإنّي أفكّر في الوزير المُلِيح أكثر مما أفكّر في يحيى. لأنَّ الرجل وهو يفاوض من أجل سلامة أرامل غرناطة وأيتامها، حسباً أفاض في إفهامنا، لم ينسَ حظّه بالذات. فقد حصل من فرديناند لقاء التسليم الذي استعجل مواعده عشرين ألف قشتاليّ ذهبيّ، أي ما يقارب عشرة آلاف ألف مُرابطيّ ذهبيّ، علاوة على أراضٍ شاسعة. وارتضى غيره من وجهاء الحكم بلا حرج هيمنة الروم الذين بدّوا متسامحين في أيام النصر الأولى».

والحق أن الحياة سرعان ما استعادت دورتها في غرناطة المحتلة وكانَ فرديناند كان يريد تجنب ارتحال المسلمين بالجملة إلى المنفى. وعاد الرهائن إلى أسرهم في اليوم التالي لدخول الملك والملكة المدينة، وقد قصص علينا أبي أنه لقي من الرعاية ما كان يلقاه ضيف من الأمراء. ولم يُجس، ولا رفاقه، في سجن داخل «سانتافييه»؛ وكان في وسعهم الذهاب إلى السوق والتجول أحياناً زُمرًا صغيرة في الشوارع يصحبهم مع ذلك حراس مكلفون مراقبتهم وحميتهم من حنق بعض الجنود السكاري أو الهانجين. وفي أثناء إحدى الجولات أُطلع أبي عند باب حانة على بحار جنوبي كان حديث الناس وسلواهم في جميع أنحاء «سانتافييه»، وكانوا يسمونه «كريستوبل كولون»، وكان يزعم أنه يرغب في تجهيز بعض المراكب السريعة لبلوغ الهند من جهة الغرب نظراً لأن الأرض كروية، ولم يكن يخفي رجاءه في الحصول على جزء من كنوز الحمراء للقيام بهذه الحملة. وكان قد أقام هنا منذ أسابيع ملحقاً على مقابلة الملك أو الملكة اللذين كان يتحاشيانه على الرغم من أن شخصيات مرموقة كانت قد أوصتتها به. ولم يكن يكف عن إرسال الرسائل والالتماسات إليهما في انتظار أن يستقبلاه، الأمر الذي كان يزعجهما في أوقات الحرب تلك. ولم يرَ محمد قط ذلك الجنوبي فيما بعد، وأما أنا فكثيراً ما أتيح لي سماع أخباره.

وما هي إلا أيام على عودة أبي حتى استدعاه الدوق يحيى طالباً إليه استئناف عمله ورزناً لأن السلع الغذائية لن تلبث، حسب قوله، أن تعود بوفرة إلى السوق وينبغي السهر على قمع كل غش. وقد هاج أبي أول الأمر لمجرد رؤية المارق، بيد أنه لم يلبث أن تعاون معه ومع كل صاحب شرطة غيره، ولكن مع الغمعة، على الرغم من ذلك، ببعض اللعنات حينما كان يتذكر بين الفينة والفينة الرجاء الذي كان يعقده المسلمون على الرجل فيما مضى. ومن جهة أخرى فإن وجود يحيى كان يطمئن وجهاء المدينة اللذين كان بعضهم يعرفونه جيداً، والذين أخذوا جميعاً يواظبون على مخالطته بأكثر مما كانوا يفعلون يوم كان منافساً لأبي عبدالله المنكود.

ويذكر أبي أن «فرديناند كان يأتي بنفسه إلى غرناطة للتأكد من أن رجاله كانوا يحترمون الوعود المقطوعة، إذ كان حريصاً على طمأنة المدحورين على حسن ما لهم. وبعد أن كان الملك قلقاً قلقاً شديداً على سلامة نفسه في الأيام الأولى أخذ يتنقل

بانتظام في أرجاء المدينة زائراً السوق، بحراسة مشددة بالطبع، متفحصاً الأسوار العتيقة . والحقُّ أنه كان يتحاشى خلال عدّة أشهر قضاء الليل في مدينتنا مؤثراً العودة إلى «سانتافيه» قبل غروب الشمس، بيد أن حذره المبرر بالطبع لم يكن يترافق مع أي تدبير جائر أو متحيز، ولا مع أي انتهاك لمعاهدة التسليم. وكانت رعاية فرديناند الخاصة أو المصطنعة من السعة بحيث كان زائرو المدينة من المسيحيين يقولون للمسلمين: «إنكم اليوم أعزُّ على قلب ملكنا مما لم تكن نحن يوماً». وكان بعضهم يذهبون إلى القول بسوء نية مفرطة إن العرب قد سحروا الملك لمنع المسيحيين من الاستيلاء على أملاكهم.

ويتنهد محمد قائلاً: «وما لبثت الآمنا أن طهرتنا وذكرتنا بأننا على الرغم من كوننا أحراراً فإننا أصبحنا مكبلين بدُّلتنا. ومع ذلك فإنه ما إن مرّت بضعة أشهر على سقوط غرناطة - نجاها الله - حتى جُنُبنا أفضع الشرور، إذ انصبت شريعة الغالبيين على اليهود بانتظار انقضاؤها علينا. وكانت سارة، لِنَكِدِ طالِعها، على حق».

في شهر جمادى الثانية من هذا العام، أي بعد ثلاثة أشهر على سقوط غرناطة، جاء رُسل الملك إلى قلب المدينة يذيعون بالعربية والقشتالية وهم يقرعون الطبول أمراً من فرديناند وإيزابيل يقضي بأن «تقطع نهائياً كل صلة بين اليهود والمسيحيين، الأمر الذي لا يمكن تحقيقه إلا بطرد جميع اليهود من مملكتنا». وكان على هؤلاء أن يختاروا بين العبادة والمنفى. وإذا ارتأوا الحلّ الأخير فإن أمامهم مهلة أربعة أشهر لبيع أملاكهم المنقولة وغير المنقولة، ولكنهم لا يستطيعون أن يحملوا معهم الذهب ولا الفضة.

وعندما جاءت سارة تزورنا غداة ذلك الإعلان كان وجهها منتفخاً بعد ليل طويل من الدموع، بيد أنه كانت تُطلُّ من عينيها اللتين جفت مآقيهما تلك الوداعة التي كثيراً ما تصاحب وقوع مأساة طال انتظارها. حتى إننا استباححت السخرية من المنشور الملكي منشدة بصوت رجولي أجش بعض عبارات استظرفتها منه:

«لقد أخبرنا أعضاء محاكم التفتيش وأشخاص آخرون أن تعاطي اليهود مع المسيحيين يجلب أفضع الشرور. فاليهود يسعون إلى إغواء من اعتنقوا المسيحية

حديثاً وأولادهم بتزويدهم بكتب الصلوات اليهودية وإعطائهم الخبز الفطير في أيام الفصح وتعريفهم بالماكل المحرّمة وإقناعهم باتباع شريعة موسى. وهذا يؤدي إلى تحقير ديانتنا الكاثوليكية المقدّسة والتقليل من شأنها.

وقد حاولت أمي مرّتين حملها على خفض صوتها لأننا كنّا جالسين في تلك الصبيحة الربيعية في حديقة البيت، ولم تكن سلمى تريد أن تترامى تلك السخرية إلى مسمع جارٍ سمىء النية. وكانت وردة قد ذهبت لحسن الحظ إلى السوق مع أبي وأختي لأنني لا أعرف ما كان يمكن أن يكون حالها وهي تسمع عبارة «ديانتنا الكاثوليكية المقدّسة» تقال بلهجة ساخرة.

وما إن انتهت سارة من محاكاتها حتى طرحت عليها أمي السؤال المهمّ الوحيد:

«ماذا قرّرت أن تفعلي؟ هل ستختارين تغيير دينك أم المنفى؟»

وكان الجواب ابتسامة متصنّعة، ثم «ما زلت أملك وقتاً» وقد قيلت بمرح زائفة. وانتظرت أمي بضعة أسابيع قبل أن تعيد الكرة. ولم يكن الجواب ليختلف.

ولكنّ في أوائل الصيف، وكانت المهلة المعطاة لليهود قد انقضت ثلاثة أرباعها، كانت المبرقشة قد حضرت بنفسها معلنة:

«علمتُ أن حاخام إسبانيا الأكبر، أبراهام سنيور، قد طلب العمادة هو وأبناؤه وجميع أهله. واستهلّت الأمر في البداية، ثم قلتُ لنفسي: «أيا سارة، أرملة يعقوب بردونيل وبائعة العطور في غرناطة، أتكونين أكثر يهودية من الحاخام أبراهام؟» وعليه فقد قرّرت طلب العمادة لي ولأبنائي الخمسة تاركة أمر الحكم على ما في قلبي لرّب موسى».

كان ضيق سارة بادياً في ذلك اليوم فنظرتُ إليها أمي بحنان وقالت: «إني سعيدة بأنك لن ترحلي. وأنا أيضاً سوف أبقى في هذه المدينة لأنّ ابن عمي لم يتحدّث عن المنفى».

ومع ذلك فقد غيرت سارة رأيها بعد أقلّ من أسبوع. وحضرت إلينا ذات مساء

مضطربة وهي نَحْرٌ ثلاثة من أبنائها يكاد يكون أصغرهم أكبر مني . قالت : «جئت أودعكم . لقد عزمت أحياناً على الرحيل . ستقوم غداً في الفجر قافلة إلى البرتغال ، وسوف أنضم إليهما . ولقد زوّجت أُمسِ بنتي الكبيرتين ، وعمر الأولى أربع عشرة سنة والثانية ثلاث عشرة ، ليكون لهما زوجان يرعيانها ، وبعث بيتي لجندي من جنود الملك لقاء أربع بغلات» .

قالت ذلك قبل أن تضيف معذرة :

«إذا بقيتُ يا سلمى فسيراودني الخوف كلَّ يوم إلى المات ، وسأفكر كلَّ يوم بالرحيل ، ولكني لن أستطيع ذلك على الإطلاق» .

وقالت أمي بدهشة :

- حتى ولو كنت قد غيرت دينك؟

وكان ردّ «المبرقشة» الأوحده حكاية كانت تدور منذ أيام في الحيّ اليهودي بغرناطة ، وهي التي جعلتها تختار المنفى :

«يحكى أن أحد حكماء جماعتنا وضع على نافذة من نوافذ بيته ثلاث حمامات إحداها مذبوحة منتوفة الريش علّق في رقبتها لوحة كتب عليها : «كانت هذه المرتدة آخر العازمات على الرحيل» ؛ وكانت الحمامة الثانية منتوفة الريش لكنّ حيّة ، وقد حملت لوحة عليها : «رحلت هذه المرتدة قبل الأولى بقليل» ؛ وكانت الثالثة حيّة مكسوة بريشها ، وكان بالإمكان قراءة ما يلي في لوحتها : «كانت هذه هي الراحلة الأولى» .

وعلى هذا فقد مشت سارة وأهل بيتها من غير أن يلتفتوا خلفهم ؛ وكان مقدراً أن نقتضي نحن أثرهم عمّا قريب على درب الشتات .

عام المهرجان

٨٩٨ هـ (٢٣ تشرين الأول «أكتوبر» ١٤٩٢ م -

١١ تشرين الأول «أكتوبر» ١٤٩٣ م)

لم أجرؤ قط منذ ذلك العام على أن اتلفظ أمام أبي بكلمة «مهرجان» لفرط ما كانت تغرقه في آلم الذكريات. وما كانت أسرتي لتحتفل بعد ذلك بهذا العيد.

لقد جرى كل شيء في التاسع من شهر رمضان المبارك، وربما كان عليّ بالحري أن أقول في ذكرى القديس يوحنا في الرابع والعشرين من شهر حزيران (يونية)، لأنه لم يكن يُحتفل بـ «المهرجان» بحسب العام الهجري، وإنما تبعاً للتقويم المسيحي. فذلك اليوم يمثل منقلب الصيف الذي يحدّد مدار الشمس، وعليه فلا وجود له في سنتنا القمرية. وقد طالما اتّبع الناس في غرناطة، كما في فاس، التقويميين معاً. فلحرت الأرض أو لمعرفة الوقت اللازم لتطعيم أشجار التفاح أو قطع قصب السكر أو جمع السواعد للقطاف فإنّ الأشهر الشمسية وحدها هي التي تتيح تحديد الأوقات؛ فلدى اقتراب «المهرجان» مثلاً يعرف الناس أنّه حان قطاف الورود المتأخرة التي كانت بعض النساء يزيّن بها صدورهنّ في تلك الأيام. وعلى العكس من ذلك فإنّه إذا سافر إنسان لم يعتمد إلى مدار الشمس وإنما إلى مدار القمر: بدر أو غرة، مُتنامٍ أو مُتناقص، لأنّه بذلك يمكن تحديد المراحل لسير القافلة.

وبعدّ فلا أكون أميناً للحقيقة إذا أغفلت أن أضيف أنّ التقويم المسيحي لم يكن يُستخدم فقط للاهتمام بالنبات، وإنما كان يُقدّم كذلك فرصاً كثيرة للاحتفال، الأمر الذي لم يكن مواطني يجرمون أنفسهم إيّاه قط. فلم يكن يُكتفى بالاحتفال بذكرى مولد النبي بإلقاء المطوّلات الشعرية في الساحات العامة وبتوزيع الأطعمة على المحتاجين، بل كان يُحتفل أيضاً بذكرى ميلاد المسيح بتحضير أطباق خاصة من

القمح أو الفول أو الحمص أو الحُضْر. وإذا كان تقديم التهاني الرسمية في قصر الحمراء علامة خاصة على الاحتفال برأس السنة الهجرية فإن رأس السنة المسيحية كان يتيح احتفالات يترقبها الأطفال بفارغ الصبر: كانوا يومئذ يتقنعون ويطوفون بمنازل الأغنياء يقرعون أبوابها وهم ينشدون أناشيد كانت توفر لهم حفلات من الفاكهة المجففة تُعطى لهم لإبعاد صخبهم أكثر مما تُعطى لشكرهم على أغانيهم؛ وكان الناس يتلقون فوق ذلك بالحفاوة رأس السنة الفارسية، يوم «النيروز»؛ فعشيتة كانت تُعقد زيجات لا يُحصى عددها لأنه كان يُقال إنها لحظة مؤاتية للإخصاب، وفي الصبيحة كانت تُباع على قارعات جميع الطرق دُمي من الفخار أو الخنزف المموه تمثل خيولاً أو زرافات على الرغم من التحريم الديني. وكان هناك بالطبع أيضاً الأعياد الإسلامية الرئيسية: الأضحى، وهو العيد الكبير الذي كان كثير من الغرناطين ينفقون فيه كل ما يملكون لشراء خروف الأضحية أو الثياب الجديدة؛ وعيد الفطر الذي لم يكن يهناً لأشدّهم فقراً أن يَطعموا فيه على مائدة تحفل بأقل من عشرة أطباق متنوعة؛ وعاشوراء، وهي يوم مخصّص لذكرى الأموات، وإن لم يكن الناس يقصرون فيه عن تبادل الهدايا الفخمة. وكان ينضاف إلى هذه الأعياد عيد الفصح، وأول أيام الخريف، ويوم «المهرجان» على الأخص.

وكان من عادة القوم أن يشعلوا في هذا الحدث الأخير إبلات كبيرة يوقدون نارها بالقش؛ وكانوا يقولون وهم يضحكون إنه لما كانت هذه الليلة أقصر ليالي السنة فإنها لم تكن تستحق أن يناموا فيها. ولم يكن يفيد على أي حال أن يسعى المرء في طلب أدنى الراحة لأن زُمرأ من الفتيان كانت تجوب المدينة إلى الصباح رافعة عقائرها بالغناء؛ وكانوا قد درجوا فوق ذلك على عادة بغیضة هي رش جميع الشوارع بالماء، الأمر الذي كان يجعلها زلقة طوال ثلاثة أيام.

ولقد انضم إلى أولئك الرعاع في تلك السنة مئات الجنود القشتاليين فاجتاحوا منذ الصباح الحانات الكثيرة التي فتحت بعد سقوط المدينة قبل أن ينتشروا في مختلف الأحياء. وعليه فلم يكن أبي يشعر بأية رغبة في المشاركة في الأفراح. ولكن دموعي ودموع أختي مضافة إلى شفاعاة وردة وشفاعة أمي حملته على اصطحابنا

للتجول بعد التأكيد بأن «لا نتعدى نطاق أليسان». وعليه فقد انظر مغيب الشمس لأننا كنا في شهر الصوم، وازدد بسرعة طبعاً من حساء العدس كان قد استحقه - ما أقسى رمضان حين يكون النهار يمثل هذا الطول! - ثم قادنا إلى باب الريات حيث أقام للمناسبة باعة الزلابية والتين المجفف وشراب المشمش المثلج بثلج محمول على ظهور البغال من أعالي جبل «شُلبَر».

وكان القدر قد ضرب لنا موعداً في شارع «السور القديم». وكان أبي يمشي في الطليعة مسكاً بيد مريم من جهة ويدي من الجهة الأخرى، متبادلاً بضع كلمات مع كل واحد من الجيران الذين كان يلتقيهم؛ وكانت أمي على بُعد خطوتين خلفه تتبعها عن كثب وردة عندما صاحت هذه بغتة: «جوان!» وجمدت في مكانها. وتوقف على يميننا جندي شاب ذو شاربين مطلقاً صيحة غمور خفيفة وهو يجهد في التعرف إلى المرأة المحجبة التي نادته على هذا النحو. وشعر أبي على التو بالخطر وقفز خطوة نحو أم ولده وأمسك بمرقها بقوة وهو يقول بصوت خافت:

«لنعد إلى البيت يا وردة! لنعد بحق عيسى المسيح!»

كانت نبرته متوسلة لأنه كان يحيط بالمدعو جوان أربعة جنود قشاليين ثملين ومسلحين مثله بيلطات ثقيلة طويلة المقابض؛ وابتعد جميع المارة ليتسنى لهم شهود العرض من غير أن يدخلوا فيه. وجَلَّتْ وردة الأمر بصيحة:

«إنه أخي!»

ثم هتفت للشاب الذي ظلّ ذاهلاً:

«جوان، أنا إسمردا، اختك!»

وخلصت، وهي تنفوه بهذه الكلمات، ذراعها اليمنى من قبضة محمد المُطَبِّقَة ورفعت نقابها قليلاً. وتقدم الجندي وأمسك بها بضع لحظات من كتفها ثم ضمها إليه بقوة. وشحب وجه أبي وأخذ يرتعد. فقد كان يعرف أنه في طريقه إلى فقدان وردة، وكان - وهذا أدهى وأشدّ - خزيان أمام الحَيِّ بأسره، مطعوناً في صميم رجولته.

وأما أنا فلم أكن أفقه بالطبع شيئاً من المأساة الدائرة أمام عيني الطفل الذي

كنته . بيد أنني أذكر فقط بدقة اللحظة التي توجّه فيها الجندي إليّ . فقد قال لوردة إنَّ عليها أن تصحبه للعودة إلى قريتها التي دعاها «القنطريّة» . وبدأت بغتة مترددة . فإذا كانت قد عبّرت بعفوية عن فرحها بلقاء أخيها بعد خمس سنوات من الأسر ، فإنّها لم تكن متأكّدة من رغبتها في مغادرة بيت أبي والعودة إلى ذريتها ومعها ابنة أولدها إيّاها عربيّ . فمما لا ريب فيه أنّها لن تحظى قطّ بزواج . ولم تكن بائسة عند محمّد الوردان الذي كان يُطعمها ويكسوها ولا يهملها قطّ أكثر من ليلتين متواليّتين . ثمّ إنّّه حينما يكون المرء قد عاش في مدينة مثل غرناطة ، حتى وإنّ في أيام الأسي ، فإنّه لا يرجو أن يعود فيدفن نفسه في قرية صغيرة من نواحي مُرسيّة . ويمكن تصوّر أنّ هذه كانت أفكارها عندما نبّهها أخوها نافذ الصبر :

«هذان الولدان ولدالك؟»

واستندت إلى جدار مترنّحة وتمتمت به «لا» لم تلبث أن غطّتها «نعم» . وإذا سمع جوان الكلمة الأخيرة فقد وثب باتجاهي ورفعني بين ذراعيه .

كيف السبيل إلى نسيان الزعقة التي أطلقتها عندئذٍ أمي ؟ وارتمت على الجندي تحمّشه بأظفارها وتنهال عليه ضرباً بيناً كنت أنا أتحبّب ما وسعني التحبّب . بيد أنّ الشاب لم ينخدع ، وسرعان ما تحفّف من حملي هاتفاً في أخته بنبرة عتاب :

«الصبيّة وحدها لك إذن؟» .

ولم تقل شيئاً ، الأمر الذي كان جواباً كافياً في نظر جوان .

«أتأخذينها معك أم تتركينها لهم؟» .

كانت النبرة عند هذا من القسوة بحيث خافت المسكينّة . وتضرّعت قائلة :

«أهدأ يا جوان ، لا أريد فضيحة . غداً آخذ أمتعتي وأذهب إلى القنطريّة»

بيد أنّ الجندي لم يكن يفهم الأمر على هذا النحو :

«أنت أختي ، وسوف تذهبين لجمع أمتعتك على الفور وتتبعينني!»

وإذا تشجّع أبي بما أبدت وردة من تراجع فقد اقترب وقال :

«إنها زوجتي!»

قال ذلك بالعربية، ثم بقشتالية رديئة. وصفعه جوان بكل ما فيه من عزم فألقاه منبطحاً على قارعة الطريق الموحلة. وأخذت أمي تُعول وكأنها إحدى النادبات، في حين صاحت ورده:

«لا تؤذها! لقد أحسن معاملتي على الدوام. إنه زوجي».

وتردد الجندي الذي كان يمسك بأخته من غير مداراة قبل أن يطلق وقد خفت حدته فجأة:

«في نظري أنك كنت أسيرته، ولم تعودني ملك يمينه بعد أن أصبحت هذه المدينة في أيدينا. وإذا قلت لي إنه زوجك كان في وسعه الاحتفاظ بك، ولكن ينبغي أن يُعمد على الفور وأن يبارك كاهن زواجكما».

عندها توجهت ورده بتضرعاتها إلى أبي قائلة:

«إقبل يا محمد وإلا فرّقوا بيننا».

وساد صمت. ثم صاح واحد من المتجمهرين:

«الله أكبر!».

ونفض أبي، وكان لا يزال ملقى على الأرض، على مهل وتقدم بكبرياء نحو ورده وهتف بها بصوت مرتجف: «أعطيك ثيابك وإبتك!» قبل أن يتجه صوب البيت مخترقاً سياجاً من تمتات الموافقة.

وقد علقت أمي على الحادث بتجرد قائلة: «لقد أراد أن يُبقي على ماء وجهه أمام الجيران، ولكنه كان قد شعر مع ذلك بالتضاؤل والعجز».

ثم أضافت جاهدة في ألا يُستشف من كلامها أي تهكم:

«في تلك اللحظة كانت غرناطة في نظر أبيك قد سقطت حقاً في يد العدو.»

* * *

قبع محمد في بيته أياماً لا يسلو. وكان يرفض حتى الانضمام إلى أصدقائه لتناول

وجبات الإفطار؛ ومع ذلك لم يؤاخذه أحد، إذ كان الجميع قد عرفوا بمحتته في مساء «المهرجان» بالذات. وقد جاء الجيران غير مرة حاملين إليه، كما إلى مريض، الأطباق التي لم يذُقها في بيوتهم. ولم يعد أحد يحسّ في البيت بوجود سلمى، فيما كانت توجّه إلى زوجها كلاماً إلا للردّ على أسئلته، وكانت تمنعني من إزعاجه، وتتحاشى هي أن تفرض عليه وجودها من غير أن تتعدّ قطّ عنه لكيلا يضطرّ إلى طلب الشيء نفسه مرّتين.

وعلى الرغم من قلق أمّي فقد حافظت على هدوئها لأنها كانت مقتنعة بأن الزمن كفيل بإزالة ألم ابن عمّها. وكان ما يؤلّها هو أن ترى محمّداً متعلّقاً «بأم ولده» إلى هذا الحد، ولا سيّما أنّ هذا التعلّق انكشف لجميع ثرثارات ألبيسان. وعندما كنت أسألهما وقد غدوت يافعاً عمّاً إذا لم تكن على الرغم من كل شيء راضية لرحيل ضرّتها كانت تدافع قائلة عن قناعة:

«الزوجة العاقلة تسعى إلى أن تكون أولى نساء زوجها لأنّ رغبتها في أن تكون الوحيدة وهُمّ من الأوهام».

ثم تضيف بدعابة زائفة:

«مهما قيل فإن كون الزوجة الوحيدة ليس أبهج من كون الولد الولد الوحيد. فذاك يقتضي مزيداً من العمل، ومزيداً من الضجر، وتفرد الزوجة في تحمّل أطوار غضب الرجل ومطالبه. صحيح أن هناك الغيرة، وهناك المكائد، وهناك المشاجرات، ولكنّ هذا كله يجري على الأقل داخل البيت، لأنّه ما إن يبدأ الزوج بالبحث عن مسرّاته خارج البيت حتى تفقده جميع زوجاته».

ولهذا السبب ولا ريب جُنّ جنون سلمى عندما وثب محمّد في آخر يوم من رمضان من مكانه المعهود وخرج من البيت ثابت الخطى. ولم تعرف إلا بعد يومين أنه ذهب لزيارة حامد الملقّب بالفكّاك، «مفتلي» غرناطة العجوز الذي كان يقوم منذ عشرين سنة بوظيفة صعبة، وإن مُربحة، هي افتداء الأسرى المسلمين في الأرض المسيحية.

فلقد طالما كان في بلاد الأندلس أشخاص مهتمّهم البحث عن المساجين

والحصول على الإفراج عنهم . ولم يكن ذلك وقفاً علينا بل كان عند المسيحيين الذين درجوا منذ زمن طويل على تعيين «الفكّاك مايور»، وهو في الغالب شخصية رفيعة من شخصيات الدولة يساعده مُفتدون آخرون كُثُر. وكانت عائلات الأسرى هي التي تبُلِّغ عن اختفائهم : جندي وقع في قبضة العدو، أحد أهالي مدينة محتلة، فلاحه أسرت أثناء غزوة للنهب والسلب . ويبدأ «الفكّاك» أو أحد ممثليه عندها تحقيقاته منتقلاً إلى أرض الخصم - وحتى إلى مناطق بعيدة أحياناً - في زِيّ تاجر، أو حتى بصفته الحقيقية، للعثور على الأشخاص المفقودين والمساومة على مبلغ الفدية . ولما كانت عائلات كثيرة تعجز عن دفع المبلغ المطلوب فقد كانت تُنظّم حملات للتبرّع، ولم تكن أي صدقة أسمى في نظر المؤمنين من التي تُستخدم للإفراج عن المؤمنين المُسترقين . وكان كثير من أهل التقى والورع ينفقون كل ما يملكون لاقتداء أسرى غالباً ما لا يكونون قد شاهدوهم في حياتهم، وهم لا يرجون من جزاء غير رحمة الله تعالى . وفي المقابل لم يكن بعض المفتدين سوى عُقبان يستغلون مصائب العائلات ليبتزوا منها القليل من المال الذي تملكه .

لم يكن حامد من هؤلاء، يشهد بذلك بيته المتواضع . وقد قصّ عليّ أبي ما حدث له معه بشيء من التردّد والتحفظ لم تُفلح السنون في إزالتها:

«استقبلني باللياقة الباردة التي يَسْتَقْبِلُ بها من لا ينفكّون يتلقون الالتماسات، ودعاني إلى الجلوس على وسادة وثيرة، وبعد أن استفاض في السؤال عن صحي رجائي أن أعرض له ما حملني إليه . ولما أخبرته لم يتسالك من الإغراب في ضحك صاحبه انتهى بسعال خفيف ممطوط . وإذ شعرت بأنني أهنت فقد نهضت للوداع، ولكنّ حامداً جذبني من كميّ قائلاً: «أنا في سنّ أبيك ولا ينبغي أن تُجَدَّ عليّ . لا تعتبر ضحكي إهانة بل اعتبره إكباراً لجسارتك التي لا تصدّق . الشخص الذي تريد استعادته ليس امرأة مسلمة وإنما امرأة مسيحية قشتالية تجرأت على الاحتفاظ بها أسيرة لديك ثمانية عشر شهراً بعد سقوط غرناطة في حين أن أوّل قرار اتخذته المنتصرون قضى بأن يُجرّر جهازاً نهاراً آخر الأسرى المسيحيين المقيمين في مدينتنا وعددهم سبعمئة أسير». وكان جوابي الأوحده: «نعم». ورمقتي متأملاً طويلاً في ثيابي ثمّ خاطبني بتؤدة ولياقة وقد حكم ولا ريب بأنّي شخص محترم: «أدرك جيداً

يا بني أن تكون مولهاً بهذه المرأة، وإذا قلت لي إنك أحبتها بالرعاية والعناية باستمرار وأنتك تحبّ البنت التي أنجبتها منها صدقتك عن طيب خاطر. ولكن عليك أن تقول إن العبيد لم يكونوا يعاملون جميعاً على هذا النحو، لا عندنا ولا في قشتالة. لقد كان معظمهم يقضون النهار في نقل الماء أو صناعة النعال، وكانوا في الليل يُحشرون كالبهائم والقيود في أقدامهم أو في رقابهم في أقبية فظيعة تحت الأرض. إن ألوفاً من إخواننا ما زالوا يَلْقَوْنَ هذا المصير ولا يهتم أحد بتخليصهم. فكّر فيهم يا بني وساعدني على افتداء بعضهم بدل الجري وراء وهم، وكن على ثقة من أنه لن يستطيع بعدُ مسلم على الأرض الأندلسية أن يحكم مسيحياً ولا حتى مسيحية. وإذا أصرت على الرغبة في استعادة تلك المرأة فينبغي أن تتوجّه إلى كنيسة». وأطلق لعنة ومرّ براحتيه على وجهه قبل أن يتابع قائلاً: «فوضّ أمرك إلى الله واسأله أن يهبك الصبر والسلوان».

وتابع أبي قائلاً: «وإذ نهضت للذهاب خائباً ساخطاً فقد أغدق عليّ حامد نصيحة أخيرة بشيء من المسارة: «في هذه المدينة كثير من الأرامل بفعل الحرب، ويتيمات كثيرات معدومات، ونساء كثيرات بلا معين. حتى إن منهنّ ولا شك من هنّ من ذوي قرباك. ألم يوصر كتاب الله المستطيعين من الرجال أن يحيطوهنّ بالرعاية والحماية؟ إنه لينبغي على المسلم الكريم في زمن المصائب الكبرى كالمصيبة التي أصابتنا أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع، لأنه وهو يضاعف من مسرّاته ينجز عملاً محموداً ونافعاً للأمة. غداً يوم العيد ففكّر في أولئك اللائي سيحتفلنّ به بذرف الدموع». وغادرتُ الفكّك العجوز وأنا لا أدري إذا كانت الساء هي التي قادتني إليه أو الجحيم».

ما زلت حتى اليوم عاجزاً تماماً عن الجزم بالأمر، لأنّ حامداً سوف يتصرّف في نهاية المطاف بقدر من المهارة والإخلاص والتفاني سيكون من شأنها أن تُسَلِّم حياة أهلي إلى الاضطراب سنواتٍ طويلة.

عام الرحيل

٨٩٩ هـ (١٢ تشرين الأول «أكتوبر» ١٤٩٣ م -

أول تشرين الأول «أكتوبر» ١٤٩٤ م)

«يشبه الوطن المفقود جثة أحد الأقرباء؛ اذفنها بإجلال وآمن بالخلود».

كانت كلمات «أستغفر الله» ترنّ على وقع سبحة العنبر التي كانت أصابعه الهزيلة الورعة تفرّق حباتها بلا كلل. وكان حول الواعظ أربعة وجوه ملتحية عابسة بينها وجه محمد أبي، أربعة وجوه ممطوطة ارتسم عليها نفس الكرب الذي كان الشيخ يؤججه بلا تحفظ.

«ارحلوا، هاجروا، دعوا الله يسدّد خطاكم لأنكم إذا رضيتم بالعيش في الخضوع والذلّ، إذا رضيتم بالعيش في بلد تُنتهك فيه تعاليم الدين الحنيف ويشتّم كلّ يوم الكتابُ والنبى صلى الله عليه وسلّم فإنكم تصوّرون الإسلام بصورة مهينة سوف يجاسبكم عليها الله تعالى يوم الدين. لقد جاء في الكتاب قوله عزّ وجلّ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ، قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(١).

في ذلك العام الحافل بالبلاء والتمزّق كانت نهاية مهلة السنوات الثلاث التي مُنحت للغرناطين للاختيار بين الخضوع والمنفى. فحسب اتفاق التسليم كان أمامنا حتى بداية عام ١٤٩٥ المسيحي للتقرير، بيد أنه لما كان اجتياز البحر إلى المغرب محفوفاً بالريب منذ شهر تشرين الأول (أكتوبر) فقد كان من الخير الذهاب في الربيع أو في أقصى حدّ في الصيف. وسرعان ما الصيق بمن رغب في البقاء

(١) سورة النساء، الآية ٩٧ (المترجم).

النعْتُ الذي سبق إطلاقه على المسلم القاطن أرضاً مسيحية: «مُدَجَّن»، وهي كلمة حرّفها القشتاليون إلى «مُدِيْجَار». وعلى الرغم من هذه التسمية الشائنة فإن كثيراً من الغرناطيين كانوا متردّدين.

كان الاجتماع السريّ المعقود في حديقة بيتنا بألبيسان - رَدّه الله علينا - يشبه آلاًفاً غيره كانت تُعقد في ذلك العام في مدينتنا لمناقشة مصير الجماعة، وحتى مصير واحد من أفرادها في بعض الأحيان. وكان «أستغفر الله» يحضر حينها يكون قادراً على الحضور، وكانت له الكلمة العليا وإن كان يقوّلها بصوت خافت للدلالة على أنه أضحى مَدَاك في بلد مُعَادٍ. وكان يبادر إلى القول إنه إذا لم يكن قد سلك حتى الآن طريق المنفى فذلك فقط لِثَنِي المتردّدين عن درب الهلاك.

ولم يكن عدد المتردّدين مَمَّن كانوا حاضرين بالقليل، بدءاً بأبي الذي لم يكن قد فقد الرجاء في العثور على وردة وابنتها، والذي كان قد أقسم ألا يرحل من غير أن يسطحبهما نكابة بجميع جنود قشتالة وأراغون. وكان قد حصل بلإلحاحه في زيارة حامد الفكّاك على وعد منه بإيصال رسالة إلى أمّ ولده. وكان قد أفلح كذلك في تكليف تاجر جنوبيّ اسمه «برتولوميه» يقيم منذ أمد طويل في غرناطة ويكسب المال الطائل من جرّاء افتداء الأسرى بمهمة ماثلة لقاء مبلغ كبير من المال. وعليه فإنه لم يكن راغباً في الابتعاد قبل أن يجني ثمار مساعيه الباهظة الثمن. وكانت محنته قد جعلت منه رجلاً آخر لا يُعير اهتماماً لإجماع الناس على نبذه ولا لدموع سلمى، ويلوذ بمصيبته من المصائب المحيطة به.

أما جارنا حمزة الحلاق فكانت تدفع به أسباب أخرى إلى التردّد. فقد كان يملك أراضي اشتراها قطعة قطعة في مدّة عشرين سنة من المال الذي كانت تدوّره عليه عمليات الختان الدقيقة المُربحة، وكان يمّني نفسه بالأّ يهاجر قبل أن يبيع بسعر جيد آخر كَرْمَة من كرومه؛ ولهذا كان ينبغي الانتظار لأنّ كثيراً من المستعجلين في الرحيل كانوا يُرخصون آنذاك أثان حقوقهم، وكانت الكلمة العليا للمشتريين.

وكان يبرر موقفه بالقول: «سوف أجعل هؤلاء الروم الملاعين يدفعون أغلى ما يمكن من ثمن».

وكان «أستغفر الله» الذي كان حمزة من المعجبين به على الدوام يرغب في تجنيبه
عدم الطهارة، هو الذي طهرت موساه نصف صبيان ألبيسان.

جاراً آخر من جيراننا هو البستاني العجوز سعد الذي عميت عيناه حديثاً لم يكن
يشعر بالقدرة على الرحيل. وكان يردّد: «لا يُعاد غرس شجرة عتيقة خارج
تربتها».

وإذ كان رجلاً ورعاً متواضعاً يخشى الله في كل أمر فقد جاء يسمع من فم
الشيخ ما يُفتي به في حاله العلماء المتفقهون في كلام الدين وفي الحديث الشريف.

وتتذكّر أُمي أن «حمزة وسعداً قديماً إلى بيتنا بُعيد صلاة الظهر فأدخلهما محمّد بيننا
انسحبْتُ بصحبتك إلى مخدعي. وكانت حدودهما شاحبة وابتسامتهما مصطنعتين
كما كانت حال أبيك الذي أجلسهما على وسادتين قديمتين في زاوية ظليلة من
الحديقة ولم يبادلها سوى تمتات لا تكاد تُسمع. ووصل الشيخ بعد ساعة، وعندها
فقط ناداني محمّد وطلب إليّ تجهيز شراب بارد».

وقد اصطحب «أستغفر الله» حامداً الذي كان يعرف مدى صلته برَبّ البيت.
كان الفكّك العجوز قد رقى لجنون والدي، وإذا كان قد أخذ يُكثّر من زيارته منذ
عام فلم يكن ذلك لردّه إلى الرشيد بقدر ما كان لملامسة جرائته وشبابه وعشقه
المقيم. ومع ذلك فقد كان لزيارة الفكّك في ذلك اليوم بعض الفخامة. فقد
انقلب مجدداً إلى ذلك الوجيه المتدين الذي كان يعرفه الناس، وكانت أجفان عينيه
المجزّعة تتعمّد الصرامة، وكانت أحاديثه ثمرة تعاطيه الطويلة مع الخصم.

«لقد خالطت طوال حياتي أسرى لم يكونوا يملحون بغير الحرّية، وليس في وسعي أن
أفهم أن يختار رجل حرّ سليم العقل الأسر بملء إرادته». كان العجوز سعداً أوّل
من أجاب بالقول:

«إذا رحلنا جميعاً اجتُت الإسلام من هذه الأرض إلى الأبد، وعندما يصل
الأتراك بعون الله لمقاتلة الروم فلن نكون هنا للمّهم بالمساعدة».

وفرض صوت «أستغفر الله» الوقور الصمت على البستاني بالقول:

«البقاء في بلد استولى عليه الكفار يحرمه الدين تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل الناس».

وأضاف وهو ينوء بيده على كتف سعد:

«كلّ مسلم يلبث في غرناطة يزيد عدد سكان دار الكفر ويسهم بذلك في تقوية أعداء الله ورسوله».

وانحدرت دمعة على خدّ المعجوز قبل أن تتغلغل في شعر لحيته وقال:

«لقد بلغت من الكبر عتياً ونال مني المرض والفقر فلا أقدر على التجوّل في الطرقات وركوب البحار. ألم يقل النبي: أفعل ما تقدر عليه ولا تبحث عبثاً عن الصعب؟»

ورقّ قلب حامد لحال البستاني ورتل مجازفاً بمعارضة الشيخ آيتين. مطمئنتين من سورة النساء:

﴿... إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً﴾ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفورا﴾.

فبادر سعد إلى القول:

«الحقّ ما قاله الله العليّ القدير».

ولم ينكر «أستغفر الله» ما لا يحتاج إلى دليل وقال:

«الله واسع حلِيم ولا يطلب الأمور نفسها من القادرين ومن غير القادرين. فإذا كنت راغباً في طاعته بالمهجرة ولكن لا تستطيع ذلك فإنه يقرأه في صدرك ويحاكمك على نيّاتك. ولن ينذرك للجحيم، ولكن قد تكون جحيمك على هذه الأرض وفي هذا البلد. وستكون جحيمك الذلّ اليومي لك وللنساء من أهلك».

وإذ الصق بفتة راحته بالتراب الحارّ فقد التفت بكلّ جسده إلى أبي والحلاق محدّقاً النظر فيها وقال:

«وأنت يا محمّد؟ وانت يا حمزة؟ أتكونان أيضاً فقيرين وعاجزين؟ ألستما من

الأعيان، ألستما مرموقين من الجماعة؟ وما عذركما في عدم التقيد بتعاليم الإسلام؟ لا تأملا في أي مغفرة ولا في أي رحمة إذا أنتما أتبعتما سبيل يحيى الجاحد لأن الله تعالى لا يتسامح مع الذين يغمرهم بينعمه».

وأقسم الرجلان بشيء من الحرج على أنهما لا يفكران قط في البقاء إلى الأبد في دار الكفر، وأنهما يرغبان فقط في ترتيب أمورهما للرحيل في ظروف حسنة.

وصاح «استغفر الله» قائلاً: «ويل لمن يسترخص الجنّة ويستغلي متاع الدنيا!» في حين توجه الفكّك الراغب في عدم استفزاز محمد لعلمه بتوتر أعصابه وقدرته على ارتكاب الخماقات إلى المعاندين قائلاً بنبرة أبوية:

«منذ أن سقطت هذه المدينة في أيدي الكفار وهي محلّ عار لكل واحد منا. إنها سجن باباه أخذ في الانغلاق على مهل. فكيف لا تنتهزان هذه الفرصة الأخيرة للهرب؟».

ولم تُفلح لعنات الواعظ ولا توبيخات الفكّك في حمل أبي على مغادرة المدينة. وفي صبيحة اليوم التالي للاجتماع ذهب إلى حامد لاستطلاع أخبار محبوبته. وكانت سلمى تعاني في صمت وترجو التزوج.

وقد قالت لي:

«كنا قد دخلنا في قيظ الأيام الأولى من الصيف، بيد أن المتزّهين في حدائق غرناطة كانوا قلة قليلة، وقد خلت الأزهار من كل رونق. وكانت أجمل منازل المدينة قد أُخليت، وخلت دكاكين الأسواق من معارض بضائعها، وسكن صحب الشوارع، حتى في الأحياء الفقيرة. ولم يكن الجنود القشتاليون يهاذون في الساحات العامة غير المتسولين لأن جميع المسلمين الحريصين على شرفهم ومكانتهم كانوا يشعرون بالخزي إذا وقعت عليهم الأنظار إن هم لم يرحلوا بعد».

وأضافت بصوت ملؤه الحسرة:

«إذا ابتلي المرء بمعصية الله تعالى فمن الخير له أن يفعل ذلك في الخفاء لأنه يكون قد عصى مرتين إذا هو تبختر بمعصيته».

وكانت تردّد ذلك على مسمع أبي بلا انقطاع من غير أن تُفليح في زحزحته.

«العيون الوحيدة التي تراقبني في شوارع غرناطة هي عيون الناس الذين لم يرحلوا بعد. فأية مأخذ يجروون على أخذها علي؟».

وكان يؤكّد من جهة ثانية أن أغلى أمانيه أن يتعد عن هذه المدينة التي انتهك فيها شرف رجولته؛ بيد أنه لن يهرب كما يهرب ابن أوى. ولسوف يرحل مرفوع الجبين والاحتقار ملء نظراته.

وسرعان ما أقبل ذو القعدة، الشهر قبل الأخير من السنة، وحن دور حمزة لسلك الدرب؛ وإذ استعجلته أمّه القابلة العجوز مضيقاً عليه بعويلها وانتحابها، متهمّة إيّاه بالرغبة في جرّ أهله إلى جهنّم، فقد ذهب من غير أن يبيع أراضيّه مؤملاً نفسه بالعودة وحده بعد بضعة أشهر بحثاً عن مُشترٍ. وقد دقّت ساعة المنفى بالنسبة إلى «استغفر الله» أيضاً. ولم يحمل معه ذهباً ولا ثياباً فاخرة، وإنما حمل فقط مصحفاً وبعض المؤن للطريق.

ثم أقبل شهر ذي الحجة وأصبحت السماء أكثر غيوماً والليالي أشدّ برداً. وكان أبوك لا يزال سادراً في عناده يقضي النهار بين الفكّك والجنوبي ويعود ي المساء منهوكاً أو هائجاً، منشغل البال أو مطمئنأ، ولكن من غير ما كلمة واحدة على الدوام بشأن الرحيل. ثم انتابته فجأة قبل نهاية السنة بأسبوعين ثورة عارمة: كان يريد الرحيل على الفور، وكان ينبغي بلوغ المرية قبل ثلاثة أيام. لماذا المرية؟ ألم تكن هناك مواء أقرب كثغر «أدرا» الذي سافر منه أبو عبدالله، أو الرابطة، أو سالوبرينية، أو المنيّقر؟ كلا، كان ينبغي أن تكون المرية، وكان يجب بلوغها قبل ثلاثة أيام. وجاء حامد عشية الرحيل لوداعنا، وفهمت أن حماسة محمد لم تكن بالغريبة عليه. وسألته عمّا إذا كان سينزح هو أيضاً فأجابني مبتسماً: «لا، لن أرحل إلا بعد تحرير آخر أسير مسلم».

والخفت سلمى قائلة:

«ولكنك تخاطر بالبقاء طويلاً في دار الكفرا»

وابتسم الفكّك ابتسامة غامضة وإن لم تخلُ من أسى وغمغم وكأنه لا يحدث غير

نفسه، أو ربّما الخالق مباشرة:

«يجب أن يُعصى الله أحياناً لكي يُطاع بصورة أفضل».

وانطلقنا في اليوم التالي قبل صلاة الفجر، أبي على جواد وأنا وأمي على بغلة، وقد كُذِّست أمتعتنا على خمس بهائم أخرى. والتقينا عند باب نجد جنوبي المدينة بضع عشرات من المسافرين فرافقناهم في أثناء الطريق لضمان مزيد من السلامة. فقد كان قطاع الطريق كُثُراً في جوار المدينة وفي شِعاب الجبال لأن أحداً لم يكن يجهل أن ثروات هامة كانت في طريقها على الدوام إلى الساحل.

ترك المرح السائد في ميناء ألمرية لعينيّ الطفل الذي كتته ذكرى لا تُنسى. فكشرون من الناس كانوا مثلنا قد عزموا على الرحيل في آخر لحظة، وكانوا يسارعون ليستقلّوا على الفور مركباً مهماً كان صغيراً. وكان هنا وهناك بعض الجنود القشتاليين يتولّون تهديئة المتدافعين بصيحة متوعدة؛ وكان آخرون يتحقّقون بعيون تنضح بالطمع محتويات صندوق من الصناديق. وكان من المتفق عليه أنّ في وسع المهاجرين حمل جميع أملاكهم بلا أيّ استثناء، ولكن كثيراً ما كان من المفيد ترك قطعة ذهبية بين أصابع ضابط ملحاح. وعند الشاطئ كانت المساومات على قدم وساق، وكانت تُوجّه بلا انقطاع إلى أصحاب المراكب المواعظ الدائرة حول المصير الذي أعدّه الله للذين يستغلّون مصائب المسلمين؛ وكانت على ما يبدو بلا جدوى لأنّ أجور السفر استمرّت بالتصاعد ساعة فساعة. فطعم الريح يهدد الضائمر وقتها كانت لحظات الذعر مؤاتية لاستدرا السخاء. وإذا لم يكن في وسع الرجال إلاّ الخضوع فقد كانوا يحلّون أكياس نقودهم مومنين إلى أسرهم أن يُسرّعوا. وفي المراكب كانوا يجهدون في تجنب نسايتهم وبناتهم شوائب الاختلاط والزحام، وهي مهمّة عسيرة حينها يتكّسد ثلاثمئة شخص في مركب لم يسبق له أن حمل أكثر من مئة.

لقد رفض أبي منذ وصولنا الاختلاط بالناس. وأخذ يجول ببصره على مهل من فوق مطيئه حوالي الميناء قبل أن يتوجّه إلى كوخ خشبي صغير تلقاه عند عتبته مرحباً

رجلٌ حسن الهندام . وتبعناه عن بُعد فأشار إلينا أن اقتربوا . وما هي إلا دقائق حتى كنّا نجلس جلسة مريحة فوق أمتعتنا في مركب فارغ نزلنا إليه في عبارة ما لبثت أن رُفعت بعد ركوبنا . ولم يكن الرجل سوى أخي حامدٍ ، وكان يُدير الجهارك في المرية ، وهي وظيفة لم يكن القشتاليون قد سحبوها منه بعدُ . وكان المركب ملكه ، وما كان مقدراً له أن يمتلئ بالركاب إلا في اليوم التالي . وأعطتني أمي وأعطت أبي قطعة زنجبيل صغيرة نضعها لتفادي دُوار البحر ، وأخذت هي نفسها قطعة كبيرة منه . وما لبث الليل أن هبط فاستسلمنا جميعاً للنوم بعد أن تناولنا بعض كريات من اللحم كان قد جلبها إلينا مضيفنا .

واستيقظنا في الفجر على أصوات صيحات ومدافعات . فقد هجم على مركبنا عشرات الرجال وهم يزعمون ، والنساء المتشحات بالبياض أو السواد ، والأولاد المتصايحين أو المذهولين . وكان علينا أن نتشبث بامتعتنا كيلا نُزاح عن مكاننا ، أو حتى لا يُقذف بنا إلى البحر . وضممتني أمي إلى صدرها عندما أخذ المركب يتعد عن الشاطئ . ومن حولنا كان شيوخ ونساء يجأرون بالدعاء مُعولين ، وكان هدير الأمواج يكاد يعجز عن الطغيان على أصواتهم :

أبي وحده ظلّ وادعاً في تلك الصبيحة من صبيحات المنفى ، حتى إنه كان في وسع سلمى أن تلمح على شفثيه ابتسامة غريبة طوال الرحلة . ذلك أنه تمكّن من أن يقيم لنفسه في قلب الهزيمة بالذات ساحة نصر ضئيلة .

کتاب فاس

كنت في مثل سنك يا بني، ولم أَرُ غرناطة قط بعد ذلك. فلم يشأ الله أن يكتب قدرِي برمتِه في كتاب واحد، وإنما أن يجري موجة إثر موجة على وقع البحار. فقد خففتني في كلِّ رحلة من مستقبل ليُعدق عليّ آخر؛ وربط فوق كلِّ شاطئٍ جديد إلى اسمي وطن مهجور.

لقد جنح وجودي في يوم ليلة من «الريّة» إلى «مليلة». على الرغم من أن البحر كان رحيباً والرياح وادعة، ولكنّ العاصفة كانت تكبر في قلب والديّ.

وكان حامد الفكّك ساعه الله قد رتبّ الأمور جيّداً. فإذا لم يُعدّ ساحل الأندلس خلفنا سوى خيط دقيق من الندم هُرعَت إلينا في زاويتنا من المركب امرأة قافزة بخفّة فوق الأمتعة والمسافرين. ولم يكن خطوها المرح يتوافق جيّداً مع هندامها المؤلّف من مناديل شديدة السواد والصفافة إلى حدّ أنه صعب علينا جميعاً التعرّف عليها لو لم تكن مريم بين ذراعيها.

كانت صيحات الفرح الوحيدة التي انطلقت صيحاتي وصيحات أخي. وجمد الانفعال عمّداً ووردة، كما جمدتها النظرات المثة التي كانت تُحاصرهما. وأما سلمى فقد شدّدت من ضمّي إلى صدرها. وفهمت من أنفاسها المكتومة ومن بعض التهديدات التي انطلقت على غير قصد منها أنها كانت تتألّم. وكانت دموعها تجري ولا ريب خلف نقابها، وما كان ذلك عن غير حقّ لأن عاطفة أبي الجامعة لن تلبث أن تقودنا جميعاً إلى شفير الهاوية.

حمد الوزان الوادع جدّاً وقد أصبح جموحاً جدّاً لقد حدث لي أن أضعت في شيايٍ لأعثر عليه في أيام نضجتي عندما لم يعدّ من هذا العالم. وكان عليّ أن انتظر ظهور الشعرات البيضاء الأولى وأيام الأسف الأولى قبل الانتاع بأن من حقّ الرجال، وأبي من بينهم، أن يضلّوا الطريق إذا

هم ظنوا أنهم يسرون وراء السعادة . ومذآك أخذتُ أحبّ ضلالاته مثلها
أرجو أن تحبّ يا بنيّ ضلالاتي . بل أرجو أن تضلّ أحياناً بدورك . وأرجو
أن تحبّ كما أحبّ إلى حدّ الطغيان، وأن تنظّل طويلاً متهيئاً لأسمى ما في
الحياة من إغراءات .

عام الفنادق

٩٠٠ هـ (٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٤٩٤ م -

٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٤٩٥ م)

لم تطأ قدمي قط مدينة قبل فاس، ولا سبق لي أن شاهدت عجيب الناس وانهاكهم في الأزقة، ولا أن أحسست على وجهي تلك النفحة القوية التي تشبه ريح عُرض البحر، وإن كانت مثقلة بالصيحات والروائح. لقد وُلدتُ بالطبع في غرناطة عاصمة مملكة الأندلس الجليلية، ولكن حدث ذلك في زمن متأخر جداً من العصر، ولم أعرفها إلا محتضرة مفرغة من ناسها وروحها، ذليلة خامدة، وعندما غادرت ضاحية اليبسان لم تكن في نظر والدي إلا معسكراً معادياً حرباً.

وأما فاس فكانت شيئاً آخر، وقد صرفتُ شبابي بأكمله لأعلم ذلك. ولم يبق لي من لقائنا الأول في ذلك العام سوى ذكريات يلقها الضباب. فقد دنوت من المدينة على ظهر بغل فاتحاً يرئى له ونصف نائم، تُسندني يد أبي القسوية الثابتة لأن جميع الطرق كانت منحدرية، وكان انحدارها من الشدة أحياناً بحيث لم تكن الركوبة تتقدم إلا بخطوات مترددة غير مستقرة. وكنت أعتدل عند كل هزة ثم أعود كرة أخرى إلى النوم. وفجأة جلجل الصوت الأبوي:

«حسن، إذا كنت تودّ رؤية مدينتك فاستيقظا!».

وإذا فارقتني إجمالي فقد أدركت أن موكبنا الصغير كان قد أصبح عند أسفل سور بلون الرمل ضخماً مرتفع يعلوه عدد لا يحصى من المتاريس الحادة المتوعدة. وأجزنا باباً بفضل قطعة من النقد انزلت في يد ديدبان. وهكذا غدونا داخل الأسوار.

والح محمد قائلاً: «انظر».

كان يحيط بفاس على مدّ النظر صفّ من التلال المرصّعة بعدد لا يُحصى من البيوت المصنوعة من القرميد والحجر مزينة في أغلب الأحيان بربّعات من الخزف كما في غرناطة .

«هناك في ذلك السهل الذي يقطعه النهر يقوم قلب المدينة . وعلى اليسار عدوة الأندلسيين، وقد أنشأها منذ قرون مهاجرون من قرطبة؛ وعلى اليمين عدوة أهل القيروان، وفي وسطها جامع القرويين ومدرستهم، ذلك البناء الفسيح ذو القرميد الأخضر حيث ستلقّى إن شاء الله علوم العلماء» .

لم أكن أسمع بغير أذن شاردة تلك الإيضاحات العلمية لأنّ ما كان يستحوذ على بصري بشكل خاص كان منظر سطوح المنازل: كانت غيوم كثيفة قد خفّت من حدة الشمس في ذلك الأصيل الخريفي، وكان ألوف من أهل المدينة جالسين في كلّ مكان على ما يشبه السطّوح وهم يتحدّثون ويصيحون ويشربون ويضحكون، وقد انصهرت أصواتهم جميعاً في هرج ومرج عريضين . وكان يموج حولهم، منشوراً أو ممدّداً، غسيل لأناس أثرياء وفقراء وكأنه شرّاع سفينة واحدة .

ضجة مُسكرة، ومركب يُبحر من عاصفة إلى عاصفة ويفرق أحياناً، أليست هذه هي المدينة؟ وكثيراً ما حدث لي في مراهقتي أن قضيت نهارات برمتها أمام هذا المشهد مُطلقاً لأحلامي العنان . ولم يكن يوم دخولي فاس إلّا نشوة عابرة . فقد كانت الرحلة من «مليلة» قد أنهكتني، وكنت مستعجلاً بلوغ بيت خالي . ولم أكن أحتفظ بالطبع بآية ذكرى عن خالي الذي هاجر إلى المغرب يوم كنت في العام الأول من عمري، ولا عن جدّتي التي رحلت معه بوصفه بكر أولادها . ولكنني كنت واثقاً من أن ترحابهم بنا سوف يُنسينا أهوال الطريق .

لقد كان ترحاباً بي وبسلمي . وبينما كانت هي تحتفي جسماً وزينة تحت أبواب أمّها المنشورة وجدت نفسي بين ذراعي خالي الذي تأمّلي طويلاً من غير أن ينبس بكلمة قبل أن يطبع فوق جبيني أحراً القُبَل .

كانت أمي تقول لي: «إنه يجبّك كما يجبّ كل إنسان ابن أخته؛ وفوق ذلك فإنّه لما لم يكن قد رزق إلا البنات فقد كان ينظر إليك على أنك ابنه من صلبه» .

ولقد أثبت لي ذلك في مناسبات كثيرة . وأما في ذلك اليوم فكانت عنايته بي شؤماً عليّ .

فبعد أن أنزلني خالي إلى الأرض التفت إلى محمّد وقال له بنبرة نمت عن عتاب لأنّ أحداً لم يكن يجهد الغرام المحرّج الذي أخر نزوح الوزان : «انتظرتك من زمن طويل» .

ومع ذلك فقد تعانق الرجلان . ثم التفت خالي للمرّة الأولى إلى وردة التي كانت واقفة بعيداً . وكاد بصره يعلق بها ، بيد أنّه سرعان ما انزلق إلى بعيد . فقد اختار ألا يراها ، وما كانت لتحلّ أهلاً في مسكنه . ومريم نفسها ، البنت اللطيفة الممتلئة الوجه البسامة ، لم تحظّ بأذى مداعبة .

وقد شرحت لي أمي الأمر فيما بعدُ قائلة : «كنت أخشى ذلك الاستقبال ، ولذا لم أُسرّ حينها ظهرت وردة على السفينة . لقد تحمّلت دائماً في صمت لحظات الجفاء من محمّد . ولقد أهانني سلوكه في نظر الجيران كلّهم ، وسخرت غرناطة بأسرها من أعماله الطائشة . ومع ذلك لم أفتأ أقول لنفسي : «أنت زوجته يا سلمى ، وعليك طاعته ؛ ولسوف يتعب يوماً ويعود إليك!» وبانتظار ذلك وطّدت النفس على إحناء الرأس بجليد . وما كان في وسع أخي الشديد الاعتزاز الشديد الشموخ أن يفعل مثلي . ولقد كان سينسى الماضي ولا ريب لو أننا وصلنا نحن الثلاثة وحدنا . وأما أن يستقبل تحت سقفه «الرومية» التي كان جميع الناس يقولون إنها سحرت نسيبه فكان سيجعل منه أضحوكة كلّ المهاجرين الغرناطيين الذين لا يقلّ عددهم عن ستة آلاف في فاس ، وجميعهم يعرفونه ويحترّمونه» .

كان جميع ذويّ يتنفسون بعناء ، باستثنائي أنا المغمور بالرعاية من الجميع ، الحالم بأشهى آيات الدلال .

وقد قال لي محمّد : «كان الأمر كما لو كنّا نشهد احتفالاً حوّله جنّي شرير من عرس إلى جنازة . لقد طالما نظرتُ إلى خالك نظرتي إلى شقيق ، وكان بودّي لو صحّت في وجهه أنّ وردة هربت من قريتها مجازفة بحياتها للعثور عليّ ، وأنها تركت بلاد الروم للحضور إلينا والعيش معنا ، وأنّه لا حقّ لنا في تسميتها بـ «الرومية» .

ولكن لم يخرج من حلقي أي صوت. ولم يكن أمامي سوى الاستدارة والخروج في صمت يشبه صمت القبور».

لقد اعترضت سلمى طريقه بعد تردّد على الرغم من أنّها كانت على شفا الإغماء. وكانت أشدّ الجميع اكتئاباً، بل أشدّ من وردة نفسها. إن أمّ الولد كانت قد أهينت ولا ريب. بيد أن عزاءها أنّها كانت تعلم أن محمّداً لا يقدر بعد اليوم على هجرها من غير أن يريق ماء وجهه؛ وبينما كانت ترتعد في زاويتها كان يراودها شعور بأنّها، لكي تبقى بصحبته، ضحيّة جُور. شعور يجرح، ولكنّه يبلسم الجرح، شعور قتال في بعض الأحيان، ولكنّه كثيراً ما يمنح النساء أسباباً متينة للعيش والصراع. ولم يكن لدى سلمى شيء من ذلك.

«كنت مسحوقاً بالخصومة، وكانت ذلك اليوم في نظري يوم الدينونة، فقد كنت في طريقي إلى فقْد أبيك بعدما فقدت مسقط رأسي والبيت الذي أنجبت فيه».

عُدنا إذن إلى ركوب بغالنا من غير أن ندري أيّ وجهة تتوجّه. وكان محمّد يغمغم قائلاً وهو يهوي بقبضته على حزام دابته:

«وحقّ تراب أجدادي لو قيل لي إنني سأستقبل على هذا النحو في مملكة فاس لما غادرت غرناطة قطاً».

وكانت كلماته تصكّ آذاننا المُفزّعة:

«يرحل المرء، يترك بيته وأراضيه، يجوب الجبال والبحار، ثم لا يجد غير أبواب مغلقة وقطّاع طرق والخوف من الأوبئة».

والحقّ أننا منذ وصلنا إلى أرض إفريقيا والمصائب وخيبات الأمل لم تفتأ تنصبّ علينا. وذلك منذ اللحظة التي حاذى فيها مركبنا ميناء «مليلة». وكنا نعتقد بأننا سوف نبلغ هنا شاطئاً آمناً إسلامياً تقع علينا فيه الراحة المطمئنة لتمسح زبد العناء عن الشيوخ وتكفكف دموع المهدودين. غير أنّ كلّ ما استقبلنا فوق الرصيف كان أسئلة لاهثة: «أصحيح أن القشتاليين قادمون؟ هل رأيتم مراكبهم الحربيّة؟» ولم تكن المسألة تتعلّق عند من كانوا يسألوننا على هذا النحو بالاستعداد

للدفاع عن الميناء، وإنما بعدم التأخر في تولية الأدبار. وإذ رأينا أنه كان علينا، نحن النازحين، أن نُغديق كلمات التطمين فقد زاد استعجالنا لإقامة جبل أو صحراء بيننا وبين هذا الشاطئ الذي كان يقدم نفسه إلى المجتاحين وهو يتشاءب.

وتقدم منا رجل قال إنه مُكاري بغال وأن عليه الذهاب دون إبطاء إلى فاس، وإذا شئنا قدم لنا خدماته بسعر رخيص هو بضع عشرات من الدراهم الفضية. وإذا كان محمد راغباً في مغادرة «مليلة» قبل هبوط الليل، وكان قد أغراه ولا شك السعر المعروض، فقد قبل العرض من غير أن يساوم. ومع ذلك فقد طلب إلى المُكاري أن يسلك الطريق الساحلي حتى باديس قبل التوجه جنوباً إلى فاس؛ ولكن الرجل كان يملك فكرة أفضل هي سلوك طريق مختصر أقسم أنه يوقر علينا مشقة يومين كاملين. وكان يسلكه كل شهر ويعرف أضال تضريس فيه معرفته ظهر بغلته. وكانت حجته من القوة بحيث سرنا بعد نصف ساعة من مغادرتنا المركب أنا وأبي على دابة، وأمي ومعها أكثر المتاع على أخرى، ووردة ومريم على ثالثة، والمُكاري بجانبنا هو وابنه، وكان هذا صيباً بغيضاً في الثانية عشرة من العمر حافي القدمين متسخ الأصابع موارب النظرات.

وما كدنا نقطع ثلاثة أميال حتى انتصب أمامنا فارسان ملثان بالأرزق وفي يد كل منهما خنجر معقوف. وما هي إلا أن أخذ المُكاري وابنه ينهايان الشاطئ من غير أن يطالبا بما تبقى من الأجر، وكأنهما لم يكونا ينتظران سوى إشارة لفعل ما فعلا. واقترب اللصان، وإذ عرفا أنه سيكون لهما شأن مع رجل واحد عليه حماية امرأتين وطفلين، واطمأننا إلى ذلك تمام الاطمئنان فقد أخذنا يجسآن بيد خبيثة أحمال البغلات. وكان أول أسلماهما صندوق مصدّف رصت فيه سلمي بلا حذر جميع حُلاها. ثم شرعا يسحبان واحداً بعد آخر أثواباً رائقة من الحرير ومفرش سرير مطرزاً كان في عداد الجهاز الذي نقلته أمي إلى بيت زوجها.

وسار أحدهما بعد ذلك صوب وردة وأمرها قائلاً: «افترزي في الهواء!».

وإذ ظلت ذاهلة فقد تقدم من محمد ووضع رأس خنجره على عنقه. وارتاعت أم الولد فحممحت وتحركت كأنها دمية مُخلّعة المفصلات، ولكن من غير أن تفصل عن الأرض. وإذ لم أدرك مأساوية الموقف فقد انطلقت في ضحكة مجلجلة قمعها

أبي بتقطيية من حاجبيه . وصرخ الوغد: «اقفزي أعلى فأعلى!»
واندفعت وردة قافزة في الهواء بأقصى جهدها فسُمع رنين نقود خفيف . «أعطيني
كلّ هذا!» .

ومدّت يدها داخل ثوبها فأخرجت بكرة متواضعة دحرجتها إلى الأرض بحركة
تنمّ عن ازدراء . والتقطها اللصّ من غير أن يُيدي استياء والتفت إلى أمي وقال:

«إليك الآن!»

وفي هذه اللحظة جلجل في البعيد أذان مؤذّن قروي . ورفع أبي بصره إلى
الشمس القابعة في أعلى السماء وتناول بيد رشيقة سجادة صلاة صغيرة موضوعة
فوق خاصرة ركوبته وفرشها على الرمل وأدار وجهه نحو القبلة وأخذ يؤدي صلاة
الظهر بصوت مرتفع . وقد تمّ ذلك كلّه بلمح البصر وبشكل طبيعي جعل اللصّين
لا يدریان كيف يتصرفان . وبينما كانا يتشاوران بالنظرات علا من الطريق كما
بمعجزة عجاج غبار كثيف على مسافة أقلّ من ميل منّا . ولم يحظّ الوغدان بأكثر من
الوقت اللازم لامتطاء جواديهما والاندفاع بأقصى سرعة في الاتجاه المعاكس . ولقد
نجونا، وما كان على أمي أن تُدعن لما كانت قد أمرت به .

«لوفعلتُ لما كان الذي سُمع رنيناً وإنما دويٌّ حقيقي لأن أباك كان قد حملني
مئات الدنانير في عشر بَدَرٍ مكنّظة علّقتها حول ضلوعي لاقتناعي بأنّه ما من رجل
كان سيجرؤ على الإيغال في البحث إلى ذلك الحدّ» .

وعندما حاذانا المارة الذين أرسلتهم إلينا العناية الإلهية أدركنا أنهم كانوا مفرزة
من الجنود . وأسرع عمّد يحكي لهم بالتفصيل العملية التي ذهبنا ضحيتها . وقد
شرح قائدهم والابتسام لا تفارق شفّته أنّ مهمّته ومهمّة رجاله هي بالضبط
القيام بدورية على هذا الطريق المليء باللصوص مُدّ بدأ الأندلسيون يصلون في
مراكب غاصّة إلى «مليّة» . وأضاف بكلّ بساطة أنّه جرت العادة بأن يُذبح
المسافرون ويعود المكاربي فيستعيد دوابّه وينال النصيب المقرّر له من الغنيمة .
وبحسب الضابط فإن كثيراً من الغرناطين القادمين إلى فاسم أوتلسان قد لقوا
مثل هذا المصير المشؤوم . وعلى العكس من ذلك فإن النازحين الذين اختاروا

تونس أو تطوان أو سلا أو متيجة الجزائر لم يكونوا يتعرّضون للإزعاج.

«وكانت نصيحته لنا أنْ عودوا إلى الميناء وانتظروا. وعندما تتألف قافلة من التّجار سيروا في ركابها لأنّ حراساً سوف يرافقونها حتماً وتكونون في أمان».

وإذ سألته أمي عمّا إذا كان من الممكن أن تستعيد صندوقها العزيز فقد أجابها كما يجيب كل إنسان عاقل بالآية القرآنية:

﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم، واللّه يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

وذلك قبل أن يعلّق بقوله:

«سوف تكون هذه البغلات التي اضطرّ قُطاع الطريق إلى تركها لكم أنفع بكثير من الحليّ؛ فسوف تحمّلكم ومتاعكم ولا تسترعي انتباه اللصوص».

واتّبعتنا نصائح هذا الرجل بحذافيرها، وهكذا وصلنا إلى غايتنا بعد عشرة أيام منهوكي القوى ولكنّ سالمين، لنذكر أن أقرباءنا رفضوا استضافتنا.

كان علينا بعد اليوم أن نجد سقفاً يؤنينا، الأمر الذي لم يكن سهلاً بعد أن امتلك النازحون الأندلسيون الواصلون موجة إثر موجة إلى فاس جميع المنازل التي كانت شاغرة. ويُقال إنه عندما نزل أبو عبدالله قبل ثلاث سنوات كان معه سبعة أشخاص أصبح لهم الآن حيّهم الخاص الذي لم تنزل الحياة فيه منظّمة كما كانت في الحمراء باستثناء عزّ الأيام الخوالي. وقد جرت العادة بأن ينزل القادمون الجدد بعض الوقت عند أقرب أقربائهم، الأمر الذي كنّا سنفعله بالتأكيد لولا وردة. ولم يكن وارداً بالطريقة التي تبدّت بها الأمور أن غمضي ليلة واحدة في بيت خالي حيث قدّر أبي بحقّ أنه قد أهين.

بقيت الفنادق، ولم يكن في فاس أقلّ من مئتين منها معظمها فائقة النظافة، وكلّ واحد منها مزوّد ببركة ماء ومراحيض بماء جارٍ يدفّقٍ شديدٍ يحمل الأوساخ باستمرار إلى النهر المتفرّع إلى ألف قناةٍ جارّية. وكان بعضها يتألف من أكثر من

مئة وعشرين غرفة فسيحة تفضي كلها إلى دهاليز. وكانت الغرف تؤجر خالية حتى من الأسيرة، ولم يكن صاحب الفندق يقدم للزبائن غير الأغذية والحضر للنوم، تاركاً لهم أن يهتموا بشراء أطعمتهم بأنفسهم وإعطائها إليه لطبخها. ومع ذلك فإن الأمر كان يروق لكثير من الناس لأن الفنادق ليست أماكن يمر بها المسافرون مروراً عابراً وحسب، وإنما هي أيضاً أماكن للسكن بالنسبة إلى بعض أهالي فاس ممن ماتت زوجاتهم وليس لهم أسر ولا يملكون من المال ما يكفي لاستئجار منزل رخصاً، أو ممن يرتضون بالسكن اثنين في غرفة واحدة ليستأنس كل منهما بالآخر في شدتها. وكان علينا أن نقيم بالطريقة نفسها بضعة أيام ريشما نجد مسكناً أكثر احتشاماً.

لم يكن ما يشغل بال أبي علي كل حال جوار هؤلاء التعساء، وإنما جوار فئة بغیضة أخرى. فإذا كان قد زار فاس في صباه فإنه لم يزل يذكر أن سمعة بعض الفنادق كانت من السوء بحيث لم يكن أي إنسان محترم من أهل البلد يرغب في اجتياز أعتابها أو مخاطبة أحد من أصحابها لأن من يسكنونها كانوا معروفين بـ «الهوى». وهم، كما وصفتهم في كتابي «وصف إفريقية» الذي ظلت مخطوطته في روما، رجال يلبسون على الدوام ملابس النساء ويتبرجون ويتزينون ويحفون لحاهم ولا يتكلمون إلا بصوت حاد، ويقضون أيامهم في غزل الصوف. ولم يكن أهل فاس يرونهم إلا في المآتم لأنه جرت العادة باستئجارهم إلى جانب النوادب لتضخيم الحزن. ولا بد من معرفة أن لكل من هؤلاء عشيقاً يتصرف وإياه تصرف المرأة وزوجها. جنبنا الله سبل الضلال!

وأخطر منهم الخارجون على القانون الذين تعج بهم هذه الفنادق نفسها. فالقتلة واللصوص والمهربون والقوادون وأهل جميع الرذائل يشعرون فيها بالأمان وكأنهم في أرض خارج حدود المملكة يمارسون فيها على هواهم الأتجار بالخمر وتعاطي حشيشة الكيف والبغاء يغرون الناس بها للإغراق في غيهم وشروهم. ولقد تساءلت طويلاً عن السبب الذي يمنع شرطة فاس التي تسارع إلى معاقبة تاجر على جشعه وسارق رخيص يسد به جوعه من التدخل أبداً في هذه الأمكنة لإلقاء القبض على المجرمين ووضع حدٍ لأعمال تغضب الله والناس. ولم يطل بي الأمر للعثور على

الجواب: لقد كان على هذه الفنادق أن تقدّم إلى السلطان مجّاناً الأشخاص اللّازمين لتحضير طعام الجنود في كل مرّة يذهب فيها جيش السلطان في حملة. وكان السلطان يترك لأصحاب تلك الفنادق حرّية التصرف على هواهم لقاء مساهمتهم هذه في المجهود الحربي. والحقّ أن النظام والفوضى يتواطآن في كلّ حرب.

وكان علينا للتأكد من عدم الوقوع في أحد تلك الأمكنة السيئة السمعة أن نبحث عن فندق بجوار جامع القرويين. فهنا كان ينزل الأثرياء. من المسافرين التجّار. وعلى الرغم من ارتفاع أسعار الغرف فيها بالنسبة إلى الفنادق الأخرى فإنها لم تكن تخلو قطّ من النزلاء الذين كانوا يَغشونها بكامل قوافلهم. وقد اقتضى أن مجالفنا حظّ كبير مساء وصولنا للعشور على ماوى في مؤسسة يديرها نازح غرناطي. وقد أرسل أحد عبّيده يشتري لنا من سوق الدخان سمكاً صغيراً مقلّياً وفطائر باللحم وزيتوناً وبعض عناقيد العنب. ووضع لنا كذلك عند عتبة الباب إبريق ماء بارد لشرابنا خلال الليل.

وبدلاً من قضاء بضعة أيام لبثنا في ذلك النزل حوالي ستة أسابيع إلى أن وجد لنا صاحبه بنفسه غير بعيد عن سوق الأزهار في آخر درب مسدود بيتاً ضيقاً يعادل نصف الذي كنا نسكنه في غرناطة، وكان باب مدخله واطناً ومنقراً إلى حدّ أنه لم يكن بالإمكان الوصول إليه إلا بالغوص في مستنقع من الوحل. وقد شرح لنا وهو يعرضه علينا أنه كان يسكنه تاجر أندلسي قرّر الذهاب للإقامة في القسطنطينية المعظّمة لتوسيع نشاطه. ولكنّ الحقيقة كانت تختلف كلّ الاختلاف كما سيسارع جيراننا إلى إعلامنا بأن سلفنا الذي كان يلازم سريره على الدوام، وكان عاجزاً عن مواصلة تجارته، ولم يعرف يوماً من أيام الهناء طوال السنوات الثلاث التي قضّاها في فاس، كان قد عزم بكل بساطة على العودة إلى غرناطة. وكان اثنان من ابنائه قد ماتا بالطاعون وأصيب ابنه البكر على ما يقال بمرض شائن، ذلك المعروف بـ «البثور». وكانت فاس بأسرها تعيش لدى وصولنا هاجس ذياك المرض الذي كان من سرعة الانتشار بحيث بدا أنه ليس في وسع رجل الإفلات منه. وقد حُمد في الأيام الأولى إلى عزل من أصيبوا به في بيوت على جِدّة كما يُفعل بالمجدومين،

ولكن سرعان ما تزايد عددهم بحيث توجب إعادتهم إلى كنف أسرهم . وغدت المدينة بأسرها منطقة موبوءة، ولم ينبج أي دواء في الشفاء .

وكان ما يُشاع عن المرض يكاد يكون أقل فتكاً من المرض نفسه . فقد كان سكّان المدينة يتهامون بأنه لم يكن قطّ قد ظهر عندهم قبل مجيء الأندلسيين . وكان هؤلاء يدافعون عن أنفسهم بأن «البثور» قد انتشرت بلا أدنى ريب بفعل اليهود ونسائهم، وكان هؤلاء يتهمون بدورهم القشتاليين والبرتغاليين، وفي بعض الأحيان البحارة الجنويين والبنادقة . ولقد سمّي هذا المرض بالذات في إيطاليا بالمرض الفرنسي .

في تلك السنة بالذات، وكان الفصل ربيعاً على ما أظنّ، أخذ أبي يحدثني عن غرناطة . وسوف يفعل ذلك في المستقبل ويستبقيني ساعات إلى جانبه من غير أن ينظر إليّ قطّ أو يعرف ما إذا كنت أصغي إليه، أو إذا كنت أفهم، أو إذا كنت أعرف الأشخاص والأمكنة . وكان يتربّع في جلسته ويُشرق وجهه ويتموجّ صوته ويتلاشى تعب و غضبه . وما هي إلا دقائق أو ساعات حتى يغدو قصّاصاً . ولم يكن حينئذ في فاس، ولا على الأخصّ داخل هذه الجدران العابقة بالتن والعفن . فلقد كان يسافر في ذاكرته ولا يعود إلا على مريض .

وكانت سلمى تنظر إليه بحنان وقلق، ويفزع في بعض الأحيان . فلم تكن تلمح في مسلكه الحنين إلى الوطن ولا انعكاس المصاعب الناجمة عن حياة النزوح . ففي نظر أمي أنّ أبي لم يعد هو إياه منذ اليوم الذي رحلت فيه واردة، وأن عودة أم الولد لم تغير شيئاً . وكانت تلكها العينان الغائبتان، وذلك الصوت المستعار، وذيالك الانجذاب إلى بلد «الروم»، وتلك الهواجس التي تجعله يتصرّف خلافاً لكلّ حكمة، تدع المجال للافتراض بأن محمّداً كان تحت سلطان سحرٍ ما . وكانت مصمّمة على تخليصه منه، حتى لو اقتضى الأمر استشارة جميع عرّافي فاس واحداً تلو الآخر .

عام العرافين

٩٠١ هـ (٢١ أيلول «سبتمبر» ١٤٩٥ م -

٨ أيلول «سبتمبر» ١٤٩٦ م)

كانت نساء فاس الفاضلات إذا اقتضى الأمر أن يقطعن سوق الأزهار يُسرعن الخطى ويزدن من شدِّ حُرْمَنٍ ويلقن يمنة ويسرة بنظرات كنظرات حيوان مدعور، لأنه إن لم يكن للاقتراب من الريحان والنرجس ما يُعاب فإن أحداً لم يكن يجهل العادة الغريبة التي درج عليها الفاسيون بإحاطة أنفسهم بالأزهار المزروعة أو المقطوفة في كل مرة ينصرفون فيها إلى ملذات الخمرة المحرّمة. وكان شراء باقة عطرة يكاد يكون في نظر بعض الاتقياء أقلّ ذنباً من الحصول على قارورة نبيذ، ولم يكن بائعو الزهر عندهم خيراً من أصحاب الحانات ما داموا جميعاً في أكثر الأحيان أندلسيين سوسعاً عليهم في الرزق وفجّرة.

ولم تكن سلمى تغفل عن تغيير مشيتها عندما كانت تمرّ بالساحة المربعة التي فيها سوق الأزهار، وكانت تفعل ذلك بهاجس مشروع من احترام النفس أكثر مما تفعله بدافع التزمّت. وقد انتهى بي الأمر إلى ملاحظة سلوكها، وإذ راق لي على أنه لعبة جديدة حين كنت أتكرّح إلى جانبها فقد كنت أظاها بتحدّيها في سباق.

وبينا كنا نجتاز الساحة ذات يوم من ذلك العام حثّت أمي الخطى فأخذت أجري مقهقهاً. ولكنّها بدلاً من أن تمسك بي كما كانت تفعل في العادة أخذت نهول بدورها أسرع فأسرع. وإذا لم أتمكّن من اللحاق بها فقد التفتت وراءها لحظة ثم حملتني بين ذراعيها وواصلت جريها زاعقةً حذاء أذني بكلمة لم أفقها. ولم أفهم سبب عجلتها إلا عندما توقّفت عند الطرف الآخر من الساحة وصاحت باسم «سارة»!

سارة المبرقشة. كنت حتى ذلك الحين كثيراً ما أسمع الحديث عن اليهودية، بيد

أَنْ قَسَمَاتِهَا لَمْ تَكُنْ تَعْنِي لِي شَيْئاً.

وقالت سلمى لاهثة وقد لحقت بها: «لقد بعثك الله بنفسه إلى هذا البلد».

ومطّت سارة شفيتها متضحكة وقالت:

«هذا ما يردّه حاخامنا باستمرار. أما أنا فلست متأكّدة من ذلك».

كان كل ما فيها يبدو لي غريباً، ثيابها التي بجميع الألوان، وضحكتها المتواصلة، وأسنانها الذهبية، وأقراطها الضخمة، ولا أنسى عطرها الخانق الذي تلقّيته ملء منخريّ عندما ضمتني إلى صدرها. وبينما كنت أنفّس فيها بلا حشمة أخذت تقصّ من خلال ألف حركة وألف صيحة ما جرى لها مُذْ غادرت ضاحية البيسان قبلنا بقليل.

«أحمد الله كل يوم على أن هداني سبيل المنفى لأن الذين اختاروا النمادة هم الآن ضحايا أسوأ أنواع الأضطهاد. سبعة من أبناء عمومتني وخزولتي في السجن، وبنت أخ وزوجها أحرقا حين بتهمة البقاء على اليهودية في السر».

وأنزلتني إلى الأرض قبل أن تتابع بصوت أكثر خفوتاً:

«جميع الذين غيروا دينهم متهمون بالبقاء على يهوديتهم، وليس في وسع إسباني النجاة من محكمة التفتيش ما دام لم يُثبِت أن «دمه نقي»، أي أنه ليس في أجداده مها ابتعدوا في الزمن يهودي أو عربي. ومع ذلك فإنّ في ملكهم فرديناند نفسه دماً يهودياً، وكذلك المفتش «توركادا». لاحقتهم نيران جهنم إلى أبد الأبدين!»

لم تكن سارة إذن نادمة قطّ على هربها وأهلها إلى البرتغال حتى وإن أدركت سريعاً أن أثرياء اليهود وحدهم في وسعهم الإقامة فيها، بشرط أن يُغرِقوا الملك ومستشاريه فوق ذلك بالذهب. وأما عامّة الناس فسرعان ما كان عليهم أن يجنّثوا، كما في قشتالة، فإمّا تغيير دينهم وإمّا الرحيل.

«وعليه فقد سارعتُ إلى ركوب البحر إلى تطوان حيث أمضيت بضعة شهور، ثم جئتُ إلى فاس مع ابنتي الكبرى وصهري الذي يعول على الإقامة هنا بقرب عمّ له صائغ. وأمّا ابنتي الثانية وزوجها فقد ذهبا مثل معظم جماعتنا إلى بلد مولانا

السلطان حامينا مدد الله في عمره ونصره على أعدائه!

وأمنت أمي بقولها:

- ذلك ما نرجوه جميعاً. وإذا شاء الله أن يُعيد إلينا بلدنا يوماً فسوف يكون السلطان ذراعاً.»

لقد كان الانتقام من القشتاليين ولا ريب أمنية غالية جداً على قلب سلمى. بيد أن ما كان يشغل بالها في تلك الساعة لم يكن مصير غرناطة بقدر ما كان مصير بيتها وأسرتها. وإذا كانت قد أبدت هذا القدر من الفرح بالعثور على سارة فلأنها تذكّرت نجاحها في مساعدتها على استعادة محمد حين كاد يُفقد منها قبل ولدي بقليل. ولكن لم يكن إكسبر ليكفي هذه المرة؛ وكانت سلمى مصرة على استشارة العرافين، وإذا لم يكن في وسع أمها التي هدّها المرض مرافقتها فقد كانت تعتمد على حضور المبرقشة المُطمئِن.

وقد سألت هذه قائلة: «كيف حال ابن عمك؟» فأجابت أمي قائلة: «على ما يسمح الله بأن يكون.»

لم يُخف إبهام العبارة بالطبع على اليهودية، فوضعت يدها على ذراع أمي، ونظرت كلّ منهما إليّ من زاوية عينها في وقت معاً وابتعدتا مقدار خطوة وبدأتا بصوت خافت حديثاً لم أفقه منه غير أطراف. وقد تردّد على لسان سلمى بضع مرّات كلمة «رومية» وكلمة «سحر» وربما كلمة «مخدر» أيضاً؛ وبدت اليهودية متنبّهة ومُطمئنة.

وضربت المرأتان موعداً بعد غدٍ في المكان نفسه للبدء بجولة على العرافين. وعرفتُ بالأمر في ذلك اليوم لأنّ أمي كانت قد قرّرت اصطحابي. وربما لم تكن راغبة في تركي بين يدي وردة. وربما قدّرت أنه من الأوفق في عيني أبي وعيون الجيران أن تنتقل بصحبة طفل هو الضمانة الحيّة لعفة روجاتها وغدواتها. وعلى كل حال فقد كان الأمر بالنسبة إليّ أنا ابن السابعة تجربة رائعة بقدر ما هي غير متوقّعة. ومُكربة بين حين وحين، على ما ينبغي أن أقرّ وأعترف.

كانت زيارتنا الأولى لبراجة تُدعى أمّ بّصار. ويُقال إن سلطان فاس كان

يستشيرها مطلع كل هلال جديد، وأنها عملت عملاً لأمير كان يهدده فأصيب بالعمى وبالرغم من شهرتها كانت تقيم في منزل يعادل في تواضعه منزلنا ويقوم في سوق العطارين عند نهاية رواق مقنطر ضيق. وقد كفانا إزاحة ستارة لدخوله. وأجلستنا خادم سوداء في حجرة صغيرة قبل أن تقودنا إلى نهاية ممر مظلم يُفضي إلى حجرة أكبر قليلاً من تلك. وكانت أمّ بصّار جالسة على وسادة كبيرة خضراء وقد غطى شعرها خمارٌ من اللون نفسه مُشربٌ بخيوط مذهبة، وخلف ظهرها قبة ملصقة إلى الجدار تثقل أبراج القمر الثمانية والعشرين، وأمامها منضدة واطئة عليها برنية لماعة.

جلست أُمي قبالة البرّاجة وشرحت لها بصوت خافت داعي زيارتها. وبقينا أنا وسارة واقفين في الخلف. وصبّت أمّ بصّار ماءً في الوعاء وأضافت إليه قطرة نفخت فيها ثلاث مرات. وقرأت بعض العبارات غير المفهومة ثم حدّدت بصرها في البرنية قائلة بصوت كأنه صادر من أعماق كهف:

«ها هم الجنّ قد وصل بعضهم برّاً وبعضهم بحرّاً.»

ثم التفتت بغتة إليّ وأومأت قائلة: «اقترّب!»

ولم التحرك إذ راودني الخذر.

«تعال، لا تخف!»

وطمأننتني أُمي بنظرة فاقتربت بخطى موجسة.

«أنحنّ فوق المنضدة!».

أقول الحقّ إن المشهد كان مذهشاً. كانت انعكاسات قُطيرات الزيت المتراقصة على سطح القارورة الأملس توحى بحركة لا تهدأ. فما إن يثبّت المرء فيها بصره ويرخي العنان لخياله حتى يكون في مكنته ملاحظة جميع أنواع الكائنات والأشياء.

«أرايت كل أولئك الجنّ الذين يتحرّكون؟».

وأجبت بالطبع: «أجل.»

كنت سأقول «أجل» مهما يكن السؤال، بد أن أُمي كانت اذناً كلّها. فلم

تكن تريد أن يخيب ظنّها نظراً للغاية التي كانت قد رسمتها والتمن الذي كانت قد دفعته. ورجعتُ بأمر من أمّ بَصَار إلى مكاني. وعندئذٍ ظلّت البرّاجة بضع لحظات بلا حراك.

وشرحت بنبرة مُسأرة: «ينبغي انتظار الجنّ حتى يهدأوا، إنهم شديداً الهياج».

ومرّت لحظة صمت طويلة ثم أخذت تتحدّث إلى جنّها. وكانت تهمس إليهم بأسئلة ثم تنحني فوق الوعاء لمراقبة الحركات التي كانوا يبدونها باليد أو بالعين.

«سوف يعود إليك ابن عمّك بعد ثلاث إشارات». أصدرت هذا الحكم من غير أن تحدّد ما إذا كانت المسألة مسألة ثلاثة أيام أو ثلاثة أسابيع أو ثلاثة أشهر أو ثلاثة أعوام.

ودفعت أُمّي قطعة ذهبية ومضت مرتبكة مفكّرة. وفي طريق العودة طلبت مني ألا أقول شيئاً عن هذه الزيارة لأيّ كان، حتى ولا لأبي، وإلاّ تعرّضت لركوب الجنّ عليّ في أثناء النوم.

وبعد أسبوع التقينا المبرقشة من جديد عند الساحة المربّعة القرية جدّاً من بيتنا. وقادتنا زيارتنا في هذه المرّة إلى مسكن فخم لا يعد كثيراً عن قصر السلطان. وكانت القاعة التي استقبلونا فيها فسيحة وعالية بسقف مطلي بالأرزق والذهبي. وكان هناك عدّة نساء جميعهن بدنيات ومسافرات، ولم يبدُ أنّهن سررنَ لرؤيتي. وقد تبادلن بعض الكلمات بشأني ثم نهضت إحداهن متناقلة وأمسكت بيدي واجلستني في زاوية نائية من الغرفة واعدة إيّاي بأن تأتيني بلعب. ولم أر منها شيئاً، بيد أني لم يُتخ لي الوقت لكي أتضجّر، فما هي إلا دقائق حتى أقبلت سلمى وسارة لأخذي.

ينبغي أن أقول إنه كان عليّ أن أنتظر سنوات طويلاً لأعلم حقيقة ما جرى في ذلك اليوم. بيد أنّي أذكر أنّ أُمّي والمبرقشة كانتا تتذمّران بلا انقطاع ونحن نبتعد، ولكنهما كانتا يتبادلان بين صيحتي غضب بعض النكات وتنفجران ضاحكتين. وأذكر كذلك أنّي كنت قد سمعت النساء يتحدثن في غرفة الاستقبال عن «الأميرة».

لقد كانت شخصية فذة منصرفة بعد موت زوجها، وهو أحد أبناء عمومة

السلطان، إلى علوم التنجيم، وكانت قد أسست أخوية غربية مؤلفة من النساء فقط، وقد اختيرت بعضهن لمواهبهن في كشف الطالع، وأخريات لمجرد أنهم جميلات. ويسمى الناس الذين خبروا الحياة طويلاً هؤلاء النسوة «سحاقيات» لأن من عادتهن أن تستعمل إحداهن الأخرى، الأمر الذي لا أستطيع التعبير عنه بعبارة أكثر حشمة. وعندما كانت امرأة تأتي لزيارتهم كنَّ يُلقين في روعها أنهم على صداقة مع بعض الجنّ فكُنَّ يقسمنهنَّ إلى عدّة أنواع: الجنّ الحُمْر، والجنّ البيض، والجنّ السُّود. وكُنَّ هنَّ أنفسهنَّ يغيّرن أصواتهن للإيهام بأن هؤلاء الجنّ يتكلمون بالسُّتتهن كما شرحت ذلك في كتابي «وصف إفريقية». وكثيراً ما يأمر هؤلاء الجنّ الزائرات عندما يكنَّ جِسان الهيئة بأن يخلعن جميع ملابسهن وبيادلتهم، أي في الحقيقة «الأميرة» وتابعتها، قُبَل الغرام. وإذا قبلت المرأة، عن غباء أو عن تلذذ، أن تشارك في هذه اللعبة دُعيت للانضمام إلى الأخوية وأقيمت على شرفها وليمة فخمة ترقص فيها النسوة نعاً على أنغام جوقة من الزنج.

لقد عرفتُ قصة «الأميرة» ذات الجنّ. وعندها فقط قدّرتُ السبب الذي دفع بأمي وبسارة إلى الهرب بمثل تلك العجلة.

على الرغم من تلك الحادثة المشؤومة فإن سلمى لم تُردِّ قطّ وقف مسعاها. ولكنها بدت في زيارتها التالية أكثر حذراً في اختيار العرّاف. وهكذا زرنا نحن الثلاثة بعد بضعة أسابيع رجلاً محترماً جداً في المدينة، وهو وراق منجم كان يقوم دكانه بجوار جامع القرويين. واستقبلنا في غرفة لم يكن بها من الأثاث غير الكتب عند الجدران وحصير على الأرض، وحرص على التأكيد لنا منذ وصولنا بأنه ليس ساحراً ولا متعاطي كيمياء، وإنما هو يسعى وحسب إلى قراءة ما ساقه الله إلى عباده من آيات. وقد أخذ يقرأ لدعم أقواله آيات من القرآن:

﴿وفي الأرض آياتٌ للموقنين ● وفي أنفسكم أفلا تبصرون ● وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾.

وإذ طمأننا بذلك على إيمان، وكرم محتده فقد طلب منا أن نبتعد إلى أقصى

الحجرة ولفّ الحصير ورسم ببطشورة على الأرض عدة دوائر موحدة المركز. ورسم في الأولى صليباً سجّل عند أطرافه الجهات الأربع الأصلية وكتب داخله أسماء العناصر الأربعة. وقسم الدائرة الثانية إلى أربعة أقسام متساوية، ثم كل قسم إلى سبعة أجزاء فكان المجموع ثمانية وعشرين جزءاً دَوّن فيها حروف الأبجدية العربية الثمانية والعشرين. ووضع في الدوائر الأخرى الأفلak السبعة وأشهر السنة اللاتينية الأثني عشر وعلامات أخرى متفرقة. وهذه العملية المعروفة بـ «الزيرجة» طويلة ومعقدة، وما كنت لأتذكر تفاصيلها لو لم أشاهدها تتم ثلاث مرّات أمام عيني. وكل ما أسف عليه هو أنّي لم أتعلّم صنعها بنفسي، لأنها الوحيدة من بين جميع علوم التنصير التي لا مجال للمجادلة في نتائجها، حتى في نظر علماء الدين.

وبعد أن انتهى النجم من رسمه سأل أمي عمّا تبحث عنه. وتناول حروف سؤالها واحداً واحداً وسجّل قيمها العددية، ووجد بحساب معقد جداً العنصر الطبيعي الذي يتوافق مع كل حرف. وبعد ساعة من الكتابة والتسطير وصل إلينا جوابه شعراً:

سوف ينقضي الموت، ثم أمواج البحر،
وعندئذٍ تعود المرأة وثمره أحشائها.

واضطربت أمي إلى حدّ أنها اختنقت بكلامها وأخذ الرجل يهدّئها قائلاً:

«عندما يبحث المرء عن استطلاع المستقبل عليه أن يتوقّع مصادفة الموت في بعض الأحيان. أليس الموت نهاية المصير؟».

ووجدت سلمى القوة على الردّ وهي ترتجف شبه متضرّعة:

«في النهاية، لا ريب في هذا، وأمّا هنا فإنه قد ظهر في بداية التنبؤ».

وكان كلّ ما أجاب به الرجل أن رفع عينيه وراحته إلى فوق. ولم ينس بأية كلمة، وعندما أرادت أمي أن تدفع له رفض ذلك بحركة لا رجعة فيها.

كانت الزيارة الرابعة هي التي أضاعت سلمى. وكان الأمر في هذه المرّة أمر

أحد أولئك الأشخاص الذين يسمّونهم في فاس «المعزّمين»، وهم مشهورون بطرد الشياطين. وكانت جدّتي رحمها الله قد مدحت ذلك الرجل الذي قالت إنه قد حلّ ألف قضية أكثر تعقيداً من قضيتنا. والحقّ أنه كان من الرواج بحيث اضطررنا إلى انتظاره ساعتين في ردهته ريثما ينتهي من ستّ زبونات أخريات.

وما إن شرحت له سلمى أمرها حتى ارتسمت على شفّتيه ابتسامة مشرقة وهو يقسم لها أنه ما إن تنقضي سبعة أيام حتى تكون قد نسيت مشكلتها.

«في رأس ابن عمّك عفريت صغير يجب طرده. ولو كان هنا لشفيتيه في الحال. بيد أني سأنقل إليك القدرة على طرده بنفسك. وسأعلّمك عبارة تقرأها فوق رأسه وهو نائم هذا المساء وغداً وبعد غد؛ وأعطيك كذلك زجاجة العطر هذه تسكين منها قطرة وأنت تلفظين كل عبارة».

في مساء اليوم الأول كان أبي ينام عند سلمى فلم تجد بأساً في لفظ العبارة وسكب قطرة الإكسير. وما إن أطلّ اليوم الثاني حتى كان ما في وسع أي إنسان عاقل أن يخمنه، فقد كان محمّد بالقرب من وردة، وقد دلفت أُمّي وهي ترتجف إلى غرفتها. وكانت تنهياً لسكب السائل عندما أطلقت أم الولد صرخة حادة فاستيقظ أبي وأمسك مهاجمه الهزيل من عرقوبه. وسقطت سلمى أرضاً وهي تتحب.

وإذ رأى محمّد الزجاجة في يد زوجته فقد نعتها بالساحرة والمجنونة والمسّمة وصرخ في وجهها ثلاث مرات من غير أن ينتظر طلوع الفجر: «أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق»، مشيراً بذلك إلى أنها أصبحت بعد الآن حرةً مُطلّقة.

عام النوادب

٩٠٢ هـ (٩ أيلول «سبتمبر» ١٤٩٦ م -

٢٩ آب «أغسطس» ١٤٩٧ م)

في ذلك العام جاء أبو عبدالله بنفسه إلى بيتنا لتقديم التعازي. أعني إلى بيت خالي لأنني كنت أقيم عنده مُدُّ طرد أبي سلمى. ودخل السلطان المخلوع غرفة الاستقبال يتبعه حاجب وكاتب وستة حراس في الزي الذي كانوا يرتدونه في الحمراء. وتتم بضع كلمات للمناسبة في أذن خالي الذي صافح يده طويلاً قبل أن يتنازل له عن أريكته العالية الوحيدة في البيت. وظلَّ رجال حاشيته واقفين.

كانت جدتي قد توفيت في الليل، وبدأ غرناطيّو فاس يتقاطرون منذ الصباح. وكان أبو عبدالله قد وصل قبيل صلاة الظهر من غير أن يُخبر عن قدومه. ولم يكن لدى أيّ من الحاضرين فكرة رقيقة بشأنه، بيد أن ألقابه، وإن كانت وهمية، لم تلبث أن فرضت على رعاياه السابقين. ومن ناحية أخرى فإن المناسبة لم تكن سانحة قطّ للأحقاد وتصفية الحسابات. إلا بالنسبة إلى «أستغفر الله» الذي دخل بعد السلطان بقليل فلم يوجّه إليه أدنى نظرة وجلس على أول وسادة خالية وشرع يرتل بصوته الأبح آيات من القرآن تتناسب مع المقام.

كانت بعض الشفاه تتمم بالدعاء، وبعضها مبرطمة حاملة، تنم عن شيء من اللهو أحياناً، وكان بعضها الآخر يثرثر بلا كلل. وفي حجرة الرجال كان خالي وحده داعم العين. وما زلت أراه وكأنه بلحمه وشحمه أمامي، وأراني كذلك جالساً على أرض الحجر بلا فرح طبعاً، ولكنّ بغير حزن شديد، وعيناي جافتان لامباليتان تجولان بجشع على الحضور، من أبي عبدالله الذي أضحى بديناً إلى الشيخ الذي أنحلته السنون والمنفى فنضرت عظامه من أطراف جلده. وكانت عمامته تبدو أكثر إتساعاً وأقلّ هنداماً مما كانت في أيّ يوم. وفي كل مرة كان

يصمت فيها عن الترتيل كان يرتفع عويل كسريه صادرة عن النوادب ذوات الوجوه الملتحمة بالسُخام والشعور المشعثة والحدود المخموشة النازفة دماً، في حين كان النادبون المتشكرون في ملابس النساء، وقد حلقوا لتوهم وتبرجوا، يهزون في ركن من أركان الحديقة دفوفهم المربعة. وكان «أستغفر الله» يعود إلى الترتيل بأعلى مما كان وأكثر نشازاً وحمية ليفرض عليهم الصمت. وكان ينهض بين الفينة والفينة شاعر جوال فينشد بنبرة جمعاعة قصيدة سبق أن رثى بها مئة ميت آخرين. وكان ينبعث من الخارج صوت قدور وأوعية: لإنهن الجارات مقبلات بالطعام لأنه لم يكن يُطبخ قط في منزل ميت.

احتفال هو الموت. مشهد.

ولم يحضر أبي إلا عند الظهر شارحاً بارتباك أنه علم لتوّه بالنبا الأليم. وكان الجميع يحدجون بنظرات غريبة، ويظنون أنّ عليهم أن يجيؤه ببرودة، أو حتى أن يتجاهلوه. ولقد شعرتُ بأنّي محطّم، ووددت لو لم يكن هنا، ووددت لو لم يكن أبي. وإذ خجلتُ من أفكارى فقد أقبلتُ عليه وأسندتُ رأسي إلى كتفه وبقيتُ بلا حراك. ولكنّ بينما كان يمرّ بيده متمهلة على عنقي شرعت أفكر، من غير أن أدري لماذا، في الوراق المنجم ونبوءته.

لقد مرّ الموت على هذا النحو، وكنّت، من غير أن أقرّ بالأمر، قد اطمأنت بعض الاطمئنان إلى أن ضحيّته لم تكن أمي ولا كان أبي. وسوف تقول لي سلمى فيما بعد إنها كانت تخشى أن أكون أنا. بيد أنّ ما لم يكن في وسعها قوله، حتى بصوت خافت جدّاً، كان «أستغفر الله» وحده سيتجرأ على التعبير عنه وإن بصيغة عبرة.

فإذ نهض لتأبين الفقيدة فقد توجّه أولاً إلى خالي قائلاً:

«يروى أنّ أحد خلفاء العصور الخوالي فقد أمّه التي كان يحبّها حبّاً لأمك، وأنه شرع يبكي بلا هوادة، وتقدّم منه أحد الحكماء وقال له: «يا أمير المؤمنين عليك أن تحمد الله تعالى على أنه شرف أمك بجعلك تبكي على جثمانها بدلاً من إهانتها بجعلها تبكي على جثمانك». وينبغي حمد الله عندما يحصل الموت تبعاً

لنظام الأشياء الطبيعي، والتسليم بحكمته عندما يكون المصاب خلاف ذلك». واستطرد إلى دعاء أخذ الحضور يتممون به في وقت معاً. ثم استأنف عظته من غير انتقال فقال:

«كثيراً ما سمعت في المآتم مؤمنين ومؤمنات يلعنون الموت. مع أن الموت هدية من الله عز وجل، ولا يمكن أن يلعن المرء ما يأتي من عند الله. أتبدو لكم كلمة «هدية» تحدياً؟ ومع ذلك فإنها الحق الصراح. فلولم يكن الموت من الأمور التي لا تُدفع لأضاع الإنسان حياته بأسرها لدفعه. وما كان جازف بشيء، ولا حاول شيئاً، ولا شرع في أمر، ولا اخترع شيئاً، ولا بنى شيئاً. أجل يا إخوتي لِنَحْمَدِ الله على أن أهدى إلينا الموت ليكون للحياة معنى؛ والليل ليكون للنهار معنى؛ والسكوت ليكون للكلام معنى؛ والمرض ليكون للصحة معنى؛ والحرب ليكون للسلم معنى. لِنَحْمَدَهُ على أن أعطانا التعب والأتراح ليكون للراحة والأفراح معنى. لِنَحْمَدَهُ فإن حكمته لا تُحَدُّ».

وتعالى هتاف الحضور معاً: «الحمد لله، الحمد لله». وقد لاحظت أن رجلاً واحداً ظل على الأقل صامتاً مشفق الشفتين متشنج اليدين. وكان ذلكم خالي.

ولقد شرح لي الأمر فيما بعد قائلاً: «كنت خائفاً. وكنت أقول في سري: «أرجو ألا يُجاوز الحد» والمؤسف أني كنت أعرف «أستغفر الله» حق المعرفة فلم أطمع بأدنى وهم بهذا الصدد».

وبالفعل فقد أخذ مغزى الخطبة بالانزلاق:

«لو أن الله أهدى إلي الموت، لو أنه دعاني إليه بدلاً أن يعيشتني احتضار مدينتي، أف يكون قد ظلمني؟ لو أن الله جنبني أن أرى بأم العين غرناطة تؤسر والمؤمنين يذلون، أف يكون قد ظلمني؟».

ورفع الشيخ عقيرته بغتة فأجفل جميع الحاضرين، وتابع قائلاً:

«أأكون الوحيد هنا الذي يرى أن الموت خير من العار؟ أأكون الوحيد الذي يصرخ: «إذا كنت يا رب قد قصرت في رسالتي تجاه المؤمنين فاسحقي بيدك

القديرة وأزلني عن وجه الأرض مثل حشرة ضارة. يا رب حاسبني اليوم بالذات فوجداني أثقل من أن أحمله. لقد عهدت إليّ بأجل مدتك، ووضعت بين يديّ حياة المسلمين وشرفهم، فلم لا تناديني للحساب؟»

كان خالي سابحاً في عرقه، وكذلك كان الجالسون بجوار أبي عبدالله. وكان وجه هذا الأخير شاحباً مثل عود من القُرْم. وكأنا فارقه وجهه الملكي كيلا يشاطره خزيه. وإذا كان قد أتى بناء على نصيحة بعض مستشاريه لتوثيق العرى مع رعاياه السابقين، وليكون في وسعه عمّا قريب مطالبتهم بالإسهام في نفقات بلاطه، فقد باء مسعاه بالفشل. وانضافت خيبة جديدة. فقد كانت عيناه لا تنفكّان تنظران بهلع إلى باب الخروج، غير أن جسده الوازن كان خائراً.

أكانت الرحمة أم الإعياء أم مجرد الصدفة هي التي جعلت «أستغفر الله» يقرّر التوقّف بغتة عن متابعة مرافقته واستئناف ادعيته؟ فأنا خالي فقد رأى في ذلك تدخلاً من السماء. فما إن قال الشيخ «أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله» حتى انتهز خالي الفرصة ووثب على الفور من مكانه وأشار بالانطلاق إلى الجبّانة. ورافقت النساء النعش حتى عتبة الباب وهنّ يلوحن بمناديل بيضاء علامة على الأسى والوداع. وتوارى أبو عبدالله من باب خفيّ. لقد أصبح في مُكنة الغرناطين أن يموتوا بعد اليوم بسلام، فلن يأتي طيفُ السلطانِ المخلوعِ الشائئ بعد اليوم ليعكّر عليهم رحلتهم الأخيرة.



استمرتّ التعازي ستة أيام أخرى. فأني علاج خير من النَّصَبِ في مواجهة الألم الذي يحدّثه فقدّ عزيز؟ كان أوائل الزائرين يصلون مع الفجر، ويغادر آخراً بعد هبوط الليل بزمّن. وفي مساء اليوم الثالث جفت دموع الأقارب، بل كان بعضهم ينسى أحياناً فيبتسم أو يضحك، الأمر الذي ما كان يُفْلِت من نقد الحاضرين. النوادب وحدهنّ ظللن متماسكات لاعتقادهنّ بارتفاع أجورهنّ بمضاعفة عويلهنّ. وعادت التعازي تنهال خلال ثلاثة أيام أخرى بالطريقة نفسها بعد انقضاء أربعين يوماً على الوفاة.

وكانت أسابيع الحِداد هذه فرصة يتبادل فيها أبي وخالي بعض الأحاديث المشجعة على المصالحة. ولم تكن الأمور قد وصلت بعدُ إلى حدِّ العودة، إذ اقتضى الأمر وقتاً طويلاً، وكانت أمي تتحاشى أن تلتقي الذي طردها. لكنّه خطرت لي من فوق أعوامي الثانية أنّي أرى أملاً لائحاً في الأفق.

وكان من بين الأمور التي ناقشها أبي وخالي أمر مستقبلي. وقد اتفقا على أنّه آن الأوان لكي أبدأ دروسي. وكان بعض الأولاد يتأخرون إلى ما بعدُ في الذهاب إلى المدرسة، ولكنّ يبدو أنّه كانت تلوح عليّ غمائل ذكاء مبكّر، وكان من غير المجدي تركي طوال النهار في البيت بصحبة النساء. فربّما أدى ذلك إلى ترهلي وزغزعة رجولتي. وجاء أحدهما تلو الآخر يشرح لي الأمر، ثم صحباني كلاهما ذات صباح بآبهة إلى مسجد الحيّ.

وطلب مني المعلم، وهو شيخ معّم في مقبل الشباب ذو لحيّة شقراء تقريبا، أن أسمع الفاتحة. وفعلت بدون خطأ وبلا أدن تلجلج. فأبدي رضاه قائلاً:

«لفظه حسن وحفظه مضبوط؛ لن يحتاج إلى أكثر من أربع سنوات أو خمس لحفظ القرآن».

لم أكن قليل الزهو بذلك لعلمي أن كثيراً من التلاميذ كانوا يقضون للأمر سنتّ سنوات، وسبعاً في بعض الأحيان. وكان في وسعي بعد حفظ كتاب الله عن ظهر قلب أن أنتقل إلى المدرسة العالية حيث تُدرّس العلوم المختلفة.

وأضاف المعلم قائلاً:

«سوف ألقنه أيضاً بعض مبادئ الإملاء والنحو والخط».

وعندما سألاه عن الأجر الذي يطلبه تراجع خطوة إلى الوراء وقال:

«أجري لا انتظره إلا من الله تعالى».

لكنّه لم ينس مع ذلك أن يضيف أنّ وليّ كلّ تلميذ يعطي المدرسة ما في وسعه إعطاؤه في أوقات الأعياد، بالإضافة إلى هديّة عينيّة عند انتهاء السنة الأخيرة في أثناء الحتام الأكبر، ختام استظهار القرآن.

ولما كنت قد عاهدت نفسي على أن أنهي بأسرع ما يمكن حفظ السور المئة والأربع عشرة فقد وازبنت على متابعة دروس الشيخ خمسة أيام في الأسبوع. ولم يكن في صفِّي أقلّ من أربعة وعشرين صبياً تراوح أعمارهم بين سبعة أعوام وأربعة عشر عاماً. وكان كل تلميذ يحضر إلى المدرسة بالثياب التي تروقه، بيد أن أحداً ما كان ليخطر في باله أن يلبس ثياباً فخمة من الحرير أو موشاة إلا في بعض المناسبات. وعلى كل حال فإن أبناء الأمراء وكبار المملكة ما كانوا يذهبون إلى مدارس المساجد، بل كانوا يتلقون دروس شيخ من المشايخ في منازلهم. وما عدا ذلك تقريباً فقد كان في المدرسة صبيان من مختلف الأوساط، أبناء قضاة وكتّاب بالعدل وضباط وموظفين ملكيين أو بلديين وأصحاب حوانيت وجرفين، وحتى بعض أبناء العبيد يرسلهم سادتهم.

كانت الحجرة فسيحة فيها مدرجات. وكان أطول التلاميذ قامة يجلسون في الخلف وأقصرهم في الأمام، ومع كل واحد منهم لوح يكتب عليه الآيات المطلوب حفظها في ذلك اليوم بإملاء المعلم. وكان هذا غالباً ما يحمل قصبة لم يكن يتردد في استعمالها إذا ما أفلتت شتيمة من فم أحدنا أو ارتكبت خطأ فادحاً. لكن أحداً من التلاميذ لم يكن يستفزه، ولا هو نفسه كان يضطغن على أحد قط إلى اليوم التالي.

وجلست في أول يوم من قديمي إلى المدرسة في الصف الثالث من المقاعد على ما أظن قريباً بما يكفي لرؤية المعلم وساعه، وبعيداً بما يكفي للاحتماء من أسئلته وغضباته التي لا يمكن تفاديها. وكان بجانبه أكثر أولاد الحي شيطنة، هارون الملقب بـ«المنقب». وكان في مثل سني، شديد السُّمرة، مرقع الثياب، وإن نظيفة على الدوام. وما هو إلا أول عراك حتى غدونا صديقين متلاحمين في الحياة وفي الممات. ولم يكن أحد يصادفه من غير أن يسأله عن أخباري، ولا أحد يصادفني من غير أن يعجب لأنه ليس معي. ولسوف أكتشف بصحبتة فاس وأعوام مراهقتي. وقد كنت أشعر بالغرابة، وكان هو يدرك أن المدينة ملكه وأنها خلقت من أجله، لا لشيء سوى عينيه، ولا لشيء غير ساقيه، ولا لشيء إلا لقلبه. وكان يعرض عليّ أن أشاطره إياها.

والحق أنه كان ينتمي بحكم ولادته إلى أكرم الجماعات.

عام هارون «المنقب»

٩٠٣ هـ (٣٠ آب «أغسطس» ١٤٩٧ م -
١٨ آب «أغسطس» ١٤٩٨ م)

في هذا العام سقطت «مليلة» في أيدي القشتاليين. وكان أسطول قد جاء لمهاجتها فوجدها مقفرة من أهلها الذين كانوا قد هربوا إلى التلال المجاورة حاملين معهم ممتلكاتهم. واستولى المسيحيون على المدينة وبدأوا بتحسينها، والله يعلم إن كانوا سيتخلون عنها ذات يوم!

وارتاع المهاجرون الغرناطيون في فاس للأمر. فقد تملكهم شعور بأن العدو كان على أثرهم، وأنه قد يطاردهم في عقر دار الإسلام، وحتى إلى آخر الدنيا. وارتفعت حدة القلق في قلوب ذويي، ولكني كنت لا أزال قليل التأثر، منصرفاً بكليتي إلى دروسي وصدقاتي الوليدة.

عندما زارني هارون لأول مرة، وكان لا يزال خجولاً، وقدمته إلى خالي وأخبرته عن الجماعة التي تنتمي إليها أسرته، أمسك خالي بيديه يدي صديقي اللتين كانتا أصغر حجماً، ولكن سبق لهما أن بدأتنا تغلظان، وفاه بهذه الكلمات التي أشارت ضحكي في ذلك الوقت:

«لو أن شهرزاد الجميلة عرفتهم لكنت خصّصت ليلة وادعة لقصّ حكايتهم، ولكنت أدخلت فيها الجنّ وبُسط الريح والفوانيس السحرية، ولكنت حولت قبل طلوع الفجر رئيسهم بمعجزة إلى خليفة وأكواخهم إلى قصور وخُلقاتهم إلى طيالس».

وأما هم فكانوا حمالي فاس. ثلاثمئة رجل جميعهم بسطاء فقراء أميون تقريباً،

بيد أنهم عرفوا مع ذلك كيف يغدون أكثر جماعات المدينة أهلاً للاحترام وأشدّها تضامناً وأحسنها تنظيمًا.

وهم ينتخبون في كل عام، حتى هذه الأيام، رئيساً، نقيباً ينظّم نشاطهم بعناية فائقة. فهو الذي يُعيّن في بداية الأسبوع من الذين ينبغي عليهم أن يعملوا، ومن الذين سيستريحون تبعاً لمواعيد وصول القوافل وحالة الأسواق واستعداد الرفاق. ولا يحمل الواحد منهم ما يكسبه في يومه إلى بيته بل يُودّعه بتمامه في صندوق مشترك. وفي نهاية الأسبوع يُقسّم المال بالتساوي بين الذين عملوا، باستثناء جزء يُحفظ لأعمال الجماعة، وهي كثيرة وسخية: إذا مات أحدهم تكفلوا بنفقات أسرته وساعدوا أرملة على اتخاذ زوج جديد واعتنوا بالأطفال الصغار حتى يصبح لهم حرفة. وابن أحدهم هو ابنهم جميعاً. ويعود مال الصندوق بالفائدة كذلك على من يتزوجون: يكتبون كلهم ليؤمّنوا لهم ما يساعدهم على السكن.

ويفاوض نقيب الحمالين باسمهم السلطان ومساعديه. وعلى هذا فقد نال حق إعفائهم من الضرائب والمكوس، ونخبز عجينهم مجاناً في مخازر المدينة. وعلاوة على هذا فإنه إن ارتكب أحدهم لسوء الحظ جريمة قتل يُعاقب عليها بالموت فإن إعدامه لا يتم في العلن كما هي الحال مع المجرمين الآخرين لكيلا يصيب الخزي سائر الجماعة. وفي المقابل فإن على النقيب أن يتحرى بلا تسامح عن أخلاق كل مرشح جديد لاستبعاد أي فرد قد يكون موضع شبهة. وعلى هذا غدا صيت الجماعة من الحُسن بحيث وجد التجار أنفسهم مضطرين إلى استدعائهم لتفريغ بضائعهم. وهكذا يستعين تجار الزيت القادمون من الريف إلى الأسواق بأجرار من مختلف الأحجام بحمالين مختصين يتحققون بأنفسهم من مكايلها وجودة النتائج ويقدمون بذلك الضمان للمشتريين. كذلك فإنه عندما يستقدم أحد التجار نوعاً جديداً من القماش تراه يستدعي حمالين متادين يزينون للناس منافع بضاعته. ويتقاضى الحمال أجراً محددًا عن كل نشاط يقوم به وفقاً لتعرفة يعيّنها النقيب.

ولا يجرؤ أيّ كان، حتى ولو أميراً، أن يعتدي على أحد منهم لأنه يعرف أن عليه أن يقاتل عندئذ الجماعة بأسرها. وشعارهم قولة عن النبي: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، ولكنهم يفسّرون هذه الكلمات كما فسّرها الرسول نفسه عندما

قيل له: «المظلوم ننصره وهذا لا مرأى فيه. وأما الظالم فكيف ننصره؟» وقد أجاب: «تنصرونه بالتغلب عليه ومنعه من الضرر». وهكذا فإنه نادراً ما كان يفتعل حمال شجاراً في أسواق فاس، فقد كان بين إخوته على الدوام حكيم كفيل برده إلى رشده.

على هذا النحو كان أولئك الرجال، كانوا متواضعين كثيراً، ولكن أصحاب عزة وأنفة. كانوا محرومين جداً، وكانوا مع ذلك أسخياء جداً. كانوا يعيدون كثيراً عن القصور والحصون، ولكنهم كانوا مع ذلك ماهرين جداً في حكم أنفسهم بأنفسهم. أجل، أولئك كانوا القوم الذين ينتمي إليهم خير أصدقائي.

كان هارون «المتقّب» يمرّ كل يومٍ عند بزوغ الفجر فيصطحبني لنقطع جنباً إلى جنب بضع مئات الخطى التي تفصل بين بيت خالي والمدرسة. وكنا نتبادل أحياناً بعض الحكايات، ونردّد أحياناً أخرى الآيات التي كنا قد تعلّمناها في اليوم السابق. وكثيراً ما كنا نصمت، فقد كنا صديقين في صمت.

وفتحت عيني ذات صباح فرأيت في غرفتي عند أسفل الخزانة التي كنت أفترش سقفها سريراً. وأجفلت خشية أن أكون قد تأخّرت عن موعد المدرسة، وأخذت أتخيل قصبة المعلم وصفيرها وهي تهوي على ربّتي ساقتي. وطمأنني هارون بابتسامة.

«اليوم هو الجمعة والمدرسة مغلقة، وأما الشوارع فمفتوحة، وكذلك هي الحدائق. خذ كسرة خبز وموزة والحق بي إلى ناصية الدرب».

الله وحده يعلم عدد نزهاتنا وجولاتنا منذ ذلك اليوم. وغالباً ما كنا نبدأ النزهة من ساحة «الأعاجيب». ولست أدري إذا كان هذا اسمها الحقيقي، بيد أن هارون كان يسميها هكذا. ولم يكن أمامنا ما نشتره ولا ما نقطفه ولا ما ناكله. كان هناك فقط ما يمكن أن ننظر إليه وأن نشمه وأن نسمعه.

قبل كل شيء المرضى المزيّفون. كان بعضهم يزعمون أنهم مصابون بالصرع فيمسكون رؤوسهم بين أيديهم ويهزّونها بقوة فتتدلّى الشفاه والفكوك، ثم يتدحرجون على الأرض بطريقة تنم عن خبرة ومهارة بحيث لم يكونوا يتخذشون

قطّ، ولا كانوا يقبلون قطّ الطاسة الموضوعة بقربهم لجمع الصدقة. وكان آخرون يدعون الإصابة بداء الحصى في الكلى ويتحبون بلا انقطاع متظاهرين بالآلام فظيعة إلا إذا كنت وهارون المتفرجين الوحيديين. وآخرون كانوا يعرضون أيضاً الجروح والدمامل. وكنت سرعان ما أدير بصري لأنه كان قد قيل لي إنه يكفي التحديق فيها للإصابة بمثلها.

وكان في الساحة عدد كبير من المشعوذين يغنون قصائد حب سخيفة ويبيعون لمن يصدّقونهم أوراقاً صغيرة تحتوي كما يقولون على عبارات سحرية تشفي من كل الأمراض. وكان هناك أيضاً متطبّبون دجالون يعرضون منافع أدويتهم العجيبة ويتحرّزون جيداً من المرور بالمدينة نفسها مرّتين. كما كان هناك قرّادون يتسلّون بإخافة النساء الحوامل، وحواة يلقون حياتهم على رقابهم. ولم يكن هارون يخاف الاقتراب. وأمّا أنا فكنت أفزع بقدر ما كنت أتقرّز.

وفي أيام الأعياد كان هناك قصاصون. وأذكر منهم على الأخصّ ضريراً كانت عصاه تتراقص على وقع مغامرات «هلول»، بطل حروب الأندلس، أو عنتره بن شدّاد أشجع العرب. وبينما كان يعرض ذات يوم غراميات عنتره الأسود مع عبلة الجميلة توقّف ليسأل عمّا إذا كان في الحضور أولاد أو نساء. وابتعد هؤلاء وأولئك جميعاً خافضين أبصارهم. وانتظرت أنا بضع لحظات، أي القدر الكافي لتسوية أمري مع عزة نفسي. والتفتت صوبي مئة نظرة معارضة. وإذ لم أستطع تحمّلها وتبيّات للانصراف فقد غمزني هارون غمزة ليُفهمني أن القضية ليست واردة على الإطلاق. وقد وضع إحدى يديه على كتفي والأخرى على ردفه ولم يتحرّك قيد خطوة. وتابع القصّاص حكايته واستمعنا إليه حتى آخر قُبلة، ولم نستأنف تجوالنا إلا بعد أن تشتت الحشد بأسره.

كانت ساحة الأعاجيب تشغل تقاطع عدّة شوارع حافلة بالعابرين. وكان أحدها مزدحماً بالورّاقين وكتّاب العرائض والالتباسات، وكان يفضي إلى صحن المسجد الجامع؛ وثاني كان يؤوي باعة الأخفاف والنعال؛ وثالث تجار اللجامات والسروج والركائب؛ ورابع كان لنا مَعْبَراً على الرغم منّا. وهنا كان اللبانون المزينة حوانيتهم بآنية من الخزف الإيطالي أنفس من السلعة التي تباع فيها. وما كنّا

لنذهب إليهم وأتوا إلى الذين كانوا على أبوابهم يشترون بئس كل مساء ما كسد من لبن ويأخذونه إلى بيوتهم فيروبوونه أثناء الليل ويبيعونه في اليوم التالي مزوجاً بالماء. وإنه لشراب هنيء مريء لا يثقل على الجيب ولا على وجدان المؤمن.



لم يكن اكتشاف فاس بالنسبة إليّ وإلى هارون إلا في بدايته. وكنا سنعرّبها ثوباً بعد ثوب وكأنا عروس في غرفة عرسها. وإنّي لأحتفظ من ذلك العام بألف ذكرى تعيدني كلما استذكرتها إلى سداجة أعوامي التسعة اللامبالية. ومع ذلك فإنّ ما أشعر بأنّي مُجبر على روايته هنا ألهها جميعاً، ولو أنّي تكتمت عليه لحنتُ مهمّتي كشاهد أمين.

بدأت النزّهة في ذلك اليوم كما كانت تبدأ الزهات الأخرى. وكان هارون راغباً في التقير والتقيب، ولم أكن أنا أقلّ منه فضولاً. وكنا نعلم أنّ في غربي المدينة ضاحية اسمها «المرسى» لم يكن معلم مدرستنا يتحدث عنها إلا بنوع من البرطمة الزاخرة بالأسى. فهل كانت بعيدة؟ وهل كانت خطيرة؟ لو كان غيرنا لتوقّف عند هذين التفصيلين؛ وأمّا نحن فاكتفينا بالمسير.

وإذ وصلنا إلى تلك الضاحية قرابة الظهر فهمنا بلا عناء ما كانت تتطوي عليه. كانت هناك نسوة في الشوارع مستندات إلى واجهات المباني أو عند أبواب مفتوحة ما كان يمكن أن تكون غير أبواب حانات. وأخذ هارون يحاكي طريقة إحدى الغواني في مشيتها الحافلة بالإغراء.

وماذا لو ذهبنا ننظر ما يجري في الحانات؟ وكنا نعلم أنه ليس في وسعنا دخولها، ولكن كان في مقدورنا على أيّ حال أن نلقي نظرة عابرة ونلوذ بالفرار.

وعليه فقد اقتربنا من أوّل حانة. وكان الباب موارباً ومددنا رأسينا الصغيرين إلى الداخل. المكان معتم، ولم نر سوى زمرة من الزبائن. وفي الوسط شعر غزير أشقر. لم نر غير ذلك لأن الجساعة كانوا قد لمحونا فأسرعنا بالهرب نحو حانة الشارع المحاذي. ولم يكن المكان أكثر نوراً، ولكنّ عيوننا كانت تسرح هنا بأسرع

فما فعلت هناك. وعددنا أربع رقات وخمسة عشر زبوناً. واتسع وقتنا في الثالثة لرؤية بعض الوجوه وبعض الأقداح المتلألئة وبعض القوارير. واستمرت اللعبة، وتوغّل رأسانا الطائشان في الرابعة. وبدا لنا أنها أنور من الأخريات. وميزنا قريباً من الباب وجهاً. هذه اللحية، وهذا المنظر الجانبي للوجه، وهذه الهيئة؟. رسحت رأسي وأخذت أجري في الشارع. لم أكن أهرب من أصحاب الحانة ولا من المكلفين بطرد غير المرغوب فيهم منها. كانت الصورة التي أردت تركها ورائتي بعيداً صورة أبي جالساً إلى مائدة في الحانة وبجانبه رمة مسرحة. فأما أنا فإني رأيته، وأما هارون فقد عرفه بالتأكيد. وأما هو فهل رأنا يا ترى؟ لا أظن ذلك.

لقد حدث لي غير مرة بعدها أن غشيت حانات وأحياء أقدر من «المرسى». وأما في ذلك اليوم فقد مادت الأرض بي. فلكنّ أنه يوم الحشر. لقد شعرت بالهوان وتألّمت. ولم أتوقف عن الجري ودموعي جارية على خدي، وعيناي شبه مغمضتين، وحلقي مهصور، ونفسي مختنق.

وكان هارون يتبعني من غير أن يكلمني أو يلمسني أو حتى يقترب كثيراً مني. وانتظر حتى خارت قواي فجلستُ على عتبة دكان مقفل. وجلس هو إلى جانبي من غير أن يوجه إليّ كلمة. وبعد أن مضت ساعة طويلة ونهضت وقد بدأ مع روعي بعض الشيء انتصب واقفاً وقادني خلسة نحو طريق العودة. وعندما بلغنا مع الغسق الجانب المواجه لبيت خالي تكلم هارون للمرّة الأولى فقال:

«إنه طالما ذهب جميع الرجال إلى الحانات؛ وطالما أحبّ جميع الرجال الخمر؛ وإلا فلماذا حرّمها الله؟».

وفي اليوم التالي رأيت هارون «المنقّب» من غير أن أستاذ. فالذي كنت أخشاه هو مقابلي لأبي. ولحسن الحظ أنه كان عليه أن يذهب إلى الريف حيث كان يبحث عن أرض يستأجرها. وعاد بعد بضعة أسابيع، ولكنّ القدر كان قد أغرق عندئذٍ الآمي والآمه في مصائب أدهى وأمرّ.

عام المفتشين

٩٠٤ هـ (١٩ آب «أغسطس» ١٤٩٨ م -

٧ آب «أغسطس» ١٤٩٩ م)

في ذلك العام مات حامد الفكّك بفعل التعذيب في إحدى زنانات الحمراء؛ ولم يكن عمره ليقلّ عن تسعين سنة. ولم يكن أمهر منه في الحصول على تحرير أسير، ولكنّ عندما اقتضى الأمر أن يحرّر نفسه كانت كلماته قد فقدت من قوتها. وقد كان رجلاً تقيّاً ورعاً، وإذا حدث له أن أخطأ في حكمه فقد كانت نيّاته حتى آخر يوم من حياته تماثل في صفاتها نيات طفل. ولقد مات فقيراً، فتح الله له كنوز جنّات عدن!

وقد عُذّب ألوف آخرين في الوقت الذي عُذّب هو فيه. وكانت تردنا منذ بضعة أشهر أبناء التحذير من وطننا القديم، بيد أن قلّة من الناس كانت تتوقّع النكبة التي ستحلّ بأخر مسلمي الأندلس.

لقد بدأ كل شيء بوصول فريق من المفتشين إلى غرناطة، وهم رجال دين متزمتون أعلنوا على الفور أنه ينبغي أن يعود جميع المسيحيين الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام إلى دينهم الأوّل. وأذعن بعض الأشخاص للأمر، ولكنّ الأكثرية عارضته مذكرة بالاتفاق المعقود قبل سقوط المدينة، وهو يكفل بالحرف لمعتقي الإسلام البقاء مسلمين. ولكنّ بلا نتيجة، فلم يكن لهذا البند من وجود في نظر المفتشين. وكلّ إنسان كان قد عُمد ورفض أن يرجع مسيحياً يُعتبر مارقاً، وبهذه الصفة يحقّ عليه الموت. وقد أقبمت بعض المحارق، كما فعل باليهود، لإلقاء الرعب في قلوب المعاندين. وتخلّى بعض الأهالي عن معتقدهم. وقال آخرون، وهم قلّة قليلة، لأنفسهم إنه من الخير لهم أن يفرّوا، حتى لو جاء فرارهم متأخراً، قبل أن يُطبق عليهم الفخّ. ولم يتمكّنوا من أن يحملوا معهم غير الملابس التي تستر أجسادهم.

ثم إن المفتشين رسموا أن كل من كان أحد أجداده مسيحياً ينبغي حتماً أن يُعند. وقد كان حامد أول الذين انزعجوا للأمر. فجده كان أسيراً مسيحياً اختار التلقظ بالشهادتين. وعليه فقد حضر إلى منزله في ضاحيتنا ألبيسان ذات مساء بعض الجنود القشتاليين برفقة مفتش. وإذ هال الأمر جيران العجوز فقد نزلوا إلى الشارع في محاولة لمنع التوقيف. ولكن بلا جدوى. وفي اليوم التالي اعتقل أشخاص آخرون بينهم امرأتان في أحياء من المدينة. وكانت تُشكل في كل مرة مفارز من الجنود، وكان على هؤلاء أن يشهروا سيوفهم ليشقوا لأنفسهم طريقاً. ولكن تفاقم الأحداث المثيرة كان يتم بشكل خاص في ألبيسان. فقد أحرقت غير بعيد من منزلنا القديم كنيسة كانت قد بُنيت حديثاً. واقتصاصاً لحرقها عيث فساداً في مسجدين. لقد كان كل شخص سطحي الإيمان.

وعلم ذات يوم أن حامداً قضى في زنزائه على أثر ما كان يلقاه من سوء المعاملة التي فرضها عليه المفتشون. وقد ظل يرفض الارتداد عن دينه حتى النهاية مكتفياً بالتذكير بالعهد الذي وقّع عليه الملك والملكة المسيحيان.

وعندما ذاع نبأ موته دوت في الشوارع نداءات للقتال. فقد كان حامد الوحيد من وجهاء ضاحية ألبيسان الذي ظل مكانه، لا للتقرب من العدو، وإنما لإكمال الرسالة التي وقف عليها حياته: فك أسرى المسلمين. وجاء رد فعل المسلمين على الأثر نظراً لنشاطه الشريف ومنه، وبفعل كل البغضاء المكبوتة في صدورهم لمن حولهم. ورُفعت الحواجز، ودُبح جنود وموظفون ورجال دين. وكان التمرد والثورة.

لم يكن أهالي المدينة قادرين بالطبع على الوقوف في وجه جيش الاحتلال. بيد أنهم استطاعوا منع جيوش القشتاليين من الوصول إلى ألبيسان ببعض الأقواس والسيوف والرماح والهرات، وسعوا إلى تنظيم أنفسهم في جيش صغير منذور للجهاد. غير أنهم ما لبثوا أن سُحقوا بعد يومين من القتال. وبدأت المذبحة. فقد أعلنت السلطات أن حكم الإعدام سينفذ في جميع المسلمين بسبب التمرد على الملك والملكة، وأضافت بشكل مخاتل أن القادرين الوحيدين على الإفلات منه هم الذين سيعتقون الدين المسيحي. وعندها أفاء سكان غرناطة إلى العيادة شارعاً

برمته تلو شارع . وأما في بعض قرى جبال ألبيجارس فقد قاوم الفلاحون؛ واستطاعوا الصمود بضعة أسابيع؛ حتى قيل إنهم أفلحوا في قتل أمير قرطبة الذي كان يقود الحملة عليهم . ولكن هناك أيضاً لم يكن في الإمكان أن تستمر المقاومة وكان على القرويين أن يفوضوا: لقد أذن لبضع مئات من الأسر بالرحيل فجاءت تقييم في فاس؛ واحتتمى بعض الأشخاص بالجبال مُقسمين على أن لا يدعوا أحداً قط يعثر عليهم، وتلقى العمادة جميع من بقي . ولم يعد في وسع أحد قول «الله أكبر» على أرض الأندلس حيث ظل صوت المؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة طوال ثمانية قرون . ولم يعد في مقدور أحد قراءة الفاتحة على جثمان أبيه . في العلن على الأقل، لأن هؤلاء المسلمين المرتدين تحت وطأة القوة كانوا يرفضون جحد دينهم .

وأخذوا يرسلون إلى فاس رسائل تقطع نياط القلب . وكانت إحداها تقول: أيها الإخوة، إذا كنا قد أهملنا واجبنا في الهجرة لدى سقوط غرناطة فذاك فقط لأننا لم نكن نملك الوسيلة لذلك، ولأننا أشد الأندلسيين فقراً واستضعافاً . ولقد قبلنا اليوم أن نعلمد حفاظاً على حياة نساتنا وأولادنا، ولكننا نخشى غضب الله تعالى علينا يوم الدين وإذاقتة إيانا عذاب الجحيم . وعليه فإننا نضرع إليكم انتم إخوتنا المهاجرون أن تعينونا بنصائحكم . استفتونا لنا الفقهاء في ما علينا عمله، فكربنا لا حد له .

وعقد المهاجرون الغرناطيون الذين رقت قلوبهم لإخوانهم عدّة اجتماعات في ذلك العام، وكان بعضها يتم في بيت نخالي . وقد حضرها وجهاء وناس من العمامة، ولكن كان فيها على الأخص فقهاء منكّبون على الشريعة . وكان بعضهم يأتون من أمكنة بعيدة ليقدموا ثمرة أبحاثهم وعصارة أفكارهم .

وأذكر على هذا أي شاهدت حضور مفتي وهران، وهو رجل في الأربعين ذو عمامة تكاد تكون أقل فخامة من عمامة «أستغفر الله»، وإن كان يلوثها بشيء من البساطة . وبدا نخالي أشد احتفاءً عما هو في العادة فاستقبله عند ناصية الشارع، واكتفى جميع الحاضرين طوال الاجتماع بطرح الأسئلة عليه من غير أن يتجرأوا قط على محاجته أو الارتياح في إجاباته . والحق أن المسألة كما هي مطروحة كانت تحتاج إلى تفقه كبير في الشريعة والسنة، وإلى جرأة كبيرة في الاجتهاد: لم يكن يُعقل

القبول بأن يجحد مئات الألوف من المسلمين دين الرسول؛ وكان الطلب إلى شعب كامل بأن يموت فوق المحارق أمراً فظيماً.

ما زلت أذكر أقوال الوهراني الأولى وقد لفظها بصوت دافئ هادئ فقال:

«أيها الأخوة، إننا هنا بحمد الله في دار الإسلام، ونحن نحمل بفخر ديننا وكأنته تاج على رؤوسنا. فلنحذر إرهاب أولئك الذين يحملون دينهم كما تُحمل الجمرة باليد».

وتابع:

«لتكن أقوالكم عندما ترسلون إليهم الرسائل حذرة وموزونة. فكثروا في أنه بالإمكان إشعال محرقة بالرسالة التي ترسلون. لاتلوموهم على عمادتهم بل ادعوهم فقط إلى أن يظلموا على الرغم من كل شيء مخلصين للإسلام، وأن يعلموه لأبنائهم. ولكن لا يعلموهم إياه قبل البلوغ، قبل السن التي بالإمكان معها الاحتفاظ بسر، ففي وسع الطفل أن يكشف بكلمة طائشة دين أبويه الحقيقي ويتسبب في هلاكهما».

وإذا أكره هؤلاء المساكين على شرب الخمر؟ وإذا دُعا إلى أكل لحم الخنزير للتأكد من أنهم ليسوا مسلمين؟

قال المفتي:

«فليفعلا إذا أكرهوا، ولكن ليحتجوا في قلوبهم».

وإذا عُرض عليهم أن يشتموا النبي صلى الله عليه وسلم؟

وكرر قائلاً:

«فليفعلا إذا أكرهوا، ولكن ليقولوا العكس في قلوبهم».

وقد أطلق المفتي على أولئك الناس الذي كانوا يُسامون أشد العذاب لأنهم لم يهاجروا اسم «الغرياء» مستشهداً بقول رسول الله: «لقد ابتدأ الإسلام غريباً وسيتهي غريباً؛ والجنة للأغراب».



قررت الجماعة الغرناطية في فاس إرسال مبعوثين إلى الحكام المسلمين الأساسيين، مولانا السلطان في القسطنطينية، وسلطان فارس الجديد، وسلطان مصر، وعدد آخر أقل شأناً منهم، لدعوة المسلمين في جميع الأمصار لإنقاذ أولئك المنكودين في غرناطة. وعين خالي نظراً للأعمال التي كان يقوم بها في الحمراء لتحرير رسائل رسمية بالصيغ المعمول بها؛ كما كلف أن يواكب أهم هذه الرسائل، أي الرسالة الموجهة إلى صاحب القسطنطينية المعظمة. وما إن تم تكليف خالي حتى زار سلطان فاس وأبا عبدالله وحصل منها على رسالتي توصية واعتماد.

وفي كل مرة استذكر فيها تلك الرحلة ينقبض قلبي، وحتى اليوم، على الرغم من أني عرفت مذآك أغرب البلاد وأشدّ الأمكنة صعوبة منال. فطالما كنت أحلم بالتعرف على القسطنطينية، وما إن عرفت بأن خالي سوف يزورها حتى لم يعد يقر لي قرار. وأخذت ألوك الأمر في ذهني متسائلاً عما إذا كان لي أن أرجو وأنا في العاشرة من العمر أن أشارك في مثل هذه الرحلة. وفاتحت خالي بالأمر من غير أن أتعلّق بحبال الأوهام. ولكن ما أشدّ ما كانت دهشتي عندما هتف بي قائلاً وهو يفتح ذراعيه أمارة على الترحيب:

«من أين لي أن أجد رفيقاً خيراً منك؟».

وعلى الرغم من نبرته المتهكّمة فقد كان واضحاً أنه مسرور للفكرة. وبقي إقناع أبي بذلك.

في تلك السنة أيضاً كان عمّد في أكثر الأحيان خارج المدينة بحثاً عن أرض يستأجرها لقضاء حياة وادعة بعيداً عن الضجّة، بعيداً عن القيل والقال، بعيداً عن عيون اللائمين. وهكذا ظللت انتظره يوماً بيوم أسبوعين طويلين سائلاً عن أخباره وردة ومريم بلا كلل. ولم تكونا نعرفان عنه شيئاً، وكانتا مثلي نتظران.

وإذ عاد أخيراً فقد أسرع إليّ وشرعت أتكلّم بسرعة اضطرّ معها إلى جعلي أعيد ما قلت عدّة مرات. وكان، ويا للأسى!، رَفُضَ لا رجعة عنه. ولعلّه كان عليّ أن أنتظر أن يعرض عليه خالي أمر السفر بطريقته الخاصّة. فلربّما عرف كيف

يُطري ببلاغةٍ حسنةٍ مثل تلك الرحلة. ولربما كان محمد يقبل عندها كيلاً يُعارض رأي خالي الذي لم يمضِ على تصالحه معه كبير وقت؟ فقد كان في مقدوره أن يقول لي أنا «لا» بلا مواربة. وتذرع بمخاطر السفر، وذكر لي أشخاصاً لم يرجعوا قط، وحدثني عن دروسي التي كان عليّ أن أقطعها بداعي الرحيل. ومع ذلك فإنّي أعتقد أنّ السبب الحقيقيّ كان شعوره بأنّي كنت قريباً جداً من خالي ومن عائلة أمي بعامة، وأنّه كان يخشى أن أفلت منه بالكليّة. وإذ كنت عاجزاً عن الحجاج فقد توّسّلت إليه أن يكلم خالي في الأمر، بيد أنّه رفض حتى أن يقابله.

وظللت طوال أسبوعٍ استيقظ كلّ صباحٍ وعيناوي بلون الدم ووسادتي مبلّلة. وقد أقسم لي خالي لمواساتي أن يصطحبني معه في الرحلة القادمة؛ ولقد برّ بقسمه.

وجاء يوم الرحيل. وكان عليّ خالي أن ينضمّ إلى قافلة تجّار في طريقها إلى وهران قبل أن يستقلّ السفينة. ومع مطلع الفجر توافد الغرناطيون على منزله يتمنون له التوفيق في مهمّته ويسهمون ببعض القطع الذهبية في نفقاته. وأمّا أنا فقد كنت أتملّل في زاويتي عندما جاء عجزوز تنمّ عيناه عن الخبث فجلس بجانبني - ولم يكن ذلك الرجل غير حمزة الحلاق الذي كان قد ختني - وسألني عن أخبار أبي، وانتحب على موت الفكّك الذي كان قد التقاه آخر مرّة عندنا في ألبيسان. ثم استفسر عن دروسي وعن السورة التي كنت أدرسها في ذلك الوقت، بل لقد شرع في ترتيلها. وكانت رفقته محبّبة، وقد ثرثرت معه ساعة من الزمن فقصّ عليّ أنّه فقد في الهجرة القسم الأكبر من مدّخراته، غير أنّه ما زال قادراً بحمد الله على القيام بنفقات نسائه. وكان قد عاد إلى العمل حلاًقاً وحسب لأن ضربة موسى لم تُعدّ صالحة جداً للختان. ولقد استأجر حيزاً من حمام الحيّ للممارسة مهنته فيه.

وفجأة التمعت في ذهنه فكرة برقت لها عيناه.

«ألا ترغب في مساعدتي عندما لا تكون في المدرسة؟»

ووافقت بلا تردّد.

«سأدفع لك كلّ أسبوعٍ درهماً».

واندفعت أقول إنّ لي صديقاً أوّداً جيداً لو يكون في وسعه المجيء معي. ولم يرَ

همزة في ذلك ضيراً. وسوف يكون له مثل نصيبي فهناك أمور كثيرة يمكن القيام بها في الحماة.

وعندما حضر خالي بعد دقائق لتقبيلي قبلة المودع دهش لرؤية عيني جافتين صاحكتين. وشرحت له أنني سوف أعمل وأقبض درهماً كل أسبوع فتمنى لي التوفيق في مهمتي وتمنيت له مثل ذلك في مهمته.

عام الحمام

٩٠٥ هـ (٨ آب «أغسطس» ١٤٩٩ م -

٢٧ تموز «يولية» ١٥٠٠ م)

«عندما أفكر في أن كل هؤلاء الناس يغتسلون بالروث!»

لقد لزمي بضع لحظات لإدراك ما قاله هارون. ثم انطلقنا كلانا في قهقهة مجلجلة. فلم يكن صديقي مجانباً للصواب، لأن ماء الحمامات في فاس كان يسخن حقاً بالروث.

وقد دفع لنا مال في ذلك اليوم للاطلاع على الأمر إذ أرسلنا صاحب الحمام بعد زودنا ببغلتين وبعض الدراهم لنجول على حظائر الخيل في الحي ونشتري الروث المتراكم فيها. ولقد حملناه إلى خارج المدينة في مكان كان قد حدده لنا. وكان رجل بانتظارنا لتسلم الحمولة؛ وكان هو الذي يهتم بفرش القطاف الثمين لتجفيفه، الأمر الذي يقتضي شهراً في الصيف وثلاثة أشهر في الشتاء. وحملنا عند عودتنا كومة من الروث في مثل صلابة الخشب واستعداده للاشتعال. وبهذا كان خلقين الحمام يُغذي. وعليك أن تقول ما إذا لم تكن ملابسني وملابس هارون قد اكتسبت، بعد أن أفرغت الحمولة الأخيرة، لون ما نقلناه ورائحته.

وعليه فقد سارعنا إلى خلع ملابسنا والاندفاع إلى حجرة الماء الساخن. ولقد سلّتنا مغامرتنا. وما إن كنّا نلتقي صديقاً في غرفة التجفيف حتى كنّا نُسرّ بسؤاله عما إذا لم يبد له الماء مختلفاً في ذلك اليوم عنه في الأيام السابقة.

والحمام في نظر جميع الناس في المدينة أحبّ الأمكنة لضرب مواعيد اللقاء. فهم يخلعون ملابسهم في الحجرات الصغيرة عند مدخل الحمام ثم يجتمعون عراة تماماً بلا أي خجل. وإذا كانوا تلاميذ صغاراً أخذوا في الحديث عن معلّمهم

وقصوا دعاباتهم متكتمين على ما يلاقونه جميعاً من عقاب الضرب . وإذا كانوا
مراهقين تحدّثوا عن النساء فاتهم بعضهم بعضاً بالذوبان حباً لهذه أو لتلك، وفاخر
كلّ منهم بمغامراته الغرامية . وإذا كانوا بالغين أصبحوا أكثر تحفظاً في هذا الصدد
وإن تبادلوا النصائح والوصفات لتحسين أمور أجسادهم فيه، وهذا موضوع لا
ينضب الحديث عنه، وهو إلى ذلك منجم ذهب للمشعوذين . وأما سائر الوقت
فيقضونه في الكلام على الدنانير أو في النقاش بالسياسة بصوت خافت أو مرتفع
تبعاً للآراء التي يبشرون بها .

ويلتقي رجال الحيّ في أغلب الأحيان للغداء . ويُحضّر بعضهم طعامهم معهم،
ويطلب آخرون من أحد صبيان غرفة التجفيف أن يشتري لهم شيئاً من السوق
المجاورة . بيد أنهم لا يتناولون وجباتهم الخفيفة على الفور . فهم ينتقلون أولاً إلى
الحجرة الدافئة حيث يغسل الصبيان أجسادهم ويدلكونها بزيت أو مراهم . ثم
يستريحون قليلاً مستلقين على بسّط من اللبد ورؤوسهم على مساند خشبية مغطاة
كذلك باللبد قبل الدخول إلى الحجرة الحارّة للتعرّق . ثم يعودون من جديد إلى
الحجرة الدافئة فيغتسلون من جديد ويستريحون . وبعدها فقط يتوجهون إلى الحجرة
الباردة فيجلسون حول البركة للطعام والثرثرة والضحك، وحتى للغناء .

ويظلّ معظمهم عراة حتى الانتهاء من الطعام، باستثناء بعض الأشخاص من
ذوي الشأن من يتحاشون الظهور بذلك المظهر ويحتفظون بفسوطة حول خصورهم
فلا ينزعونها إلا في الحجرات الخاصّة المحجوزة لهم، وهي حجرات مُدبّرة أحسن
تدبير، وفيها يستقبلون أصدقاءهم، وفيها تُدلك أجسادهم؛ وإليها يأتي كذلك
الحلاق عارضاً خدماته .

ثم إن هناك النساء . وعدد من الحّمّات مخصّص لهنّ وحدهنّ، بيد أن معظمها
هو لخدمة الجنسين . في الأمكنة نفسها، ولكنّ ليس في الأوقات ذاتها . والحّمّات
الذي كنت أعمل فيه يؤمّه الرجال من الثالثة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر . وأما
سائر اليوم فيستبدل فيه صبيان حجرة التجفيف بزنجيات كنّ يشدّدن حبلاً إلى
عُرّض الباب لإشعار الرجال بأنهم لا يستطيعون الدخول، وإذا احتاج أحدهم إلى
قول كلمة لزوجته فما عليه الا استدعاء إحدى القبيّات بشؤون الحّمّات لنقل الرسالة .

وفي كل مرة كان علينا فيها ترك المكان، في كل مرة كنا نرى فيها الجبل يُشدّ والنساء يصلن، كنا نتساءل أنا وهارون عما كان يحدث في الحمام عندما يصبح ميداناً للنساء. وكنا نحاول في الأيام الأولى إقناع أنفسنا بأنه لم يكن يجري غير ما كنا نعرفه عن الرجال، فالتدليك نفسه، والتضميخ عينه، والثرثرات ذاتها، والاحتفالات ذاتها، والفُوط نفسها لستر أجساد بنات الذوات. ومع ذلك فإننا لدى مراقبتنا باب الدخول عند العصر لم نكن نرى وفود عدد كبير من البائعات بسلاهن وحسب، بل نرى أيضاً جميع أصناف الناس المزعجين مثل كاشفات الطالع والمتطببات المشعوذات، وربما بعض متعاطيات أعمال السحر. فهل صحيح أنهن كنَّ يُحضرن الأكاسير، ويرمين الرجال بالأذى من سحرهن، ويطعنن تماثيل من الشمع بدبايس سحرية؟ إنه لقليل أن نقول إننا كنا مأخوذين بهذه الأمور، فقد غدت بالنسبة إلينا هاجساً لا يطاق.

وتحدياً أيضاً.

وقال لي هارون ذات يوم: «سأذهب إلى هناك غداً، وليكن ما يكون. أتريد مرافقتي؟»

ونظرت في عينيه؛ لم يكن يمزح.

«أتريد مرافقتي؟»

ولزمني كثير من الشجاعة لقول لا.

قال هارون: «هذا أفضل: أذهب بمفردي. ولكن كُنْ هنا في أول العصر، في هذا المكان بالذات».

أمطرت في اليوم التالي، وكان الجو قائماً. وأتيت فوقفت في المكان المعين حيث كان في مقدوري مراقبة مدخل حمام النساء دون أن يتنبه أحد إلى وجودي. ولم أكن قد رأيت هارون طوال الصبيحة. وأخذت اتساءل عما إذا كان قد غدا هناك، وما إذا كان سيتمكن من الدخول؛ كنت أتوقع أن أراه يُقذف به؛ بل كنت أخشى أن أراه خارجاً وعشرون امرأة في أثره، وأن اضطر بدوري إلى الهرب خلال الشوارع. والشيء الوحيد الذي كنت متأكداً منه هو أن «المنقب» لم يكن قد تخلى عن مشروعه الجنوني. وكنت أنظر بين الفينة والفينة إلى الشمس، إلى هالتها خلف الغيوم على

الأقل . ولقد عيل صبري .

لم يكن عند باب الحمام أي حركة غير مألوفة . كانت هناك نساء يدخلن وأخرى يخرجن ، وكانت بعضهن يرتدين السواد أو البياض ، وأخرى غطين شعورهن وأسفل وجوههن فقط . وكانت تصحبهن بعض الصبيات . بل بعض الصبيان الصغار جداً في بعض الأحيان . وما هي إلا أن أقبلت نحوي امرأة بدينة . وإذ غدت قريباً مني فقد توقفت برهة وتفحصتني من رأسي إلى أخمص قدمي ثم رجعت وهي تغمغم بكلمات غير مفهومة . لا بد أن هيأت المتخفية بدت لها مريبة . وبعد دقائق طويلة أخرى أقبلت على الفور إلى المكان الذي كنت واقفاً فيه امرأة أخرى مؤتزة ، ولكنها كانت أكثر رشاقة . لم أكن مطمئناً ، وكدت أن أطلق سائتي للريح .

«أنت هنا في مأمن وترتعد»؟

كان ذلك صوت هارون! ولم يدع لي مجالاً لأكثر من صيحة تعجب .

«لا تأت بأذى حركة ، بأي صوت! عد إلى المئة ثم لاقني في البيت!»

كان ينتظري عند الباب . وانفجرت قائلاً : «خبرني» .

وتريت قبل أن يجيب بأكثر ما يكون من عدم الاكتراث :

«وصلت ودخلت وتظاهرت بالبحث عن شخص وجلت على الحجرات ثم خرجت» .

- وهل خلعت ملابسك؟

- لا .

- وهل رأيت أشياء؟

- أجل ، ملء العين .

- خبر ، قاتلك الله!

لم يقل شيئاً ، ولا ارتسمت على شفثيه أدنى ابتسامة ، ولا أدنى تكشيرة . بيد أن

عينه كانتا تبرقان بالرضى والحبث. وتعلمت، وساورتني رغبة في الانهبال عليه ضرباً.

«أتريد إذن أن اتضرع إليك، أن الصق جهتي بنعليك؟»

لم يتأثر «المنقَّب» قط بسخريتي.

«حتى لو تضرعت إليّ، وحتى لو سجدت عند قدمي، فإنني لن أقول لك شيئاً. فلقد خاطرتُ وترفض أنت أن تخاطر. وإذا كنت تريد أن تعرف ما يجري عند النساء فعليك أن ترافقني في المرّة القادمة». وذهلت.

«لأنك تأمل في الذهاب إلى هناك من جديد؟»

وكان الأمر يبدو له مسلماً به إلى حدّ أنه لم يتنازل إلى الردّ عليّ.

وفي اليوم التالي كنت في مكمني، وقد رأيت هله المرّة داخلأ. وكان قد حسن زيّه. فلم يكن قد اكتفى بالاشتغال في ثوب صفيق أسود، بل لفّ رأسه بخمار أبيض غطى شعره وجزءاً من جبينه وخدّيه وانعقد تحت ذقنه. وكان فوقه نقاب خفيف شفاف. وكان التنكّر من الإتقان بحيث كدت أجدع مرّة ثانية.

وإذ لقيته بعدها فقد بدا مضطرباً. وسألته عن أخبار حملته فرفض أن يجيب على الرغم من إلحاحي وصيحاتي. وظلّ صمته مطبقاً؛ وكدت أنسى تلك الحادثة. ومع ذلك فقد كان هارون هو الذي ذكرني بها بعد سنوات بعبارات سوف تلازم ذاكرتي إلى الأبد.

عاد نخالي من رحلته في حوالي نهاية ذلك العام. وما إن علم أندلسيو فاس بالأمر حتى تقاطروا زرافات إثر زرافات للاستماع إلى أخباره ومعرفة نتائج مهمّته. وقصّ خبر رحلته البحرية بالتفصيل، والخوف من الغرق والقراصنة، ورؤيته القسطنطينية وقصر مولانا السلطان، والانكشارية، وجولته على مختلف بلدان

المشرق، الشام والعراق وفارس وأرمينيا وبلاد التتار.

ومع ذلك فإنه لم يلبث أن وصل إلى أهم ما في الأمر.

«لقد بدا مضيئي في كل مكانٍ مقتنعين بأن القشتاليين سيُغلبون عمّا قريب بإذن الله، وأن الأندلس ستعود إلى الإسلام ويتمكّن كل إنسان من الرجوع إلى بيته».

واعترف بأنه لا يعلم متى ولا في أي الظروف، بيد أنه كان في مقدوره أن يشهد بقوة الأتراك التي لا تُقهر، وبالرعب الذي يُلقيه في قلب أي رجل منظر جيوشهم الجرّارة. وبدا أنه مقتنع باهتمامهم الفائق بمصير غرناطة وإرادتهم تحريرها من الكفار.

لم أكن أنا أقلّ الحاضرين حماسة. وعندما أمسينا وحدنا ألححت على خالي قائلاً:

«متى تظنّ أننا سنعود؟»

ولم يبدّ عليه أنه أدرك ما أردت أن أقول فقال:

«نعود إلى أين؟»

وعزوت رده إلى تعب السفر وقلت:

«إلى غرناطة، أليس هذا ما كنت تتحدّث عنه؟»

ورمقني طويلاً كأنه يريد تقدير وزني قبل أن يقول بصوت هاديء موزون:

«لقد أصبحت الآن يا حسن، يا بني، في الثانية عشرة، وعليّ أن أكلمك كما أكلم رجلاً (لقد تردّد بعد لحظة). أصعب إليّ جيداً. إنّ ما رأيته في المشرق هو أن سلطان العجم يتهيأ لمحاربة الأتراك المنشغلين على الأخصّ بصراعهم مع البندقية. وأما المصريون فقد تلقّوا قبل مدّة شحنة قمح من القشتاليين عربون صداقة وجلف. هذه هي الحقيقة. وربما تبدّلت الأمور بعد بضعة أعوام، وأما اليوم فإنّ أيّ ملك من ملوك المسلمين الذين قابلتهم لم يبدّ لي مهتماً بمصير الغرناطيين، سواء نحن المهاجرين أو أولئك «الغرباء» المساكين».

وكان في عينيّ من الدهشة أكثر مما كان فيهما من خيبة الرجاء.

وتابع خالي قائلاً:

«سوف تسألني لماذا قلتُ للناس الذين كانوا هنا عكس الحقيقة. انظر يا حسن، إنَّ جميع هؤلاء الرجال لا يزالون يعلّقون على جدران بيوتهم مفاتيح منازلهم في غرناطة. وفي كل يوم ينظرون إليها ويتهدّون ويدعّون. وفي كلِّ يوم تعود إلى خواطرهم أفراح وعادات، ولا سيّما زهولن يعرفوه في المنفى. والسبب الوحيد لبقائهم على وجه الدنيا هو تفكيرهم بأنَّ لن يلبشوا، بفضل السلطان الأعظم أو عناية السماء، أن يسترجعوا منازلهم وألوان حجارتها، وروائح حدائقهم ومياه بركها، لم يمسهها بشر ولا فسدت، كما هي في أحلامهم. إنهم يعيشون على هذا، وسوف يموتون على هذا، وأبناؤهم من بعدهم. وربما لزمهم مَنْ يجرؤ على تعليمهم النظر بأنَّ أعينهم إلى الهزيمة، مَنْ يجرؤ على إفهامهم أن على الإنسان لكي ينهض أن يتقبّل أولاً أنه ملقَى أرضاً. وربما انبغى أن يقول لهم أحد الحقيقة يوماً. وأما أنا فلست أملك الشجاعة لذلك.»

عام الأسدين الهانجين

٩٠٦ هـ (٢٨ تموز «يولية» ١٥٠٠ م -

١٦ تموز «يولية» ١٥٠١ م)

كانت أختي مريم قد كبرت في غفلة مني . وكان انفصالان طويلان قد جعلنا منها غريبة عني . فلم يكن يُظَلِّنا السقف نفسه ، ولا كانت لنا الألعاب عينها . وعندما كنت ألتقيها لم تكن كلماتنا عبارات تواطؤ ، ولا كانت نظراتنا تفاهم من الوهلة الأولى . وقد انبغى أن تكلمني في ذلك العام من فوق بغلة لأراها من جديد ، لاتأملها ، لاتذكر البنت الصغيرة التي كنت أحبها وأضرها حتى تذرف الدموع .

حدث ذلك في بداية الصيف في كرم زيتون على طريق مكناس . وكان أبي قد قرّر أن أصحبه مع وردة ومريم في جولة داخل البلاد . وكان لا يزال يبحث عن أراضٍ للإجارة . وكان يفكر في أن يُنمي بالاشتراك مع خبراء أندلسيين في الزراعة بعض الزراعات التي كانت قليلاً ما تُمارَس ، وإذا مورست فبشكل رديء ، في الأرض الإفريقية ، ولا سيما زراعة أشجار التوت الأبيض لأجل دودة القز .

وقد حدّثني مُورداً أُلوف التفصيلات عن مشروع قد يشترك فيه أحد أغنياء أغنياء فاس . وإذا كنت استمع إليه فقد خامرني شعور بأنه كان قد تجاوز مرحلة الانهيار والحُور التي أعقبت مغادرة غرناطة ، وتمزّقاً كان قد فاقمه ضياع زوجته الواحدة تلو الأخرى من يديه . فقد غدا منذ الآن يخطّط ويتحدّى ، وكانت قبضته مسلّحتين وعينه تملأهما الرغبة من جديد .

وكننت أركب في هذه الرحلة جواداً كما كان يركب ، وأمّا المرأتان فكانت لهما بغلتان ، وكان ينبغي أن نسير بالوتيرة التي تسيران بها . وفي لحظة من اللحظات

اقتريت وردة من محمد فرجعت إلى محاذة مريم . وخففت من سرعة بغلتها بشكل غير ملحوظ فابتعد الوالدان .

«حسن!»

لم أكن قد خاطبتها مُدُّ تركنا فاس قبل أربع ساعات . ووجهتُ نحوها نظرة كان خير ما يمكن أن تعنيه : «هل تزعجك مطيتك؟» بيد أنها أزاحت نقابها الذي بلون التراب وأشرق وجهها الأبيض بابتسامة حزينة .

«إن خالك يحبك كما لو كنت ابنه ، أليس كذلك؟»

بدا لي السؤال في غير محله وبلا هدف . ووافقتُ بأشدَّ النبرات تعجباً إذ لم تكن بي رغبة قط في أن أطلع بنت وردة على علاقاتي بأسرة أمي . ولكن لم يكن ذلك قصدها .

«عندما أنجب أولاداً هل ستحبهم كما تحبك؟»

قلت : «بالطبع» .

بيد أن عبارة «بالطبع» التي لفظتها كانت سريعة جداً وفظة جداً . ومُرْتَبِكَة .

وأمسكتُ عن التمتة ، وظللت تنتظر . ورمقتُ مريم من طرف خفي . كان صمتها يكاد يكون أقل إزعاجاً لي من أسئلتها . ولم تكن تنظر إلي ، بيد أنها لم تكن قد أرخت نقابها على الرغم من غبار الطريق . والتفتُ إليها وتاملتها للمرة الأولى منذ زمن طويل . لم يكن خذاها أقل امتلاء من اليوم الذي رأيته فيها داخل مركب الهجرة تتقدم نحونا بين ذراعي أمها . ولا كانت بشرتها أقل توردًا . ولا شفاتها أقل لمعاناً . ومع ذلك فإن الكُحل على جفونها كان يُضفي عليها مظهر امرأة . وكذلك طيفها . ومن جهة أخرى فإنها بينما كنت أراقبها انتصبت فاستنبت ثديها . هل كان قلبها هو الذي يدق ، أم كان قلبي ؟ وغضضت من بصري . لقد كانت قد نضجت في عام واحد وغدت جميلة ومثيرة .

«عندما أنجب أولاداً فهل ستحبهم؟»

كان ينبغي أن أنضايق ، بيد أنني ابتسمتُ لأنني كنت لا أزال أذكر طريقتها ، مُدُّ

كانت في سنتها الأولى، بالمطالبة بالدمية عينها ثلاث مرات، أربعاً، عشراً بلا توقّف وبالنبرة ذاتها.

«بالطبع سأحبهم».

- وهل ستحدّث أمهم كما يحدث خالك سلمى؟

- أجل، بلا ريب.

- هل ستزورها كثيراً في بيتها؟ هل ستسأل عمّا إذا كانت على ما يرام؟ هل ستصغي إلى أحزانها؟

- أجل يا مريم، أجل!

وشدّت بغتة على زمام بغلتها فرمحت. وبقيت واقفاً فحدجتي بنظرة وقالت:

«ولكنّ لماذا لا تكلمني قطّ؟ لماذا لا تأتي فتسألني إذا كنت أبكي في أثناء الليل؟ إنّ واجبي هو أن أخاف الرجال جميعاً. اليوم أبي، وغداً زوجي، وجميع من ليسوا أقاربي وعليّ أن أحتجب عنهم».

وأرخت العنان فانطلقت البغلة تحبّ على مهل، وأسرعت لمحاذاتها. وظللت لا أكلمها، بيد أنّي - يا للشعور الغريب! - كنت خائفاً عليها أغلقها بعيني بحنان مبالغت. وكان يُخيّل إليّ أن خطراً يتربّص بها.

توقّفنا لقضاء الليل في قرية تقع عند منتصف الطريق بين فاس ومكناس اسمها «العار». واستضافنا إمام مسجدنا لقاء صدقة قدّمتها للأيتام الذين يرعاهم. وكان رجلاً قليل الثقافة، بيد أنّه كان ظريفاً جداً فلم يتردّد في أن يشرح لنا سبب تسمية القرية بهذا الاسم.

فقد باح لنا بأن أهل القرية الذين عرفوا من زمن ببخلهم كانوا يتألّمون لتلك السُمعة. إذ كانت القوافل تتحاشى التوقّف عندهم. وذات يوم علموا أن ملك فاس يصطاد الأسود في الجوار فعزموا على استضافته وجميع أفراد حاشيته وضحوها

على شرفه ببعض الخراف. وهكذا تعشى الملك ونام. وإذا أرادوا التذليل على سخائهم فقد وضعوا عند بابه قربة كبيرة وانفقوا على ملئها باللبن للفظور الملكي. وكان على الأهالي أن يجلبوا شياهم ثم يأتي كل واحد بدلوه فيفرغها في القربة. ونظراً لاتساع هذه فقد قال كل قروي في نفسه إن في وسعه أن يمزج لبنه بكمية كبيرة من الماء من غير أن يلحظ أحد. وقد كان من جرّاء ذلك أن صُبَّ للملك وحاشيته سائل شبه شفاف لم يكن له من طعم سوى طعم البُخُل.

ومع ذلك فلنني إذا كنت لا أزال أتذكر مروري بتلك القرية فما ذاك بسبب رذيلة سكانها التي لا شفاء منها، وإنما بسبب ما ساورني فيها من رعب لا يوصف.

لقد استقبلنا الإمام استقبالاً لا غبار عليه واقترح لمبيتنا كوخاً خشبياً قريباً من المسجد بمحاذاة حظيرة لإيواء بهائمنا. ونامت ورده ومريم داخل الكوخ؛ وفضلنا أنا وأبي النوم على السطح في هذه الليلة الصيفية التي مكنتنا من التمتع بالطراوة. وعليه فقد كنا هناك عندما توقّف عند بابنا حوالي منتصف الليل سبّعان ضحكان جذبتهما رائحة الحصانين والبغلتين وحاولا انتزاع حاجز الشوك الذي كان يحمي مطايانا. وأخذ الجوادان يسهلان وكأنها مسعوران ويتمسحان بجدران الكوخ الذي كان يهدّد عند كل هزة بالتداعي. وظلّت الحال على هذا المنوال ساعتين أو أكثر إلى أن التفت أحد السبّعين وقد أثاره ولا ريب وخز آلاف الأشواك في كل هجمة إلى الباب وشرع يحكّه ويقرعه بقائمتيه. وكنا أنا وأبي نتابع المشهد عاجزين عارفين بأن في إمكان الوحشين بلوغ المرأتين واقتراسهما من غير أن نستطيع عمل شيء سوى مراقبتهما من فوق مكمننا أو الارتقاء في شدقيهما لإنقاذ شرفنا. وكان يترامى إلينا من الأسفل صرخات مريم ودعوات ورده التي كانت تبتهل إلى السيدة العذراء باللغة القشتالية.

وكان محمّد من جهته يتنذر نذراً بصوت مرتجف: إذا قدر لنا الخروج أحياء من هذا المأزق فسوف يقطع رحلتنا ويذهب حاجباً إلى مدينة «طغية» لوضع قربان على قبر الولي أبي عزة المشهور بعجائبه الكثيرة في دفع أذى السباع.

ولست أدري إذا كان تدخّل «الولي» هو الذي فعل أم تدخّل أم السيد

المسيح ، وكل ما أعلمه أن الأمر انتهى بالسبعين إلى الكلل ، وأنها ابتعدا مع يزوغ الفجر على الرغم من أن زئيرهما الذي كاد يكون أقل إثارة للرعب كان لا يزال يترامى إلينا من الجبل القريب جداً . ولم تواتنا الجرأة على الخروج من ملاذنا إلا عندما بدأت الحركة في القرية مع ساعات الصباح الأولى . وكان علينا مع ذلك قبل معاودة السفر أن ننتظر مرور قافلة طويلة . وإذا كان محمد مصمماً على توفية نذره بلا إبطاء فقد كان راغباً في العثور في مكناس على جماعة من الحجّاج في طريقهم إلى «طغية» .

وعندما وصلنا إلى هناك بعد أسبوع ورأيت الحشد الكبير الذي كان يزور مثلنا قبر الويّ أدركت الرعب الدائم الذي تلقيه السباع في روع أهالي إفريقية . ولقد تأكّد لي الأمر أكثر فأكثر خلال رحلتي فيها بعد . فكم من مرة رأيت فيها وأنا أبلغ إحدى القرى جمعاً من الناس وقد سيطر عليهم الأسى لأن هذه الحيوانات المفترسة كانت قد التهمت أسرة بأكملها! وكم من مرة ثنائي الأدلاء عن سلوك إحدى الطرق لمجرد أن السباع كانت قد مزّقت فيه قافلة برمتها حتى إنه حدث أن تمكّن وحش واحد من تلك الوحوش من مهاجمة مفرزة من مئتي خيال مسلّحين وقتل خمسة أو ستة منهم قبل أن يتقهقر راجعاً .

نمّا لا شكّ فيه أن الأسد أشجع الحيوانات كلّها ، وأنا أقول ذلك بشيء من الغبطة لأنّي سأحمل اسم هذا الوحش خلال ثمان سنوات في إيطاليا . وعليّ مع هذا أن أحدّد أن أسود البلاد الباردة أقلّ ضراوة من أسود البلاد الحارّة . وإذا أريد في فاس إسكات أحد المتبجحين قيل له : «إنك في مثل شجاعة أسود «عقلة» التي تأكل العجول أذنانها» . والحقّ أنه يكفي أن يركض طفل في ذلك المكان وهو يصبح خلف أحد الأسود لكي يوليّ هذا الأدبار . وفي قرية أخرى من قرى الجبل اسمها «الحجر الأحمر» تأتي الأسود فتأكل بين المنازل العظام التي ترمى لها ، ويحاذيها الناس بلا خوف . كما أنّي سمعت أنه عندما تواجه امرأة أسداً في مكان مفرد يكفي أن تكشف عن أجزاء من جسمها ليطلق الوحش زئيراً هائلاً ويغضّ من بصره ويذهب . ومن حقّ كل إنسان أن يصدّق ما يشاء!

وفي طريق العودة من تلك الزيارة تذكّرت الشعور المبهم بالخوف الذي ساورني بشأن مريم. أياكون هاجساً بهجمة الأسدین علی كوخنا؟ لقد راودني هذا الخاطر في تلك اللحظة. فالحق أنني عندما كنت بعدُ في الثانية عشرة كانت الوحوش في نظري أشدَّ إيذاءً من الناس.

عام ختم القرآن

٩٠٧ هـ (١٧ تموز «يولية» ١٥٠١ م -

٦ تموز «يولية» ١٥٠٢ م)

كان عمر خطيب مريم أربعة أضعاف عمرها، وكانت قامتة ضِعْفِي قامتها، وكان ذا ثروة مُجمعت بشكل رديء، وابتسامته هي ابتسامته من تعلموا مبكراً أن الحياة سرقة واحتيال دائمان. وكان معروفاً في فاس بالزروالي، وكان كثيرون يحسدونه، لأن هذا الراعي سابقاً ابنتي أضخم قصر في الحاضرة، بعد قصر الملك بالطبع، وذاك بدافع الحكمة القاضية بالاحتفاظ بالرأس ملتصقاً بالجدع.

لم يكن أحد يعرف كيف نمت ثروة الزروالي. ويقال إنه قضى السنوات الأربعين الأولى من حياته يجول بماعزه في جبل بني زروال في الريف على بُعد ثلاثين ميلاً من البحر. وقد سنحت لي الفرصة، بعد هذا بزمن طويل، أن أزور تلك المنطقة وألاحظ فيها ظاهرة عجيبة: في أسفل وادٍ من الوديان فتحة في الأرض يُحْيَل أنها مغارة، يخرج منها باستمرار لهب عظيم؛ وقد تكون حولها مستنقع داكن اللون يحتوي على سائل لزج ذي رائحة نفاذة. ويأتي كثير من الغرباء إلى هناك للتأمل في هذه المعجزة، ويرمون أغصاناً وقطعاً من الخشب لا تلبث أن تحترق على الأثر. ويظنّ بعضهم أن ذلك فم الجحيم.

ويقال إنه تقع غير بعيد من هناك آبار سرّية كان الرومان قد خبأوا فيها كنوزهم قبل أن يغادروا إفريقيا. فهل عثر الراعي على أحد تلك المخابئ بالصدفة وهو يرمي قطيعه في أحد الأيام؟ هذا ما كنت قد سمعته مهموساً به في فاس قبل أن يتدخل هذا الزروالي في حياتي بكثير. ومهما يكن من أمر فإنه ما إن اكتشف المال المدفون حتى أخذ يُنضح على مهل في باله حيلة ما بدلاً من أن يئذره على الأثر كما يفعل من تهبط عليهم الثروة بشكل مباغت. فبعد أن باع على

دفعات صغيرة جزءاً من الكنز حضر ذات يوم في ثياب فاخرة إلى المجلس العام الذي يعقده سلطان فاس.

وسأل العاهل قائلًا له: «كم ديناراً ذهبياً تتقاضى من بني زروال في كل عام؟».

أجاب الملك:

- ثلاثة آلاف.

إن أجرتني إياه أعطيك ستة آلاف تدفع سلفاً.

وحصل زروالينا على ما أراد بالإضافة إلى مفرزة من الجند لمعاونته في جمع الضريبة واختلاس المدخرات الهزيلة من الناس بالوعيد أو بالتعذيب. وفي نهاية العام رجع إلى الملك وقال:

«لقد أخطأت. فأنا حصلت على اثني عشر ألف دينار لا على ستة فقط».

وإذ دهش صاحب فاس للأمر فقد أجر الزروالي الريف بأكمله وعهد إليه بمئة نبال وثلاثمئة فارس وأربعمئة من المشاة لمساعدته على فرض الضرائب على الشعب.

وما هي إلا سنوات خمس حتى غدا الدخل من الضرائب أكبر بكثير مما كان في الماضي، بيد أن الناس في الريف بدأوا يفتقرون؛ وهرب كثير منهم للإقامة في أقاليم المملكة الأخرى؛ حتى إن بعض المدن الساحلية فكرت في تفويض أمرها إلى القشتاليين. وإذ شعر الزروالي بتدهور الأمور فقد اعتزل وظيفته وغادر الريف وأقام في فاس بالمال الذي كان قد اغتصبه. ولما كان قد احتفظ بثقة الملك فقد ابتنى قصرًا وأخذ يتعاطى جميع الأعمال، جسعاً لا يعرف الرحمة وإن فائق المهارة ومرتصداً على الدوام أدهى الخواطر والأفكار.

ولقد تعرّف عليه أبي عن طريق نازح أندلسي غنيّ، وعرض عليه مشروعه لتربية دودة القز. وإذ اهتم الزروالي جداً للأمر فقد طرح ألف سؤال عن الخادرة

والشرنقة واللعب وخيوط الحرير، طالبا من أحد مستشاريه حفظ كل تفصيل.
وأبدي أنه سعيد بالتعاون مع رجل في مثل أهلية محمد. وقد قال ضاحكاً:
«ذلك هو تحالف الذكاء والثروة».

وإذ أجاب أبي بأن فاس بأسرها تعرف ذكاء الزرواليّ وحذقه فقد علق هذا
بقوله:

«أنت يا مَنْ قرأ كثيراً من الكتب، ألا تعلم ما قالت أم أحد السلاطين في
العصور الخوالي يوم مولد ابنها؟ «لست أرجو لك أن تتمتع بالذكاء لأن عليك
تسخيره لخدمة الأقوياء؛ أرجو لك حُسن الطالع بأن يكون الأذكيا في خدمتك».

وختم الزرواليّ بقوله وقد ضحك حتى بانت نواجذه:

«لعلّ ذلك ما تمنّته أُمِّي يوم مولدي».

ويدت المقابلة لوالدي مشجعة على الرغم من أنّ مخاطبه كان قد طلب في
نهايتها مهلة للتفكير؛ فقد كان يريد أن يُطلع السلطان على المشروع وينال موافقته
ويستشير بعض الحائكين وبعض الرّواد. ومع ذلك فقد قدّم إلى محمد سلفة قدرها
أربعمئة قطعة ذهبية للتدليل على اهتمامه الكبير بالقضية ولوّح له كذلك بتحالف
بين أُسرتها.

وبعد بضعة أشهر، في شهر شعبان من ذلك العام على ما أظنّ، استدعى
الزرواليّ أبي وأخبره أن مشروعه قُبل وأنه ينبغي البدء بالإعداد له ومعاينة بعض
بساتين التوت الأبيض وزراعة أخرى والبحث عن عمّال متخصصين وبناء
السقائف الخاصّة لتربية ديدان القزّ، وأن الملك نفسه كان متحمّساً للأمر. فهو
يريد إغراق أوروبا والبلدان الإسلامية بحرايره وتبنيّ التجار عن الذهاب إلى
الصين لاستيراد هذه السلعة النفيسة.

لم تُعدّ الدنيا تسع أبي من الفرح. فمشروعه بات على أهبة التحقق، وعلى
مدىّ تجاوز كثيراً ما كان يرجوه. واستبق الأمور في رؤية نفسه ثرياً متمدداً فوق
وسائد عريضة من الحرير في قصر مفروش بالقاشانيّ؛ ولسوف يكون أوجه وجهاء

فاس، وفخر الغرناطيين، وأحد خاصّة السلطان وأحد المحسنين إلى المدارس والمساجد.

وتابع الزروالي قائلاً:

«أيّ طابع نمر به الاتفاق خير من حلف النسب؟ أليس عندك بنت للزواج؟»

وعلى الفور وعد محمدٌ ممولّه بتزويجه مريم.

وعرفت بمحض الصدفة بعد أيام بمضمون ذلك الحديث الذي سوف يغير كثيراً من أمور حياتي. فقد ذهبت سارة المبرقشة إلى جناح الحريم في قصر الزروالي لبيع عطورها وتبرّعاتها كما كانت تفعل قبلاً في قصور غرناطة. ولم تتحدث النساء طوال زيارتها إلا عن زواج سيدهنّ الجديد متفكّهات بالحديث عن نشاطه المقيم، مناقشاتٍ نتائج هذا التملك الأخير على جميع المحظيات الموجودات في القصر في الوقت الحاضر. فلقد كان للرجل أربع زوجات، أي في الحدود التي لا يبيح الشرع تجاوزها، وكان ينبغي على هذا الأساس أن يطلق إحداهنّ، غير أنه كان يألف ذلك، كما كانت تألفه نساؤه. وكانت المطلقة تحظى بمنزل مجاور، أو تبقى في بعض الأحيان داخل الأسوار، وكان يُهمس بأن بعضهنّ كنّ يحملن بعد الطلاق من غير أن يدهش الزروالي أو يستاء.

وكان طبيعياً أن تسرع سارة عصراً إلى أمي لتنقل لها ما دار من أحاديث. وكنت قد وصلت من المدرسة للتوّ وأخذت في قضم بعض حبّات التمر مصغياً من بعيد إلى ثرثرة المرأتين. وبغته لُفظ اسم فاقتربت:

«حتى إنهن وجدن الوقت لإضفاء لقب على اسم مريم: دودة القز».

وطلبت من المبرقشة أن تعيد على مسمعي حديثها كلمة كلمة، ثم سألتها بلهفة:

«أتظنّين أن أختي ستكون سعيدة مع هذا الرجل؟»

- سعيدة؟ تسمى النساء لتفادي أشدّ ما قد يكون من سوء. بدا لي الجواب

شديد التعميم ظاهر المراوغة فقلت:

«حَدِيثِي عَنْ هَذَا الزَّرْوَالِيَّ».

كان ذلك أمراً صادراً عن رجل . وارتسمت على شفيتها بسمة هزة عابرة، بيد أنها أجابت:

«لا يتمتع بسُمة طيبة. خبيث، لا يقيم كبير وزن للذمة. عريض الثراء...»

- يقال إنه نهب الريف؟

- طالما نهب جميع الأمراء الأقاليم، ولم يُعرف قطُّ أنَّ أحداً رفض لهذا السبب تزويجهم ابنته أو أخته.

- وسيرته مع النساء، كيف هي؟

ونظرت إليّ من رأسي إلى أخمص قدمي متوقفة طويلاً عند الزغب الهزيل فوق وجهي .

«وماذا تعرف عن النساء أنت؟»

- أعرف ما ينبغي أن أعرفه.

وتهيات لإطلاق ضحكة، بيد أنَّ نظرتي الحازمة أحبطت سعيها. والتفتت إلى أمي كأنها تسألها عما إذا كان عليها أن تتابع مثل هذا الحديث معي. وإذ أشارت إليها أمي أن نعم فقد استعادت أنفاسها وناءت بيدها على كتفي وقالت:

«تعيش نساء هذا الزروالي قابعات في جناح الحريم الخاصّ بهن؛ وسواء كنّ صبايا أو عجائز، حرائر أو إماء، بيضاوات أو سوداوات، فإنهن لسن أقل من مئة امرأة يدبرن المكائد على الدوام للحظوة بليلة مع السيد، أو بالامتيازات لأبنائهن، أو بسجادة لغرفتهن، أو بحلية أو عطر أو إكسير. فاللواتي يتوقعن الحنان من زوج لن ينلنه، واللاتي يبحثن عن المغامرة ينتهين مخنوقات، وأمّا اللاتي يُردن فقط العيش بسلام في مأمن من العوز، وبلا جهد يبذل في الطبخ وتدبير أمور المنزل الأخرى، وبلا زوج يطلب منهن إحضار الإبريق أو تحضير دفء يدفع بها البرد أو الزكام، فأولئك وحدهن يمكن أن يكنّ سعيدات. فإلى أية فئة

نتنمي أختك؟»

كنت أرغي وأزبد، وقلت:

«ألا ترين من العار أن تقدم صبية في الثالثة عشرة هدية لتاجر عجوز لقاء عقد صفقة؟»

- لا تزال السذاجة وحدها قادرة أحياناً، في مثل سني، على إشعاري بالعار.

والتفتُ إلى أمي مغیظاً وقلت:

«أظنن أنت أيضاً أن من حقّ هذا المخلوق أن يسلب المسلمين أموالهم، وأن يتخذ مئة امرأة بدلاً من أربع، وأن ينتهك على هذا النحو شريعة الله؟» ولاذتُ بآية من القرآن:

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أَعْرَضَ ونأى بجانبه ﴾ .

ونهمضتُ فخرجت من غير أن أسلم على هذه أو على تلك. ومضيتُ رأساً إلى هارون. كنت أشعر بالحاجة إلى شخص من محيطي يستنكر كما استنكرت. إلى مَنْ يقول لي إن الدنيا لم تُخلق لتعطي بنسائها ومباهجها للزروالي وأمثاله. ولقد صالحتني التكشيرة التي انفرجت عنها شفتنا صديقي لمجرد ذكر ذلك الاسم مع الحياة. وكان ما سمعه عن خطيب أختي يختلف قليلاً عما كنت أعرفه. وأقسم لي «المنقب» أغلظ الأيمان أن يستزيد معرفة بالأمر بمساءلة حمالي الجماعة.

أن يكون شخصان صديقين، أن يكونا في الثالثة عشرة من العمر، مجرد عهدٍ يُقطع بمر اليد على اللحية، إعلان الحرب على الظلم: إنها صورة السعادة بعد عشرين عاماً. أمّا في ذلك الحين فكم من نخية وكم من ضياع وكم من عذاب! والحق أنه كان لديّ سببان وجيهان للنضال. الأول الدعوة الحفّية التي أطلقتها مريم على طريق بكناس للمساعدة، وها أنا الآن أقيس كل ما تضمّنته من كُرب. والثاني ختم القرآن الذي نفع مراهقتي بالزهو بمعرفة تعاليم الشريعة والرغبة في منع انتهاكها.

ولمعرفة ما يعنيه ختم القرآن في حياة مؤمن ينبغي أن يكون المرء قد عاش في فاس مدينة العلم التي يبدو أنها بُنيت حول المدارس كما بُنيت بعض القرى حول عين ماء أو ضريح وليّ. وحين ينتهي الأمر بالإنسان بعد بضع سنوات من المثابرة على الاستظهار وحفظ كل سورة من سور القرآن، وكل آية من آياته عن ظهر قلب، وحين يُعلنه معلم المدرسة جديراً بختمه، ينتقل دفعة واحدة من عهد الطفولة إلى حياة الرجال، ومن جهل الناس به إلى الشهرة. وذاك هو أوان البدء بالعمل عند بعضهم، والالتحاق عند بعضهم الآخر بالمدرسة العليا، مركز المعرفة والاعتداد.

ويُشعر الاحتفال الديني المقام بهذه المناسبة الفتي الفاسيّ بأنّه قد دخل عالم النافذين. وهذا على كل حال ما أحسستُ به في ذلك اليوم، فقد ألبسني الحرير وكأني ابن أمير، وأركبوني جواداً أصيلاً يتبعني خادم حاملاً مظلة عريضة، وطففت شوارع المدينة يحيط بي تلاميذ صفّي وهم يشدون جميعاً. وكان بعض المارة يميّونني باليد على جانبي الطريق فأردّ عليهم التحية بأحسن منها. وكان يبرز بين الفينة والفينة رأس أعرفه، خالي وأمّي وابتسا خالي وبعض الجيران وهمزة الحلاق بصحبة غلمان الحمام، وبعيداً بعض الشيء تحت طُنف أحد الأبواب وردة ومريم.

وأما أبي فكان ينتظرنني أمام قاعة أُعدت فيها مأدبة على شرفي. وكان يحمل تحت ذراعه الثوب الجديد الذي كان عليّ أن أكو به حسب العادة المتبعة معلّم المدرسة أمانة على العرفان بالجميل. ولقد كان يتأملني بانفعال مثير.

وأخذت أتفرّس فيه بدوري. وفي لحظة مرّت بخاطري عدّة صور عنه: مهيج للعواطف وهو يقصّ عليّ أخبار غرناطة، ملؤه الحنان وهو يداعب رقبتني، مرعب عندما طرد أمّي، مقيت عندما ضحى بأختي، يُرثني له عندما كان متهاكاً على مائدة في حانة. وكم من حقيقة وددت لو أصرخ بها من فوق صهوة مطيبي! بيد أنّي كنت أعلم أنّ لساني سينعقل ما إن تلامس قدمي الأرض ويغدو لزاماً عليّ أن أعيد إلى المعير الحصان والديباج وأكفّ عن أن أكون بطل «ختم القرآن» العابر.

عام الخدمة

٩٠٨ هـ (٧ تموز «يولية» ١٥٠٢ م -

٢٥ تموز «يولية» ١٥٠٣ م)

«ما كان الزروالي يوماً الراعي المسكين الذي زعم أنه كان. ولا عثر يوماً على كنز. والحقيقة أنه كان خلال سنوات، لصاً، قاطع طريق، قاتلاً، ولم تكن ثروته الأساسية إلا ثمرة ربيع قرن من السلب والنهب. بيد أن هناك ما هو أدهى».

كان هارون قد نَقِبَ بشكل رائع أسبوعاً تلو أسبوع، ولكنّه رفض على الرغم من مناشداتي المتكررة أن يبوح بأدنى إشارة قبل أن ينجز تحقيقاته.

وفي ذلك اليوم جاء يتظرني أمام جامع القرويين. وكان عليّ أن أحضر من الثالثة حتى الخامسة صباحاً حلقة عالم شامي جاء لزيارة فاس. وكان هارون قد هجر الدراسة وبدأ يلبس ثوب الخماليين القصير الأغر؛ وكان عليه أن يبدأ عملاً قليل عمل يومه.

وأضاف «المنقّب» يقول:

«وأخطر ما في الأمر أن هذا الرجل غيور إلى حدّ الجنون، فهو مقتنع على الدوام بأن نساءه يسعين لخيانته، ولا سيما أصباهن وأجملهن. وتكفي وشاية أو غيبة أو كلمة ماكرة تطلقها ضرة لتهلك المسكينة خنقاً. ثم يهتم خصيان الزروالي بتمويه الجريمة بتحويلها إلى غرق أو إلى سقطة قاضية أو إلى ميتة بمرض الخوانيق. وهناك على الأقل ثلاث نساء مُتَنّ في ظروف تدعو إلى الريبة».

كنا نذرع المكان جيئة وذهاباً تحت قناطر المسجد الذي كان يضيئه عدد لا يُحصى من قناديل الزيت. وصمت هارون بانتظار ما يكون مني. وكنت من الغم بحيث عجزت عن إصدار أدنى صوت. فقد كنت عارفاً بالطبع بأن الرجل الذي

نُذِرْتُ له أختي قمين بكثير من أعمال السوء، ولهذا بالذات كنت أسعى للحؤول دون عقد الزواج. ولكن لم تعد المسألة الآن مسألة تجنّب مراهقة حياة كتيبة خاملة؛ كانت المسألة مسألة تخليصها من برائن قاتل، من وحش دموي. ولم يكن «المنقّب» أقل قلقاً منّي، غير أنّ ذهنه لم يكن قطّ ليشوّف عند الشكوى والأنين. قال:

«متى سيكون حفل الزفاف؟»

- بعد شهرين على الأكثر. لقد تمّ عقد القران، والاستعدادات قائمة على قدم وساق، وأبي يجمع البائنة، وقد أوصى على المفارش وفُرش الزينة، وثوب العرس الخاص بمريم جاهز.

- عليك أن تكلم أباك، أن تكلمه وحده، لأنه لو تدخل في الأمر أيّ كان فسوف يعاند ويكابر ولن ينفع شيء في درء المصيبة.

وعملت بمشورته بحذافيرها. وسألت أمّي أن تتحقّق من سارة ما إذا كانت معلومات هارون صحيحة. وأكدت المبرقشة بعد أسبوع كلّ شيء، ولم تُفعل أن تجعلني أقسم على المصحف بالأأذكر أسمها قطّ في هذا الشأن. وكنت بحاجة إلى هذه الشهادة الجديدة لأتمكّن من مواجهة أبي من غير أن يخامرني أدنى خيط من شكّ.

وعلى الرغم من هذه الحيلة فقد أمضيت ليلة بكاملها أدير في رأسي ما عسى أن أقوله أولاً للتمهيد للموضوع، ثم للصمود في وجه الهجمات، وللغوز أخيراً بالقرار إذا أسعفني في ذلك العليّ القدير. وتشكّلت في خاطري ثم تفكّكت ألف إجابة، من أكثرها جذقاً إلى أكثرها غلظة، لكنّ أيّاً منها لم تدّم حتى الصباح فكان عليّ مواجهة أبي في اليوم التالي بلا أدنى فكرة ولا أدنى شروع في حجة.

«أودّ أن أقول لك شيئاً ربّما ساءك».

كان يزدرد كما في كل صباح عصيدة من حنطة مطبوخة وهو جالس على طنفسة من الجلد في زاوية الحديقة.

«هل ارتكبت حماقة؟»

- ليس الأمر خاصاً بي.»

وقبضت على شجاعتي بكلتا يديّ وقلت:

«كثيراً ما يأتيني أحدهم، مُدّ علم الناس بأن أختي ستزفّ إلى الزروالي، فيروي لي أخباراً مزعجة.»

كان الطاس يلامس شفّتيه فمَجّ منه نُحْدثاً صوتاً واضحاً ثم قال:

أيّ ناس؟ المدينة لا ينقصها الحَسَادُ!»

تصامت وقلت:

«يُقال إنّ عدداً من نساءه قَصِينُ مَخْنوقات.»

- إذا كرّر لك أحدهم مثل هذا الأمر فأجبه بأنه إذا لقيت أولئك النساء عقابهنّ فلأنهنّ كنّ يستحققنه، وأن البنات في عائلاتنا كنّ على الدوام فوق المآخذ.

- أمتأكد أنت من أن مريم ستكون سعيدة مع . .

- تدخّل في ما يعينك.»

ومسح فمه بطرف كُمّه ونهض يريد الذهاب. وتشبّثت به منتحياً قائلاً:

لا تذهب هكذا! دعني أكلّمك!

- لقد وعدت الرجل بأن أزوجه أختك، وكلمتي كلمة واحدة. وعلاوة على ذلك فإننا وقّعنا العقد وسيتمّ الزفاف بعد بضعة أسابيع. وبدلاً من أن تبقى في مكانك للاصغاء إلى الثرثارين، قم بعمل مفيد! اذهب إلى المنجد وانظر إذا كان يتقدّم في عمله.

- كلّ ما يتعلّق بهذا الزواج أرفض أن»

وانهالت الصفحة. كانت من العنف بحيث دار رأسي بضع لحظات طويلة. وسمعت خلفي صرختين مَخْنوقيتين صادرتين عن وردة ومريم اللتين كانتا مَخْتَبِثتين

وراء أحد الأبواب ولم يفتها شيء من الحديث . وأخذ أبي حنكي بيده وقال وهو يشدُّ عليه ويجرّكه بعصبية :

«أباك أن تقول لي : أرفض ! إياك أن تكلمني بهذه النبرة!»

ولا أدري ما الذي اعتراني في تلك اللحظة . فلقد شعرت بأن شخصاً آخر كان يحكي بلساني إذ قلت :

«ما كنت قطّ لأكلمك بهذه النبرة لو لم أركّ جالساً في حانة!»

كنت قد ندمت في اللحظة التالية على ما فرط مني . وسوف أبقى إلى آخر يوم في حياتي نادماً على تلفظي بتلك الكلمات . ولقد وددت أن يصفعي كرة أخرى ، أن ينهال عليّ ضرباً بدلاً من أن يتهالك كما فعل فوق طنفسه مخجلاً دافئاً وجهه بين راحتيه . وماذا كان سينفع اعتذاري إليه؟ وخرجت من بيته طارداً نفسي بنفسي ، وهمت على وجهي ساعات وساعات من غير أن أحیی أحداً أو أن تكون عيناى قد رأنا أحداً ، ورأسي خاوٍ مَوْجَع . ولم أنم تلك الليلة في بيت أبي ولا في بيت خالي . فقد بلغت في المساء بيت هارون فاستلقيت على حصير وما نهضت قطّ إلى الصباح ، وكان اليوم يوم جمعة . ورأيت وأنا أفتح عينيّ صديقي يتفرّس فيّ . وخامرني شعور بأنه مرّت ساعات وهو على هذا النحو .

«ما هي إلا أن تفوتك صلاة الظهر» .

إنه يكاد يكون مبالغاً في قوله ، فالشمس كانت مرتفعة جداً .

«كنت تبدو عندما وصلت مساء أمس وكأنك قتلت أباك كما يُقال عندنا» .

لم تكن ابتسامتي سوى تكشيرة كريهة . وشرحت له ما حصل .

«لقد اخطأت في قول ذلك . بيد أنه أخطأ هو كذلك ، وخطأه أشدّ من خطأك لأنه في طريقه إلى تسليم ابنته إلى جلّاد . هل ستتغاضى عن جريمة تُقترف بحقّ أختك لقاء إصلاح ما اقترفت أنت من خطأ؟»

هذا بالضبط ما كنت قاب قوسين أو أدنى من عمله . ولكنّ الأمر بدا لي وهو

يُقال على ذلك النحو سافلاً كريهاً.

«في وسعي مفاتحة خالي فسيجد الحجج لإقناع أبي.

- افتح عينيك، ليس أبوك هو الذي ينبغي إقناعه.

- ولا مريم هي القادرة بالطبع على رفض تزويج نفسها! فلو تجرأت على قولة
لا، مهها صغرت، فسوف يهشم عظامها!

- بقي الخطيب!

ما كنت لأفهم. فلا بد أني لم أكن قد استيقظت جيداً بعد.

«الزروالي؟»

- هو بعينه، ولا تنظر إليّ بهاتين العينين. انهض واتبعني!

وفي الطريق شرح لي الخدعة. لم يكن ينبغي طرق باب اللصّ الغنيّ وإنما باب
رجل عجوز ليست له صلة بزواج أختي، لا من قريب ولا من بعيد. ومع ذلك
فقد كان الوحيد الذي لا يزال في مقدوره أن يمنع وقوعه.

«أستغفر الله».

فتح لنا الباب بنفسه. وما كنت قد رأيته من قبل بلا عمامة. وقد بدا شبه
عارٍ، وبدانته ضعفاً ما كانت عليه. ولم يكن قد خرج من يومه لأنه كان يشكو
منذ جمعيتين داء الجنب. وقد قال لنا إنه أصبح في التاسعة والسبعين من العمر،
وكان يرى أنه عاش ما فيه الكفاية «غير أن الله هو وحده الذي يقضي في
الأمور».

وحيرته زيارة فتّين تبدو على وجهيهما أمارات العُسر والذهول.

«أمل ألا تكونا قد جئتما تحملان إليّ خبراً منفراً».

وانبرى هارون للكلام فتركته يفعل، إذ المبادرة بمبادرته وعليه أن يُتمها إلى
آخرها.

«نبأ منفر، أجل، بيد أنه ليس نعيًا. إنه زواج مخالف لشريعة الله، أفلا يكون نبأ منفرًا؟»

- ومن الذي سيتزوج؟
- أخت حسن، مريم . . .
- بنت «الروميّة»؟
- لا يهمّ من تكون أمها، فالوزان مسلم وبنته مسلمة».
- ونظر الشيخ إلى «المنقّب» بحنان وقال:
- «مَنْ تكون؟ أنا لا أعرفك.
- أنا هارون بن عباس الخيال.
- أكمل فكلامك يعجبني».

وشرح صديقي متشجعاً بكلام الشيخ الغرض من مسعانا. ولم يقف طويلاً عند مصير نساء الزروالي لمعرفته بأن هذه الحجّة ما كانت لتؤثّر كثيراً في «أستغفر الله». وذكر في المقابل مجون الخطيب وعلاقاته بزوجاته القديمات وتوقّف طويلاً عند ماضيه وقتله المسافرين، و«لا سيّما النازحين الأندلسيين الأوائل»، وعند نهبه الريف.

«ما تقوله كافٍ لإرسال إنسان إلى نار جهنّم إلى أبد الأبدين. ولكنّ ما هي البيّنات التي تملكها؟ وأيّ شهود تستطيع أن تذكر؟ وأظهر هارون تواضعاً جمّاً وهو يقول:

«أنا وصديقي صغيران جدّاً، وقد قمنا لتوّنا بختم القرآن، وليس لكلامنا كبير وزن. إننا لا نعرف شيئاً كثيراً عن الحياة، وربما استنكرنا أعمالاً تبدو لسائر الناس مألوفة. والآن وقد قلنا كل ما نعرفه، والآن وقد أفرغنا ما ينوء به ضميرنا، فإنّه عليك أيّها الشيخ الجليل أن تنظر في ما يجب عمله».

وإذ أصبحنا خارج المنزل نظرتُ إلى «المنقَب» نظرة ملؤها الشكُّ . وكان يبدو واثقاً من نفسه .

«إن ما قلته له هو ما أفكر فيه حقاً . لقد بدلنا كل ما في وسعنا ، وما علينا سوى الانتظار» .

لكنَّ محيَّاه الباشَّ كان يقول غير ذلك . ولاحظت قائلاً :

«أشعر بأنك متهلل ولا أرى لذلك سبباً .

- ربما لم يكن «أستغفر الله» يعرفني ، أما أنا فأعرفه منذ سنوات . ولي ثقة في طبعه البغيض» .

وفي اليوم التالي بدا أنَّ الشيخ قد سُفي . فقد رؤيت عمامته تتهدى في الأسواق تحركت تحت السقائف قبل أن تغيب في أحد الحِمَامات . ويوم الجمعة التالي ، وبينما ان الازدحام على أشده ، وقف يخطب في مسجده المألوف الذي يؤمّه أكثر ما يؤمّه المهاجرون الأندلسيون . وأخذ يتحدث بأكثر ما يكون من السداجة عن «مثال يُحتذى حياة رجل محترم جداً لن أذكر اسمه» ، مذكراً باللصوصية والنهب والمجون بتلميحات كانت من الدقّة والتحديد بحيث انتهى الأمر بالحضور إلى الهمس باسم الزرواليّ على الرغم من أنه لم يُذكر مرّة واحدة .

«أولئك هم الرجال الذين يُجلُّهم المؤمنون ويُعجبون بهم في زمن الانحطاط هذا! أولئك هم الرجال الذين تُفأخرون بفتح أبواب منازلكم لهم! أولئك هم الرجال الذين تُقربون لهم بناتكم قرابين كالتّي كانت تُقربُ للآلهة في الجاهلية!»

وفي الأصيل لم يكن للمدينة حديث إلا عن ذلك الحَدَث . وقد نُقل إلى الزرواليّ حديث الشيخ كلمة بكلمة . وأرسل في الحال من يأتيه بأبي فشتم أمامه غرناطة وجميع الأندلسيين ، وأفهمه وهو يفتأء من شدّة الغضب أنه لم يعد وادراً في الحسبان اتصاف ولا زواج ولا دود قرز ، وأنّ عليه أن يعيد من غير ما مهلة الدنانير التي سلّفه إياها ، وأن الوزان وجميع أهله لن يلبثوا أن يندموا مرّ الندم على ما جنت أيديهم . وحاول محمّد مصعوقاً أن يحتج لبراءته ، بيد أن حرس الزرواليّ طردوه بلا هوادة من القصر .

عندما يُلغى زواج في اللحظة الأخيرة على هذا النحو في جو من الحقد، ولا سيّما عندما يشعر الخطيب بأنه هزىء به، فإنه كثيراً ما يروج الشائعات بأن الزوجة الموعودة ليست عذراء، أو أنها قليلة التمسك بأهداب الفضيلة، لكيلا يُقبِل عليها الراغبون في الزواج. وما كنت لأدهش إذا تصرف اللصّ المرفوض على هذا النحو لفرط ما كان يشعر به من مهانة.

غير أنّي ما كنت لأتخيّل قطّ، حتى في أحلك كوابيسي، انتقاماً كالذي كان الزرواليّ يبيّته.

عام القشة المعقودة

٩٠٩ هـ (٢٦ حزيران «يونية» ١٥٠٣ م -
١٣ حزيران «يونية» ١٥٠٤ م)

بدأ هذا العام رخياً وادعاً مليئاً بالجد في الدرس . وفي رأس السنة الذي أقبل في إبان الصيف كان الناس يتخبطون في الشوارع لكثرة ما رُشّت بالماء في الليالي السابقة بمناسبة «المهرجان» . وكنت في كل عثرة وعند كل منقع وحل أفكر في أبي الذي كان يمقت ذلك العيد والعادات المرتبطة به .

لم أكن قد رأيته مُدّاً تخاصمنا - ليغفر الله لي ! - بيد أبي كنت أتسقط أخباره بانتظام من وردة ومريم . ونادراً ما كانت أجوبتها تُريح بالي . فإذا كان محمد قد أنفق كل ما يملك على جهاز أختي وألقي نفسه في آنٍ معا مديناً ومحروماً من تحقيق أحلامه ومن حنان أهله فقد أخذ ينشد السلوان في الحانات .

ومع ذلك فقد بدا في الأسابيع الأولى من العام أنه في طريقه إلى الإبلال على مهل من هول القطيعة مع الزروالي . ولقد انتهى به الأمر إلى أن استأجر في أعلى أحد الجبال، على بعد ستة آلاف ميل من فاس، منزلاً قديماً خرباً بعض الشيء ولكنه يطلّ إطلالة رائعة على المدينة، وأراضي شاسعة أقسم أن ينتج فيها أجود أنواع العنب والتين في المملكة؛ وارتبّت في أن يكون راغباً أيضاً في صنع النبيذ لمشروبه الخاص على الرغم من كون الجبل من أملاك المسجد الجامع . وتلك مشاريع أشدّ تواضعاً بالطبع من مشروع تربية دودة القز؛ ولكنها لم تكن على الأقل لتضع أبي تحت رحمة لصّ كالزروالي .

ولم يكن هذا الأخير قد ظهر منذ أشهر . أيكون قد نسي نكبته، أيكون قد محاها هو الذي يُقال إنه يحفر في الرخام أصغر الشتائم؟ وكان يحدث لي أن أتساءل بفعل القلق العابر الذي كانت تزيجُه مشاغل طلب العلم الملحة .

كانت أوقاتي تنقضي في حلقات الدرس في جامع القرويين من منتصف الليل إلى الواحدة والنصف وفقاً للتوقيت الصيفي، كما كانت تنقضي سائر أوقات اليوم في أشهر مدارس فاس، مدرسة «بوانانية»؛ وكنت أنام في المسح بين الدروس، قليلاً في الفجر وقليلًا بعد الظهر؛ ولم أكن أطيق البطالة، وكانت الراحة تبدو لي زائدة عن الحاجة، وكنت قد بلغت للتو الخامسة عشرة وأملك جسداً عليّ تحريكه، وأمامي عالم عليّ التعرف إليه؛ وكانت لي شهوة إلى المطالعة.

كان أساتذتنا يقرئوننا كل يوم تفاسير القرآن والسنة النبوية فتجري المناقشة فيها. وكنا ننتقل في كثير من الأحيان من علوم الدين إلى الطب أو الجغرافيا أو الرياضيات أو الشعر، وحتى إلى الفلسفة أو الفلك في بعض الأحيان، على الرغم من تحظير السلطان القاطع دراسة هاتين المادتين. ومن حسن طالعنا أننا حظينا بأساتذة منكبين على جميع ميادين المعرفة. وللتميز عن عامة الناس كان بعضهم يلوثون عيائهم حول طاقيات عالية محدّدة شبيهة بالتي سآراها على رؤوس الأطباء خلال إقامتي في رومة. وأما نحن معشر الطلاب فكنا نعتز بمجرّد قلنسوة.

وعلى الرغم من علمهم وزيمهم كان معظم أساتذتنا دمشين ذوي جلد على الشرح والتفسير متيقّظين لمواهب كل منا. وكانوا يدعوننا في بعض الأحيان إلى منازلهم لإطلاعنا على مكتباتهم، فأحدهم كان يملك خمسمئة مجلد، وآخر ألف مجلد، وثالث أكثر من ثلاثة آلاف مجلد، وكانوا يشجعوننا على تحسين خطوطنا لتمكّن من نسخ أنفس الكتب لأنه على هذا النحو تنتشر المعرفة حسبما كانوا يؤكّدون.

وحيثما كنت أحظى ببعض الوقت بين درسين كنت أسير إلى محطة الخمّالين. فإذا وجدت هارون ذهبنا لشرب كوب من اللبن الرائب أو للتسكّع بقرب ساحة «العجائب» حيث قلّمنا كان فضولنا نجيب. وإذا كان «المنقب» متغيباً من أجل حمل يقوم به اجتزت سوق الأزهار وذهبت لرؤية مريم.

وكنا قد اتفقنا على أن تضع قشّة عشب معقودة في فجوة داخل جدار خارجي في كلّ مرة يكون فيها أبي في الريف لقضاء الأسبوع. وذات يوم من أواخر شهر

صفر مررتُ وكانت القشة المعقودة هناك فهزرت حبل الجرس فصاحت وردة من
الداخل قائلة:

«زوجي غائب، وأنا وابنتي وحدنا، ولا أستطيع فتح الباب لكم.
- هذا أنا، حسن!».

وشرحت لي مرتبكة أن رجالاً جاءوا قبل بضع دقائق وقرعوا الباب بإلحاح
طالبين إليها إدخالهم. وكانت خائفة، وكذلك كانت مريم التي بدت لي شاحبة
ناحلة.

«ما الذي يجري في هذا البيت؟ يبدو أنكما بكيتمَا كلاكما».

وسألت دموعهما من جديد، بيد أن وردة سرعان ما تماثلت وقالت:

«إنها الجحيم منذ ثلاثة أيام. فنحن لا نجرؤ على الخروج قط. والجارات لا
ينقطعن عن المجيء لسؤالي عما إذا كان صحيحاً أنه...»

واختنق صوتها فأكملت وعيناها غائمتان:

«يأتين للسؤال عما إذا كنت مصابة بالمرض».

عندما يقولون في فاس «المرض» فإنما يعنون الجذام، وعندما يقولون «الحي»
بلا أي تحديد فإنما هو حيّ المجدومين.

لم أكن قد فهمت بعد ما قالتا عندما سمعت قرعاً على الباب.

«باسم السلطان، نحن من رجال الشرطة! لستما وحدكما الآن! هناك رجل
دخل قبل قليل وفي وسعه أن يكلمنا».

فتحت، وكانوا لا يقلون عن عشرة أشخاص، ضابط وأربع نساء متشحات
بالبياض، والآخرون جنود.

«أهذا هو البيت الذي تقيم فيه مريم بنت محمد الوزان الغرناطي؟»

ونشر الضابط ورقة وقال:

«هذا أمر من شيخ المجذومين. علينا أن نصطحب مريم إلى الحي».

خاطرة واحدة كانت تجول في ذهني: «لو كان الأمر مجرد كابوس سخيف!»
وسمعتني أقول:

«ليس الأمر سوى شهيراً إنّه لم يحدث يوماً أن كان في جسدها لطحّة واحدة!
إنها نقيّة نقاء آية مُنزلة!

- هذا ما سوف نراه. هؤلاء النسوة الأربع مكلفات بفحصها على الفور».

ودخلن بصحبتهما إحدى الغرف. وحاولت وردة اللحاق بهن ولكنّه حيل بينها وبين ذلك. وأمّا أنا فبقيت في الخارج مشوّش الخاطر، بيد أنّي كنت أحاول مع ذلك إقناع الضابط بالاحتكام إلى العقل. وكان يجيبني بهدوء متظاهراً بالموافقة على آرائي، غير أنّه كان ينتهي إلى القول بعد كل مرافعة من مرافعاتي إنه ليس سوى موظف، وأنّ لديه أمراً ينبغي تنفيذه، وأنّ عليّ التوجّه بكلامي إلى شيخ المجذومين.

وبعد عشر دقائق خرجت النساء من الغرفة. كانت اثنتان منهنّ تمسكان بمريم من تحت إبطيها وهما تجرّانها. وكانت عيناها مفتوحتين، لكنّ جسدها كان رخواً؛ ولم يكن أيّ صوت يخرج من حلقها؛ وبدت وكأنها عاجزة عن فهم ما يجري لها. وهمست إحدى النساء كلمتين في أذن الضابط فأشار إلى أحد رجاله فتقدّم من مريم وطرح عليها قماشة خشنة بلون التراب.

أختك مريضة. علينا أن نذهب بها».

وحاولت اعتراض الطريق فأزاحوني بغلظة وتحرك الموكب المشؤوم. وتجمّع بعض المتسكّعين في نهاية الدرب المسدود فأخذت أصرخ وأنوعد وأقوم بكلّ أنواع الحركات. بيد أنّ وردة لحقت بي متوسّلة:

«أدخل بحقّ السماء! لا ينبغي أن تؤلّب الجوار بأسره. فقد لا تستطيع أختك قطّ أن تتزوّج».

رجعتُ إلى البيت وصفقتُ الباب وأخذتُ أضرب الحائط بقبضتي غير شاعر

بالأم. واقتربت مني وردة. وكانت تنحب، غير أن ذهنها ظل صافياً.
«انتظر حتى يتعدوا ثم تذهب فتكلم خالك. إن له معارف في القصر. وفي
وسعه أن يُعيدها».

وقبضت على رُديّ وسحبتي إلى الورااء وقالت:

«إهدأ، لقد تجرّحت يداك».

وألقيت بذراعيّ بقوة فوق كتفي وردة وهصرتها بجنون من غير أن أفكّ قبضتي
وكأنّي ما زلت أضرب الجدار. وتمالكت على صدري وسالت دموعها على نحري
وغطّيت شعرها عينيّ، ولم أعد أتنفّس إلا نفّسها المحرّق الرطب المعطر. ولم أكن
أفكر فيها. ولا كانت تفكر فيّ. ولا كان جسداً لنا. ولكنتها كان موجودين بغتة
لأنفسهما وقد ألهبهما الغضب. ولم أكن قد أحسست من قبل يوماً برجولتي، ولا
كنت قد أحسست يوماً بأنها امرأة. كانت في الثانية والثلاثين، العمر المناسب لأن
تكون جدّة، بيد أن وجهها كان خالياً من التجاعيد وشعرها أسود بلون اليسر.
ولم أجرؤ على الحراك لثلا يفتضح أمرى، ولا على الكلام خوفاً من أن أُبعدها
عني، ولا حتى على فتح عينيّ خوفاً من أن اعترف لنفسي بأنني كنت أعانق المرأة
الوحيدة المحرّمة عليّ تحريماً قاطعاً، امرأة أبي.

إلى أين كان يسافر خاطرها في تلك اللحظات؟ وهل كانت تحسّ كما أحسّ
بالانزلاق نحو دوامة اللذّة؟ لا أظنّ ذلك. أكانت فقط خديرة متورّمة جسداً
وروحاً؟ أكانت في حاجة إلى التشبّث بالإنسان الوحيد الذي كان يقاسمها كرمها؟
لن أعرف قطّ ذلك لأنه لم يسبق لنا أن تحدّثنا عن الأمر، ولا سبق لنا يوماً أن
ذكرتنا كلمتنا أو حركاتنا بأنه وجدت لحظة كُنّا فيها رجلاً وامرأة ربطت بينهما
أصابع القدر التي لا ترحم.

وكان منها أن تملّصت. وقد فعلت ذلك بشكل خفيّ وأرفقته بهذه الكلمات
المعبّرة عن ابتعاد رفيق:

«إذهب يا حسن يا بنيّ، سوف يُعيننا الله. إنك خير أخ يمكن أن يكون
لمريم!».

وجريت وأنا أعدّ خطواتي بصوت خافت لكيلا ينشغل ذهني بأيّ شيء آخر.
وظللت كذلك حتى وصلت إلى بيت خالي.

أصغى إليّ خالي من غير دهشة، لكنني أحسست بأنه تأثر أكثر مما كنت أظنّ
أنه سيفعل نظراً لغياب العلاقات بينه وبين أختي غياباً كاملاً. وعندما انتهيت من
كلامي قال لي:

«شيخ المجذومين رجل نافذ في هذه البلاد. إنه وحده المؤهل لأن يسحب
المصابين من فاس، ووحده صاحب السلطان على أهل «الحيّ». وقليل هم
القضاة الذين يتجرأون على معارضة قراراته، ونادراً ما يسعى السلطان نفسه إلى
التدخل في مجاله الجنائزي. وعلاوة على ذلك فإنه غنيّ غنيّ فاحشاً لأن كثيراً من
المؤمنين يقفون أملاً على الحيّ بعد موتهم، إما لأن أسرهم كانت قد ابتليت
بالمرض، وإما لأنّ مرأى أولئك المساكين كان قد استدرّ شفقتهم. والشيخ هو
الذي يدير جميع هذه الأوقاف. وهو ينفق جزءاً من الأموال لتأمين الغذاء والمأوى
والعناية للمرضى، غير أنه تبقى له مبالغ طائلة يستعملها في جميع أنواع التجارة
لتنمية ثروته الشخصية. ومن المحتمل جداً أن يكون شريكاً للزرواليّ في بعض
الأعمال، وأن يكون قد قبل بإسداء خدمة إليه للسماح له بالانتقام منّا».

لقد سمعت خالي يقول بوضوح: «منّا! ولم تفتّه دهشتي فقال:

«تعلم منذ مدة رأيت في عشق أهلك هذه «الرومية». فقد أضاع رشده ذات يوم
لأنها كادت تهجره، ولأنه قدر أن شرفه تعرّض للأذى، ولأنه أراد الانتقام من
القشتاليين بطريقته الخاصة. ومدّاك لم يستعد حكمه الصحيح على الأمور. ولكنّ
ما حدث لا يخصّ محمّداً ولا وردة ولا حتى هذه المنكودة مريم؛ إن الزرواليّ قد
انتهك جماعة الغرناطين كلّها في فاس. وعلينا أن نقاتل، حتى من أجل ابنة
«الرومية». إن آية جماعة تتحلّل ما إن توافق على التخليّ عن أضعف أفرادها».

ما كانت حججه لتهمّ كثيراً؛ فقد أعاد إليّ موقفه الأمل.

«أتظنّ أن في مقدورنا إنقاذ أختي؟

- أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يمنحك الأمل والصبر! إن علينا مقاتلة أشخاص نافذين ومن أتباع الشيطان . وأنت تعرف أن الزرواليّ صديق للسلطان .
- لكنْ إذا قُدِّر لمريم أن تُقيم طويلاً في «الحيّ» فسوف ينتهي بها الأمر إلى أن تغدو مجذومة حقاً .

- ينبغي أن تذهب لزيارتها، وأن تقول لها ألا تختلط بالآخرين، وأن تحمل إليها للأكل لحم السلحفاة فإنه يساعد على مقاومة المرض . ولتحتفظ على الأخصص بنقاب مبلول بالخلّ فوق وجهها .

ونقلتُ هذه الأقوال إلى وردة . وتدرّبت الأشياء المذكورة، وعندما عاد أبي إلى المدينة بعد بضعة أيام ذهبت معه إلى أطراف «الحيّ» . ونادى أحد الحراس مريم فجاءت لرؤيتها . وبدت خائفة مغمومة تائهة، بعينين حراوين كالدم في وجه شاحب . وكان يفصلها عن والديها مجرى ماء، غير أنها تمكّنا من التحدّث إليها ووعدّها بخلاص قريب وتوصيتها بالمطلوب منها عمله . وأمّا الأشياء التي أرادوا إيصالها إليها فقد عهدا بها إلى الحارس وهما يدسّان بعض الدراهم في يده .

وكنت لدى عودتها انتظرهما عند الباب . وتظاهر أبي بعدم رؤيتي . وأسندت إحدى ركبتيّ إلى الأرض وتناولت يده وألصقتها إلى شفتي . وبعد بضع لحظات طويلة سحبها ومرّ بها على وجهي ثم على رقبتي التي أخذ يرتّب عليها . ونهضت وارتميت بين ذراعيه . وهتف بوردة بصوت منكسر :

«جهّزي لنا الطعام . نحن بحاجة إلى الحديث» .

وهُرعتُ .

وأما بشأن الحديث فإننا لم نقل شيئاً كثيراً، لا أنا ولا هو . فقد كان المهّم في تلك اللحظة أن نكون معاً على ذلك النحو، رجلاً لرجل للمرة الأولى، جالسين على الحصير نفسه، غامسين اليد بالطريقة عينها في طبق الكسكسيّ نفسه . لقد كانت خطبة مريم قد فرقت بيننا؛ وعجّل عذابها في مُصالحتنا . ولسوف يقرب محمداً كذلك من أسرة أمي .

ففي ذلك المساء حضر خالي إلى بيت أبي الذي لم يكن قد تخطى عتبه منذ وصولنا إلى فاس قبل عشر سنوات. وأكرمه وردة إكرامها ضيفاً خطير الشأن فقدّمت له شراب اللوز ووضعت أمامه سلّة كبيرة حافلة بالعنب والمشمش والكمثرى والخوخ. وحصلت بالمقابل على ابتسامات رقيقة وكلمات مواسية. ثم انسحبت خلف أحد الأبواب تاركة إيانا نتحدّث ونتناقش.

انقضى ما بقي من العام بأكمله في مساعٍ لا تكلّ ومؤامرات ليس لها آخر. وكان ينضمّ إلينا في بعض الأحيان أشخاص من خارج الأسرة حاملين نصائحهم، مشاركين إيانا خياتنا. وكان معظمهم من الغرناطين، غير أنه كان بينهم اثنان من أصدقائي، أحدهما بالطبع هارون الذي لن يلبث أن يجعل من قضيتي قضيته إلى حدّ انتزاعها مني. وكان اسم الثاني أحمد، وكان يلقّب في المدرسة بالأعرج. وليس في وسعي وأنا أتذكّره أن أمنع ريشتي من التوقف عن حكّها المتعرج، ونفسي من البقاء لحظة ساهماً مرتبكاً. فقد سمعت الناس من تونس إلى القاهرة إلى مكة، وحتى إلى نابولي، يتحدّثون عن الأعرج. وما زلت أتساءل عمّا إذا كان هذا الصديق القديم سيترك بعض الأثر في التاريخ أم أنه سيجتاز ذاكرة الناس كما يجتاز سباح جسر نهر النيل من غير أن يغيّر شيئاً من مجراه ولا من فيضانه. ومع ذلك فإن واجب المؤرّخ يقتضي مني نسيان مشاعري لأقصّ بأكثر ما يمكن من أمانة ما عرفته عن أحمد منذ دخوله الحلقة للمرّة الأولى في ذلك العام واستقبال الطلاب إياه بالضحك والسخرية. فصغار الفاسيين لا يرحمون الغرباء، ولا سيّما إذا بدا أنهم وصلوا للتوّ من مساقط رؤوسهم في الأقاليم، وكانوا على الأخصّ مصايين بعاهة من العاهات.

وأجال الأعرج طرفه في الحلقة وكأنه يدوّن كل ابتسامة وكل تكشيرة، ثم أتى فجلس بجانبني، إمّا لأنّ المكان كان أقرب الأمكنة تناولاً، وإمّا لأنه رأى أنني كنت أنظر إليه بغير ما كان الآخرون ينظرون. ولقد شدّ على يدي مصافحاً، بيد أنّ كلماته لم تكن مجرد تحية:

«أنت مثلي غريب في هذه المدينة اللعينة».

لم تكن النبرة متسائلة، ولا كان الصوت خافئاً. ونظرتُ حولي منزعجاً فأضاف يقول:

«لا تخف من الفاسيين، إنهم محشونون جداً بالمعرفة فلا مكان عندهم لأدنى شجاعة».

كان يصرخ تقريباً فأحسست أنني موسوق إلى جسدي المدافع في غلٍ لم يكن يخصني. وحاولت الخروج من ذلك بصوت عمازح.

«كيف تقول ذلك وقد جئت تطلب المعرفة في إحدى مدارس فاس؟».

وابتسم ابتسامة متقدة وقال:

«لست أطلب المعرفة، فهي تُوثق اليدين بأحكام مما يُوثقهما القيد. أرايت في حياتك فقيهاً يقود جيشاً أو ينشئ مملكة؟»

وبينما هو يتكلم دخل المعلم متمهلاً الخطوة منتصب القامة. ووقف الصف بأكمله إجلالاً.

«كيف تريد أن يقا تل رجل على رأسه هذا الشيء المترجرج؟»

كنت قد بدأت آسف لأن يكون أحمد قد جاء يجلس بقربي. ونظرت مرتاعاً وقلت:

«اخفض صوتك، أتوسل إليك، سوف يسمعك المعلم».

وربت على ظهري تربيته أبوية وقال:

«لا تكن خوافاً! ألم تكن في صباك تقول بصوت مرتفع حقائق كان يُخفيها الكبار؟ الحق كان معك في ذلك الوقت إذن! وها إن عليك أن تستعيد في نفسك زمن الجهل لأنه كان كذلك زمن الشجاعة».

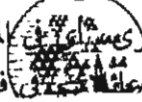
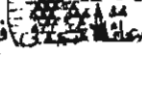
ولكي يدلل على ما أكده قبل قليل نهض فتقدم وهو يطلع من منبر الأستاذ وخاطبه من غير مقدمات، الأمر الذي انتفت معه أدنى حركة داخل الصف.
قال:

«اسمي أحمد، ابن الشريف سعدي من آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام .
وإذا كنت أظلع وأنا أمشي فلا تأتي جرحت العام الماضي وأنا أقاتل البرتغاليين
الذين اجتاحوا أراضي إقليم السوس» .

لم أكن أدري إذا كان أكثر انتهاء مني إلى رسول الله؛ وأما عاهته فقد أصيب بها
من يوم مولده كما علمت فيما بعد من أحد أقاربه . إنها إذن كذبتان، لكنهما أرهبنا
كل من كان هناك، بدءاً بالأستاذ .

وعاد أحمد إلى مكانه مرفوع الرأس . فقد غدا منذ يومه الأول في المدرسة أكثر
الطلاب تجلّة وارسخهم موضع إكبار . فلم يكن يسير إلا وحوله لقيف من زملاء
المطيعين بضحكون لضحكته ويرتجفون لغضبه ويشاطرونه كل خصوصياته .

وقد كانت تلك الخصوصيات صعبة المراس . فذات يوم تجرّأ أحد معلمينا،
وهو فاسي من أصل عريق، على التشكيك في النسب الذي أدعاه الأعرج . وهو
رأي لم يكن بالإمكان الاستخفاف به لأن ذلك الأستاذ كان أشهر أساتذة المدرسة،
إذ كان قد حصل قبل مدة على امتياز إلقاء خطبة الجمعة في المسجد الجامع . ولم
يجب أحمد على الفور، واكتفى بأن ابتسم ابتسامة غامضة للطلاب الذين وجهوا
إليه نظرات مستفهمة . وفي يوم الجمعة التالي انتقل الصف بأسره للاستماع إلى
الخطيب . وما إن فتح هذا فمه بالكلمات الأولى حتى انتابت الأعرج نوبة سعال لا
آخر لها . وشيئاً فشيئاً أخذ آخرون يتناوبون السعال، وما هي إلا دقائق حتى
كانت آلاف الحناجر تضحّ وتتنحجح في آن معاً، وكانت عدوى عجيبة امتدّت إلى
آخر الخطبة، حتى إن المصلين رجعوا إلى بيوتهم من غير أن يفقهوا أذن عبارة .
ومذّاك حرص ذلك الأمتاذ على الكفّ إلى الأبد عن الكلام على نسب أحمد
الشريف، وإن كان موضع شك .

أما أنا فلم أقتف قط أثر الأعرج، ولذلك كان ولا شك يحترمني . فما كنا نتقابل
إلا على حدة، في بيتي أحياناً، وفي بيته أخرى  المدرسة بالذات حيث
كانت تفرد غرف للطلاب الذين لا تقيم  فاس؛ وقد كان ذووه
يسكنون عند أطراف مملكة مراكش .

وعليّ أن أعترف بأننا حين كنا ننفرد الواحد بالآخر كانت بعض تصرفاته تنفّرني وتقلّقني، بل تخيفني في بعض الأحيان. لكنّ كان يحدث كذلك أن يبدو كريماً متفانياً. وقد بدا لي كذلك على كل حال في ذلك العام، يقظاً حيال أدنى ما يبدر مني من علامات الوهن، موفّقاً في كل مرّة إلى النبرة الكفيلة بالتشديد من عزيمتي.

وكنت في أشدّ الحاجة لوجوده، كما لوجود هارون، حتى وإنّ بدا كلّ منهما عاجزاً عن انقاذ مريم. وكان يبدو أنّ خالي وحده قادر على القيام بالمساعي اللازمة. فقد كان يقابل بعض الفقهاء وأمراء الجند وبعض وجهاء المملكة؛ وكان بعضهم يُبدي التطمين، وآخرون يتّذوّن مُحرجين، ويعدّ آخرون كذلك بحلّ قبل العيد القادم. ولم نكن ندع رجاء إلا لتعلّق بآخر ليس أكثر منه جدوى.

إلى أن نجح خالي بعد ألف مداخلة في التقرب من ابن الملك البكر، الأمير محمّد الملقّب بالبرتغالي لأنه خُطف وهو في السابعة من عمره في مدينة «أرزيلا» واقتيد إلى البرتغال فبقي فيها أسيراً سنوات طوالاً. وكان الآن في الأربعين من عمره، أي في سنّ خالي، وقد ظلّ مدة طويلة يتحدّثان عن الشعر ويتذكّران نكبات الأندلس. وإذ أثار خالي بعد ساعتين مشكلة مريم، فقد استنكر الأمير الأمر ووعد بإيصاله إلى مسامع والده.

ولم يسعفه الوقت لتحقيق ما وعد لأنّ السلطان مات، يا للمصادفة الغربية! في اليوم التالي بالذات لزيارة خالي إلى القصر.

ولو قلت إنّ ذويّ بكوّوا طويلاً العاهل العجوز لكان ذلك كذباً محضاً، وليس ذلك لأنّه كان صديق الزرواليّ وحسب، وإنما لأنّ الروابط المعقودة حديثاً بين ابنه وبين خالي كانت تدفعنا إلى التفاؤل أيضاً بأفضل النتائج.

عام القافلة

٩١٠ هـ (١٤ حزيران «يونية» ١٥٠٤ م -

٣ حزيران «يونية» ١٥٠٥ م)

كان ذلك العام عام رحلتي الكبرى التي ستقودني عبر جبال الأطلس وسجلهاسة وُغمدية إلى المنبسط الصحراوي، ثم إلى تومبكتو حاضرة بلاد الزنوج العجيبة .

فقد كلف سلطان فاس الجديد خالي بحمل رسالة إلى ملك السودان العظيم، الأسكيا محمد توري، يبلغه فيها تسلّمه الحكم ويعدّه بتوثيق روابط الصداقة بين المملكتين. وكما كان خالي قد وعدني قبل خمس سنوات لدى رحلته إلى المشرق، فقد دعاني إلى مرافقته؛ وقد حدثت أبي بالأمر فما فكر في الاعتراض نظراً للحجتي الكثرة وإن كانت ناعمة اللمس .

وتحرّكت القافلة مع بوادر الخريف النديّة مؤلفةً من مئتي راحلة تحمل الرجال والمؤن والهدايا. وقد زُودنا بحرس على جمال الحمايتنا طوال الرحلة وبيعض الخيالة الذين كان عليهم أن يعودوا أدراجهم عند مداخل الصحراء الكبرى. وقد انبغى أن يرافقنا كذلك جمالون وأدلاء محنكون وعدد كاف من الخدم لتعظيم السفارة في عيون مُضيفينا. وانضمّ إلى الموكب الرسمي بعد استئذان خالي عدد من التجّار مع بضائعهم راجين الاستفادة في وقت معاً من الحماية الملكية في أثناء الطريق ومن المعاملة المميّزة التي لن نلث أن نلقاها في تومبكتو.

أُخذت الاستعدادات بعناية فائقة ودامت طويلاً جداً بالنسبة إلى ما كنت أشتهي، ولم أكن أتمكّن في الأيام الأخيرة من النوم ولا القراءة، ولا كنت أتفسّ إلا أنفاساً متباعدة مضغوطة. فقد كنت بحاجة إلى الرحيل على الفور، إلى التشبّث عالياً جداً بسنام جمل، إلى أن يتلّعنني الرحب الصحراوي الذي يتخذ فيه

الناس والبهائم والماء والرمل والذهب جميعاً اللون نفسه والقيمة ذاتها والتفاهة
الفريدة عينها.

وسرعان ما اكتشفت كذلك أن في وسع المرء أن يترك للقافلة أن تبتلعه .
فعندما يعرف رفاق السفر أنّ عليهم خلال أسابيع وأشهر أن يسيروا في الاتجاه
نفسه، وأن يواجهوا الأخطار عينها، وأن يعيشوا ويأكلوا ويصلّوا ويتسلّوا ويقاسوا
ويموتوا أحياناً معاً، فإنهم ينقطعون عن أن يكونوا غرباء بعضهم عن بعض؛ فلا
تبقى رذيلة خافية ولا يدوم تصنع. وإذا نُظر إلى القافلة من بعيد فهي موكب؛
وإذا نُظر إليها عن كثب فهي قرية بكلّ ما فيها من حكايات ودعابات وألقاب
ومكائد ونزاعات ومصالحات وأمسيات غنائية وشعرية، قرية تبدو لها جميع
الأمصار بعيدة، حتّى تلك التي جاء أصحاب القافلة منها، وحتّى تلك التي
يحتازونها من وقتهم. إنها بعيدة بعداً شديداً كنت في حاجة إليه لنسيان هموم فاس
المضنية وضراوة الزروالي وقسوة شيخ المجذومين التي لا توصف.

اجتزنا في اليوم الذي انطلقنا فيه مدينة «سفرو» القائمة عند سفح الأطلس على
بعد خمسة عشر ميلاً من فاس. وأهلها أغنياء، بيد أنّ ملابسهم مزرية ملطّخة
بالدهن، وذلك بسبب أمير من الأسرة المالكة كان قد ابنتى مقراً فأرهب بالضرائب
كلّ من يُظهر بعض الرخاء. وإذا كنّا نجتاز الشارع الكبير فقد قرّب خالي مطيّته
من مطيّتي ليهمس في أذني قائلاً:

«لوقال لك أحد إن البخل ابن الحاجة فقل له إنه مخطىء. إن الضرائب هي
التي ولدت البخل!».

وعبرت القافلة غير بعيد من «سفرو» الممرّ الجبليّ الذي تخترقه الطريق إلى
«عمّدية». وبعد يومين كنّا في قلب الغابة عند أطلال مدينة قديمة تُعرف بـ «عين
الأصنام». وكان هناك معبد من عادة الرجال والنساء أن يجتمعوا فيه مساءً في
وقت معين من السنة. وإذا ينتهون من طقوسهم يطفئون الأنوار ويتمتع كل رجل
بالمرأة التي تكون بقربه. ويقضون الليل بطوله على هذا النحو، وفي الصباح

يُذَكِّرُونَ بأنه لا يحقّ لأية امرأة من الموجودات الاقتراب من زوجها مدة عام كامل. وكان كهان المعبد يتعهدون بالتربية لجميع الأطفال الذين يُولدُونَ في تلك المدّة من الزمن. ولقد هُدمَ هذا المعبد والمدينة بأسرها في أثناء الفتح الإسلامي؛ وبقي الاسم وحده شاهداً على عصر الجاهلية ذلك.

مررنا بعد يومين بالقرب من قرية جبلية حافلة بالآثار القديمة، وتدعى «الآبار المثة» لأن في جوارها آباراً عميقة إلى حدّ يُحْيِلُ معه أنها مغاور. ويُحكى أن إحداها مؤلفة من عدّة طبقات، وأن بداخلها حجرات مسوّرة بعضها كبيرة وبعضها صغيرة، ولكنها جميعاً مرتّبة. ولهذا يقصدها من فاس الباحثون عن الكنوز فينزولون إليها بالحبال مزوّدين بالفوانيس. وكثير منهم لا يخرجون منها قطّ.

بعد أسبوع على مغادرتنا فاس اجتزنا بمكان يدعى «أمّ جُنبية» درجت فيه عادة عجيبية: هناك مجرى ماء تمرّ القوافل بمحاذاته، ويقال إن على كلّ من يجتاز به ألاّ يتقدّم إلا راقصاً قافزاً، وألاّ أصيب بالحمّى الرباعية. وفعلت فرقتنا بأسرها ذلك بطرب، حتّى أنا، وحتّى الحراس، وحتّى التجّار الكبار، وكان بعضنا يقوم بذلك بدافع اللعب، وآخرون بدافع الطيرة، وآخرون أيضاً لتفادي لسع الحشرات، باستثناء خالي الذي منعه كرامته كسفير من سلوك هذا المسلك الصبياني. ولقد كان عليه أن يندم على ذلك أشدّ الندم.

كنّا قد أصبحنا في أعلى الجبال التي تهبّ عليها، حتى في الخريف، ريح شمالية قارسة غير مُنتظرة. وما كنت لأتوقع أن أجد في أمكنة يمثل هذا العلوّ الشاهق والمناخ القاسي أناساً يمثل هذا الحُسن في الهندام، ولا يمثل هذا القدر في العِلْم على الأخصّ. وهناك بنوع خاص في أحد أبرد الجبال قبيلة تدعى «مستازة» أبرز نشاطها نسخ عدد كبير من الكتب بأجمل الخطوط وبيعها في المغرب وخارجه. وقد اشترى تاجر جنوبيّ عجوز مقيم في فاس اسمه السيد «توماسودي مارينو»، وكان قد انضمّ إلى قافلتنا وكان لي معه أحاديث كثيرة، من قرية واحدة حوالى مئة كتاب جميلة الخطوط ومجلّدة. وشرح لي أن علماء بلاد الزنج ووجهاءها يشترون كثيراً من الكتب وأن الأتجار بها يُعْجِزُ للغاية.

وإذ توقفتنا لقضاء الليل في تلك المحلة فقد صحبت الجنويّ إلى عشاء دعاه إليه عميله. وكان المنزل حسن البناء مجليّه الرخام والقاشاني والبسط الصوفيّة الرقيقة فوق الجدران، وعلى الأرض سجّادات من الصوف أيضاً ولكنها ملوّنة بألوان زاهية تسرّ الناظر. وبدا أنّ جميع المدعوين كانوا موسرين، ولم أتمالك من أن أطرح على مضيفنا، متحرّزاً أشدّ التحرّز في اختيار عباراتي، سؤالاً كانت تتحرّق له شفّتي: كيف تسنّى للناس في هذه المنطقة القارسة البرد الموعلة في الجبل أن يكون نصيبهم من المتاع والعلم بهذا القدر؟

وقهقه ربّ البيت وقال:

«تريد بالمختصر أن تعرف لماذا لم يكن جميع أهل هذا الجبل جُفاة حُفاة متسولين؟»

ما كنت لأعبر عن الأمر على هذا النحو، ولكنّ ذلك بالضبط ما كان يجيرني.

«اعلم أيها الزائر الشاب أنّ أعظم مئة من الله تعالى على إنسان هو أن يجعله يُولد في جبل مرتفع تقطعه طريق تمرّ فيها القوافل. فالطريق تجلب المعرفة والغنى، والجبل يمنح الحماية والحرية. وانتم يا أهل المدن في تناول يدكم كلّ الذهب وجميع الكتب، ولكنّ لكم أمراء عليكم أن تطأطئوا لهم الرؤوس...»

وعدل إلى القول:

«هل أستطيع أن أكلمك كما يكلم عمّ ابن أخيه، كما يكلم شيخ عجوز تلميذه بلا لفّ ولا دوران حول غير الحياة؟ أتعدني بالأّ تستاء؟»

وشجّعته ابتسامتي العريضة على المتابعة:

«عندما يعيش المرء في مدينة يوافق على أن يضع جانباً كلّ كرامة وكلّ عزّة لقاء حماية من سلطان يكون ثمنها غالياً جداً، حتّى حين لا يكون هذا السلطان قادراً على تأمينها. وعندما يجي المرء بعيداً عن المدن، ولكنّ في السهول والتلال، فإنه يفرّ من سطوة السلطان وجنوده وجبّاته؛ ويكون مع ذلك تحت رحمة النهابين من البدو الرحل، عرباً وبربراً أحياناً، يعيشون في البلاد فساداً فلا يمكن رفع جدار من غير خوف من رؤيته مهدوماً عمّا قريب. وعندما يعيش المرء في مكان يتعدّر

الوصول إليه، ولكن بعيداً عن الطرق، فإنه يكون بالطبع في مأمن من الاستعباد كما من النهب؛ ومع هذا فإن الأمر ينتهي به، لعدم اتصاله بالمناطق الأخرى، إلى العيش عيش البهائم، جاهلاً محروماً مستوحشاً.

وقدم إليّ قدح نبيذ رفضت بأدب تناوله. وتناول هو واحداً فحسا منه حسوة قبل أن يضيف:

«نحن وحدنا محظوظون: يمرُّ بقرانا أناس من فاس، ومن عميدية، ومن بلاد الزنج، تجاراً وأعياناً وطلاباً وعلماء؛ ويحمل إلينا كل منهم قطعة ذهبية أو ثوباً وكتاباً للقراءة والنسخ، أو مجرد خبر أو طرفة أو كلمة؛ وعلى هذا تُراكمُ بمرور القوافل الثروة والمعرفة في حمى هذه الجبال الوعرة التي نتقاسمها مع النسور والغربان والسباع، رفاقنا في العزّة والألفة».

ونقلتُ هذا الحديث إلى خالي الذي تنهّد من غير أن يتكلّم ثم رفع عينيه إلى فوق. ولم أدر إذا كان ذلك لتفويض أمره إلى الخالق. أو لتأمل طيران أحد الكواسر.

كانت مرحلتنا التالية في جبال «زيز» المسماة كذلك لأن نهرها بهذا الاسم ينبع منها. وينتمي أهل هذه المنطقة إلى قبيلة من البربر مرهوية الجانب معروف أفرادها بـ «الزناغا». وهم رجال أشداء يلبسون فوق جلودهم تبنات من الصوف ويلقون حول سيقانهم خرقاً يتخذونها نعلاً؛ ويسرون حاسرين في الشتاء كما في الصيف. غير أنني لا أستطيع وصف هؤلاء الناس من غير أن أذكر أمراً من أمورهم لا يصدّق ويبدو لي أنه ناجم عن الخوارق: إن كمية هائلة من الأفاعي تزحف بين بيوتهم وادعة أليفة كاهرر أو الكلاب الصغيرة. وعندما يجلس أحدهم للطعام تتجمّع الأفاعي حوله لتتبلّغ بفتات الخبز وفضلات الأطعمة التي يدعها لها.

وانحدرنا خلال الأسبوع الثالث من رحلتنا من فوق جبال الزيز عبر عدد لا يُحصى من بساتين النخيل ذي الثمار الطرية الشهية باتجاه السهل الذي تقع فيه سجلماسة. أو عليّ أن أقول بالحري كانت تقع فيه تلك المدينة التي طالما اعجب بها المسافرون في الأيام الخوالي. ويقال إن الذي انشأها كان الإسكندر الكبير

بالذات، وأن شارعها الكبير كان بطول مسير نصف يوم، وأن كل بيت من بيوتها كان يحفّ به حديقة وبستان، وأنه كان فيها مساجد رائقة ومدارس ذائعة الصيت.

ولم يبق من أسوارها العالية قديماً غير حواشٍ نصف مهذّمة تجتاحها الأعشاب والطحالب. ولم يبق من أهلها غير عشائر متقاتلة تقيم كل عشيرة منها مع رئيسها في قرية محصّنة قريباً من أطلال سجلّاسة القديمة. وهمّهم الأول تنغيص حياة العشيرة المقيمة في القرية المجاورة. ويُبدي بعضهم تجاه بعض قلوباً لا تعرف الرحمة، ويذهبون إلى حدّ هدم أقبية الماء واجتثاث أشجار النخيل وتحريض قبائل الدو الرّحل على إتلاف أراضي الخصوم وتدمير منازلهم، حتى بدا لي أنهم يستحقّون ما آل إليه أمرهم.

كنّا قد قدرنا أن نبقي ثلاثة أيام فوق أراضي سجلّاسة لإراحة الناس والمطايا وشراء بعض المؤن وإصلاح بعض الآنية؛ ولكن كان مكتوباً علينا أن نبقي فيها عدّة أشهر لأنّ خالي مرض في اليوم التالي لوصولنا. فقد حدث أن كان يرتجف طوال النهار في حين كان الحرّ خانقاً، وأن كان يتفصّد العرق من جميع مسامه طوال الليل في حين كان البرد يعادل برد الجبال العالية. وشخص تاجر يهودي من تجّار القافلة طويل الباع في الطبّ أن ما به حمى رباعية بدت عقاباً لخالي على رفضه التضحية لتقليد «أمّ جُنّيبة» الراقص. والله وحده صاحب الثواب والعقاب!

* * *

كنت الأزم على الدوام خالي المريض متنبّهاً إلى أدنى حركة أو أقلّ تقطيعية تبدر منه، متأملاً إيّاه أحياناً ساعات طوالاً وهو نائم نوماً مضطرباً. وأحسست فجأة أنّه شاخ وترهّل وسقط في يده، في حين كان قادراً قبل يومين على إبقاء جمهور من الناس مبهورين الأنفاس وهو يتحدّث عن الروم والسباع والأفاعي. وقد أثار بفضل مواهبه شاعراً وخطيباً، كما بفضل اتّساع معارفه، في محمّد البرتغاليّ الذي كان يستدعيه كل أسبوع لزيارته منذ توليه الحكم. وكان الموضوع موضوع تعيينه في منصب مستشار أو أمين أو عامل على إحدى النواحي.

وأذكر أنني كنت قد سألت خالي لدى رجوعه من القصر في أحد الأيام عما إذا كان قد حدث كرة أخرى عن مريم . ولقد أجاب بنبرة فيها بعض الحرج :

«إنني أعمل على كسب ثقة السلطان شيئاً فشيئاً . ولن ألبث أن أصبح قادراً على الحصول منه بلا أدنى صعوبة على إطلاق سراح أختك . وأما الآن فعلياً أن أتصرف بأكثر ما يمكن من الرفق ، وسيكون من الخطأ أن أطلب منه أي شيء» .
ثم أضاف وهو يضحك ضحكة أرادها أن تكون اعتذاراً :

«هكذا يجب أن تتصرف عندما تخوض غمار السياسة»!

وبعد تسمية خالي سفيراً أعدت الكرة . وكان عندها قد تحدث بالأمر إلى السلطان فوعده بأن تكون الفتاة في بيتها لدى رجوعه من تومبكتو . وقد شكره خالي أجزل الشكر وجاء يحمل إليّ النبا . وعليه فقد عازمت على الذهاب للمرة الأولى إلى «الحيّ» لأزفّ إلى مريم وعد العاهل ومعه خبر سفري .

لم أكن قد رأيتها منذ عام لفرط ما أكنّه لها من حبّ ، ولكنّ بدافع من الجبن أيضاً . ولم تَفْه بكلمة عتاب واحدة ، بل ابتسمت لي وكأنها غادرتني لتوها ، وسألني عن أخبار دروسي ، وبدا لي من وداعتها وطمأننتها ما أخجلني وأهاج ندمي وأفقدني صوابي . فربما كنت أفضل أن أراها تذرّف الدمع ، وأن يكون عليّ أن أواسيها ، حتى من بعيد إذ كان يفصل بيننا مجرى ماء . وزففت إليها بخيلاء وعدّ السلطان . وكان ردّها بما يكفي فقط لعدم الإساءة إليّ . وحدثتها عن رحيلي فتظاهرت بالتحمّس من غير أن أدري إذا كانت قد فعلت بدافع تهليل مباغت أو بدافع السخرية . وبدا لي مجرى الماء ذلك الذي كان من الممكن أن يجتازه رجل قويّ بقفزتين أعمق من وادٍ وأعرض من شعبة بحرية . وكانت مريم بعيدة جداً وغير قابلة أبداً لأن يُنْفذ إلى داخلها ، وكان صوتها يبلغني وكأنما من خلال كابوس . وفجأة وضعتُ مجدومة عجوز لم أكن قد رأيتها يداً بلا أصابع على كتف أختي . وصرختُ وجمعتُ حجارة لأقذفها باتجاهها طالباً منها الابتعاد . وتدخلت مريم حامية المجدومة بجسدها وهي تقول :

«دع هذه الحجارة يا حسن وإلا جرحت صديقتي!»

وصدعتُ بالأمر، ولكنني شعرت بأنني على وشك أن يُغمي عليّ. وودعتُ بإيماءة واستدرتُ للذهاب خائر القوى محطّم القلب. وهتفتُ أختي من جديد باسمي فنظرتُ إليها، وكانت قد اقتربت حتى بلغت حافة الماء. ولأوّل مرة منذ قدومي سألت دموعها:

«سوف تخرجني من هنا، أليس كذلك؟»

كان صوتها متضرّعاً، وبالنسبة إليّ كان مُطمئناً. وبحركة كنتُ أوّل من دهش لها مددتُ يديّ أمامي كما لو كنتُ أضعها على المصحف ولفظت بصوت متمهل مرتفع هذا القسم:

«أقسم بالألّا أتزوِّج قبل أن أكون قد أخرجتك من هذا الحيّ اللعين».

وابتسمتُ بكلّ صفحة وجهها. وعندها استدرتُ وابتعدتُ بكلّ ما أوتي ساقاي من قوة لأنني كنتُ أودّ أن أحتفظ لها بهذه الصورة بالذات طوال رحلتي. وفي اليوم نفسه مررت لرؤية أبي ووردة وتزويدهما بالأخبار عن ابنتهما. وقبل أن أقرع الباب لبثت هنيهة بلا حراك. ففي فجوة من الحائط الخارجي كانت لا تزال قشة العشب التي عقدتها مريم يوم أسرها، وقد بيست واسودّت. وأخذتها بين أصابعي ووضعتها بشكل خاطف على شفّتي. ثم رددتها إلى مكانها.

وقد فكّرت مرّة أخرى في تلك القشة عندما فتح خالي عينيه. وقد سأله عمّا إذا كانت حاله قد تحسّنت؛ وأوماً برأسه أن نعم، بيد أنه ما لبث أن عاد إلى النوم. ولسوف يظلّ هكذا بين الحياة والموت، عاجزاً عن الحراك، حتى أوّل الفصل الحار، في حين غدا من المستحيل اجتياز الصحراء. وعليه فقد كان علينا الانتظار عدة أشهر في ناحية سجلهاسة قبل متابعة رحلتنا.

عام تومبكتو

٩١١ هـ (٤ حزيران «يونية» ١٥٠٥ م -

٢٣ آيار «مايو» ١٥٠٦ م)

بدا أن خالي استعاد نشاطه تماماً حين تابعنا طريقنا في ذلك العام في بداية الفصل الندبي باتجاه «طبلبالة» الواقعة في قلب صحراء مُميدية على بعد ثلاثمئة ميل من الأطلس ومثني ميل جنوبي سجلماسة، في منطقة شحيحة المياه واللحم، باستثناء لحم النعام والغزلان، ولا يلطف فيها من طغيان الشمس سوى فيء نخلة في بعض الأحيان.

لقد احتسبنا تسعة أيام لهذه المرحلة، ومنذ العشيّة الأولى شرع خالي يحدثني عن غرناطة، قليلاً كما فعل أبي قبل بضع سنوات. وربما كان لمرض أحدهما ووهن الآخر الأثر نفسه، عنيت دَفْعَهما إلى نقل مشاهداتهما وحكمتهما إلى حافظة أكثر فتوة وأقلّ تعرّضاً للخطر، أسأل الله تعالى أن يحفظ صفحتي من النار والنسيان! وكنت انتظر من ليلة إلى أخرى تنمة روايته التي لم يكن يقطعها أحياناً غير نباح ابن آوى قريب.

وفي اليوم الثالث أقبل علينا جنديان يحملان رسالة من أحد السادة كانت أراضيه تقع غربي طريقنا. وكان قد علم بأنّ سفير ملك فاس مارّ بالمنطقة فأصرّ كل الإصرار على لقائه. واستعلم خالي عن الأمر من أحد الأدلاء فأخبره بأنّ ذلك التعرّيج قد يؤخّرنا أسبوعين على الأقلّ. وعليه فقد اعتذر إلى الجنديين قائلاً لهما إنّ مبعوثاً من الملك لا يستطيع زيارة السادة الذين هم خارج خطّ سيره، بالإضافة إلى أنّ المريض قد أحرّ مهمته بشكل بالغ. ومع ذلك فإنه لكي يدلّل على مدى التقدير الذي يكتنه للسيد - اعترف لي فيما بعد أنه لم يسبق له أن سمع به قبلاً - سوف يرسل ابن اخته لتقبيل يده.

وهكذا وجدتني فجأة معهوداً إلى سفارة، أنا الذي لم يكن قد أتم أعوامه السبعة عشر. وأرسل معي خالي فارسين وزودني ببعض الهدايا التي كان عليّ أن أقدمها باسمه إلى ذلك السيد الطيّب: ركابان مزينان على الطريقة المغربية، ومهالزان رائعان، وحبلاان من الحرير مصفوران بخيوط الذهب، أحدهما بنفسجي والآخر أزرق، وكتاب مجلد حديثاً يحكي سيرة أولياء أفاقة، وقصيدة مدح. ودامت الرحلة أربعة أيام أفدت منها في أن أنظم بدوري بعض الأبيات على شرف مضيئي.

وإذ وصلت إلى المدينة، واسمها «اورزازات» على ما أظن، قيل لي إن السيد يصطاد السبع في الجبال المجاورة، وأنه أصدر التعليقات بأن انضم إليه. وقبّلت يده ونقلت إليه تحيات خالي. وعين لي مسكناً أستريح فيه إلى أن يرجع. ورجع قبل هبوط الليل ودعاني إلى قصره. ومثلت أمامه وقبّلت يده من جديد وقدمت إليه الهدايا واحدة تلو أخرى فسرّ بها أيما سرور، ثم ناولته قصيدة خالي فأقرأها أحد أمنائه طالباً ترجمة كل كلمة لأنه لم يكن يحسن العربية كثيراً.

وحانت ساعة الطعام الذي كنت انتظره بفارغ الصبر لأنّي كنت خاوي البطن منذ الصباح باستثناء بعض حبّات التمر. واحضر لنا لحم ضأن من مشويّ وملسوق ملفوفاً برفاق من العجين تشبه بعض الشبه اللازانيا الإيطالية وإن كانت أشدّ منها تماسكاً. ثم أحضر الكسكسيّ والفتات، وهو مزيج آخر من اللحم والعجين، وبعض الأطباق الأخرى التي لم أعد أذكر ما كانت. وعندما شبعنا جميعاً كلّ الشبع وقفت فأنشدت قصيدي. وطلب السيد ترجمة بعض العبارات، ولكنه كان يكتفي فيما عدا ذلك بملاحظتي بعين تشبي بالحنان والأمان. وما إن انتهيت حتى دخل للنوم لأنّ الصيد كان قد أنهكه، بيد أنه دعاني لتناول الفطور معه في صباح اليوم التالي وطلب من أمينة اعطائي مئة قطعة ذهبية لتسليمها إلى خالي وعبديّن لخدمته في أثناء سفره. وكلفني أن أنقل إليه أن هذه الهدية لشكره على قصيدته وليست في مقابل ما قدّم هو إليه من هدايا. وعهد إليّ كذلك بعشر قطع ذهبية لكلّ من الفارسين اللذين كانا يصحباني.

وكان يحتفظ لي أنا بمفاجأة. فقد بدأ بإعطائي خمسين قطعة ذهبية، لكنّ الأمين

أشار إليّ بأن أتبعه حين خرجت . واجتزنا دهليزاً قادنا إلى باب واطىء يفضي إلى
فناء صغير كان في وسطه حصان جميل لكنّه صغير الحجم وفوقه فارسة سمراء فاتنة
سافرة الوجه .

«هذه الأمة هي جائزة السيد لك على قصيدتك إنها في الرابعة عشرة وتجيد
الكلام بالعربية ، ونحن ندعوها هبة» .

وأخذ الزمام ووضع في يدي . وشددته وعيناي إلى أعلى غير مصدّقتين .
وابتسمت جائزتي .

وإذ كنت في سعادة غامرة من جرّاء لقاء سيّد يمثل هذا اللطف وذاك الكرم فقد
رجعت رأساً إلى «طبلبالة» حيث كانت القافلة بانتظاري . وأخبرت خالي بأنّي
قمت بمهمتي على أكمل وجه ونقلت إليه كلّ حركة وكلّ كلمة . وقدمت إليه
الهدايا العائدة إليه مرفقة بالأحاديث التي دارت بشأنها ، وأنهيت كلامي بإخباره
بمفاجأتي اللذيذة . واربّد وجهه عند وصولي إلى هذه النقطة من حكايتي وقال :

«هل قالوا لك حقاً إنّ هذه الجارية تتكلّم العربية؟»

- طبعاً ، وقد تحققت من ذلك في أثناء الطريق .

- لا أشكّ في هذا . غير أنّك لو كنت أكبر سنّاً وأكثر حكمة لأدركت بالطبع
شيئاً آخر من كلام الأمين . فأعطائك الجارية قد يكون سبباً لتشريفك ، بيد أنه
قد يكون كذلك سبباً لإهانتك ، لإطلاعك على الدرك الذي انحطّ إليه من
يتكلّمون لغتك .

- وهل كان عليّ أن أرفض؟»

وضحك خالي من كلّ قلبه وقال :

«أرى جيّداً أنّه كان سيُغمى عليك لو انبغى أن تترك هذه البنت في مكانها من
الفناء الذي وجدتتها فيه .

- هل أستطيع على هذا أن احتفظ بها؟»

كانت نبرتي نبرة صبيّ متشبّث بدميته . ورفع خالي كنفه وأشار إلى الجملين بالاستعداد للرحيل . وبينما أنا ابتعد ناداني مرة جديدة وقال :

«أسبق أن لمست تلك البنت؟»

وأجبت خافضاً بصري :

- لا ، فقد نمنا في أثناء الطريق في العراء ، وكان الحارسان بالقرب مني .

وكان في انفراج شفّيته بعض المكر .

«لن تمسّها كذلك الآن لأنّ شهر رمضان سيكون قد بدأ عندما يقدر لنا أن نستعيد منامنا تحت أحد السقوف . وليس عليك أن تصوم ما دمت مسافراً ، بيد أن عليك أن تظهر امثالك للخالق بشكل آخر . فسوف تغطّي جاريثك من قمة رأسها إلى أخمص قدميها وتحظّر عليها أن تتعطر أو تتبرّج أو تمسّط شعرها ، أو حتّى أن تغتسل» .

ولم أحتجّ لأنني أدركت على الفور أن الإخلاص في الدين لم يكن السبب الوحيد لهذه الوصية . فكثيراً ما شوهدت المشاجرات في القوافل لوجود جارية جميلة ، وكان خالي يريد تجنب كلّ غواية وكلّ تصرف استفزازي مهما كان الثمن .

وقادتنا المرحلة التالية إلى واحتي «توات» و«غرارة» وهما رأساً حطّ سير القوافل الصحراوية . وبالفعل فإنّ التجار وغيرهم من المسافرين ينتظرون في ذلك المكان للانطلاق معاً .

وكان كثير من التجار اليهود قد أقاموا في هاتين الواحيتين ، بيد أنهم وقعوا ضحية اضطهاد عجيب . ففي العام الذي سقطت فيه غرناطة بالذات ، وكان في الوقت نفسه عام طرد اليهود الإسبان ، حضر أحد وعظّم تلمسان إلى فاس محرّضاً المسلمين على إبادة يهود المدينة . وما إن علم الملك بأمر هذا الداعية إلى الشغب حتّى أمر بطرده . ولجأ هذا إلى واحتي «توات» و«غرارة» ونجح في إهاجة الناس على اليهود؛ ولقد ذبحوا عن بكرة أبيهم تقريباً ونهب أرزاقهم .

في تلك الناحية كثير من الأراضي المفلوحة ، بيد أنها يابسة لأن ريمها لا يتسنى

إلا بمياه الآبار، وهذه أيضاً ضئيلة الموارد، ولذا يستخدم الأهالي طريقة غير مألوفة لإخصاب الأرض. فإذا مرّ بهم زائر دَعَوهُ للإقامة عندهم من دون مقابل، غير أنهم يأخذون روث المطايا ويُفهمون الناس أنهم يُهينونهم لو قضاوا حاجاتهم خارج محلّ إقامتهم. وهكذا يُضطرّ المسافرون إلى سدّ أنوفهم لدى مرورهم بالقرب من حقل محروث.

وهاتان الواحتان هما المحطة الأخيرة التي يستطيع المرء التزوّد فيها كما ينبغي بالمؤن قبل اجتياز الصحراء. فمناقع الماء تزداد تباعداً، ويلزم أكثر من أسبوعين لبلوغ أوّل مكان مأهول. وينبغي التأكيد أيضاً بأنه ليس في هذا المكان المعروف بـ «تغازة» سوى مناجم يُستخرج منها الملح. ويُحتفظ به إلى أن تحضر قافلة فتشتره لتبيعه في تومبكتو التي تعاني من نقصه على الدوام. وفي مقدور كلّ جمل أن يحمل أربع زكائب من الملح. وليس لمستخرجي الملح في «تغازة» من أطعمة غير ما يتلقونه من تومبكتو الواقعة على مسيرة عشرين يوماً، أو من غيرها من المدن التي تائها في البعد. وقد يحدث أن تتأخر قافلة عن موعدها في بعض الأحيان فتجد بعض الناس وقد هلكوا في أكواخهم من شدة الجوع.

لكنّ جحيم الصحراء الحقيقية تبدأ بعد تلك المحلّة. فلا يُعثر فيها إلا على عظام مبيضة لجمالٍ وبشرٍ قَصُوا عطشاً، والحيوان الوحيد الذي يُصادف بكثرة هائلة هو الأفاعي.

وفي أجذب جزء من تلك الصحراء ضريحان فوقهما شاهدة من الحجر نقش عليها كتابة مفادها أنه يرقد في هذا المكان رجلان كان أحدهما تاجراً غنياً مرّ من هنا وذاق عذاب العطش فاشترى من الآخر، وهو قائد قافلة، طاس ماء بعشرة آلاف قطعة ذهبية. ولكنّ ما إن خطا البائع والشاري بضع خطوات حتى سقطا كلاهما ميتين من العطش. والله وحده يقدر العيش والأرزاق!

إنني، حتّى لو كنت أكثر بلاغة وكان قلّمي أشدّ مطاوعة، فما كنت لأتمكّن من وصف ما يستشعره المرء عندما تلوح له أخيراً بعد أسابيع من السير المضني، وقد

تقرّحت عيناه من الرياح المتربة، وتورّم فمه من ماء ملح فاتر، والتهب جسده
وأتسخ وتثني وتلوى، أسوار تومبكتو. ومما لا ريب فيه أن جميع المدن جميلة عند
نهاية الصحراء، وجميع الواحات هي جنة عدن. غير أن الحياة لم تبدُ لي في أيّ
مكان بالتهلّل الذي بدت لي فيه في تومبكتو.

ولقد وصلنا إليها عند المغرب فاستقبلتنا ثلّة من الجنود أرسلهم صاحب المدينة
لهذا الغرض. وإذ كان الوقت متأخراً لاستقبالنا في القصر فقد اقتادونا إلى مساكن
أعدت لنا تبعاً لمقام كلّ منا. وقد أنزل خالي في بيت قريب من المسجد؛ وكان من
نصيبي فيه غرفة واسعة مظلة على ساحة مكتظة كانت قد بدأت تخلو. وإذ
استحمامت مساء وتعشيت استدعيت هبة بعد أن سمح لي خالي بذلك. وكانت
الساعة قد بلغت العاشرة على ما أظن عندما ترامت إلينا جلبة من الشارع: كانت
زمرة من الشبان قد اجتمعت وأخذت تعزف الموسيقى وترقص في الساحة وكان
عليّ أن ألفت عمّا قريب أولئك المنتزهين الذين سيعودون كلّ ليلة طوال مدّة
إقامتي. وفي تلك الليلة كان المشهد من الغرابة عندي بحيث تسمرت إلى النافذة.
وقد يكون أنّي كنت مرتبكاً من الإحساس بوجودي لأول مرة في غرفة مع امرأة
تخصّني.

ولقد أصلحتُ وعثاء السفر وكانت نديّة مبتسمة سافرة الوجه كما في يوم
إهدائها إليّ. واقتربت من النافذة وأخذت تنفّج مثلي على الراقصين وكتفها
ملتصقة بشكل خفي بكتفي. وكانت الليلة رطبة، بل باردة، ولكنّ وجهي كان
ملتهباً.

«أتريد أن أفعل مثلهم؟»

ومن غير أن تنتظر جوابي شرعت بالرقص بكل أجزاء جسدها، على مهل أوّل
الأمر، ثم أسرع فأسرع، ولكنّ من غير أن تفقد شيئاً من طلاوتها؛ كانت يداها
وشعرها ومناديلها تتطاير في الغرفة محمولة بما تحدّثه من نفحات، وكان ردفاها
يتحرّكان على وقع الموسيقى الزنجية، وترسم قدمها على الأرض زخارف
وتعرجات متنوّعة. وابتعدت عن النافذة لأسمح لضوء القمر بالتغلغل.

ولم يستعد الشارع هدوءه إلا في الواحدة صباحاً، وربما بعد ذلك. واستلقت راقصتي على الأرض منهوكة لاهثة. وأرخت ستارة النافذة ملتصقاً بعض الشجاعة في الظلام.

هبة. لو لم تمنحني أرض إفريقية غير هذه الهدية لاستحقت حنيني إلى الأبد.

وفي الصباح كانت ترسم على شفتي معشوقتي وهي نائمة الابتسامة التي كنت قد تحيلتها مرتسمة عليها طوال الليل، وتفوح منها رائحة العنبر نفسها. وانكبت على جبينها الأملس الوداع وأخذت ألقها بالوعود المتأثرة الصامتة. وترامى الضجيج مجدداً من النافذة، ممحكات بانعات، وصرير قش، وقعقة نحاس، وصيحات دواب، كما ترامت روائح حملتها ريح خفيفة رطبة كانت ترفع الستارة على استحياء. وشرعت أبت كل شيء حبي، وأبارك كل شيء، السماء والصحراء والطريق وتومبكتو وصاحب «أورزازات»، وحتى ذلك الألم الذي كان يتجاذب جسدي سراً كامتياز على رحلتي المضطربة والخرقاء إلى مجهولة.

وفتحت عينيها ثم أسرع في إغماضها وكأنما خشيت أن تقطع علي حلمي. وهمست:

«لن نفرق أبداً!»

وابتسمت وهي مرتابة. ووضعت شفتي فوق شفتيها. وانزلت يدي من جديد على بشرتها لإحياء ذكريات الليل. غير أن الباب كان قد قرع. وأجبت من غير أن أفتح. كان ذاك خادماً أرسله خالي لتذكيري بأن هناك من ينتظرنا في القصر. وكان علي أن أحضر في ثياب الاحتفالات الرسمية عملية تقديم الرسائل.

والاحتفالات الرسمية في بلاط تومبكتو محذدة بدقة وشديدة الأبهة. فعندما يحصل سفير على مقابلة مع صاحب المدينة يكون عليه أن يجثو أمامه وأن يلامس وجهه الأرض وأن يحنّ حفنة من التراب يعقر بها رأسه وكثفيه. وعلى رعايا هذا الأمير أن يفعلوا مثل ذلك، ولكن في المرة الأولى التي يخاطبونه فيها؛ وأما في المقابلات التالية فإن الاحتفال يغدو أكثر بساطة. وليس القصر كبيراً، بيد أن

مظهره شديد التناسق؛ وقد بناه منذ حوالي قرنين معمار أندلسي يُعرف بإسحق الغرناطي .

وعلى الرغم من كون صاحب تومبكتو من أتباع «الأسكيا» محمد توري ملك «غارو» ومالي وعدد آخر من النواحي فإنه شخصية مرموقة ومحترمة في جميع بلاد الزنج . وبتصرفه ثلاثة آلاف فارس وعدد لا يُحَدّ من المشاة المسلّحين بالأقواس والسهام المسمومة . وعندما ينتقل من مدينة إلى أخرى يركب الجمل هو ورجال حاشيته تصحبهم خيول يقودها باليد خدم مسلحون بالسيوف . وإذا التقوا أعداء وكان عليهم أن يقاتلوهم امتطوا صهوات جيادهم في حين يمسك الخدم بالجمال . وإذا انتصر الأمير أسر قومٍ من حاربوه كلّهم وبيعوا راشدين وأطفالاً؛ ولهذا يُعثر في بيوت المدينة، حتى وإن كانت متواضعة، على عدد كبير من الخدم العبيد ذكوراً وإناثاً . وبعض السادة يستخدمون هؤلاء الإماء لتصريف مختلف السلع في الأسواق . ويمكن التعرف عليهن بسهولة لأنهن نساء تومبكتو الوحيدات السوافر . وجزء كبير من التجارة البسيطة بين أيديهم، ولا سيّما الأغذية وما يتعلّق بها، وهذا عمل يدرّ المال بشكل استثنائي لأن سكان المدينة يعتنون بغذائهم جيداً: الحبوب والمواشي موجودة فيها بوفرة؛ واستهلاك اللبن والزبد عظيم القدر . والملح هو الوحيد النادر، ولذا فإن الأهالي بدلاً من أن يُدرّوه على الأطعمة يحتفظون في أيديهم بقطع منه يلحسونها من وقت إلى آخر بين لقمتين .

وغالباً ما ترى أهل المدينة أغنياء، ولا سيّما التجّار، وهم كُثُر في تومبكتو . ويحيطهم الأمير بالرعاية، حتى عندما لا يكونون من أهل البلاد، فقد زوّج اثنتين من بناته لتاجرين غربيين بسبب ثروتهما . وتُجلب إلى تومبكتو جميع أنواع السلع، وعلى الأخص أقمشة من أوروبا تُباع بأعلى كثيراً مما تُباع في فاس . ولا تستخدم في الصفقات النقود المسكوكة، بل قطع الذهب الصافي، وتدفع المبالغ الصغيرة بالغوري وهي أصداف تُجلب من فارس والهند .

كنت أقضي أيامي متجولاً في الأسواق زائراً المساجد جاهداً في الحديث إلى أي شخص يعرف بضع كلمات عربية، مسجلاً في المساء في غرفتي ما كنت قد شاهدته نهراً تحت نظرات هبة المُعجبة . وكان ينبغي أن تمكث قافلتنا أسبوعاً في

تومبكتو قبل التوجه إلى «غاوو» مقرّ «الأسكيا»، وهي آخر مرحلة في رحلتنا. ولكنّ خالي مرض كرامة أخرى بسبب مشقات السفر ولا ريب. وقد عاودته الحمى الرباعية عشية الارتحال بالذات. ولازمت سرير مرضه ليل نهار من جديد، وعلّي الاعتراف بأنني فقدت الأمل غير مرة في شفائه. وقد أرسل إليه صاحب المدينة طبيبه، وهو زنجي هرم ذو لحية بيضاء ملتفة حول وجهه كالطوق، وكان قد قرأ كتب المشاركة وكتب الأندلسيين. ووصف له بحية صارمة وجهاز عقاقير ليس في وسعي القول ما إذا كانت ناجعة ولا ما إذا لم تكن ضارة وحسب، لأنّ حال خالي ظلّت ثلاثة أسابيع لا تعرف تحسناً دائماً ولا تدهوراً قاصياً.

وحيث أقبلت نهاية شهر شوال عزم خالي على الرجوع إلى فاس بالرغم من ضعفه الشديد؛ فقد لاحت نذر حمارة القيظ التي كانت ستمنعنا من اجتياز الصحراء قبل العام القادم. وعندما حاولتُ نثيه عن عزمه أفهمني أنه لا يستطيع التغيب سنتين لمهمة كان ينبغي أن تُنجز في خمسة أشهر أو ستة، وأنه قد أنفق كل المال الذي أعطيه، وحتى ماله الخاص، وأنه مهما يكن من أمر فإنه إذا كان الله تعالى قد قدر أن يستدعيه إليه فإنه يفضل الموت بين أهله على الموت في أرض غريبة.

هل كانت أسبابه صالحة؟ لا أسمح لنفسي بالحكم عليها بعد هذه السنوات الطويلة. بيد أنني لا أستطيع مع ذلك أن أخفي أنّ العودة كانت عذاباً أليماً للقافلة بأسرها لأنّ خالي عجز منذ اليوم السابع عن التماسك على ظهر جملة. وقد كان لا يزال في مقدورنا أن نعود أدراجنا، لكنه منعنا من ذلك. ولم يكن أمامنا غير أن نحمله على حمة صُنعت كيفما اتفق وتناوب على حملها الحرس والخدم. وفاضت روحه قبل وصولنا إلى «تغازة» وانبعث دفنه في الرمال المحرقة على جانب الطريق، تغمده الله برحمته وأفسح له في جناته مشوى أورف ظللاً!

عام الوصية

٩١٢ هـ (٢٤ أيار «مايو» ١٥٠٦ م -

١٢ أيار «مايو» ١٥٠٧ م)

كنت قد غادرت فاس في أمتعة خالي، من غير ما مهمة سوى اقتفاء أثره والإصغاء إليه والحدو حدوه؛ وعدت إليها في ذلك العام مغلول اليدين بسفارة لم تكتمل وقافلة هائمة، وفوق ذلك بأجل امرأة قد تكون نشأت في صحراء نُميدية.

لكن أثقل ما كان ينبغي حمله هو رسالة من الرسائل. وكنت قد رأيت خالي كتبها يوم انطلاقنا من تومبكتو. فقد كان يستغل أدنى توقف فيسحب من حزامه دواة وقلماً وينكبّ متمهلاً على التحرير بيد جعلتها الحَمْى مرتجفة غير واثقة. وكان جميع رفاقنا يرقبون من بعيد من غير أن يزعمجوه قطّ معتمدين أنه كان يدون انطباعاته عن الرحلة لأجل السلطان. ولم اكتشف أمر الرسالة إلا بعد موته إذ كنت أفتش في أوراقه فعثرت عليها ملفوفة ومربوطة بخيط مذهّب، وكانت تبدأ بهذه الكلمات:

«بسم الله الرحمن الرحيم مالك يوم الدين الذي يبعث إلى من جاء أجلهم من الناس آيات في أبدانهم وعقولهم ليتهيأوا للقاء وجهه الكريم».

«إليك يا حسن، يا ابن اختي، يا بنيّ، أتوجّه، أنت الذي لن أورثه اسمي ولا ثروتي المتواضعة وإنما هواجسي وأخطائي ومطامحي غير المجدية».

كان أول ما خلفه لي القافلة. «مواردها بدأت تنضب، وطريقها لا يزال طويلاً وقائدها يموت، وسوف يتوجّه الناس إليك، ومنك سينتظرون في كلّ لحظة أعدل الأوامر وأحكم الآراء وأن تقودهم إلى برّ الأمان. وعليك أن تضحيّ بالغالي والرخيص كي تنتهي هذه الرحلة بما يليق».

وقد اقتضاني الأمر منذ الواحات الأولى أن أستبدل بثلاثة جمال معافاة ثلاثة مريضة، وأن أجدد المؤن، وأدفع أجرة اثنين من الأدلاء كانا سيتركاننا في سجلماسة، وأوزع بعض الدراهم على الجنود للمساعدة على تلطيف المرحلة وتهدئة الخواطر حتى بلوغ المرحلة التالية، وأمنح بعض الهدايا للأعيان الذين كانوا يُنزلوننا في ضيافتهم، كل ذلك من صندوق لم يكن فيه سوى ثمانية عشر ديناراً رصيد مبلغ استدانته خالي من تاجر أندلسي كان قد قطع معنا قسماً من الطريق في ذهابنا. ولقد كان بإمكانني أن أستدين بدوري، لكن استعجالنا الانطلاق من تومبكتو لم يُتيح لأي تاجر فرصة الانضمام إلينا، وعليه فقد كنت في إفلاسي أقل المسافرين فقراً. وكان عليّ أن أقرر بيع مختلف الهدايا التي تلقاها خالي في أثناء الرحلة، ولا سيما الخادمين اللذين منحه إياهما صاحب «اورزازات» فجلبا لنا أربعين ديناراً. ولكي أبقى هبة من غير أن أتعرض للسخرية فقد أشعت أنها كانت حاملاً مني، الأمر الذي لم أكن أعلم عنه شيئاً، غير أنه كان عليّ أن أبيع جوادها الشبيه بعلبة المجوهرات التي لا خير فيها علاوة على أن من شأنه عرقلة المسيرة عند اجتياز الصحراء.

وأما الإرث الثاني فقد قدمه إليّ خالي بشكل مثل من أمثال العصور القديمة: «سئلت أعرابية عن أحبّ أبنائها إليها فأجابت: المريض حتى يُشفى، والصغير حتى يكبر، والمسافر حتى يعود». وكنت أعلم انشغال خالي منذ زمن بمصر صغرى بناته فاطمة التي وُلدت في فاس قبل عام من وصولنا إليها وماتت أمها، الزوجة الوحيدة التي عرفها خالي في حياته، وهي تضعها. وقد ربّت اللفة جدتي، وبعد وفاتها أمي، لأن خالي لم يشأ قط أن يتزوج مرة ثانية خوفاً من جور امرأة الأب المحتمل على بناته. وإذا كان عمر فاطمة اثنتي عشرة سنة عند موت أبيها فقد بدت لي على الدوام هزيلة شرسة لا نضارة فيها. ولم يحدث أن دعاني خالي يوماً إلى الزواج منها، لكنني كنت أعرف أنها منذورة لي لأن منطلق الأشياء ينصّ على أن يتخذ ابن العم أو العمّة في كنفه إحدى بنات عمّه أو خاله، وقد تكون أجملهنّ في بعض الأحيان، ولكن كثيراً ما تكون التي يصعب زفافها إلى غريب.

وصدعت على هذا بالأمر لعلمي بأني أحقق أعز الأمانى على قلب خالي وهي عدم ترك أي من بناته بلا زوج. وأما بناته الأربع الأخريات فقد عمد فيهن إلى حُسن التدبير: نالت كُبراهن أوسع حجرة في البيت، ولم يكن لأخواتها من دور غير الاهتمام بها وكأتهن خادماها. وكان من حقها وحدها أن تحصل على ثياب جديدة وحلي إلى أن تزوجت فخلفتها التي بعدها في الحجرة الكبيرة وحظيت بما كانت تحظى به من إجلال؛ ولحقت بها الثنتان الباقيتان، ولم تشذ سوى فاطمة التي كانت لا تزال صغيرة ومخصصة لي.

«والإرث الثالث من حقك لأنه يتعلق بأملك التي تعيش منذ عشر سنوات تحت سقفي وترفض مثلي الزواج ثانية. فهي لم تعد شابة، وقد تكون سعادتها الوحيدة أن يرجع أبوك إليها. وإني لأعلم أن في نيته أن يفعل، لكن عيب عمده أنه يتسرع في القرارات الرديئة ويتريث في الحسنة. ولقد كتبت عنك أنني عشية سفرنا تخلّيت عن كل كبرياء وطرحته هذه المسألة على أبيك بلا مواربة. وقد أجبني بأنه كان يفكر في الأمر على الدوام مُذ تصالحنا. حتى إنه استفتى في ذلك فقيهاً فشرح له أنه ليس في وسعه استعادة مطلقته ما لم تكن قد تزوجت بعد طلاقها منه. وقد اقترحت أن تعقد سلمى على أحد المقربين منا فيتعهد بالألّا ينفذ النكاح ويطلقها على الأثر. ولقد قصصت عليه كذلك قصة ذلك الأمير الأندلسي الذي شاء استرجاع مطلقته ولم يكن يطبق رؤيتها ترتبط بأحد غيره، ولو صورياً. وقد سأل قاضياً من حاشيته فوجد له حلاً يليق بشاعر أكثر مما يليق بفقير، إذ كان على المرأة أن تذهب ليلاً إلى الشاطئ وتستلقي عليه عارية تاركة لأمواج البحر أن تغمر جسدها وكأنها تستلم إلى معانقة رجل. وبعدها يستطيع الأمير استرجاعها من غير أن يكون قد تعدى حرمة الشرع. وهكذا انتهى نقاشنا في غمرة من الضحك.

وبدلاً من أن أضحك ظللت بلا حراك وبدي متشبثة بالرسالة. فأمام عيني الجاحظتين كانت تمرّ صور بعيدة رأيت فيها نفسي ولدأ مع أمي وسارة في دكان الوراق المنجم الذي كانت كلماته تطنّ في أذني.

سوف ينقضي الموت، ثم أمواج البحر،

وعندئذ تعود المرأة وثمره أحشائها.

ولدى عودتي إلى فاس كان أبوي قد عادا زوجاً وزوجة، وقد عجبوا وخاب ظنهما لأنني لم أدهش للنبا. وقد تجنبت جاهداً أن أسألها بأي وسيلة استباحا المحظور.

وتابع خالي في رسالته يقول: «أترك بين يديك كذلك سفارتي بالرغم من أن أمرها لا يعود إليّ بل إلى السلطان الذي كلّفني إياها. وكنت أمل بفضلها أن أتقرب منه، لكن، وحقّ تربة أبي، لم يكن ذلك من أجل الخطوة والغنى بقدر ما هو من أجل خير أهلي. ألم يكن تدخلي لخير أختك سبب معرفتي بالأمير؟ وعليك أنت أيضاً أن تفكر فيها وأنت تتقرب من الملك. وعندما تمثل أمامه قدّم إليه الهدايا العائدة له، وانقل إليه بكلام متخير ثمار ملاحظاتك عن تومبكتو؛ وقل له على الأخص إن الممالك كثيرة في بلاد الزنج وأنها تتناحر باستمرار ولكنها لا تسعى أبداً إلى أبعده من ذلك. وحين تشعر بأنك استرعت انتباهه وكسبت تقديره حدّته عن مريم إلا إذا كان قد أطلق سراحها في اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور».

لم يكن سراحها قد أُطلق على ما أخبرني هارون الذي جاء يستقبلني لدى وصول القافلة عند أبواب القصر. فهنا كان عليّ أن أعيد المطايا إلى صاحب الجمال وأسلم الهدايا إلى رئيس الحرس بانتظار مقابلي العاهل. وإذا انتهت هذه الشكليات فقد رجعت إلى منزلي سيراً على قدمي وأنا أثّر مع هارون قاصداً عليه مرض خالي ثم موته، ناقلاً إليه ذكرياتي عن سجلهاسة وتومبكتو من غير أن أنسى هبة التي كانت تتبعني على بُعد خطوات لا بأس بها حاملة أمتعتي. ونقل إليّ «المنقب» آخر أصداء فاس: كان «استغفر الله» قد مات، ومات حمزة الخلاق، تغمّدهما الله برحمته! وكان أحمد الأعرج قد عاد إلى إقليمه جنوبي مراكش حيث ألف مع أخيه جيشاً صغيراً من المجاهدين لمقاتلة البرتغاليين.

وفي بيت خالي كانت النسوة قد اتشحن بالسواد إذ كان النبا الأليم قد وصل قبل القافلة بكثير. وكانت سلمى هناك، وقد سرّها قدومي وبادرت إلى إخباري همساً بعودتها إلى أبي. وقد ظلّت في بيت خالي كيلا تترك ابنته الصبية وحدها، وربما لكيلا تكون ووردة تحت سقف واحد. وكان عمّد يوزّع أوقاته بين ثلاثة مساكن، مسكني زوجته وبيته الريفّي الذي ازدهرت حوله مزروعاته.

ورأيت كذلك فاطمة التي لم يجعلها الجِدَادُ أقلَّ تجهماً ولا أكثر طراوة، وقد رمقتني بنظرة مكتئبة. وبحركة غريزية التفت لأرى إذا كانت هبة خلفي. ويا للإحساس العجيب، فقد ألفتني أردد حركات أبي محشوراً مثله بين امرأتين، جارية متهللة وابنة خال دامعة.

وانطلقت في اليوم التالي إلى القصر حيث حصلتُ على موعد للمقابلة في اليوم نفسه مراعاة للجِدَادِ الذي لفت أسرتي. ومع ذلك فإني لم أستقبل على حدة. فقد كان حول الملك رئيس الحرس وقاضي القضاة ورئيس الديوان والتشريفات وغيرهم من رجال الحاشية، وكلهم في ثياب أبهى من ثياب الملك نفسه، يتحدثون فيما بينهم مطمئنين، في حين كنت ألقى متأثراً بعبارات جهدت كل الجهد في صياغتها واختيارها. وكان السلطان يُصيخ السمع بين الفينة والفينة إلى بعض الهمسات وهو يوميء إليّ بأن عليّ ألا أتوقف عن الكلام. ونظراً للفائدة الجلي التي كانت عباراتي تثيرها فقد اختصرتها قدر المستطاع وصمت. وتنبه الملك إلى صمتي بعد بضعة همسات أخرى، وقال إنه معجب ببلاغتي، وكان ذلك وسيلة لتذكيري بصغر سني. وسألني أن أقدم تعازيه إليّ ذوي، وألقى إليّ ببضع كلمات عن خالي، «خادمننا الأمين»، وأنهى كلامه بالتمني بأن يراني في مناسبة أخرى. وكانت المقابلة قد انتهت. وظللت مع ذلك متشبهاً على الرغم من تقطيعه رئيس التشريفات:

«حبذا لو تكرمت عليّ بهنيهة أخرى، فإني أودّ أن اتقدم منك بالتماس».

وشرعت التحدث عن أختي بأسرع ما يمكن لافطاً كلمة «ظلم» مرتين أو ثلاثاً، مذكراً بالوعد المقطوع لخالي. وكان السلطان ينظر إلى جهة أخرى؛ وأيقنت أنه لم يكن يصغي إليّ؛ لكن كلمة منه كذبت يقيني: «المجدومة»؟

وهمس قاضي القضاة كلمة في أذنه ثم خاطبني مرتباً تربيتة خفيفة على كتفي:

«سوف أهتم بالأمر. لن يخيب رجاؤك. فلا تزعج جلالته بهذه القضية».

وقبلت يد السلطان وخرجت. وكان هارون بانتظارني خارج السياج.

«هل تدري أنك أئمت بحقّ شريعة الله؟»

كان قد أدرك منذ النظرة الأولى أنه هُزىء بي، وكان يعمل على تعزيتي بطريقته. وحشئت الخطى من غير أن أنبس بكلمة. وألحف قائلاً:

«لقد سمعتُ حديثاً شبيخاً جليلاً يقول إنَّ معظم ملوك عصرنا، إن لم يكونوا كلهم، يزدون مداخيلهم بمكوس تحرمها شريعة الله، وعليه فإنهم جميعاً لصوص كفرة، وبالتالي فإنَّ كلَّ من يأكل على موائدهم أو يقبل منهم أقلَّ الهدايا أو يوثق معهم الروابط العائلية شريك لهم في سرفاتهم وكفرهم».

ورافق جوابي حركة صادرة عن غضب:

«لقد كانت مثل هذه الأحاديث بداية لجميع الحروب التي مزقت دار الإسلام. وبعدُ فليطمئنْ بالك، فلم يدعني السلطان إلى مائدته، ولا أعطاني آية هدية، ولا عرض عليَّ أن أتزوج بنته. وعليه فلست سارقاً ولا كافراً، ولا خطر عليَّ من أن أحشر في نار جهنم. بيد أن أختي ما زالت عند المجذومين!»

وتجهّم وجه هارون وقال:

«أتذهب قريباً لرؤيتها؟»

- انتظرُ جواباً من قاضي القضاة. وأفضلُ أن أراها بعد ذلك، فلعله يكون عندي نبأ أرفه إليها».

وعدت خلال الأسابيع التي تلت إلى حضور بعض الحلقات في مدرسة «أبي إنانية» وسئلت أن أقصَّ خبر رحلتي أمام رفاقي، وأن أصف لهم على الأخصَّ بعض المساجد التي شاهدتها في بلاد الزنج، وبعض أضرحة الأولياء التي تمكّنت من زيارتها. وإذ كنت قد دوّنت ملاحظات دقيقة فقد استطعت أن أتكلّم طوال ساعتين، وأعجب الأستاذ بذلك أشدَّ الإعجاب. ودعاني إلى منزله وشجّعني على تسجيل ملاحظاتي كما فعل قبلي ابن بطوطة وغيره من كتّاب الرحلات الذين يماثلونه شهرة. ووعدت بأن أفعل إذا شاء الله ذلك.

وسألني الأستاذ كذلك إذا كنت آمل أن أعمل لأن أخاه مدير مارستان المدينة يبحث عن تعيين طالب شابّ بصفة أمين بمرتب شهري قدره ثلاثة دنانير. وقبلت

بحماسة لأن المستشفيات والمصححات طالما أثارت فضولي؛ واتَّفَق على أن أبدأ العمل في الحريف.

وتركت شهرين ينقضيان قبل العودة إلى القصر، إذ لم أكن راغباً في إشعار قاضي القضاة بالمضايقة. وبدا لطيفاً للغاية وقال لي إنه ينتظري منذ أسابيع، وقدّم إليّ شراباً وحدثني دامع العين عن خالي الفقيّد، ثم أخبرني بنبرة تقرب من المفاخرة بأنّه حصل على أن تفحص أربع نساء محلّقات أختي من جديد.

«تعلم جيداً أيها الفتى أنّ سلطاننا على عظمته ونفوذه لا يمكن أن يسمح بأن يدخل قلب المدينة شخص يُرتاب في أنّه يحمل مرضاً يمثل هذه الفظاعة. وإذا أعلن أنّ أختك سليمة خالية من الطفح فإن رسالة من الملك سوف تخرجها من «الحيّ» في اليوم نفسه».

وبدا لي الحلّ معقولاً وقرّرت أن أنقله إلى مريم بأقصى ما يمكن من التطمين لأجل إحياء الأمل في نفسها. وسألني هارون عمّا إذا كان يقدر أن يرافقتني فأجبت بلا تردّد أنّ نعم، وذلك على الرغم من دهشتي.

وقالت مريم إنّها سعيدة لرؤيتي بصحة جيدة بعد رحلة بمثل هذا الطول، بيد أنّها بدت لي أشدّ بعداً ممّا كانت في لقائنا الأخير، وشاحبة شحوب الموت. وتفوّست فيها قائلاً:

«وأنتِ كيف تشعرين بنفسك؟

- خيراً من معظم جيراني.

- كنت أمل أن تكوني قد خرجت لدى رجوعي.

- كان هنا عمل كثير عليّ أن أقوم به».

كانت حدّة السخرية المريرة التي أغاظتني كثيراً قبل عامين قد زادت.

«أتذكر قسماً؟

- إذا وفيت به، إذا لم تتزوجي، فلن يكون لي أولاد ولا أبناء أخت».

كان هارون خلفي يتطلع تارة إلى مجرى الماء وطوراً إلى الحارس. ولم يوجه إلى أختي غير تحية خجولة عابرة، وكان يُشعر بأنه لم يكن يُعير حديثنا أي اهتمام. وبغته تنحنح بشدة ونظر بلا موارد في عيني مريم وقال:

«إذا تصرفت على هذه الشاكلة واستسلمت لليأس خرجت من هنا مجنونة يجب تقيدها ولم يكن لتخليصك أي معنى. لقد أتى أخوك يزف إليك بشرى هي ثمرة مساعيه لدى البلاط».

وهدأت لتوها عند سماع هذه الكلمات وأصغت إلى شروحي من غير أن تُخرجني بالمزاح ولا بالتكشيرات الساخرة، وقالت:

«متى ينبغي أن يفحصني؟»

- عمّا قريب جداً. كوني مستعدة على الدوام.

- ما زلت سليمة معافاة. لن يعثرن على أقل طفح.

- لست ارتاب في ذلك. لسوف يسير كل شيء على ما يرام!»

ورميت هارون بنظرة متضرعة ونحن نغادر ذلك المكان اللعين وقلت: «أنظن أنها ستنجو؟»

وبدلاً من أن يجيب تابع سيرة ناظراً إلى الأرض بسهم عدة دقائق. وفجأة تسمّر مكانه وألصق راحتيه بوجهه ثم أزاحها محتفظاً بعينه مغمضتين وقال:

«حسن، لقد قرّ عزمي. أريد أن تكون مريم زوجتي، أم أولادي».

عام المارستان

٩١٣ هـ (١٣ أيار «مايو» ١٥٠٧ م -
أول أيار «مايو» ١٥٠٨ م)

في مارستان فاس ستة ممرضين ومصايحي واثنا عشر حارساً وطبّاحان وزبّالان وبستاني ومدير ومساعد وثلاثة أمناء، وجميعهم يتقاضون رواتب مجزية، كما أنّ فيه عدداً كبيراً من المرضى. ولكن يشهد الله أن ليس فيه طبيب واحد. وعندما يحضر مريض يوضع في حجرة بصحبة من يقوم على خدمته، من غير أن يُغديق عليه مع ذلك أدنى عناية، إلى أن يُشفى أو يموت.

وجميع المرضى الذين يأتون إليه غرباء لأن الفاسيين يفضلون أن يُعتنى بهم في منازلهم. وأهل المدينة الوحيدون الموجودون فيه هم المجانين الذين خُصّصت لهم عدّة غرف. ولكيلا يرتكبوا بعض الإساءات تبقى أرجلهم مقيدة على الدوام. ويقوم جناحهم في دهليز طويل مصفّح الجنبات بعوارض سميكة، ولا يجرؤ على الاقتراب منهم إلا حراس مجربون. والذي يقدّم لهم الطعام مسلّح بعصا غليظة، وعندما يرى أحدهم هائجاً ينهال عليه ضرباً فيهدّته أو يصرعه.

وعندما بدأت العمل في المارستان حُدّرت تحذيراً قاطعاً من هؤلاء المنكودين. فعليّ ألاّ أوجه إليهم كلمة قطّ، ولا حتّى أن أشعرهم بوجودي. ومع ذلك كان بعضهم يثيرون شفقتي، ولا سيّما رجل مسنّ هزيل نصف أصلع كان يقضي يومه في الصلاة والدعاء ويقبل أبناءه بحنان عندما يحضرون لزيارته.

وذات مساء تأخّرت في مكنتي لإعادة نسخ صفحات من سجل كنت قد أرقت عليها سهواً قدحاً من الشراب. ولقد نظّرت، وأنا ذاهب، إلى ذلك الرجل. كان يبكي مرتفقاً نافذة غرفته الضيقة. وإذ رأني غطّي عينيه فتقدمت منه خطوة فأخذ يقصّ عليّ بأهدأ نبرة أنّه كان تاجراً يخاف الله وأنه حُجر عليه بوشاية من منافس

حسود، وأن أسرتي لم تتمكّن من إطلاق سراحه لشدة نفوذ خصمه وقربه من القصر.

لم يكن من الممكن ألا أتأثر لحكايته، وتقدّمت منه أكثر ناطقاً بكلام يشدّ من عزيمته، واعدت بالاستسلام من غدٍ عن أمره من المدير. وإذا أصبحت قريباً جداً منه وثب عليّ فجأة وأمسك بتلابيبي بيد وأخذ يمزّغ وجهي بالأخرى بالقذارة مرسلًا ضحكات مجنونة. وقد لامني الحراس الذين هرعوا لنجدتي أشد اللوم على حماقتي.

ومن حُسن الحظّ جداً أن الحتام القريب من المارستان كان فاتحاً أبوابه للرجال في تلك الساعة. وقد قضيت فيه ساعة من الزمن أدعك جسدي ووجهي، ثم انطلقت إلى بيت هارون وكنت لا أزال مضطرباً.

«لقد فهمتُ أخيراً بسبب مجنون!»

كانت كلماتي مقطّعة مشوشة.

«لقد فهمت لماذا تراوح جميع مساعينا مكانها، ولماذا كانت نبرة قاضي القضاة وهو يستقبلني متكلف اللطف وابتسامته شديدة التصنّع، ولماذا يقطع لي باستمرارٍ وعوداً لا يفي بها.»

وظلّ صديقي على هدوئه فالتقطت أنفاسي وقلت:

«في هذه المدينة آلاف من الناس يتدخلون بلا هوادة لخير قريب يزعمون براءته ويكون أحياناً أشدّ القتلة ضراوة، أو يزعمون صحة عقله ويكون غالباً شبيهاً بالمجنون الذي خدعني، قريب يزعمون شفاءه من الجذام وقد يكون المرض نهشه حتى القلب. فكيف يمكن التمييز؟»

وتوقّعت أن يعارضني «المنقّب» على مألوف عاداته، لكنّه لم يفعل شيئاً من هذا، بل كان صامتاً متفكراً مغضن الجبين، وجاء جوابه مصحوباً بسؤال:
«ما تقوله صحيح. ماذا ينبغي أن نفعل الآن؟».

إنه لغريب ردّ فعله. فعندما لم تكن مريم عنده سوى أخت صديق لم يكن

يتردد في المبادرة متجاوزاً بلبلي مستنجداً مثلاً بـ «أستغفر الله» ومُحدِثاً بذلك فضيحة مُحكّمة . وها هوذا الآن يبدو أقلّ ثقة بنفسه في الوقت الذي هو فيه المعنيّ المباشر من بيننا بمصير السجينة . والحقّ أنه مُدّ أعلمني هارون بنيتّه الزواج من أختي لم يُضع الوقت . فقد ترقّب رجوع أبي من الريف فقام بزيارته مرتدياً الثياب التي يرتديها يوم الجمعة وتقدّم منه رسمياً بطلب يد مريم . ولقد كان من شأن محمّد الوزان في غير هذه الظروف أن يقدر أن حمّالاً لا يملك من مقومات الغنى غير سُمعة جماعته الطيبة ليس كفؤاً لابنته . بيد أن مريم كانت في التاسعة عشرة من عمرها، وهو العمر الذي لم تزف فيه بعدُ من جميع نساء فاس سوى بعض الجوارى وبعض المومسات . ولقد كان هارون مخلصاً، ولولا أن تمنع أبي عزّته لكان قبل يديّ هذا الخطيب البطل . فبعد أيام عقد كاتبان بالعدل كتاب القران وفيه يدفع والد العروس إلى زوج ابنته المرتقب مئة دينار . وفي اليوم التالي ذهبت وردة تزفّ النبا إلى مريم التي عادت منذ الحجر عليها إلّ الأمل والابتسام .

بيد أن هارون هو الذي فقّد بين ليلة وضحاها كلّ مَرَح وكلّ بِشْر وكلّ كياسة . فقد غدا جبينه ينمّ باستمرار عن قلقه وهواجسه . وفي ذلك المساء علمت أخيراً ما كان يجول في رأس صديقي . لقد كان يلحّ على نيل رأبي .

«ليس في وسعنا على كل حال أن نترك مريم إلى ما شاء الله عند المجذومين! وإذ لم تنفع مساعينا شيئاً حتى الآن فماذا تقترح أن نفعل في الوقت الحاضر؟»
لم أكن أعرف ما ينبغي فعله، ولذا كان جوابي حافلاً بالسخط:

«في كلّ مرّة أفكّر فيها بها، هي الضحية منذ أربع سنوات لأفحش الظلم، تراودني رغبة في الإمساك بخناق الزرواليّ وخنقه هو وشريكه في المؤامرة شيخ المجذومين».

وأرقت القول بالحركة . لكنّ لم يبدُ على هارون قطّ أنه تأثر، واكتفى بالقول:
«حَجْرُك كبير جداً!» .

ولم أدرك مغزى قوله فكّرر بشيء من نفاذ الصبر في الصوت:

«أقول لك إن الحجر كبير جداً، كبير جداً جداً. فعندما أكون في الشارع مع غيري من الخماليين فكثيراً ما أرى أناساً يصرخون ويتشائمون ويحدثون تجمّعا. وقد يلتقط أحدهم أحيانا حجراً فإذا كان الحجر بحجم الخوخة أو الإجاصة وجب الإمساك بيد ذلك الرجل لأنه يوشك أن يجرح خصمه جرحاً بليغاً. وأما إذا التقط بالمقابل حجراً بحجم البطيخة فإنه يكون في وسع التجمع الابتعاد مطمئنين لأنه ليس في نية هذا الرجل على الإطلاق أن يقذفه؛ إنه في حاجة فقط إلى أن يشعر بثقل ما في يديه العاريتين. والتهديدُ بخنق الزروالي وشيخ المجدومين حجراً بحجم مثذنة، ولو كنت في الشارع لمضيت وأنا أهرز كتفي».

ومن غير أن يلاحظ هارون احمرار وجهي من الارتباك تابع مباعداً بين كلماته وكأنه يمرر كلاً منها في مصفاة راشحة:

«ينبغي إيجاد وسيلة لإبعاد مريم من سير أن يتمكنوا من استعادتها ومن دون أن يزعبوا أسرتهما. ولن تستطيع بالطبع العيش في فاس لبضع سنوات على الأقل، وإذا كان في نيتي أن أتزوجها فيجب أن أهرب معها».

كنت أعرفه منذ ما يكفي من الوقت لأعلم أن خطة كانت في سبيلها إلى الإنضاج في خَلده، وأنه لن يكشفها لي قبل أن يحين أوانها. ولم أكن في المقابل قادراً على فهم ما يدفعه إلى العمل على هذا النحو. وكان لزاماً عليّ باسم صداقتنا أن أفتحه بذلك.

«كيف يمكنك أن تترك هكذا مختاراً مدينتك وأسرتك وجماعتك وتذهب للعيش وكأنك مطرود أو مسيء يهرب من جبل إلى جبل خوفاً من أن يُعاد مُصَفِّداً، وكل ذلك من أجل فتاة لم تخاطبها سوى مرة واحدة في حياتك؟»

وألقي «المنقَّب» براحة يده اليمنى على قَمّة رأسي كما كان يفعل عندما كنا أصغر سناً قبل أن يكشف لي سراً من الأسرار وقال:

«هذا أمر لا أستطيع أن أخبرك به قبل الأوان، وبدوّي أن تُقسِم لي اليوم بالذات على ألا تُشعرك بالمهانة».

وأقسمت خوفاً مما هو أسوأ، من بعض العار يلحق بعائلي. كنا جالسين في جنيّة بيته. وأسند «المنقّب» ظهره إلى الفسقية الحجرية التي لم يكن الماء يجري فيها ذلك اليوم وقال:

«أتذكر يوم دخلتُ بالخداع حمام النساء؟»

كانت سبع سنوات أو ثمانٍ قد انقضت على ما أظنّ، بيد أنّي كنت لا أزال أذكر أدنى غمزة وأقلّ خفقة قلب. وأومأت إيجاباً بابتسامة.

«تذكر إذن أنّي رفضت رفضاً باتاً في ذلك الوقت، على الرغم من إلحاحك، أن أقول لك ما رأيت. كنت قد دخلت مشتتلاً مثزراً وقد ربطت تحته حول شعري مندبلاً وانتعلت قبقاباً من الخشب وتلفّعت بمنشفة. وكنت يومئذ في الحادية عشرة وليس في جسمي شعرة تشي بالجنس الذي أنتمي إليه. وبينما أنا أجول في الداخل عثرت على وردة ومريم. والتقت عينا هذه عينيّ وفهمت على الأثر أنها عرفتني. فقد طالما رأتنا معاً، وما كان يمكن أن تخطيء. وتلاشيت متوقّفاً أن أسمع زعقة، أن ألقى الويل، أن تنهال عليّ الضربات. لكنّ أختك لم تصرخ، وإنما تناولت منشفتها وأسرعت تلفّ بها جسدها في حين ارتسمت على شفثيها ابتسامة مأكرة ثم جرّت أمها متذرّعة بأمر ما إلى حجرة أخرى. وأسرعت بالخروج غير مصدّق أبداً بالنجاة. وتأسّفت في ذلك اليوم على أن لم تكن مريم أختي؛ وما هي إلا ثلاثة أعوام فقط حتى سعدت بأنّي لست سوى صديق أخيها، وبأنّ في وسعي أن أحلم بها كما يحلم رجل بامرأة. ثم بدأت المصائب تنهال على الفتاة ذات العينين الصامتين».

واربّد وجه «المنقّب» الذي كان مشرقاً طوال الوقت إذ لفظ العبارة الأخيرة، قبل أن يعود إلى الانبساط وهو يقول:

«إنّه حتى لو تنكّر لها العالم بأسره لحالت ذكرى الحمام بيني وبين التخلي عنها. وهي اليوم زوجتي وسوف أنقذها كما أنقذتني ونجعل الأرض التي ستفتح لنا ذراعها نخوضر».

ومرّ هارون بعد أسبوعٍ لوداعي، وكان كلّ متاعه بذرّتين من صوف انتفخت
إحداهما بذهب البائنة واحتوت الأخرى على مذكراته المتواضعة.

«أصغرهما مخصّصة لحارس «الحَيّ» لكي يغيض النظر عندما تهرب مريم؛
وأكبرهما لنا، ما يكفي للعيش مئة سنة بعون الله تعالى».

كان عليهما الذهاب إلى الريف على أمل الإقامة بعض الوقت في جبل بني الوليد
أبسل رجال المملكة وأجودهم. كما أنهم واسعو الغنى لأنهم، على الرغم من
خصب أرضهم، يأبون دفع درهم واحدٍ مكساً أو ضريبة. ومن يُطرد ظلماً من
فاس يعرف أن في مقدوره أن يجد عندهم الملاذ والقري، وحتى أن يُحمّل عنه
جزء من نفقاته، وأنه إذا جدّ خصومه في ملاحقته فإن أهل الجبل سوف
يواجهونهم.

وضممتُ هارون بقوة إلى صدري، لكنه سرعان ما تخلّص مني لفرط ما كان
متشوّقاً إلى اكتشاف ما يجنّبه له القدر.

عام العروس

٩١٤ هـ (٢ أيار «مايو» ١٥٠٨ م -

٢٠ نيسان «إبريل» ١٥٠٩ م)

في ذلك العام احتفل بأول زواج لي، ذلك الذي تمناه خالي وهو يموت ورغبت فيه أمي التي كان همها أن تفصلني عن هبة، وكانت قد حظيت بأفضل مداعباتي على الرغم من أنها لم تهني صبيّاً ولا بنتاً طوال ثلاثة أعوام من الغرام. وكان عليّ كما درجت العادة أن أضع قدمي فوق قدم فاطمة بنت خالي وزوجي في حين كانت تدخل غرفة الزوجية، بينما كانت امرأة من الجوار تنتظر على عتبة الباب الخرقة المبلّلة بالدم التي سوف تنشرها ضاحكة ظافرة أمام أعين المدعويين أمارة على أن العروس كانت عذراء، وأن الزوج ليس عنيّاً، وأنه يمكن أن تبدأ الاحتفالات.

وبدت لي هذه الأمور وكأنها لا تنتهي. فمنذ الصباح اجتمعت على فاطمة اللبسات والماشطات والناثفات، ومن بينهنّ سارة التي لا يحلّ أحد محلّها، يطلين خديها بالأحمر ويخضبن يديها وقدميها بالحناء السوداء، ويرسمن بين حاجبيها مثلثاً جميلاً، وتحت شفتها السفلى مثلثاً آخر ممطوطاً كورقة الزيتون. وإذا انتهى تزوينها وتبريجها على هذا النحو فقد أجلست فوق منصّة ليتمكّن كل إنسان من إبداء إعجابه بها في حين قدّم الطعام إلى النساء اللاتي برّجنها. ولقد اجتمع منذ العصر الأصدقاء والأقارب أمام منزل خالي. وانتهى الأمر بالعروس إلى أن خرجت مضطربة أكثر ممّا هي مثيرة، وكانت على وشك التعرّ بأثوابها عند كل خطوة. ثمّ صعدت إلى نوع من صندوق خشبيّ مئمن السطوح مفروش الداخيل بالأقمشة الحريرية والديباج المقصّب فحملة أربعة حمّالين فتيان من أصدقاء هارون فوق رؤوسهم. وتحركّ الموكب بعد ذلك تتقدّمه الزامير والدفوف والطبلات وعدد كبير من المشاعل رفعها مستخدمو المارستان ورفاقي القدامى في المدرسة العالية. وقد

مشى هؤلاء إلى جانبي أمام صندوق العروس؛ وكان وراءه أزواج أخواتها الأربع .
مشينا أولاً في الأسواق صاخبين - وكانت الدكاكين قد أغلقت أبوابها والشوارع
قد بدأت تفرغ - قبل أن نتوقف أمام المسجد الجامع حيث رثنا بعض الأصدقاء
بماء الورد . وعند هذا الحد من المسيرة همس لي أكبر عدلائي، وكان قد حلّ محلّ
خالي في الاحتفال، أن حان لي أن أرحل . وعانقته قبل أن أهرع إلى بيت أبي
حيث كانت قد جهّزت غرفة وزيّنت لليلة الدخلة . وكان عليّ أن انتظر فيها .

ولحق بي الموكب بعد ساعة . وكان قد عُهد إلى سلمى أُمي بفاطمة، وهي التي
قادتني بيدها إلى عتبة الغرفة مذكرة إياي بغمرة من عينها قبل أن تغادرنا بما
يُفترض فيّ أن أفعل قبل كل شيء إذا كنت أنوي فرض سلطتي فحلاً من الوهلة
الأولى . وعليه فقد مشيت بكلّ ثقلي على قدم زوجتي التي كان يحميها والحقّ يقال
قبقاب، ثم أغلق الباب . وفي الخارج كانت تتعالى صيحات وضحكات بعضها
قريب جداً، كما كانت تتعالى قعقة قدور، إذ كان ينبغي تحضير أول وجبة من
وجبات العرس في الوقت الذي كان يتم فيه تنفيذ الزواج .

كانت فاطمة اللابسة الأحمر والذهبي أمام ناظريّ شاحبة على الرغم من
التطرية جامدة متحجرة محتفة جاهدة في التبسّم وعيناها تدعوان إلى الرثاء إلى حدّ
أنّي جذبتها إليّ بشكل عفوي لأجل تهدئة خاطرها أكثر ممّا لحرصها . ودفنت رأسها
في صدرها وانخرطت في البكاء . وضممتها لإسكاتها خوفاً من أن يسمعها أحد .
والتصقت بي خانقة دموعها شيئاً فشيئاً، بيد أن جسدها كان يرتعد، ثم ما لبثت
أن انهارت على مهل . وسرعان ما لم تعد أكثر من حزمة حطب تمسك بها ذراعاي
بشكل أخرق .

وكان أصدقائي قد انبأوني بأنّ كثيراً من البنات يجهدن ليلة عرسهنّ في التظاهر
بأنهنّ أكثر جهلاً ممّا هنّ في الواقع، وأشدّ دهشة واستيحاشاً، غير أن أحداً لم
يتحدّث عن الإغماء . ومن جهة ثانية فإنّي كثيراً ما سمعتهم يقولون في المارستان
إنّ الأراامل والنساء المهجورات من زمن طويل يعانين من غيبوبات متكرّرة يعزوها
بعضهم إلى الهستيريا؛ لكنّ لم أسمع بذلك عن بنات في الخامسة عشرة، ولا

سمعت بأنه حدث وهنّ بين أذرع أزواجهن . وهزرتُ فاطمة وحاولت رفعها فانكفأ رأسها إلى الخلف وظلّت عيناها مغمضتين وشفّتاها منفرجتين . وبدأت ارتجف بدوري ، وأعترف بأنّ دافع الخوف على بنت خالي كان أقلّ من دافع الخوف ممّا يمكن أن يلحق بي من هزة يتعدّر محوه طوال حياتي لو فتحت الباب فجأة وأنا أصرخ : «النجدة! لقد اغمي على العروس!»

لم يكن أمامي ما أفعله خيراً من جرّ بنت خالي إلى الفراش وإنامتها على ظهرها ونزع قبقابها وحلّ منديلها المربوط أسفل ذقنها . وكانت تُشعر بأنها نائمة وحسب إذ عاد تنفّسها طبيعياً بعد أن كان متقطّعا . وجلست بقربها أرسم خطأ للهرب . وكان في وسعي أن أجرح اصبعي بدبوس وألطح الخرقة بالدم وأتناسى ليلة الدخلة إلى اليوم التالي . ولكن هل كنت سأعرف أن أبلل القماشة البيضاء بالطريقة التي ينبغي أن تكون عليها من غير أن تكتشف الجارة التي كانت شاهدة على عدد لا يحصى من عمليات فضّ البكارة خديعتي؟ وأجلّت في فاطمة نظرات يائسة متضرّعة شاكية . وكان شعرها المحمّر قد انتشر على الوسادة . وخلّلت فيه يدي وقبضت على خصلة منه ثم أفلتها متهدّداً قبل أن أربّت على خدّها أسرع فأسرّع وأقسى فأقسى . وارتسمت ابتسامة على شفّتيها ، لكنّها لم تصحّ من نومها . وهزرت كتفها بحدّة أخذ السرير معها يموج بنا . ولم يظهر أنها شعرت بالأمر؛ حتى ابتسامتها لم تمح .

وإذ خارت قواي فقد تمدّدت وتمطّيت ولا مست أصابعي الشمعدان . وفكرت برهة قصيرة في إطفائه والنوم بدوري وليكنّ ما يكون . ولكنني سمعت في اللحظة التي تلت حكاً على الباب متسرّعا طارئا أو متخيلاً وحسبُ يذكّرني بما عليّ من واجب . ويدت لي الأصوات في الخارج بغتة أكثر استعجالاً وأشدّ إلحاحاً . ولم أكن أعلم كم من الوقت أمضيت في غرفة الكابوس هذه . ومن جديد وضعت يدي على فاطمة متلمّسا دقات قلبها وأغمضت عيني . وأعاد عبق عنبر خفيف إلى مسمعي الموسيقى الزنجية في تومبكتو . وكانت هبة أمامي في ضوء القمر وقد انتهت رقصتها وانفرج ذراعها ، وكانت بشرتها ملساء تزلق اليد فوقها . وكانت معطرة بعطر العنبر البحري . وارتجفت شفّتي بحرف الباء من اسمها وردّدت

ذراعي حركات المصّر نفسها، واستعداد جسدي ما كان قد عرفه من تيه وضياح،
كما استعداد الصّوى ذاتها والملاذات عينها.

وغدت فاطمة امرأة في غيبوتها. وفتحت الباب فتلقفت الجارة الخرقة الشمينّة
وأطلقت الزغاريد وتحرك المدعوون وارتفع صوت الموسيقى وأخذت الأرض ترتجّ
تحت أقدام الراقصين. ولم يلبثوا أن جاءوا يدعوني للانضمام بأسرع ما يمكن إلى
الحفل. والحوا، فأمامي متسع من الوقت لرؤية زوجتي، إذ تقضي التقاليد بأنّه
عليّ ألا أغادر البيت قبل سبعة أيام.

وعندما استيقظتُ كانت العروس واقفة في صحن البيت وظهرها مسند إلى
الفسقية، وكانت أمي مفرصة بلا مبالاة على خطوتين منها منهمة في تلميع صينية
كبيرة من النحاس قبل وجبة العرس الثانية التي ستقدم هذا المساء وتدعى إليها
حسب المألوف النساء وحدهن، وترقص في أثنائها الخوادم وحدهن. وكانت
سلمى تتكلم بصوت خافت وجبينها ينمّ عن قلق. وإذا اقتربت فقد صمتت بغيته
وازداد دعكها بعض النشاط. والتفتت فاطمة حينئذٍ فرأيتني. وابتسمت ابتسامة
حبور كما لو كنت قد قضينا أروع ليالي الغرام. كانت حافية ترتدي الثوب الذي
كانت ترتديه في العشيّة وقد تجعد قليلاً، وكانت زينتها هي إياها وإن أقل زهواً.
وأبرزت بجلاء تكشيرة متقرّزة قبل أن أذهب وأجلس في غرفة الاستقبال بجانب
أبي الذي ضمّني باعتزاز إليه وطلب بصوت مرتفع سلّة فاكهة. وأحضرتها لنا أمي
وقالت لي وهي تضعها هامسة بنبرة عتاب:

«اصبر على هذه البنت المسكينة!»

وفي السهرة أبلمتُ إلمامة قصيرة بحفلة النساء، بما يكفي من الوقت للمح هبة
التي كنت مفطوماً عنها مدّة أسبوعٍ آخر. وعندما خرجت لحقت بي فاطمة إلى
الغرفة بتحريض من أمي ولا شك. وتناولت يدي وغمرتها بالقبلات.
«لم أرقُ لك في الليلة الماضية.»

ومن غير أن أجيب تمددتُ على الناحة اليسرى من السرير وأغمضت عيني.
وانحنحت فوقي وقالت بصوت متمم متردد يكاد يسمع:

«ألا تريد أن تزور أختي الصغيرة؟»

وأجفلت غير مصدق. لقد كانت هبة قد نقلت إليّ بتهكم هذه العبارة التي تستخدمها بعض نساء هذا البلد للإشارة إلى مفاتهن. ولكن كيف لي أن انتظر ذلك من فاطمة التي كان قد أغمي عليها أمس بالذات لمجرد رؤيتها غرفة عرسها؟ واستدرتُ نحوها. كانت يداها مبسوطتين على وجهها.

«من علمك أن تقولي هذا؟»

كانت خجلى خائفة تبكي. وطمأنتها بضحكة طويلة وضممتها إليّ. لقد نالت المغفرة.

وانتهى الأسبوع بمأدبة تليق لإقامتها من عدلاني أربعة خراف كاملة وبعض برنيات الحلوى. وفي اليوم التالي خرجت أخيراً من البيت وتوجهت رأساً إلى السوق لإنجاز آخر عمل في الاحتفال بالزواج الذي لا آخر له: شراء بعض السمكات وإعطاؤها إلى أمي لتلقي بها عند قدمي العروس متمنية لها الصحة والإنجاب.

قبل انتهاء ذلك العام كانت فاطمة حبلى، وشعرت على الفور بالحاجة إلى إيجاد عمل يوفر لي دخلاً خيراً من دخل المارستان. وإذ كانت أمي ابنة وراق فقد الحت عليّ أن أمارس التجارة، الأمر الذي لم يكن يروق لي قط نظراً لحبي للأسفار. وزيت نصيحتها بنبوء جعلتني في حينها أبتسم:

«كثير من الناس يكتشفون الدنيا الواسعة وهم يسعون إلى الغنى وحسب. أما أنت يا بني فسوف تعثر على كنز وأنت تسعى إلى التعرف على الدنيا.»

عام الشروة

٩١٥ هـ (٢١ نيسان «إبريل» ١٥٠٩ م -

٩ نيسان «إبريل» ١٥١٠ م)

أنجبت لي فاطمة بنتاً في أيام الصيف الأخيرة فأسميتها «ثروة» لأن ذلك العام كان قد شهد بداية ازدهاري . وإذا كان هذا الازدهار قصير الأمد فليس في وسعي الشكوى لأنه أخذ مني كما أعطيته بمشيئة الله تعالى ؛ ولم أكن قد أسهمت فيه بغير جهلي وصلفي وحيي العامر للمغامرة .

كنت قد ذهبت قبل سلوك درب التجارة لزيارة السيد «توماسو دو مارينو» العجوز الجنوي الذي كنت قد تعرّفت إليه على طريق تومبكتو وكان أكثر التجار الأغراب المقيمين في فاس تجلّة لحكمته واستقامته . وكنت أريد أن أسأله النصح ، وربما طمحت إلى العمل بجانبه بعض الوقت ومرافقته في بعض الرحلات . وعلى الرغم من أنه كان على فراش المرض فقد استقبلني مُبدياً أعظم آيات الصداقة مستذكراً معي سيرة خالي وبعض ذكريات القافلة الأشدّ بهجة .

وأعرقه سبب زيارتي في تفكير طويل ؛ وبدا أنّ عينيه كانتا تروراني متقلتين من طاقة اللبد الخضراء إلى الحيتي المهندمة ، ثم إلى سترتي ذات الردين الفضايف المهيين ؛ وكان حاجباه الأبيضان يبدوان وكأنهما ميزان يزن الحسنات والسيئات ؛ ثم إنه ، وقد تجاوز تردده على ما يبدو ، عرض عليّ عرضاً ما كنت لأرجوه .

«لقد بعثت بك السساء إليّ أيها الصديق النبيل ، فقد وصلتني للتو من إيطاليا وإسبانيا طلبتان مهمتان من البرانس السوداء ، تتألف إحداهما من ألف قطعة والأخرى من ثمانية ، وينبغي تسليمها جميعاً في أوّل الخريف ، وكما تعلم فإنّ أكثر البرانس تقديراً في أوروبا هي برانس «تفزة» التي كنت سأذهب بنفسني لإحضارها لو كنت في حالة صحّة أفضل» .

وشرح لي أمر الصفقة: يدفع إليّ ألفي دينار، منها ألف وثلاثمائة لشراء البضاعة بمعدل دينار واحد للقطعة بسعر الجملة، وما تبقى لنفقات سفري ولقاء أنعابي. وإذا تمكنت أن أحصل من الصناع على سعر أفضل فسوف تكون حصتي أكبر؛ وإذا توجب عليّ الشراء بأغلى اضطررت إلى الدفع من مالي الخاص.

ومن غير أن أدرك جيداً إذا كنت بصدد صفقة جيدة أو رديئة قبلت متحمساً. وعليه فقد دفع إليّ المبلغ بالقطع الذهبية وأعازني لرحلتي جواداً وخادمين وتسع بغلات وأوصاني بالإسراع والحذر.

ولكيلا أذهب بالمطايا بغير أحوال جمعت كل المال الذي كان في إمكاني التصرف به، مذكراتي ومذكرات أمي وجزء من ميراث خالي لفاطمة، فكان بأكمله أربعمئة دينار اشتريت بها أربعمئة سيف من أرخص السيوف، وبالضبط من تلك التي تعود الفاسيون بيعها لأهل «تفزة». وعندما أخبرت أبي لدى رجوعي من السوق بضخامة ما حصلت عليه كاد يشق ثوبه من الارتياح والأسف وقال:

«تحتاج إلى سنة على الأقل لتصريف كل هذه السيوف في مدينة صغيرة! وإذا يعلم الناس أنك مستعجل للعودة فسوف يشترونها منك بأبخس الأثمان!»

كانت كلماته معقولة، بيد أن الوقت للتراجع كان قد تأخر كثيراً لأنني كنت قد جُلْتُ على جميع الجُزفِين لجمع همولتي التي دفعتُ ثمنها كلها نقداً. وكان عليّ أن استسلم للعودة خاسراً من هذه الرحلة التجارية الأولى قائلاً لنفسني إنه ما من أحد يتعلم من غير أن يرضَ يديه أو كيسه.

وعشيّة رحيلي جاءت أمي مذعورة تحمل إليّ شائعات سمعتها في الحمام: أحداث خطيرة تدور في «تفزة»، ويُحكى عن حملة يُعدّها جيش فاس لإعادة النظام إلى نصابه. ولكن، بدلاً من أن تفتُ هذه الأخبار في عضدي أججت فضولي إلى حدّ أني رحلت عند شروق شمس اليسوم التالي من غير حتى أن أسعى إلى الاستسلام. وبعد عشرة أيام بلغت غايقي بلا مضايقة. لأجد بلداً نهياً لأعظم غليان.

ولم أكد اجتاز باب المدينة حتى تكأكات الدهماء عليّ، يناديني بعضهم بفظاظة

وَيُطْرِنِي بَعْضُهُم الْآخِرُ بِالْأَسْئَلَةِ . وَحَاوَلْتُ أَنْ أَحْتَفِظَ بَهْدَوْتِي : لَا ، لَمْ أَرَّ جِيُوشَ فَاَسَ تَتَقَدَّمُ بِهَذَا الْإِتِّجَاهِ ؛ نَعَمْ ، كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ شَائِعَاتٍ ، بَيِّدَ أَنِّي لَمْ أَعْرِهَا اهْتِمَامًا . وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَجْهَدُ فِي شَقِّ طَرِيقٍ لِي أَقْتَرِبُ مِنِّي رَجُلٌ طَوِيلُ الْقَامَةِ يَرْتَدِي ثِيَابًا كَثِيَابَ الْأَمْرَاءِ ؛ وَابْتَعَدَ الْحَشْدُ فِي صَمْتٍ لِيَفْسَحَ لَهُ مَجَالَ الْمُرُورِ . وَحَيَّانِي بِحَرَكَةِ مَتَزِّنَةٍ مِنْ رَأْسِهِ وَقَدَّمَ لِي نَفْسَهُ عَلَى أَنَّهُ رَئِيسُ الْمَدِينَةِ الْمُبَايَعِ . وَشَرَحَ لِي أَنَّ «تَفْزَةَ» كَانَتْ قَدْ عَاشَتْ حَتَّى الْيَوْمِ عَيْشَ الْجُمْهُورِيَّةِ بِحُكْمِهَا مَجْلِسَ أَعْيَانٍ مِنْ غَيْرِ مَا هَيَاةٍ مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ قَبِيلَةٍ مِنَ الْبَدْوِ الرَّحَّلِ ، وَلَا تَدْفَعُ ضَرِيْبَةً وَلَا جَزِيْبَةً وَتُؤَمِّنُ رِخَاءَهَا بِفَضْلِ مَا تَبِيْعُهُ مِنْ بَرَانِسِ الصُّوْفِ الْمَقْدُورَةِ حَتَّى قَدْرَهَا فِي الْعَالَمِ أَجْمَعِ . غَيْرَ أَنَّهُ مِنْذُ أَنْ نَشِبَ نِزَاعٌ دَامَ بَيْنَ عَشِيْرَتَيْنِ مُتَنَافِسَتَيْنِ وَالْمَعَارِكِ وَتَصْفِيَّاتِ الْحِسَابَاتِ الْقَاتِلَةِ تَتَضَاعَفُ إِلَى حَدٍّ أَنَّهُ قَرَّرَ الْمَجْلِسُ لِإِعْبَادِ أَفْرَادِ الْعَشِيْرَةِ الْمُعْتَدِينَ لَوْقِفِ الْمَذْبَحَةِ . وَلَكِنِّي يَنْتَقِمُ الْمَطْرُودُونَ فَقَدْ اسْتَنْجَلُوا بِعَاهِلِ فَاَسَ وَاعْدَيْنَ إِيَّاهُ بِتَسْلِيمِهِ الْمَكَانِ . وَعَلَى هَذَا فَإِنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَخْشَوْنَ هَجُومًا وَشِيْكَأً . وَشَكَرْتُ الرَّجُلَ عَلَى شُرُوحِهِ وَذَكَرْتُ لَهُ اسْمِي وَسَبَبَ زِيَارَتِي وَكَرَّرْتُ لَهُ الْقَلِيلَ الَّذِي كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُهُ عَنْ أَحْدَاثِ «تَفْزَةَ» وَأَضْفَتُ أَنِّي لَنْ أَتَأَخَّرُ كَثِيْرًا فِيْهَا ، بَلِ الْوَقْتُ اللَّازِمُ لِیْبِيعَ سِيُوفِي وَشِرَاءَ الْبَرَانِسِ وَالتَّهَيُّؤَ لِلْعُودَةِ .

وطلب مني الشخص أن أعذر مواطنيه على نزقهم وأمر الحشد بأن يفسحوا لي الطريق شارحاً باللغة البربرية أنني لست جاسوساً ولا مبعوثاً لفاس وإنما مجرد تاجر أندلسي يعمل لحساب الجنويين . وهكذا تمكنت من دخول المدينة والتوجه إلى الفندق . ومع ذلك فلأنني قبل بلوغه رأيت بعرض الطريق رجلين بثياب فخمة يتناقشان بصوت مرتفع وهما ينظران إليّ . وإذ وصلت إليهما تكلمتا في وقت واحد : رجائي كل منهما أن أشرفه بالإقامة في منزله واعدأ بأن يأخذ علي عاتقه أيضاً أمر الخدم والبهاثم . وإذ لم أكن راغباً في الإساءة إلى أيّ منهما فقد رفضت الدعوتين شاكرأ لهما كرم ضيافتهما وأقمت في الفندق الذي لا تتوفر فيه الراحة توقرها في فنادق فاس ؛ بيد أنني لم أتدمر منه لأنني لم أعرف لعدّة ليالٍ من سقف سوى القبة المزينة بانكواكب .

وما كدت أنزل في غرفتي حتى بدأ يتقاطر إليها أغنى أغنياء المدينة . وعرض عليّ أحد التجار الأثرياء أن يقايضني سيوفي الأربعة بمائة بثامنة برنس . وكدت أقبل حين

وثب تاجر آخر إلى أذني وعرض عليّ بصوت خافت ألف برنس . وإذ لم أكن أملك شيئاً من التجربة فإني لم أفهم سبب هذا القدر من الاهتمام : لم يكن الأهالي يفكرون لدى اقتراب الجيش المعادي إلا في التخلص من إنتاجهم بأكمله لإراحته من وجه النهب المحتوم الذي سيعقب الاستيلاء على المدينة . وعلاوة على ذلك فإن الأسلحة التي كنت أحملها ما كانت لتصل في لحظة خير من هذه اللحظة التي احتشد فيها الشعب بأسره لمواجهة المهاجم . فقد كان يعود إليّ إذن أن أفرض شروطي : طالبت في مقايضة سيوفي بالحصول على ألف وثمانمائة برنس لا تنقص واحداً ؛ وبعد عدة مساومات قَبِلَ تاجر يهودي بما عرضت . وهكذا حصلت في يوم قدومي بالذات على كلّ البضاعة التي طلبها السيد «دو مارينو» من دون أن أمسّ المال الذي كان قد عُهد به إليّ .

وإذ لم يكن لديّ ما أبيعه فقد تهيأت للعودة في اليوم التالي . بيد أنّ الحظّ، شأنه شأن عشيقه وسط الليل ، أبي أن يفارقني . فقد توافد عليّ من جديد بعض تجار «تفزة» عارضين النيّلة أو المسك ، وآخرون عارضين العبيد أو الجلود أو حبّ الهال ، وكلّ سلعة بعشر ثمنها ، الأمر الذي اضطرّني إلى تأمين أربعين بغلة لنقل كل شيء . وأخذت الأرقام تتراقص في رأسي ؛ كنت قد أصبحت غنيّاً من جرّاء أوّل صفقة قمت بها .

كنت في اليوم الثالث من أعمالني التجارية عندما نادى المنادون بوصول جيش فاس ، وكان عديده ألفي خيال وخمسمئة نبال . وما إن رآه الأهالي حتى دبّ الفرع في نفوسهم وقرّروا المفاوضة . وإذ كنت الفاسي الوحيد في المدينة فقد رجّوني القيام بالوساطة ، الأمر الذي أعتَرِفُ بأنّه بدا لي مسلياً للغاية . ومنذ مقابلتي الأولى للضابط الذي كان يقود الجيش الملكي غدا صديقي . وكان رجلاً متنوراً مرهفاً ومكثفاً مع هذا بأفطع المهّمات : أن يُسَلِّم المدينة وأعيانها إلى انتقام العشيرة المعادية . وحاولت ثنيّه عن ذلك .

«هؤلاء المطرودون خونة . اليوم سلّموا المدينة إلى السلطان ، وسوف يسلمونها غداً إلى أعدائه . ومن الخير التعامل مع رجال بواسل يقدرّون ثمن الإخلاص والتضحية والأمانة» .

كان في استطاعتي أن أقرأ في عينيه تسليمه بحججي ، غير أنّ أوامره كانت

جليّة: الاستيلاء على المدينة ومعاقبة من كانوا يحملون السلاح في وجه السلطان
وتسليم الحكم لرئيس العشيرة المطرودة وترك حامية لمساعدته. ومع ذلك كانت
هناك حجة لم يكن في مقدوره دفعها:

«كم يأمل السلطان أن يحصل في مقابل حمايته؟

- لقد وعدت العشيرة المطرودة بعشرين ألف دينار في العام.

ودارت في رأسي عملية حساب صغيرة.

«يضمّ مجلس المدينة ثلاثين عيّناً ينبغي أن يضاف إليهم اثنا عشر تاجراً يهودياً ثرياً.
ولو دفع كلّ منهم ألفي دينار لاجتماع أربعة وثمانون ألفاً...»

وقاطعني الضابط:

«دخل المملكة بأسرها لا يصل إلى ثلاثمئة ألف دينار. فكيف تريد أن تتمكّن
مدينة صغيرة كهذه من جمع مثل هذا المبلغ؟

- في هذا البلد ثروات غير متوقعة، بيد أن الناس يُخفونها ولا يسعون إلى
تسميرها، فهم يخافون أن ينهبهم الحكّام. وما السبب في اعتقادك بأن يهود هذا
البلد متهمون بالشحّ؟ لأنّ أدنى نفقة وأقلّ فحفة قد تعرّض ثروتهم وحياتهم
للخطر. وللسبب نفسه يضمحلّ عدد من مدننا ويدبّ الفقر إلى مملكتنا».

لم يكن في وسع مخاطبي بوصفه ممثّل السلطان أن يدعني أتكلّم على هذا النحو
في حضرته. وطلب إليّ أن أخلص إلى الوقائع:

«إذا وعدت أعيان «نفزة» بالأمان في نفوسهم والمحافظة على تقاليد مدينتهم
أقنعتهم بدفع المبلغ».

وإذ حصلت على وعد الضابط فقد انطلقت لمقابلة الأعيان وأطلعتهم على
الاتفاق. ولما رأيت تحفظهم قلت لهم بأنّ كتاباً قد وصل من فاس ممهوراً بخاتم
السلطان يقضي بمعاقبة جميع رجالات المدينة على الفور. وأخذوا بالشكوى والأنين،
غير أنّه، كما قلت في كتابي «وصف إفريقية»، لم يمض يومان حتى نثروا الأربعة
والثمانين ألف دينار على قدمي الضابط. ولم يكن قد سبق لي قطّ أن رأيت مثل هذه

الكمية من الذهب، ثم كان أن علمت فيما بعد من فم السلطان أنه لا أبوه ولا هو كانا قد اقتنينا في خزائنها مثل هذا المبلغ.

وتلقيت لدى مغادرتي «نفزة» هدايا نفيسة من الأعيان الذين سعدوا بإنقاذ أنفسهم ومدينتهم، كما حصلت على بعض المال من الضابط الذي وعدني بإخبار السلطان بالدور الذي قمت به في تلك القضية العجيبة؛ وقد زودني كذلك بثلة من اثني عشر جندياً واكبوا قافلتي حتى فاس.

وقبل أن أذهب إلى بيتي بالذات مررت لرؤية السيد «دو مارينو» وسلمته ما كان قد كلفني من بضاعة، وأعدت إليه خدمه وجواده وبغلاته؛ كما قدمت إليه هدايا بمئتي دينار وقصصت عليه مغامرتي من غير أن أغفل منها أي تفصيل، وأطلعت على البضاعة التي حصلتها لحسابي الخاص فقدرها بخمسة عشر ألف دينار على الأقل.

وقد قال لي من غير أن ألمح في حديثه شيئاً من الغيرة أو الحسد: «لقد لزميني ثلاثون عاماً لجمع مثل هذا المبلغ».

وشعرت بأن الدنيا بأسرها ملكي، وبأنني لم أعد في حاجة إلى شيء ولا إلى أحد، وبأن الحظ سوف يستجيب لي بعد اليوم استجابة اصبعي أو عيني. ولم أكن أسيراً بل كنت أطير. وعندما ودعت الجنوي شداً طويلاً على يدي مكباً قليلاً إلى الأمام؛ وظللت منتصباً مرفوع الرأس شامخ الأنف. واحتفظ العجوز بيدي طويلاً في يده، أطول مما جرت به العادة، ثم نظر في عيني من غير أن يعتدل وقال:

«لقد ابتسم لك الحظ يا صديقي الشاب، وأنا سعيد لأجلك كما لو كنت ابني. ولكن احترس، فالثروة والسطوة عدواً حصافة الرأي. وأنت حينما تتأمل حقل قمح ألا ترى فيه سنابل منتصبه وأخرى مخنئة؟ ذاك لأن الأوليات فارغات! فاحتفظ إذن بذلك التواضع الذي قادك إليّ وفتح لك على هذا النحو بمشيئة الله تعالى سبل الغنى».

عرف ذلك العام أقوى عدوان سبق أن شنه القشتاليون على المغرب. وقد

اسْتَوْلُوا عَلَى مَدِينَتَيْنِ رَئِيسِيَّتَيْنِ مِنْ مَدَنِ السَّاحِلِ، وَهَرَانَ فِي شَهْرِ الْمُحَرَّمِ، وَبُوجِي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ. وَلَسَوْفَ تَسْقُطُ طَرَابِلُسُ الْوَاقِعَةُ فِي بِلَادِ الْبَرْبَرِ فِي الْعَامِ التَّالِيِ.
وَلَمْ يَسْتَعِيدِ الْمُسْلِمُونَ أَيًّا مِنْ تِلْكَ الْمَدَنِ الثَّلَاثِ مَدًّاكَ.

عام القصرين

٩١٦ هـ (١٠ نيسان «إبريل» ١٥١٠ م -

٣٠ آذار «مارس» ١٥١١ م)

أزهرتُ وردةً في خديكِ
وفتحتُ ابتسامةً على شفتيكِ
لا تُبعديني فشريعتنا جليّة:
لكلِّ امرئٍ أن يجني ما زرع.

كان في داخلي منذ ذلك الحين شاعر بلاط، وكنت متعشّقا لخمري وجواري، متلهفاً على ذهبي، كَلِفاً بالتغني بمزايا زوّاري، وبمزاياي بشكل خاص، في كل عيد ولدى كل رجوع من رحلة في قافلة، وحتى في أوقات الطعام العادية أحياناً. حين كان يجتمع حولي الأصدقاء والأقارب والمستخدمون المخلصون والتجار المنهمكون وعابرو السبيل من العلماء والبنّاءون المقترحون لبناء قصري.

فمنذ سفري إلى «تفزة» وثروتي تتضاعف، وعملائي يجوبون إفريقية من بادس إلى سجلماسة، ومن تلمسان إلى مراكش، محمّلين بالتمور والنبيلة والحناء والزيت والأقمشة؛ ولم أكن أتقل إلا من أجل القوافل الكبيرة. وكنت في سائر الأوقات أدير أعمالي من ديواني وأشرف، وفي يدي خيصرانة، على ورشة بناء منزلي على تلة غير بعيد عن بيت خالي الذي أصبحت ربّه مُدُّ وُلِدَتِ ابنتي، وإن كان قد أخذ يبدولي أضيّق مما يتناسب وثروتي، وأكثر تواضعاً مما ينبغي وأقل ملاءمة. وكنت انتظر بفارغ الصبر اليوم الذي أستطيع فيه الإقامة في قصري، قصري الفخم الذي لا قرين له، قصري الذي كنت أحلم به وأحكي عنه بلا انقطاع وله وظفت خير الحرفيين وكلفتهم أن ينفذوا على أكمل وجه كل رغبة من رغباتي:

سقوف من الخشب المنحوت، وأقواس مفروشة بالفسيفساء، وفسقيات من الرخام الأسود، كل ذلك من غير ما التفات إلى النفقات. وحينما كنت اتردد أحياناً أمام رقم من الأرقام كان شاعري يُنشد على الفور: «الحكمة في العشرين هي ألا يكون المرء حكيماً». والحق أنه كان يصوغ كلماته من ذهبي.

وكان اليوم الذي بدأت فيه الأعمال أجل أيام حياتي. فقد ذهبت في الغسق، وحوالي ثلثة من الحاشية، أضع في البناء المقبل عند أركانه الأربعة طلسمات نفيسة وشعر طفل قص بعناية من رأس ابنتي؛ وكنت قد غدوت فجأة متأثراً بأعمال السحر وأمور الطيرة، وكنت أول المندهبين لذلك. فلا ريب أن هذا نصيب الأغنياء والأقوياء، فلما كانوا يدركون أن ثروتهم ترجع إلى الحظ أكثر مما ترجع إلى مزاياهم فإنهم يتغزلون به وكأنه عشيقه، ويتعبدون له وكأنه وثن.

وقد صدحت موسيقى جوقة أندلسية طوال الليل في بيت خالي الذي كان يهتز من خطى الراقصات الصامتة، راقصات من الإماء اشترت اثنتان منهم للمناسبة. وأما هبة فقد منعتها من الرقص، لأنني لم أكن أستطيع منذ أيام تومبكتو أن أسمح بتركها تعرض على الآخرين سحراً يمثل نشوة سحرها. ولقد أجلستها بقربي على أنعم الطنافس وأحطت خصرها بذراعي. وكانت فاطمة قد دخلت غرفتها باكراً كما كان العرف يقضي.

وكنت سعيداً بتأمل هبة بأشة لا مبالية للمرة الأولى منذ أشهر؛ فلقد شعرت بالهوان يوم مولد ابنتي، وكنت قد فاجأتها وأنا أدخل غرفتها ذات ليلة تمسح دموعه بطرف خمارها؛ وإذ خللت شعرها بيدي وأنا أداعب أذنها على عجل فقد أبعدتني بيد رقيقة، وإن ثابتة، وهي تمس بصوت منكسر لم يكن لي به عهد:

«في بلدي لا تنتظر المرأة إذا كانت عاقراً حتى يطلّقها زوجها أو يهجرها، بل تبتعد وتختبئ وتجعل ينساها».

وجهدت في اتخاذ نبرة فكهة، النبرة التي كانت تستخدمها هي في العادة:

«كيف لك أن تعلمي أنك لن تُنجبي لي صبيّاً جميلاً في رمضان القادم؟».

ولم تبسم.

«لقد قال كاهن قبيلتي من قبل بلوغي إنني لن أحمل قط. ولم أصدقه، بيد أنني معك منذ خمس سنوات، وقد أنجبت بنتاً من أخرى».

وإذ لم أكن أملك لذلك دفعاً فقد ضمنتها إليّ؛ وتملّصت مني بتكشيرة تنم عن ألم وقالت:

«هل ترضى بأن تُعتقني؟»

- أنت لي حبيبة لا جارية. لكنني لا أود أن تخرجي عن ملك يميني».

وأطبقت يديّ على معصمها بقوة وكأَنَّها مَجْلَبَان لَأَجْدَب راحتيها الواحدة بعد الأخرى إلى شفتيّ.

«أنسيت ليلتنا في تومبكتو، أنسيت كلّ ليالينا وعهودنا بالألّا نفرق قط؟»

ونفذ هواء منعش من النافذة المفتوحة فأطفأ بنفخة شمعدان البرونز. وسادت العتمة وغدا المكان كئيباً ولم أكن أرى عيني هبة. وبلغني صوتها بعيداً مرتجاً وكأنها تنسخ أغنية حزينة من الصحراء.

«كثيراً ما تتشبك أيدي العشاق ويحملون معاً بالهناء في المستقبل. غير أنهم مهما امتد بهم العمر فلن يكون هناؤهم غامراً قط كما في اللحظة التي تنعقد فيها أيديهم وتختلط أحلامهم».

وكان الأمر قد انتهى بها في تلك الليلة إلى أن فتحت لي ذراعيها. فهل كان ذلك من جراء الإعياء أو بدافع الواجب أو بفعل الذكرى، لست أدري. بيد أنها لم تكن قد أزاحت من عينيها حجاباً رقيقاً من الحزن.

وعليه فقد كنت سعيداً برؤيتها تضحك من جديد وتصقّق يديها على أنغام الجوقة الأندلسية. وفي منتصف الوجبة قام شاعري ليُنشد من الذاكرة أبياتاً نظمها في مدحي. وما هو إلا المصراع الأول حتى كان قصري قصر الحمراء وحدائقه جنات عدن.

«لندخله في يوم تمامه المبارك ووريتك فوق كتفك!»

وسرت بغتة قشعريرة من هبة في ذراعي التي كانت تضمها. وتهدت في أذني
قائلة:

«الله، لوددت أن أنجبه لك، هذا الوريث!»

ونظر إليها الشاعر، وكأنه سمعها، نظرة لا تقلّ رحمة عن الرغبة، وقطع
إنشاده ليرتجل بيتين ألقاهما مترنماً:

الحُبُّ ظمأً عند حافة بئر
الحُبُّ زهرة، ليس الحب ثمرة

وبحركة عفوية تناولت كيس نقودي ورميت به إليه. وكان ما فيه أكثر من
خمسین ديناراً. غير أن البسمة التي أضاءت وجه هبة ما كانت لتقدّر بثمن. ولقد
قضيت الليل بطوله أجنبيها.

بعد ستة أشهر على تلك المأدبة زارني ضابط من الحرس الملكي: السلطان
يستدعيني في اليوم بالذات بعد القيلولة. ولبست ثياباً تليق بالمناسبة وتوجهت إلى
القصر مبلبل الخاطر كثيراً وفي النفس ذرة من قلق.

وتلقاني السلطان بفيض من الترحيب. وحذا خاصته حذوه متحمسين
متصنعين. واستذكر زيارتي الأولى لدى عودتي من تومبكتو ووساطتي في «نفزة»
التي غلّت لخزينته في ذلك العام من الذهب أكثر مما تغلّه مدينة فاس بأسرها.
وبعد أن مدح خالي وآبائي وغرناطة، شرع يعظم لخاصته ما أنا فيه من رخاء
ويسر، ويمجد بلاغي وحذقي وسعة معارفي التي تلقيتها في أشهر مدارس فاس.

«ألم تعرف أحمد الأعرج في المدرسة؟»

- بلى يا مولاي.

- قيل لي إنك كنت واحداً من خيرة أصحابه، والأوحد الذي كان يصغي إليه
باحترام وانتباه».

وأدركت على الفور سبب استدعائي والمدائح غير المتوقعة . فلقد بدأ أحمد يصبح موضع اهتمام ، إذ كان كثير من طلاب فاس ومرآكش الشبان قد تركوا منازلهم وحملوا السلاح إلى جانبه في وجه الاجتياح البرتغالي البطيء الذي كان يتهدد الساحل الأطلنطي بأسره . وكان الأعرج يجوب البلاد مع أنصاره ناقداً عاهل فاس نقداً لاذعاً فأخذ يسعى إلى التفاوض مع الشائر الخطير . بوساطتي .

وقررت أن أستفيد من الفرصة لأصفي بعض حسابات قديمة كانت تقبض قلبي .

« كان الشريف أحمد كثيراً ما يزورني زمن المدرسة . ولقد تبدي عن أخ صادق يوم حُجر على أخي في حيّ المجذومين . محاً الله تلك الذكرى من حافظتي وحافظته ! »

وتنحني العاهل ليخفي ارتبائه وقال :

« ماذا حلّ بهذه المنكودة؟ »

- تزوّجها فتى طيب ، حمّال ، ثم هرب معها إلى ناحيةٍ ما من غير أن يجرؤ على تسريب أقلّ نأ وكأنها مجرمان .

- أتريد الحصول لهما على أمان؟ على إذن بالعفو؟ إنّ كاتبني سوف يحضّره .

- لا حدّ لساحك ، أطال الله عمرك ! »

لقد كان عليّ أن أنطق بالعبارات المتعارف عليها ، بيد أنّي كنت مصمماً على عدم التراخي . وانحنيت على أذن الملك وقلت :

« لقد تأثر صديقي الشريف أحمد كثيراً لما آلت إليه حال أخي من جور ضحيّة انتقام الزرواليّ الشنيع .

- لقد نمي إليّ الدور الذي قام به هذا الرجل . »

لم أدهش أدنى الدهشة لمعرفتي أنّ السلطان كان قد أُطلع على تلك الأحداث

بحذافيرها؛ ولم أسأله لماذا لم يفعل شيئاً في حينه لأنني كنت أحرص على كسبه إلى جانبي . وعليه فقد تابعت بصوت خافت :

«كان الزرواليّ قد غدا في نظر أحمد مثلاً لهذا الفساد الذي دبّ حسب قوله إلى أخلاق أهل فاس . حتى إنني علمت أنه كان قد تحدّث عن ذلك الرجل مراراً في خطبه» .

وأضفت بحذر كيلا يبدو أنني أشاطر الأعرج آراءه :

«سدّد الله خطاه على درب الحق!»

وبدا السلطان متفكراً متردداً، ثم أصلح عمامته من غير أن يقول شيئاً واعتدل في جلسته .

«أريد أن تذهب لمقابلة أحمد» .

وطأطأت رأسي علامة على الإصغاء فتابع يقول :

«ستسعى لتهدئته، لردّه إلى مشاعر أفضل نحوي، نحو سلالتنا ونحو مدينة فاس حفظها الله من الكفّار والطامعين! وإنّي لمستعدّ لمساعدة هذا الشريف الشابّ بالمال والسلاح في نضاله المجتاحين البرتغاليين، غير أنني بحاجة إلى الأمان في جانبي حين يكون عليّ أن أندفع بدوري في المعركة لحماية مملكتي التي تعاني اليوم من الضعف . فطنجة في يد البرتغاليين، وكذلك أرزيلة وسبتة، ولراش والرباط وشلّة وسالة مهدّات، وأنفة تهدّمت وأهلها يفرّون منها . وفي الشمال يستولي الإسبان على مدن الساحل واحدة بعد أخرى» .

وجذبني إليه وخفض من صوته فابتعد خاصّته، ولكنهم أصاخوا السمع بشكل خفي .

«سوف أرسل بعد بضعة أشهر جيشي من جديد لمحاربة طنجة وأرزيلة على أمل أن يؤيّدني الله تعالى في هذه المرّة بنصر من عنده . وأريد من الشريف أن يتصرّف في هذا الأمر تصرّف حليف، وبدلاً من أن يؤلّب الأقاليم على ملوك المسلمين فليهاجم البرتغاليين في الوقت الذي أهاجمهم فيه لأننا كلينا من

المجاهدين في سبيل الله . فهل لي أن أعهد إليك بهذه المهمة؟

- أبذل ما في وسعي لأنه ليس أعزّ على قلبي من اتحاد المسلمين . وما إن تأمرني حتى أنطلق إلى سوس للقاء أحمد، ولسوف أقوم بكل شيء لحثه على المصالحة» .
وربّت السلطان على كتفي علامة الرضا وطلب من رئيس الحرس وقاضي القضاة أن يقتربا وقال:

«ترسلان في هذا المساء بالذات رسولا إلى بيت الزروالي وتطلبان منه أن يتغيّب عن مدينتنا مدّة عامين على الأقل . ليذهب للحجّ ، ثم ليبق بعض الوقت في القرية التي وُلد فيها» .

كان جميع رجال الحاشية يُصغون بنهم . وما هي إلا ساعات حتى يكون الخبر قد انتقل من فم إلى فم ودار على المدينة بأسرها . ولن يجروا أحد قطّ على تحية المطرود، ولا على زيارته، ولن يلبث العشب أن ينمو على الطريق إلى منزله . وتلذّذت بانتقامي العادل من غير أن أعلم أنه سوف يجرّ على ذوي مزيداً من الويل .

وعندما استأذنت السلطان للمغادرة أمرني بالعودة في اليوم التالي لأنه يرغب في استشارتي بشأن أموال المملكة . ومذاك غدوت بقربه في كل يوم، أحضر مجالسه، واتفقنا أحياناّ الالتباسات بنفسي، الأمر الذي كان يثير حسد الآخرين من أصحاب المراتب . بيد أنّي ما كنت لأبالي قطّ بذلك إذ كنت أنوي الرجيل في مطلع الربيع إلى سوس، والاهتمام لدى عودتي بقوافلي، وعلى الأخصّ بقصري الذي كان يكبر في تخيلتي ويحلّولي، وإن كان لا يتقدّم العمل فيه على الأرض لأن الشهرين الأخيرين من ذلك العام كانا مطيرين باردين، ولم تكن ورشة أحلامي غير مستنقع من الوحل .

عام الشريف الأعرج

٩١٧ هـ (٣١ آذار «مارس» ١٥١١ م -

١٨ آذار «مارس» ١٥١٢ م)

في ذلك العام شنّ كما كان مرسوماً كلّ من سلطان فاس من ناحيته والشريف الأعرج من جهته حملات على البرتغاليين، وكان الأوّل يرغب في استعادة طنجة والثاني يسعى لتخليص أغادير؛ وقد صُدا كلاهما بخسائر جسيمة، الأمر الذي لا يُعثر على أثر له في القصائد التي نُظمت فيهما.

وكنت قد ربّبت أموري كي أكون حاضراً تلك الأيام من العراك موطداً النفس على أن أدون ملاحظاتي عنها كلّ مساء. ولقد دهشت وأنا أعيد قراءتها في رومة بعد انقضاء بضع سنوات، من أنني لم أكن قد خصصت سير المعارك بسطر واحد. فالشيء الوحيد الذي كان قد استرعى انتباهي هو سلوك الأمراء والمقربين منهم حيال الهزيمة، وهو سلوك أدهشني على الرغم من أن مخالطتي أهل البلاط كانت قد خلّصتني من بعض سذاجاتي. ولن أذكر سوى مقطع قصير من ملاحظتي على سبيل التعريف.

وقائع مدوّنة في ذلك اليوم، قبل اليوم الأخير من شهر ربيع الأول ٩١٧ هـ الموافق ليوم الأربعاء ٢٦ حزيران (يونية) من عام المسيح ١٥١١ م.

«أعيدت إلى المعسكر جثث الشهداء الثلاثمئة الذين سقطوا أمام طنجة. ولكي أهرب من هذا المشهد الذي يفتت القلب فقد ذهبت إلى خيمة السلطان الذي وجدته مجتمعاً إلى قاضي القضاة. وإذ رأني العاهل فقد أشار إليّ بأن أقرب وقال لي: «اسمع ما يراه قاضينا في هذا اليوم!» وشرح لي هذا قائلاً: «كنت أقول لمولانا إن ما حدث ليس بالأمر الرديء لأننا أظهرنا للمسلمين حميتنا في الجهاد من غير أن يشعر البرتغاليون بأنهم فُدحوا فيسْعَوا إلى الانتقام». وهزرت رأسي وكأني

أشاطره الرأي قبل أن أسأل: «والقتلى، أصحيح أن عددهم بالمئات؟» وإذ أدرك القاضي النبرة الناقلة أو الساخرة فإنه لم ينس بكلمة، غير أن السلطان نفسه كان هو الذي تولى الردّ فقال: «ليس بين القتلى سوى عدد ضئيل من الخيالة. وأما الآخرون فليسوا سوى مشاة وحفاة وغلاظ لا خير فيهم كالذين يُعدّون بمئات الألوف في مملكتي، أي أكثر بكثير مما في استطاعتي يوماً أن أسلحهم! وكانت نبرته تترجّح بين اللامبالاة والمرح. واختلقت عذراً واستأذنت تاركاً الخيمة. وفي الخارج كان بعض الجنود متجمّعين على ضوء مشعل حول جثة كانوا قد أحضروها. وكان مقاتل عجوز بلحية تميل إلى الشقرة قد لمحني خارجاً فاقترب مني وقال: «قل للسلطان ألا يبكي الذين قُتلوا لأن جزاءهم مضمون يوم الحساب». وسالت دموعه واختنق صوته فجأة وهو يقول: «لقد مات ابني البكر، وأنا مستعدّ للمحاق به إلى الجنة ما إن يأمرني مولاي بذلك!» وتعلّق بأرداني وكانت يدها المثبّتان قنوطاً تقولان غير ما كانت تقول شفثاه. وجاء أحد الحراس يُنذِر الجندي بالألا يزعم مستشار السلطان؛ وغاب الرجل وهو ينتحب. ودخلت خيمتي.»

كان عليّ أن أنطلق بعد أيام إلى سوس للقاء أحمد. وكان قد سبق لي أن التقيته في مطلع العام لأحمل له رسالة السلام من السلطان؛ وكان صاحب فاس يريد في هذه المرة أن يبلغ الأعرج بأنه سقط للبرتغاليين من القتلى أكثر مما سقط لنا، وأن السلطان سالم برحمة وفضل من الله تعالى. وعندما التقيت الأعرج كان قد بدأ بمحاصرة أغادير، وكان رجاله يطفحون حماسة وحمية. وكان كثير منهم طلاباً حضروا من جميع أنحاء المغرب، وكانوا يتمنون الشهادة كما لو كانوا يذوبون شوقاً إلى خطيبة خفية.

كانت المعركة لا تزال مُستعرة بعد انقضاء ثلاثة أيام، وكانت قد بعثت الحمية في النفوس نشوة الدم والانتقام والفداء. وبغته أمر أحمد وسط دهشة الجميع برفع الحصار. وقُطع على الفور رأس وهرانيّ شابّ كان قد انتقد بصوت مرتفع الأمر بالانسحاب. وإذ أبدت استغرابي رؤية الأعرج يخور بهذه السهولة ويستعجل التخلّي عمّا بدأه فقد هزّ كتفيه وقال:

«إذا كنت تريد التدخل في السياسة ومفاوضة الأمراء فعليك أن تتعلّم

الاستهانة بظواهر الأمور».

وذكرتني ضحكته الهازئة بمناقشاتنا المستفيضة أيام المدرسة. وإذ كنا وحدنا داخل خيمة حربية فقد ساءلته بلا مواربة. وأجابني بتؤدة:

«كان أهالي هذه المنطقة يريدون التخلص من البرتغاليين الذين يحتلون أغادير ويُغيرون على السهل المحيط بها بأكمله جاعلين أعمال الفلاحة مستحيلة. ولما كان صاحب فاس بعيداً وصاحب مراكش لا يخرج قط من قصره إلا للصيد الأسبوعي فقد اختاروا الاستنجاد بي؛ وقد جمعوا المبلغ اللازم لتجهيز خمسمئة فارس وعدة آلاف من المشاة. وكان عليّ إذن أن أقوم بمحاولة حيال أغادير، بيد أنني لم أكن أرجو قط الاستيلاء عليها لأنني كنت سأخسر نصف جيشي في المعركة، وأخطر من هذا أنه كان عليّ أن أقيم فيها بقية عساكري طوال أعوام للدفاع عنها في مواجهة هجمات البرتغاليين المتلاحقة. وعندني اليوم ما هو أفضل، ألا وهو حشد المغرب برمته وتوحيده بالحيلة أو بقوة سيفي من أجل مناضلة المحتاج».

وضممت قبضتي بأشد ما أستطيع من قوة وأنا أردد لنفسي أنّ عليّ ألا أجيب؛ غير أنني لم أكن قد أتممت العشرين فقلت وأنا أباعد بين كلماتي وكأني أسعى فقط إلى الفهم:

«أنت تريد على هذا مقاتلة البرتغاليين، ولكنك لن ترمي بعساكرك في وجههم، فهؤلاء الرجال الذين لبوا نداءك للجهاد تحتاج إليهم لغزو فاس ومكناس ومراكش!»

وأمسك بي أحمد من كتفي من غير أن يتوقف عند سخرياتي وقال:

«بحق الله يا حسن، لا يبدو أنك تدرك ما يجري! المغرب بأسره مضطرب. ولسوف تبعد سلالات وتخرب أقاليم وتدمر مدن. انظر إليّ، تأملني، المس ذراعيّ ولحيتي وعمامي لأنك لن تستطيع غداً أن تحدجني بنظرة ولا أن تلامس وجهي بأصابعك. فأنا الذي يقطع الرؤوس في هذا الإقليم، واسمي هو الذي يرتجف له الفلاحون وأهل المدن. وعمّا قريب ينحني هذا البلد بأسره عندما أمر، ولسوف تقصّ على ابنائك يوماً أنّ الشريف الأعرج كان صديقك، وأنه زارك في بيتك،

وأنه رثي لحال أختك . وأما أنا فساكون قد نُسيت .»

كنا نرتعد كلانا، هو من الغضب والنزق، وأنا من الخوف . وشعرت بأنني مهدد لأنني إذ كنت قد عرفته قبل مجده فقد كنت نوعاً ما مملُكٌ يمينه العزيز المحترق المقيت، كما كان في نظري بُردي الأبيض القديم الذي كان مرقعاً يوم حصلت على الغنى .

وعليه فقد قرّرت أنه حان الوقت لكي أبتعد عن هذا الرجل لأنني لن أقدر قطّ على محادثته محادثة النُد للند، ولأنه كان عليّ بعد اليوم أن أخلع عني ثوب عزّي وكبريائي في الدهليز المؤدي إلى غرفته .

وفي نهاية ذلك العام حدث حادث لم أطلع على تفاصيله إلا بعد زمن طويل، ولكنه سوف ينغص بفداحة حياة أهلي . وإني أقصه كما تمكّنت من إعادة بنائه من غير أن أغفل أيّ دقيقة من دقائقه تاركاً لله عزّ وجلّ أن يرسم الخطّ الفاصل بين الجريمة والجزاء الوفاق .

كان الزرواليّ قد ذهبَ لحجّ مكة كما تلقى الأمر بذلك، ثم توجه إلى مسقط رأسه جبل بني زروال في الريف لإكمال العامين المحدّدين لطرده . ولم يكن خوفه بالقليل من عودته إلى ذلك الإقليم الذي ارتكب فيه عدداً من أعمال الابتزاز في الماضي، بيد أنه كان قد أجرى بعض الاتصالات برؤساء العشائر الرئيسيين ووَزَع بعض أكياس المال واصطحب في أثناء الرحلة أربعين حارساً مسلحاً وأحد أبناء عمومة صاحب فاس، وهو أمير مدمن على شرب الخمر ورقيق الحال دعاه للإقامة بعض الوقت في بيته آملاً بذلك أن يوهم الجلبين بأنه كان لا يزال حسن الصلة بالبلاط .

كان على القافلة لكي تبلغ بني زروال أن تمرّ في أرض بني الوليد . وهناك كان على طريق وعرة بين قريتين من قرى الرعاة طيف امرأة عجوز ينتظر مثل كتلة سوداء من التراب لا يبرز منها سوى راحة مفتوحة بكسل لسخاء المازة . وعندما اقترب الزرواليّ على جواد مطهم يتبعه عبد يغطيه بمظلة عريضة تقدّمت

المتسولة منه وشرعت تغمغم بكلمات الدعاء بصوت يكاد يُسمع . وصرخ أحد الحراس أمراً إياها بالابتعاد، غير أن مولاه أسكنه . فقد كان بحاجة إلى أن يتزوّد بشيء من حُسن السُمعة في هذا البلد الذي كان قد نهبه . وسحب من كيسه بعض القطع الذهبية ومدّ بها يده علانية متوقّفاً من العجوز أن تفتح يديها كالقصة لتلقيها . وفي طرفة عين أمسكت المتسولة بمعصم الزرواليّ وجرتّه بعنف فوق عن جواده وظلّت قدمه اليمى عالقّة في الرّكاب بحيث انقلب جسده وأخذت عمّامته تكنس الأرض وعلى عنقه طُبة خنجر .

وزعقت المتسولة المزعومة بصوت رجالي: «قل لرجالك ألا يتحرّكوا» .

وصدع الزرواليّ بالأمر .

«مُرُّهُمُ بالابتعاد حتى القرية التالية!»

وما هي إلا دقائق حتى لم يكن على طريق الجبل غير جواد نزق ورجلين ساكنين وخنجر معقوف . وشيئاً فشيئاً شرعاً يتحرّكان . فقد أعان قاطع الطريق الزرواليّ على النهوض ثم قاده مشياً بعيداً عن الطريق بين الصخور كما يجرّ وحش فريسته بين شذقيه، واخفياً معاً . وعندها فقط قدّم المهاجمُ نفسه إلى الذي كان يرتعد من جراه وقوعه ضحيّة بين يديه .

كان هارون «المنقّب» يقيم منذ ثلاث سنوات في جبل بني الوليد الذين كانوا يحمونه وكأنّه واحد منهم . فهل كانت الرغبة في الانتقام هي وحدها التي حملته على التصرف تصرف قطع الطرق أم الخوف من رؤية عدوّه مقيماً في الجوار منقضّاً من جديد عليه وعلى مريم وعلى الصبيّين اللذين أنجبتهما له؟ مها يكن من أمر فقد كانت الطريقة طريقة مُنتقم .

وجرّ هارون ضحيّته إلى البيت . وإذ رأتها أختي فقد أصابها من الفزع فوق ما أصاب الزرواليّ . ولم يكن زوجها قد أخبرها بمشروعه، ولا بقدم خطيبتها السابق إلى الريف . ولم تكن من جهة ثانية قد رأت قطّ العجوز، ولا قدبرت أن تفهم شيئاً مما كان يجري .

وأمرها هارون: «اتركي الولدين هنا واتبعيني» .

ودخل غرفة النوم مع أسيره. وانضمت إليهما مريم بعد أن أرخت ستارة
الصفوف المستخدمة لإغلاق الحجرة.

«انظر إلى هذه المرأة يا زروالي!»

ما إن سمعت أختي هذا الأسم حتى تفوهت بلعنة. وشعر العجوز بنصل
الخنجر يضغط على فكّه. وابتعد خفية من غير أن يفتح فمه.

«تعرّي يا مريم!»

ونظرت إلى «المنقب» بعينين غير مصدّقتين ومفزعّتين. وزعق من جديد:

«أنا هارون زوجك أمرك بالتعرّي! أطيعي!».

وكشفت المسكينة عن خديها وشفتيها ثمّ عن شعرها بحركات خرقاء متقطّعة.
وأغمض الزروالي عينيه وطأ رأسه جهاراً. فلو حدث أن رأى جسد هذه المرأة
عارياً فإنه يعلم أيّ مصير ينتظره.

«اعتدل وافتح عينيك!».

ورافق أمر هارون حركة فظة من الخنجر. واعتدل الزروالي، لكنّه احتفظ
بعينه مغمضتين بإحكام.

والح هارون قائلاً: «انظرا»، في حين كانت مريم تحلّ أثوابها بيد وتمسح
دموعها بالأخرى.

وسقط ثوبها.

«انظر هذا الجسد! أترى أثراً للجذام؟ اذهب وتفحصه عن كذب!»

وأخذ هارون يهزّ الزروالي دافعاً إيّاه صوب مريم ثمّ معيداً إيّاه إلى الخلف قبل
أن يدفعه كرة أخرى بعنف مخلياً إيّاه. وكساد العجوز ينهار عند قدمي أختي التي
نذت عنها صرخة.

«كفى يا هارون، أتضرّع إليك!».

كانت ترقب تلك الخرقة المسيئة القابعة عند قدميها بشفقة تعادل دُعرها. فقد كانت عينا الزرواليّ مفتوحتين، غير أنه كان بلا حراك. واقترب هارون منه بحذر فجسّ نبضه ولمس أجفانه، ثم نهض من غير أن يبدو عليه الاضطراب قطّ.

«كان هذا الرجل يستحقّ أن يموت كالكلب عند قدمي أكثر ضحاياها براءة».

وقبل المساء كان هارون قد دفن الزرواليّ تحت شجرة تين من غير أن ينزع عنه ثوبه أو قبّابه أو حُلِيّه.

عام العاصفة

٩١٨ هـ (١٩ آذار «مارس» ١٥١٢ م -

٨ آذار «مارس» ١٥١٣ م)

في ذلك العام ماتت زوجتي فاطمة وهي تضع . وبكيتها طوال ثلاثة أيام بمثل مالم أكن قد أحببتها قط . ولم يعيش المولود، وكان ذكراً .

واستُدعيت إلى القصر قبيل أسبوع الأربعاء . وكان السلطان قد رجع لتوّه من حملته الصيفية الجديدة على البرتغاليين، وعلى الرغم من أنه لم يسجل فيها سوى المخازي فإني لم أستطع إدراك أمر الوجوه المتقبضة التي تلتفتني ولم أكد اجتاز البوابة الكبيرة .

ولم يُظهر لي السلطان نفسه أيّ عداء، لكنّ استقباله كان خلوّاً من الحرارة، وصوته كان مصطنع الوقار:

«لقد التمست منذ عامين العفولنسيك هارون الحمال . وقد منحناك إياه . ولكنه بدلاً من أن يصلح هذا الرجل حاله ويظهر عرفانه فإنه لم يرجع قط إلى فاس مفضلاً أن يعيش في الريف عيش الخارجين على القانون، مترقباً الفرص للانتقام من الزرواليّ العجوز .

- ليس ما يثبت يا مولاي أن هارون هو المعتدي . فتلك الجبال ملأى بقطّاع . . .»

وكان قاضي القضاة هو الذي قاطعني بصوت أعلى من صوت السلطان:

«لقد عُثر على جثة الزرواليّ مدفونة بالقرب من بيت كانت تسكنه أختك وزوجها . وقد تعرّف الجنود على المدفون به لأنّ حليّه لم تكن قد نُزعت . فهل تكون هذه جريمة مجرد قاطع طريق؟»

ويجب أن أعترف بأنه منذ ورود الأخبار الأولى عن اختفاء الزرواليّ إلى فاس قبل أربعة أشهر، وفي الوقت الذي لم أكن أعرف فيه أدنى تفصيل يُفصح عن ذلك، كان احتفال انتقام قام به هارون قد دار في خَلدي . فقد كنت أعلم أن «المنقّب» قمين بمواصلة أحقاده حتى النهاية، ولم أكن أجهل أنه كان قد اختار الإقامة في ذلك الجزء من الريف . وهكذا لم يكن سهلاً عليّ إعلان براءته . وكان عليّ مع ذلك أن أدافع عنه لأنّ أيّ تردّد يصدر عني كان سيرهقه .

«مولانا أعدل من أن يرضى بالحكم على إنسان لا يكون قادراً على الدفاع عن نفسه . ولا سيّما حين يتعلّق الأمر بفرد محترم من أفراد جماعة الحَمّالين» .

وبدا السلطان متضايقاً:

«لا يتعلّق الأمر بنسيبك يا حسن، بل بك أنت . فأنت منّ طالب بطرد الزرواليّ، وقد أمرنا بنفيه إلى قريته بناء على إلحاحك، وبذهابه إلى هناك هوجم وقتل . إن مسؤوليتك لفادحة» .

وفيا كان يتكلّم غامت عيناى وكأتهما كانتا قد بدأتا تستسلمان لظلمة زنّانة . ورأيت ثروتي تُصَادِرُ وأملاكي تُوزَعُ وأسرّي مُهان وهبة تُباع في سوق النخاسة . وتراخت ساقاي وغمرني العَرَقُ، عَرَقُ العجز البارد . وجهدت مع ذلك في التفوّه بمشقة، بانتحاب:

«وما تُهمّتي؟»

وتدخّل قاضي القضاة من جديد وقد جعله دُعري البادي للعيان أكثر مشاكسة فقال:

«التواظؤ أيها الغرناطي! تركك مجرباً حرّاً طليقاً، إرسالك ضحيته إلى الحتف، انتهاكك العفو السلطانيّ وتفريطك بعطف مولانا» .

وحاولت أن أمالك نفسي وقلت:

«وأني لي أن أعرف متى يعود الزرواليّ من حجّه، ومن أيّ طريق؟ وأمّا هارون

فإنّي لم أره منذ أربعة أعوام، ولا استطعت حتى أن أبلغه إجراء العفو الذي حظي به» .

والحقيقة أنّي كنت قد أوصلت إلى «المنقّب» البلاغ تلو البلاغ، لكنّه كان لفرط عناده قد أهمل الردّ على أيّ منها. ومع ذلك فإنّ دفاعي ما كان ليمرّ من غير أن يؤثر في الملك الذي استعاد بعض نبرات الودّ وهو يقول:

«لا ريب في أنك لست مذنباً في هذا يا حسن، غير أن المظاهر تدينك. والعدل يعتمد على المظاهر، في هذا العالم على الأقلّ، وفي عيون جمهرة الناس على الأقلّ. ولا يسعني في الوقت عينه أن أنسى أنّك خدمتني بإخلاص حين عهدت إليك في الماضي ببعض المهّمات» .

وصمّت. كان يدور في خلده قرار تمالكك أن أقطعه عليه لأنّي أحسست أنه يميل إلى الرأفة. ومال عليه قاضي القضاة بنية واضحة للتأثير فيه، بيد أن السلطان ألزمه بجفاء أن يصمت قبل أن يصدر قراره:

«لن يكون مصيرك مصير القاتل يا حسن، بل مصير الضحيّة. لقد حكم عليك بالطرد كالزرواليّ. ولن تمثّل خلال عامين كاملين في هذا القصر، ولن تقيم في فاس ولا في أيّ إقليم من الأقاليم التي أملاكها. وكلّ من يراك اعتباراً من اليوم العشرين من شهر رجب داخل حدود المملكة سوف يأتي بك مصقّداً» .

وعلى الرغم من قسوة الأقوال الأخيرة فقد كان عليّ أن أبذل جهدي كيلا يستشفّ أحد ارتياحي. فلقد نجوت من السجن والإفلاس، وما كانت رحلة طويلة مدّتها عامان لتخيفني قطّ. وعلاوة على ذلك فإنّني مُنحت مهلة شهر لتنظيم أموري .

كان خروجي من فاس مشهوداً، فقد أصررت على الذهاب إلى المنفى مرفوع الرأس مرتدياً الديداج، لا في الليل وإنّما في رابعة النهار، وأن أسلك الأزقة الغاصّة وورائي قافلة فخمة: مثلاً جمل محمّلة بأنواع البضائع وبعشرين ألف

دينار، وهي كنز كان يحميه خمسون حارساً مسلحاً كسوتهم وقمت بنفقاتهم، وكان منظرهم كفيلاً بتثييط همم اللصوص الذين يعيشون في الطرق فساداً. وتوقفت ثلاث مرات، إحداهن أمام مدرسة أبي إنانية، والثانية في صحن مسجد الأندلسيين، والثالثة في شارع الخزافين بجوار السور لأرش على المتسكعين بضع حفنات من الذهب جانباً في المقابل المدائح والتهنئات.

كنت أجازف وأنا أنظّم مثل ذلك العرض. فلو هُيمست بعض الأحاديث المغرضة في أذن قاضي القضاة ثم أذن السلطان لكان من الممكن أن اعتقل وأتهم بأنّي حولت العقاب السلطاني النازل بي إلى مهزلة. وكان عليّ مع ذلك أن أجازف تلك المجازفة، لا لكي أرضي كبريائي وحسب، وإنما من أجل أبي وأمي وبنتي وجميع أهلي أيضاً، فلا يعيشون في الخزي طوال مدّة طردي.

وتركت لهم بالطبع ما يقيهم شرّ العوز لسنوات طويلة طاعمين مخدومين لابسين على الدوام جديد الثياب.

وإذ أصبحت على بُعد ميلين من فاس على طريق سفرو موقناً بأن كلّ خطر قد زال منذ الساعة اقتربت من هبة القابعة على راحلتها في هودج مكسو بالأقمشة الحريرية وهنفت في حبور:

«لا يذكر فاسي أنه سبق لأحد أن شهد انسحاباً بمثل هذا الزهو».

وبدت قلقة وقالت:

«لا ينبغي تحدي أحكام القدر، ولا ينبغي الاستخفاف بالخصومة».

وهزرت كتفي من غير أن أتأثر على الإطلاق وقلت:

«ألم أقسم بأن أعيدك إلى قبيلتك؟ سوف تكونين عندهم بعد شهر. إلا إذا لم تكوني راغبة في مرافقتي إلى تومبكتو، ثم إلى مصر».

واكتفت للإجابة بـ «إن شاء الله» غامضة مكروبة.

بعد أربعة أيام كنا نعبّر ممرّ الغربان في جوّ أبرد بكثير مما كنت أفترض في ذلك

الشهر من تشرين الأول (أكتوبر). وعندما توجب أن نتوقف لقضاء الليل أقام الحرس المخيم في وهدة صغيرة بين تلّتين راجين الاحتماء من رياح الأطلس القارسة. وكوّنا دائرة مضحكة من الخيام انتصبت في وسطها خيمتي وكأنها قصر من القماش مزخرف الحواشي بالآيات القرآنية المخطوطة بشكل فني.

وكان المفروض أن أنام هنا أنا وهبة. وكنت أنتظر تلك اللحظة بادي السرور، غير أنه عندما خيم الظلام رفضت رفيقتي بعناد أن تنام في الخيمة من غير أن يبدي سبباً واضحاً، ولكنّ بدعور في النظرات جعلني أعدل عن كل احتجاج. وكانت قد لمحت على بُعد نصف ميل من المخيم مغارة، وفيها سوف تنام لا في أيّ مكان خارجها.

أنفضي الليل في مغارة من مغاور الأطلس إلى جانب الضباع والأسود والفهود، وربما بجانب ثعابين ضخمة يقال إنها تكثر في الجوار، وأنها سامة حتى ليكفي أن تلامس الجسم البشري لكي يتفتت كالصلصال؟ كان من المستحيل إدخال هذا الخوف في روع هبة. فخيمتي الفخمة وحدها كانت مصدر رعبها في ذلك الليل الحريفي البارد.

وكان عليّ أن أستسلم. وتغلّبتُ على مخاوفي وانقدت إلى المغارة على الرغم من تأنيب الحرس ونظراتهم الشنرة. وكان منظر هبة المضحك، وهي تحمل كدسة كبيرة من الأغذية الصوفية وفانوساً وطستاً مليئاً بحليب النوق وعرجون بلح، يُشعري بأنّ احترامي قد تزعزع.

وبدا ماوانا ضيقاً أقرب إلى أن يكون فجوة في الصخر من أن يكون رواقاً حقيقياً، الأمر الذي سرّى عني لأنه كان في وسعي أن ألمس آخره بيُسْر وأتأكد من عدم وجود أي وحش فيه. باستثناء هبة التي لا يمكن ترويضها، والتي كان نصرّفها يزداد غرابة وهي تكوّم الحجارة لتضييق المدخل وتنكت الأرض بعناية فائقة وتغلّف بالصوف الطست والعرجون لحفظهما من التجمّد بفعل الجليد، بينما كنت أنا متعطّلاً ساخراً لا أكفّ عن رشقها بالتهكم والتوبيخ من غير أن أنجح في فرج أساربرها أو إثارة غضبها، وأكثر من ذلك في إلهائها عن عملها الدائب الشبيه بصنيع النمل.

وانتهيت إلى السكوت، لا بفعل الإعياء، وإنما بسبب الريح. فقد أجدت
تزداد هبوباً بين لحظة وأخرى حتى غدت مُصَمَّة. وكان يوم معها ثلج سميك
مهتداً بالنفاذ بدفقاتٍ كاملة إلى خلوتنا. وكانت هبة التي لم تنزعج قط تراقب الآن
بعين خبيرة جهاز الدفاع والبقاء الذي أقامته.

يا لهبة الرائعة! ما كنت بالطبع لانتظر ذلك الظرف لأبدأ بحبها. بيد أنها لم
تكن قط في نظري غير جوهره حريمي، الجوهرة المتألثة ذات الغنج والدلال التي
كانت تعرف كيف تظل بعيدة المنال من عناق إلى عناق. ومع هذا فإن امرأة
أخرى كانت تستبدى وسط عاصفة الأطلس. فقد كان منزلي الوحيد في عينيها،
في شفتيها، في يديها.

لقد كان الحياء يعني دائماً من قول «أحبك»، غير أن قلبي لم ينجعل يوماً من
أن يحب. ولقد أحببت هبة، وحقَّ الله العليُّ القدير موزع العواصف والسكنات،
ودعوتها «كنزي» من غير أن أدري أنها كانت مذكاً كل ما أملك، ودعوتها
«حياتي»، الأمر الذي لم يكن غير الحق لأن الله جنبني الموت بفضل شفاعتها.

فقد ظلت الريح تزجر يومين وليلتين، وتراكم الثلج فسداً سريعاً مدخل المغارة
وتركنا حبيسين داخلها.

وفي اليوم الثالث حضر بعض الرعاة ففتحوا الفوهة لا بنية إنقاذنا وإنما ليحتموا
بالمغارة لتناول بعض الزاد. ولم يبدُ قط أنهم سرّوا لرؤيتنا، ولا طال بي الزمن
لمعرفة السبب الرهيب. فقد مات الحرس والجمال الذين فاجأتهم العاصفة تحت
ركام الثلوج. وإذا اقتربتُ تبين لي أن الأرزاق وقعت فريسة النهابين، والأجساد
فريسة أكلة الجثث من السباع. ولم يكن مخيم قافلتي سوى خراب وبياب. وكان
أن واتاني حضور الذهن فلا أبدو حزيناً على الرجال الذين استخدمتهم ولا على
فقدان ثروتي. والحق أني كنت قد أدركت من الوهلة الأولى أن الرعاة لم يكونوا
غريباء عن عملية النهب. وربما كانوا قد أجهزوا أيضاً على الجرحى. وكانت كلمة
مني أو من هبة قمينة بجعلنا نلقى المصير نفسه. واتخذت أقصى ما يمكن من
مظاهر التجرد وأنا أكظم كل ما يغلي في صدري من غلٍ وقلت:

«ذلك هو حُكْمُ العليِّ القديرا!».

وإذ وافق مخاطبيَّ بإزجاء مثل سائر فقد استطردت:

«هل نستطيع أن نسعد بضيافتكم بانتظار إكمال طريقنا؟»

لم أكن أجهل تقاليد هؤلاء الرُحَل الغريبة. فهم لا يترددون في قتل مؤمن للاستحواذ على كيس نقود أو راحلة، غير أنه يكفي الاستنجاد بكرمهم ليتحوّلوا إلى مضيافين ودودين متلهّفين. وهناك مثل يقول إنهم يحملون في أيديهم على الدوام خنجرًا «إما لذبحك وإما لذبح شاة لإكرام وفادتك».

«ديناران ذهباً وخمسة دراهم فضة عَدَدْتُها وراجعت عَدَّها ووزنتها وقلّبتها. تلك كلّ ما بقي من ثروتي العريضة، كلّ ما تبقى لي لاجتياز الصحراء حتى بلاد النيل لبدء حياتي من جديد!».

واجهت هبة شكواي المكررة بابتسامه لا يُدرك مرماها، ابتسامه غنج ساخرة رقيقة معاً، ابتسامه لم يكن منها إلا أن أججت غضبي. وزعقت كرة أخرى:

«ديناران ذهباً وخمسة دراهم فضة! حتى ولا راحلة ولا ثوب غير الذي أبلاه السفر!»

— وأنا، ألسنت لك؟ لا بدّ أني أساوي خمسين قطعة ذهبية، وربما أكثر».

كان ما ينزع عن حديثها كل ريب في حسنة الغمزة التي رافقتها، ثم على الأخصّ المشهد الذي كانت هبة تعانقه بحركة سامية: حقل أشجار النيلة على ضفتي نهر دارا عند مدخل القرية التي وُلدت فيها.

كان بعض الأطفال قد هُرعوا، ثم جاء دور زعيم القبيلة الأسود البشرة اللطيف القسمات ذي اللحية التي تشبه العقده، وقد عرف على الفور رفيقتي على الرغم من غيابها عشر سنوات وضمّها إلى صدره. وخاطبني بالعربية قائلاً إنه يشرفه استضافتي في بيته المتواضع.

وقدّمته إليّ هبة بوصفه عمّها، وقالت عنيّ إني سيّدها، الأمر الذي كان

صحيحاً في الواقع وإن لم يكن يعني شيئاً في ذلك الظرف. ألم أكن وحيداً مفلساً يحيط بي ذووها؟ وكنت على أهبة القول إنها لم تكن في نظري جاريةً عندما ألزمتني الصمت بتقطيعة من حاجبيها. وإذا استسلمت لعدم التفوه بكلمة فقد شاهدت بدهشة ولذة مشهداً غريباً جداً.

فقد دخلت هبة منزل عمّها وجلسنا في حجرة واطئة، ولكن شديدة الاستطالة، على بساط من الصوف توزّع حوله عشرون من عجائز القبيلة لم يكن يبدو على وجوههم أبداً أنهم كانوا سعداء باللقبة التي يفترض فيهم الاحتفال بها. وبدأت هبة الكلام فوصفتني بأنني شخصية مرموقة في فاس ومنكبة على الفقه والأدب، وأخبرت بالظروف التي وهبها فيها لي أمير «أورزازات»، وقصّت بأسلوب منمّق ومثير للمشاعر حادثة العاصفة الثلجية التي تسببت في إفلاسي. وقبل أن تنهي كلامها بهذه الكلمات:

«وبدلاً من أن يبيعني هذا الرجل إلى بعض عابري السبيل فضل أن يُعيدني إلى قريتي. وقد أقسمت له أنه لن يندم على ما فعل».

توجّهت بقحة لا توصف إلى أحد الأعيان وقالت:

«ما المبلغ الذي أنت مستعدّ لافتدائي به يا عبدالله؟»

وأجاب الرجل بارتباك:

- أنت أئمن مما أقدر عليه. وفي وسعي مع ذلك أن أسهم بعشرة دنانير.

وأجالت طرفها في الحضور باحثة عن فريستها الثانية:

«أنت يا أحمد؟»

وويّخ المدعو أحمد باحتقار عبدالله قبل أن يعلن:

«مني ثلاثون ديناراً لغسل العار عن القبيلة».

وأنهت حلقة الحضور على هذا النحو مستخدمةً بنهاية ما بين الأسر والعشائر من حسد ومهاترات بشكل أتاح لها الحصول في كل مرة على مساهمة أهمّ من التي

سبقت. وغدا ديناراي البائسان اثني عشر فائنين وأربعين فائنين وسبعين. . .
وكان آخر المُستجار بهم عمّ هبة الذي كان عليه بوصفه زعيم القبيلة أن يبرّر رتبته
الارتفاع فوق أسخى أفراد الرعية. وهتف بزهو وكأنه لا يخاطب شخصاً بعينه:

«منا دينار!» .

لم أصدقُ أدنيّ، بيد أنّ هبة جاءت في المساء لرؤيتي، وكنت مستلقياً في الغرفة
التي دعاني الزعيم إلى قضاء الليل فيها، ومعها المبلغ بأكمله، أكثر من ألف
وثمّائة دينار.

«نوريني يا هبة بحقّ من أسبغ عليك هذا القدر من الجمال! ما معنى هذه
اللعبة؟ وكيف حدث أن كان للناس في هذه القرية كلّ هذا المال؟ ولماذا على
الأخصّ يعطونني إياه؟

- لافتدائي!

- تعلمين جيّداً أنّ بإمكانهم الحصول على حرّيتك من غير أن يدفعوا نحاسة
واحدة.

- ولافتداء أنفسهم أيضاً».

وإذ أبديت عدمَ فهمٍ مُطَبّقاً فقد وافقت أخيراً على أن تشرح لي:

«كانت قبيلتي تترحلّ طوال أجيالٍ غربيّ الصحراء إلى اليوم الذي بدأ فيه
جدّي وقد أطمعه الربح يزرع النيلة ويتاجر بها. وهكذا تكسب هذه القرية من
المال أكثر ممّا تحتاج إلى إنفاقه، وفي أرض كلّ كوخ صغير من الذهب المدفون أكثر
ممّا في أجمل بيوت فاس. غير أنّ أهلي فقدوا باختيارهم عيش الحضر كلّ مزنة
حربية. وذات يوم، وكنت قد بلغت لتويّ الحلم. . .»

وجلست بجانبني مرجعة رأسها إلى الوراء قبل أن تتابع:

«وكنا قد ذهبنا شاباً وشيباً، رجالاً ونساء، لزيارة ضريح وليّ على مسيرة يوم
من هنا. ويغتنم هجم علينا خيالة من حرس أمير «اورزازات». كانوا أربعة في
حين كنا أكثر من خمسين، منهم أكثر من عشرين رجلاً بكامل أسلحتهم. غير أنّ

أحداً من رفاقي لم يفكر في استعمالها، بل هربوا بلا استثناء تاركين لكل رجل من الأربعة أن يختار الفتاة التي تروق له. ولم يفعل شيوخ القبيلة خلال الحفل العجيب الذي شهدته منذ ساعات غير دفع دينهم، غير إصلاح أمر كرامتهم وكرامة ابنائهم المهذورة».

وأسندت رأسها إلى كتفي وقالت:

«في وسعك أخذ هذا المال بلا خجل ولا ندم. فليس من رجل يستحقه أكثر من سيدي المعبود».

وقربت، وهي تتلفظ بهذه الكلمات، شفيتها من شفتي. وإذا كان قلبي قد أخذ يقرع صدري قرعاً عنيفاً فقد كانت عيناى تنظران بقلق إلى الستارة الرقيقة التي كانت تفصلنا عن الحجرة المجاورة التي كان فيها عمها.

ومن غير أي حرج حلت هبة ثوبها ووضعتها جسدها الأبنوسي المصقول بمتناول ناظري ولمساتي وهمست قائلة:

«لقد ضاجعتني حتى الآن جارية، فضاجعني اليوم حرّة! للمرّة الأخيرة».

لم يكن يدعني إلى الإسراع وأنا أغادر هبة سوى أمر واحد، هو أن أستعيد في تومبكتو ذكراها، بل ربما بعض آثار منها في تلك الحجرة التي شهدت قبلتنا الأولى. وكان المبنى لا يزال قائماً. وعلى الرغم من أنه كان ملك أمير المدينة لاستضافة الزائرين المرموقين فقد فتح لي بابّه ديناراً واحداً. فما إن أقبل المساء الأول لقدومي حتى كنت أرتفق النافذة نفسها عاباً هواء الخارج مستعيداً فيه عبق العنبر الذي كان قد عطّره قبلاً، مترقباً توقيعات الجوقة السوداء التي لم أكن أشك في أنها لن تلبث أن تصدح في الشارع. وعندما أقدر أن التفت إلى وسط الحجرة وأرى طيف هبتي راقصاً. ورفعت ريح شديدة الستارة التي أخذت تحوم وتتلوى برشاقة.

وسمعت في الخارج أصوات أقدام وبعض الصيحات وهي تقترب. أنكون

جوقة ذكرياتي؟ ولكن لماذا يحملها إليّ مثل هذا الصخب؟ وكان ارتباضي ويا للأسف قصير الأمد، فما لبثت الساحة أن ازدحمت فجأة كما تزدحم في رابعة النهار وقد اجتاحتها حشد خليط هائج كان يشق بزعماته عنان السماء. وكيف لي ألاّ يساورني الخوف؟ وناديت من نافذتي عجوزاً كان ركضه أبطأ من ركض الآخرين. وتوقف وقال لي بلغة البلد بضع كلمات لاهثة. وإذ رأى أنني لم أفهم شيئاً فقد واصل جريه مثبيراً إليّ أن أتبعه. وكنت لا أزال متردداً عندما لمحت في الفضاء الومضات الأولى لحريق كان قد شب. وبعد أن تأكدت من أن ذهبي كان معي قفزت من النافذة وأخذت أجري.

ولم تقلّ المدة التي قضيتها هائماً على هذا النحو عن ثلاث ساعات كنت راضحاً فيها لمزاج الحشد الذي طار صوابه، مستنبهاً عن الكارثة بالإشارات لا الكلمات في أكثر الأحيان. وكان أكثر من نصف تومبكتو قد احترق، ولم يكن يبدو أن شيئاً قادر على منع النار التي كانت تؤججها الريح من الانتشار عبر ما لا يحصى من الأكواخ ذات السطوح المتخذة من القش، القريبة بعضها من بعض بشكل خطير. وكان عليّ أن أبتعد بأسرع ما يمكن عن تلك المحرقة الضخمة.

كنت قد سمعت البارحة أن قافلة تجار من جميع الأجناس كانت مجتمعة خارج المدينة وعلى أهبة الانطلاق في الفجر فانضمت إليها. وقد كنا حوالي أربعين مسافراً، وكان علينا أن نقضي الليل بطوله وقوفاً فوق كتيب ذاهلين لمشهد النار تنفطر قلوبنا للجلبة المتصاعدة مع اللهب، جلبة انتهى بنا الأمر إلى أن كنا نتميز فيها صرخات المحروقين الرهبة

ولن أستطيع يوماً تذكّر تومبكتو من غير أن تعاودني هذه الصورة الجهنمية. ففي ساعة الرحيل كانت سحابة جِداد تغلّف وجهها، ويعذب جبتها عدد لا يحصى من الفرقعات. وكان تمام انمحاق أجمل ذكرياتي.



عندما كان جغرافيوننا القدماء يتكلمون على بلاد الزنج لم يكونوا يذكرون غانا ولا واحات صحراء ليبيا. ثم وصل الغزاة المثلثون والوعاظ والتجار. وأنا نفسي،

وأعتبر آخر من يمكن ذكره في الرحّالين، أعرف أسماء ستين مملكة زنجية منها خمس عشرة اجتزت بها واحدة بعد أخرى في ذلك العام من النيجر إلى النيل. ولا وجود لبعضها في أيّ كتاب، ولكنّي أكذب إذا نسبت اكتشافها إلى شخصي لأنّي لم أزد على أن اتّبعت الطريق المألوفة من القوافل المنطلقة من جنة أو مالي أو أوالاته أو تومبكتو إلى القاهرة.

ولم يلزمنا أكثر من اثني عشر يوماً من المسير بمحاذاة نهر النيجر لبلوغ مدينة «غاوو». ولم يكن بها أسوار، لكنّه لم يكن يجرؤ عدوّ على الاقتراب منها للذبيوع صبت عاهلها الأسكيا محمّد أقوى رجل في بلاد الزنج. ولم يكن سرور تجّار القافلة بالتوقّف فيها بالقليل. وقد شرحوا لي أنّ أهل «غاوو» يملكون من الذهب ما يمتكّن من بيعهم أنفه أنسجة أوروبا وبلاد البربر بما يساوي ثمنها مضاعفاً خمسة عشر أو عشرين ضعفاً. وبالمقابل فإنّ اللحم والأرزّ والخبز والقرع من الوفرة فيها بحيث تباع بأبخس الأثمان.

واجتزنا في المراحل التالية عدّة ممالك أذكر من بينها أوانغارة وزغزغ وكانو وبورنو، وهي أهم من السابقات، بيد أنّنا تمجّنا المكوث طويلاً فيها. والحقّ أنّنا ما إن دخلنا عاصمتها حتى التقينا جماعة من التجّار الغرباء بادروا إلى إخبارنا بمصائبهم كما أوردت في كتابي «وصف إفريقية». فقد درج عاهل هذه البلاد على عادات غريبة جداً. وكان يشعر بلذّة كبرى في إظهار غناه بحيث كانت عدّة جياده جميعها من الذهب، وكذلك كلّ آنية قصره. حتى السلاسل التي تربط كلابه كانت كلّها من الذهب الخالص، وقد تحققت من ذلك بأنّ عينيّ إذ جذب هؤلاء التجّار كلّ هذا القدر من البذخ وخلطوا لسوء حظّهم بين السخاء والتفاخر، فقد جاءوا من فاس وسوس وجنوة ونابولي بسيوف منقوشة ومرصعة بالجواهر، وممطرّزات وخيول أصيلة، وبكل أصناف السلع النفيسة. وقال لي أحد أولئك المنكودين:

«سرّ الملك بذلك أيّما سرور وأخذ البضاعة برمتها في الحال من غير حتى أن يناقش أو يساوم. وعمّنا الفرح. لكننا ما نزال مذّاك نتظر قبض الثمن. ولقد انقضى أكثر من عام على وجودنا في بورنو نذهب كل يوم للشكوى في القصر.

وهناك نتلقى الوعود، فإذا ألحنا أجابونا بالتهديدات».

لم يكن هذا سلوك العاهل الذي زرناه بعد ذلك، أي صاحب «غاوغة». فقد كنت في قصره أقدم له الإجلال عندما حضر تاجر مصري من مدينة دمياط يسديه حصاناً جميلاً وسيفاً تركياً ودرعاً من الزرد وبنديقية عريضة الفوهة وعدداً من المرايا وسبحات المرجان وبعض السكاكين المنقوشة، أي ما قيمته خمسون ديناراً. وتقبل العاهل الهدية ببشاشة، بيد أنه أعطاه في المقابل خمسة عبيد وخمسة جمال ومئة من أنياب الفيل الضخمة، وكأنما كان كل ذلك غير كافٍ فأضاف بنقود بلاده ما يعادل خمسمئة دينار ذهباً.

ويعفادرتنا هذا الأمير السخيّ بلغنا مملكة النوبة حيث تقوم مدينة دنقلة الكبيرة على ضفة النيل. وكنت أنوي استئجار مركب منها للذهاب إلى القاهرة لكنني أُخبرْتُ أن النهر لم يكن صالحاً للملاحة في ذلك المكان، وأن عليّ أن أحاذي الضفة حتى أصل إلى أسوان.

وفي اليوم الذي بلغت فيه بالذات تلك المدينة عرض عليّ بحريّ أن يأخذني على جرمه. وكان ينقل على هذا المركب المسطح كمية كبيرة من الحبوب والماشية، بيد أنه كان في وسعه، كما وعد، أن يخلي لي مكاناً مريحاً جداً.

وقبل أن يصعد إليه انبطحت على بطني عند الشاطئ وغمست وجهي طويلاً في ماء النيل. وفي اللحظة التي رفعت فيها كنت على يقين من أنه بعد العاصفة التي أتلفت ثروتي ستفتتح لي في هذا البلد من مصر حياة جديدة مكوّنة من أهواء وأخطار وأمجاد.

وكنت متلهفاً على اقتناصها.

كتاب القاهرة

كانت القاهرة عندما وصلت إليها يا بنيّ قد أصبحت منذ قرون عاصمة
مهمية لإمبراطورية، ومقرّاً لخلافة. ولم تكن عندما غادرتها سوى قصبه
لإقليم. ولا ريب في أنها لن تستعيد قطّ مجدها الغابر.

ولقد شاء الله أن أكون شاهداً على هذا الانحطاط كما على المحن التي
سبقت. فقد كنت لا أزال مُبحراً فوق النيل أحلم بالمغامرات والغزوات
السعيدة عندما لاحت نُدُر الشرّ. غير أنني لم أكن قد تعلّمت بعد احترامها
ولا فكّ رموز بلاغاتها.

كنت مستلقياً بكسل في الجِرم الواسع ورأسي مرفوع قليلاً على مسند
من الخشب تهدهدي ثرثرة البحرين التي كانت تذوب متناغمة في بقية
الماء، وكنت أرقب الشمس التي بدأت محمراً وهي على أهبة الغياب بعد
ثلاث ساعات عند الضفّة الإفريقية. وهتف بي زنجي من ملاحِي المركب
قائلاً:

«غدا عند الفجر نكون في مصر القديمة»:

وأجبت بابتسامة في عرض ابتسامته، فلم تكن تفصلي بعد الآن عقبه
عن القاهرة. ولا كان عليّ إلا أن أترك للزمن ولنهر النيل أن ينسأب في
انسيابها المحتوم.

وكنت على وشك الإغفاء عندما تعالت أصوات البحرين واحتدم
حديثهم. وإذا اعتدلت فقد شاهدت حرماً يعبر النهر ويصل إلى محاذاتنا.
وقد احتجت إلى بعض الوقت لتمييز ما كان يستدعي الغرابية في ذلك
المركب الذي لم ألاحظ اقترابه. كان فيه نساء جميلات فاخرات الثياب
مكّدسات مع أولادهن وقد علا الذعر وجوههم جميعاً وسط مئات من
الخراف كانت رائحتها تزكم أنفي. وكانت بعض النسوة يزّين جباههن
بحليّ جعلنها كشرائط الزهر وعلى رؤوسهن طرايطر عالية وضيقة بشكل
أنيب.

ويكفي في بعض الأحيان مشهد غير مألوف لتلوح مأساة. وتقدّم ميني
الملاحون في صفّ ووجوههم ممطوطة وراحاتهم إلى السماء. وراّن صمت
طويل، ثم خرجت من فم أكبرهم سنّا كلمة تزحف.

«الطاعون!»

عام «العين الجيلة»

٩١٩ هـ (٩ آذار «مارس» ١٥١٣ م -

٢٥ شباط «فبراير» ١٥١٤ م)

كان الوباء قد انكشف منذ بداية ذلك العام غداة عاصفة عاتية ووابل من الأمطار، وكلّهما عند القاهريين أمارات أكيدة على غضب السماء وعلى عقاب وشيك. ولقد أصيب أول من أصيب الأطفال، وأجلى عليه القوم عائلاتهم على عجل، بعضهم إلى الطور جنوبي سيناء حيث الهواء صحي، وآخرون إلى الواحات، وفريق ثالث إلى مصر العليا إذا كانوا يملكون مسكناً فيها. ولم نلبث أن التقينا عدّة مراكب تحمل عثاكيل يرثى لها من الهاريين.

ولقد كان من التهور التقدّم من غير الأطلاع على مدى انتشار المرض. وعليه فقد توقّفنا عند الضفة الشرقية في مكان مقفر وقررنا البقاء المدة اللازمة متقوّتين بالبضائع المنقولة، مغيّرين كل ليلة مكان وقوفنا لتضليل النهابين المحتمل قدومهم. وكنا ننتسقط الأخبار خمس مرات أو ستاً في اليوم مجذّفين إلى جوار الذين كانوا مبحرين في النيل بالاتجاه المعاكس لاتجاهنا لسؤالهم. كان الوباء يجتاح العاصمة، وكانت تسجّل كل يوم في سجلات النفوس الرسمية خمسون أو ستون وفاة؛ وكنا نعلم مع هذا بالتجربة أنه ينبغي حسابان عشرة أضعاف هذا العدد من الوفيات غير المعلنة. وكان كلّ مركب يحمل رقياً جديداً محدّداً دائماً، ومرفقاً أحياناً بشروح لا تحتّم أي نقاش. كما أنّ الأرض زلزلت يوم الاثنين الواقع فيه عيد الفصح المسيحيّ ثلاث مرات؛ وفي اليوم التالي سجّلت مئتان وأربع وسبعون وفاة. . . ويوم الجمعة التالي هطل وابل من البرد لم يُسمع بمثله في مثل ذلك الفصل من السنة؛ وأحصي في ذلك اليوم نفسه ثلاثمئة وخمس وستون وفاة. وعزم سلطان مصر، وهو مملوك جركسي عجوز يدعى قانصوه، أن يلبس بناء على نصيحة من طبيبه خاتمين من الياقوت ليحفظ نفسه من الطاعون؛ وأصدر كذلك قراراً بمنع

الخمر والحشيش وأعمال الدعارة. وأقيمت في جميع أحياء المدينة برك جديدة لغسل الموق.

لم يكن جميع الضحايا بالطبع من الأطفال والخدم. وقد بدأ الجنود والضباط يتساقطون بالآلاف. وبأمر السلطان إلى الإعلان بأنه هو الذي يرث أمتعتهم وتجهيزاتهم. وأمر بحجز أرامل جميع العسكر المتوفين ريشاً يُسلمن إلى دار السلاح سيفاً مطعماً بالفضة ودرعاً من الزرد وخوذة وجعبة وجوادين أو ما يعادل ثمنها. وعلاوة على ذلك قرّر قانصوه، وقد قدر أن أهل القاهرة كانوا قد نقصوا نقصاً كبيراً، وأنهم سوف يزداد تناقصهم، أن يقتطع من الغلة الجديدة مقداراً كبيراً من القمح لا يلبث أن يرسله إلى دمشق أو حلب حيث يستطيع بيعه بثلاثة أضعاف سعره. وبين ليلة وضحاها أخذ ثمن الخبز والطحين يزداد بلا حساب.

وعندما غادر السلطان حصنه بعد إعلان هذه القرارات واجتاز شوارع المدينة للاطلاع على عملية الترميم الباهظة الجارية في المدرسة التي ستحمل اسمه، وكان قد رسمها بنفسه وتصدّعت قبتها للمرة الثالثة، هزى به الناس وترامت إليه الصيحات تقول: «قاتل الله من يُجيعون المسلمين!» وفي طريق العودة تماشى السلطان أن يجتاز حيّ باب زويلة الشعبي، وفضل بلوغ القلعة من شوارع أقلّ ازدحاماً.

لقد نقل إليّ هذه الأخبار تاجر شاب ثريّ متعلّم توقّف بمحاذاتنا بمركبه الخاصّ الذي هرب به مع أسرته من العاصمة ولبث بضع ساعات قبل متابعة طريقه. وقد أبدى لي الصداقة من الوهلة الأولى واستعلم عن بلدي وآخر رحلاتي، وكانت أسئلته أحفل بالمعرفة من إجاباتي. وعندما رجعت بالحديث إلى مصر قال لي بصوت وادع:

«من حُسن الطالع أن الملوك يشتطون أحياناً، وإلا لما سقطوا قطّ».

وأضاف وعيناه ترقان:

«جنون الأمراء حكمة القدر».

وخيل إليّ أي فهمت فقلت:

«لن تلبث الفتنة أن تنشب، أليس كذلك؟»

- لا وجود لهذه الكلمة عندنا. صحيح أن الناس يُظهرون شجاعة في الشوارع في زمن الوباء لأنّ قوة السلطان تبدو هزيلة بإزاء قوّته تعالي التي تحصد الجنود أفواجا. غير أنه ليس في البيوت أقلّ سلاح، فما هي إلا بضعة سكاكين لقطع الجبنة. وعندما تأزف ساعة الانقلابات فإن مملوكاً جركسيّاً هو الذي يحلّ على الدوام محلّ مملوك جركسيّ آخر».

وقبل أن يستأنف التاجر رحلته عرض عليّ عرضاً غير متوقّع قبلته بكثير من العرفان، على الرغم من أنني لم أكن قد قدّرت للتوّ مدى سخائه:

«سوف أقيم بضعة أشهر في مدينة أسيوط مسقط رأسي، ولا أريد أن يبقى بيتي في القاهرة مهجوراً طوال هذه المدة. وإنه ليشرّفني أن تتمكّن من سكنه في غيبتيّ».

وإذ أبدت حركة مزدوجة للتعبير عن شكري ورفضي فقد أمسك بمعصمي وقال:

«ليست هذه حظوة أغمرك بها أيها المسافر الكريم، لأنّه لو بقي منزلي بلا صاحب لكان فريسة للنهايين، ولا سيّما في هذه الأيام العصيبة. وإنك بقبولك لتتمنّي عليّ وتحلّ مشكلة تشغل بالي».

لم يكن في وسعي في مثل هذه الظروف إلا الموافقة. فتابع بلهجة واثقة لرجل أطل إنضاج قراره:

«سأكتب لك صكاً يفيد بأنك تستطيع التمتع بملكي حتى عودتي».

وذهب إلى مركبه فأحضر ورقاً وقلماً ودواة ثم عاد فجلس إلى جانبي. وأخذ يستعلم وهو يكتب عن اسمي وكُنيتي ولقبني وعملي، وبدأ راضياً وسلّمني الوثيقة ورزّمة مفاتيح ذكر لي كيفية توزيعها. وشرح لي أخيراً بعبارة واضحة أين أجد المنزل وكيف أتعرف عليه.

«إنه بناء أبيض تحيط به أشجار النخيل والجميز. ويقوم على رابية صغيرة في الطرف الشمالي من المدينة القديمة على النيل مباشرة. وقد تركت فيه بُستانياً سوف يقوم بخدمتك».

وازداد فروغ صبري لبلوغ غايته. وسألت مخاطبي عن الوقت الذي يُرجى فيه انتهاء الطاعون.

«جميع الأويثة الماضية كانت نهايتها قبل أول «مسري».

ورجوته أن يعيد الكلمة الأخيرة التي ظننت أنني أسأت سمعها، فابتسم ابتسامة لطيفة وقال:

«إن «مسري» هو في السنة القبطية الشهر الذي يبلغ فيه فيضان المياه مداه».

وهمست:

«لمصر فضل كبير في البقاء إسلامية بينما لا يزال النيل والطاعون يتبعان تقويم الفراعنة».

وفهمت من الطريقة التي غضّ بها من بصره، ومن ابتسامته المرتبكة أنه لم يكن هو نفسه مسلماً. ولم يلبث أن انهمك قائلاً:

«تأخر الوقت، وأظنّ أنّ علينا نشر الأشرطة».

وتوجّه إلى أحد أولاده وكان لا يملّ الدوران حول نخلة وقال:

«اصعد إلى المركب يا سيزوسترس، إننا ننتقل!»

وشدّ على يدي للمرة الأخيرة، ولم ينس أن يضيف قائلاً:

«في البيت صليب وأيقونة. بإمكانك نزعها إذا كانا يجرحان شعورك ووضعها في صندوق حتى عودتي».

ووعده بأنه، على العكس مما يقول، لن يُزاح شيء من مكانه، وشكرته على اهتمامه البالغ.

بينما كنت أتحدّث إلى ذلك القبطي كان البحرّيون قد وقفوا بعيداً وهم يقومون بحركات وإشارات حافلة بالحوية والنشاط. وما إن ابتعد الرجل الذي أحسن إليّ حتى جاءوا يخبرونني عن عزمهم على الرحيل مُدَّغِدًا إلى العاصمة. ولم يكونوا يجهلون، على الرغم من كونهم جميعاً مسلمين، أن الطاعون لن يزول قبل «سري». لكنّ أسباباً أخرى كانت تدفعهم إلى الانطلاق.

«لقد قال الرجل إنّ أثمان السلع قد زادت فجأة. وقد آن الأوان للذهاب إلى الميناء القديم وبيع حمولتنا والعودة إلى بيوتنا».

ولم أفكّر في الاحتجاج. فقد كنت أنا نفسي كالعاشق الذي أضناه أن ينام ليلة بعد ليلة على بُعد أذرع من عشيقته.

ها هي ذي القاهرة أخيراً.

لا يمكن أن ينسى المرء في أيّة مدينة أخرى بهذه السرعة أنه غريب. فما إن يصل المسافر حتى يلقه إعصار من الشائعات والنوادر والثرثرات. فمئة مجهول يحيطون به ويهمسون في أذنه ويُشهدونه على ما يفعلون ويدفعونه من كفه لدفعه جيداً إلى الشتيمة أو الضحك المنتظرين. لقد أصبح شريكاً في الأسرار بمسك بطرف من حكاية خيالية ويلزمه معرفة تتمتها، حتى وإن اقتضاه ذلك أن ينتظر القافلة التالية أو العيد المقبل أو موسم الفيضان. ولكنّ حكاية أخرى تكون قد بدأت.

وعندما نزلت في ذلك العام منهوكاً زائغ البصر على بُعد ميل من منزلي الجديد كانت المدينة بأسرها، على الرغم من فتك الطاعون بها، تسخر بلا تحقّظ من «العين الجليلة»، أي عين السلطان. وإذ أدرك أول بائع شراب جهلي متلذّذاً به فقد رأى من واجبه، وقد أوقف جميع أعماله وأبعد بحركة تنم عن الاحتقار زبائنه المتعطّشين، أن ينورني. ولم يكن ما سرده الأعيان والتجار على مسمعي ليختلف في شيء عما قاله لي ذلك الرجل. فقد قال:

«لقد بدأ كل شيء بمقابلة عاصفة جرت بين السلطان قانصوه والخليفة».

كان ذلك الخليفة عجوزاً لا مأخذ عليه يعيش وادعياً في حريمه . وكان السلطان قد جار عليه وطالبه بالاعتزال محتجاً بأن نظره أخذ يضعف، وأن عينه اليسرى غدت شبه ضريرة، وأن توقيعاته على المراسيم أصبحت جميعها رديئة ملطخة . وكان قانصوه يريد في الظاهر إخافة أمير المؤمنين ليسلب منه بضع عشرات الآلاف من الدينار في مقابل إبقائه في منصبه . ولكن العجوز لم يسر في اللعبة، بل أخذ ورقة مصقولة وكتب من غير أن يرتعش وثيقة تنازله لمصلحة ابنه .

وكان من الممكن أن تتوقف القضية عند هذا الحد، ظلم يضاف إلى غيره وسرعان ما يُنسى، لو لم يشعر السلطان نفسه بعد مدة بألم في عينه اليسرى . وقد حدث ذلك قبل شهرين من قدومي في الوقت الذي كان فيه الطاعون أشد ما يكون فتكاً . بيد أن العاهل لم يكن في حينها يهتم للوباء . وارتجى جفنه، ثم ما لبث أن غمض نهائياً فكان لزاماً عليه أن يرفعه بإصبعه لإلقاء أدنى نظرة . وشخص طبيه استرخاءً في الجفن ووصف عملية بضع .

كان مخاطبي قد قدم لي طاساً من شراب الورد وعرض عليّ الجلوس على صندوق خشبي، الأمر الذي قمت به . ولم يكن حولنا أي تجمع، واستمرت الحكاية :

«وإذ رفض السلطان رفضاً باتاً فقد أحضر الطبيب أمامه ضابطاً كبيراً، أميراً على ألف جندي، مصاباً بالمرض نفسه وأجرى له عملية في الحال . وعاد الرجل بعد أسبوع عارضاً عيناً استرجعت العافية بالتام» .

ولكن عبثاً . فقد فضل السلطان كما أخبرني الذي قصّ عليّ الحكاية أن يستعين بمطبية تركية وعدته بالشفاء من غير إجراء جراحة وبدهن الجفن المريض بمزيج مصنوع من مسحوق الفولاذ . وما هي إلا ثلاثة أيام من العلاج حتى امتد المرض إلى العين اليمنى . وامتنع السلطان العجوز عن الخروج، وتوقف عن كل عمل، ولم يعد قادراً حتى على اعتمار ناعورته، وهي الطاقية الثقيلة المقرنة التي كان آخر سلاطين مصر المماليك قد درجوا على اعتمارها . حتى إن ضباطه المقربين أخذوا، وقد اقتنعوا بأنه لن يلبث أن يفقد البصر، يبحثون له عن خلف .

كانت شائعات عن مؤامرة قد أخذت تملأ المدينة عشية وصولي إلى القاهرة بالذات. وقد بلغت بالطبع مسامع السلطان الذي أصدر أمراً بمنع التجول من الغسق إلى الفجر.

وأشار بائع الشراب إلى الشمس عند الأفق وقال مُنهيأً حديثه:

«لهذا فإنك تُحسِنُ صنعاً إذا كان منزلك بعيداً بأن تركض إليه في الحال لأن من يُعثر عليه في الشارع بعد سبع درجات يُجلد علناً حتى تسيل دماؤه».

سبع درجات... كان ذلك يعني أقل من نصف ساعة. ونظرت حولي فلم أرَ عند جميع نواصي الشوارع غير جنود ينظرون بنزق إلى ناحية المغرب. وإذا لم أجرؤ على الجري ولا على السؤال عن طريقي خوفاً من إشارة الشكوك فقد اكتفيت بالسير بمحاذاة النهر حائثاً الخطي راجياً أن ينكشف لي المنزل يُسر.

كان جنديان يتقدّمان مني وخطوهما ونظراتهما تشي بالبحث والتحري عندما لمحت درباً على يميني فدخلت فيه من غير أن أفكر لحظة واحدة، وخامرني شعور عجيب بأنني كنت قد سرت فيه كل يوم من أيام عمري.

ووجدت نفسي في بيتي. وكان البستاني جالساً على الأرض أمام الباب شارد النظرات. وسلّمت عليه بإشارة من يدي وأخرجت جهازاً مفاتيحي. ولم يُفقه بكلمة وابتعد مفسحاً لي طريق الدخول من غير أن يبدو عليه قط أنه فوجيء برؤية غريب يدلّف إلى دار سيّده. وكان عدم ارتباكي قد طمأنه. ولكنني إذ شعرت مع ذلك بأنني مضطّر إلى إبداء سبب وجودي فقد أخرجت من جيبي الصك الذي وقّعه القبطي. ولم ينظر الرجل إليه لأنه لما كان يجهل القراءة فقد وثق بي وعاد إلى مكانه ولم يُبدِ حراكاً.

وعندما خرجت في اليوم التالي كان لا يزال في موضعه من غير أن أتمكّن من معرفة ما إذا كان قد قضى ليلته فيه أم إذا كان قد عاد إلى نوبة الحراسة في الفجر. وقمت ببعض الخطي في شارعِي الذي بدا لي مزدحماً جداً. بيد أن جميع المارة

كانوا ينظرون إليّ. وعلى الرغم من هذه المضايقة التي يعرفها كلّ الذين يسافرون فقد شعرت بلحاح غير مألوف أرجعته إلى زني المغربي. ولكن الأمر لم يكن كذلك. وقد ترك فاكهاني دكانه وجاء يُسدي إليّ النصح قائلاً:

«الناس مشدوهون لرؤية رجل من العلية متنقلاً بتواضع على قدميه في الغبار». ومن غير أن ينتظر جواباً أشار إلى مُكاريّ قَدَم إليّ حماراً فارهاً مغطى ببردعة جليبة وترك معي صبيّاً ليسوسه.

وقمت راكباً على هذا النحو بجولة على المدينة القديمة متوقفاً على الأخص عند مسجد عمرو وفي سوق القماش قبل أن أتوغّل قليلاً باتجاه القاهرة الجديدة التي عدت منها مثقل الرأس بالوشوشات. وسوف تكون تلك التزهة بعد الآن يومية تطول أو تقصر تبعاً لمزاجي ومشاغلي، ولكنها مثمرة على الدوام لأنني كنت أقابل في أثنائها أعياناً وضباطاً وموظفين كباراً في القصر، وأقوم ببعض الأعمال. وتدبّرت أمري منذ الشهر الأول لكي أرسل في قافلة من الجمال مؤجرة إلى تجار مغاربة حملاً من الحرير الهندي والتوابل إلى تاجر يهودي في تلمسان. وقد أرسل إليّ في العودة بناء على طلبي صندوقاً صغيراً من عنبر «مسة».

وقد أطلعت بين عمليتين على بعض الأسرار فعلمت بعد أسبوع على وصولي أنّ السلطان قد أصبح في خير حال. فإذا اقتنع بأن مرضه كان عقاباً من الله تعالى فقد استدعى قضاة مصر الأربعة الكبار الذين يمثلون مذاهب الفقه الأربعة آخذاً عليهم أنّ قد تركوه يرتكب ذلك القدر من الجرائم من غير أن يعنفوه. ويقال إنه بكى أمام أولئك القضاة الذين بهتوا: لقد كان السلطان في الحق رجلاً مهيباً طويل القامة ممتلئاً جداً ذا لحية جليبة مستديرة. وإذا أقسم أنه نادم مرّ الندم على تصرفه حيال الخليفة العجوز فقد وعد بإصلاح الإساءة بلا إبطاء. وأملى على الفور رسالة إلى الخليفة المخلوع أرسلها تَوّاً إلى أمر القلعة وفيها: «أحمل إليك سلام السلطان المتوسّل بدعواتك متحللاً من مسؤوليته عن السلوك الذي سلكه تجاهك، راجياً ألاّ يستوجب عتابك ومؤاخذتك على اندفاعه متهوراً لم يستطع لها دفعا».

وفي اليوم نفسه نزل شيخ التجار من القلعة يسبقه حَمَلَة المشاعل الذين انتشروا في المدينة مُعلنين: «بناء على مرسوم من جلالة مولانا السلطان تُلغى المكوس الشهرية والأسبوعية وجميع الضرائب غير المباشرة بلا استثناء، بما في ذلك الرسوم على مطاحن القاهرة».

لقد كان السلطان قد عزم، مهما يكن الثمن، على أن يستدّر على عينه رحمة الله تعالى. وأمر بأن يُجمَع في ميدان الخيل كل المتعطّلين عن العمل، رجالاً ونساء، وتصدّق على كل منهم بقطعتي نقود قيمة الواحدة نصف فضة، فكان مجموع ما أنفق أربعمئة دينار. كما أنّه ورّع مبلغ ثلاثة آلاف دينار على الفقراء، ولا سيّما من يُقيمون في الجامع الأزهر والحجرات القائمة في مقابر القرافة.

وعلى أثر هذه التدابير استدعى قانصوه القضاة من جديد وطلب منهم أن يقيموا في جميع مساجد البلد ابتهالات من أجل شفاء العين الجليلة. وقد لَبِي الدعوة ثلاثة منهم فقط لأنّه كان على الرابع، وهو القاضي المالكي، أن يدفن في ذلك اليوم اثنين من أبنائه الصغار ذهاباً ضحية الطاعون.

وإذا كان السلطان قد تشبّث إلى هذا الحدّ بالابتهالات فلأنّه كان قد قبل آخر الأمر بإجراء الجراحة التي تمّت بناء على طلبه بعد صلاة الجمعة مباشرة. وقد لزم غرفته حتى يوم الجمعة التالي، وذهب بعدئذٍ إلى أروقة الأشرافية وأحضر المساجين المعتقلين في زنايات برج القلعة الأربع، وفي الأركانة، سجن القصر الملكي، ووقع عدداً كبيراً من أذون الإفراج، ولا سيّما عن المقرّبين الذين كان قد غضب عليهم ذات يوم. وكان أشهر المتفعين بالعفو الملكيّ المزِين كمال الدين الذي سرعان ما ذاع اسمه في المدينة مثيراً عدداً من التعليقات الساخرة.

فقد طالما كان ذلك الفتى الجميل، كمال الدين، حظي السلطان يدلك له في العصر أخصّ قدميه لهددهته. حتى كان يوم أصيب فيه السلطان بالتهاب في كيس الخصيتين اقتضى إجراء حِجامة فأشاع الفتى الخبر عبر المدينة مفضلاً أدقّ التفصيل فاستحقّ عذاب سيده.

وأما الآن فكان قد عُفِر له. ولم يكن قد عُفِر له وحسب، بل إنّ السلطان

اعتذر عن إساءة معاملته وطلب منه، إذ كان ذلك عيبه، أن يذهب فيقصر على المدينة بأسرها أن العين الجليلة قد سُفيت. والواقع أن الجفنين كانا لا يزالان مضمّدين، بيد أن السلطان كان يشعر بما يكفي من النشاط لاستئناف مجالسه. حتى إن أحداثاً خطيرة بشكل استثنائي قد حدثت. فلقد استقبل في الواقع، واحداً بعد الآخر، مبعوثاً من شريف مكة وسفيراً هندياً كانا قد وصلا منذ قليل إلى العاصمة ليحدثاه عن المشكلة عينها: لقد احتل البرتغاليون جزيرة قمران، وهم يتحكّمون بمدخل البحر الأحمر، ولقد أنزلوا جيوشاً على ساحل اليمن. وكان شريف مكة يخشى أن يهاجموا قوافل الحجّاج المصريين الذين ألفوا المرور بمينائي يُنْبَع وجُدّة اللذين أصبحا مهتدين بشكل مباشر. وأمّا المبعوث الهندي فكان قد حضر بكثير من الأبهة يصحبه فيلان ضخمان مجلّان بالمخمل الأحمر؛ وكان مشغولاً على الأخصّ بأمر التجارة بين الهند والإمبراطورية المملوكية، تلك التجارة التي توقفت بسبب الاجتياح البرتغالي.

وأعلن السلطان عن تأثره الشديد، ملاحظاً أنه لا بدّ أن تكون النجوم غير مؤاتية أبداً للمسلمين هذا العام إذ حصل الطاعون وتمهيد الأماكن المقدّسة ومرضه في آني معاً. وأمر محتسب مخازن الغلال الأمير «كوشقدم» بمواكبة المبعوث الهندي حتى جُدّة والبقاء فيها لإقامة مصلحة استخبارات عن نيات البرتغاليين؛ كما وعد بتسليح أسطول وقيادته بنفسه إذا منّ الله عليه بالصحة.

لم يشاهد قانصوه معتمراً ناعورته الثقيلة قبل شهر شعبان. وعندها أدرك الناس أنه سفي تماماً، وتلقّت المدينة أمراً بإقامة الأفراح. ونُظّم موكب سار في طليعته الأطباء الملكيون الأربعة وهم يرتدون طبالس من المخمل الأحمر مزينة بفراء السمور هدية من السلطان العارف بالجميل. وقد اتشح كبار الموظفين بأوشحة من الحرير الأصفر، وتدلّت من النوافذ المطلّة على الشوارع التي اجتاز بها الموكب أقمشة باللون نفسه تدليلاً على الجبور. وكان كبار القضاة قد زينوا أبوابهم بالنسيج المؤصليّ المقلم الموشى بحبوب العنبر، وكانت الصنوج تصدح في جنبات القلعة. وإذ كان منع التجوّل قد رُفِع فقد تعالت الموسيقى والأناشيد عند غروب

الشمس في جميع أرجاء المدينة. وبعد أن أظلمت الدنيا ارتفعت الألعاب النارية على ضفاف الماء وقابلها الناس بالهتافات الصاخبة.

واجتاحني في غمرة الفرحة العامة رغبة لا تقاوم في التخاذ الزبي المصري. وهكذا تخلّيت عن ملابس الفاسية وربّتها بعناية فائقة لليوم الذي سأرحل فيه، وارتديت ثوباً ضيقاً مقلماً بالأخضر مخيطاً عند الصدر ثمّ منسدلاً باتساع حتى الأرض. وانتعلت نعلين على الطريقة القديمة، ولثتُ حول رأسي عمامة عريضة من الحرير الهندي. وإذ تمّ لي هذا الهندام فقد رأيت حميراً يتجه صوب فركبه وشرعت أتهادى على ظهره في وسط الشارع وحوالي ألف جارٍ لمتابعة الاحتفالات.

وأحسست بأنّ تلك المدينة كانت مدينتي، وشعرت لذلك برغد عارم. فما هي إلا بضعة أشهر حتى كنت قد أصبحت من أعيان القاهرة، وغدا لي مكاري وفاكهايي وعطاري وصائغي وورّاتي وأعمالٌ مزدهرة وصلاتٌ بالقصر ومنزلٌ مظلٌّ على النيل.

وخيل إليّ أنّي بلغت واحة الينابيع الباردة.

عام الجركسية

٩٢٠ هـ (٢٦ شباط «فبراير» ١٥١٤ م -

١٤ شباط «فبراير» ١٥١٥ م)

كان من الممكن أن أسترخي إلى الأبد في مباحج القاهرة وأهوالها لو لم تخترني امرأة في ذلك العام لمشاطرتها سيرها، وهو أخطر ما تكون الأسرار لأنه كان قمينا بحرمانى من الدنيا والآخرة معاً.

وقد بدأ اليوم الذي تعرّفت فيه إليها بداية شنيعة، إذ كان صبيّ المكارى قد حاد عن طريقنا المألوف قبيل دخولنا المدينة الجديدة. ولما كنت قد اعتقدت بأنه يريد تحاشي بعض المضايقات فقد تركته يفعل. بيد أنه قادني إلى وسط جمع من الناس ووضع الرسن في يدي وغمغم بأحد الأعدار واختفى من غير حتى أن أتمكن من سؤاله. ولم يكن قد تصرف قطّ على هذا النحو، وعاهدت نفسي على إخبار معلمه بالأمر.

لم أتأخّر كثيراً في إدراك سبب كل ذلك الهياج. فقد كانت مفرزة من الجنود قادمة من شارع الصليبية يتقدّمها حَمَلَةٌ طبول ومشاعل. وكان وسط الفرقة شخص يجرّ نفسه عاري الجذع ممدود اليدين إلى الأمام مربوطاً إلى جبل يشده خيال. وقرىء إعلان مفاده أن الرجل، وهو خادم متهم بسرقة العمائم من الأسواق ليلاً، قد حُكِم عليه بشطره نصفين. وكنت أعلم أن هذا العقاب مخصّص للقنّلة، لكنّ سلسلة من السرقات كانت قد عُرفت في الأيام الأخيرة وطالب التجار بعقوبة تكون عبرة لمن يعتبر.

لم يكن المنكود يصرخ، بل اكتفى بالانتحاب بصوت خافت وهو يرجّح رأسه عندما أنقضّ عليه بغتة جنديان فأفقداه توازنه. وقبل أن ينطرح أرضاً أمسك به أحدهما بقوة من إبطيه فيها كان الآخر يقيد رجله. وتقدّم الجلاد ممسكاً بكلتا يديه

سيفاً ثقيلاً وشطر الرجل بضربة واحدة شطرين من الجذع. وحولت بصري وقد أحسست في بطني بتقلص كان من العنف بحيث كاد جسدي المشلول يسقط كتلة واحدة. وارتفعت نحو ي يد مُسَعِفَة تُسندني، كما ارتفع صوت عجوز قائلًا:

«لا ينبغي أن يُشاهد المرء الموت من فوق مطيته».

وبدلاً من أن أففز إلى الأرض، الأمر الذي كنت أشعر بالعجز عن فعله، تشبّثت بحماري وأدرت الرسن وابتعدت مثيراً حولي احتجاجات الذين منعهم حركتي من متابعة بقية المشهد: لقد كانوا قد وضعوا على كومة من الجير الحيّ الجزء الأعلى من المحكوم عليه ووجهه إلى الجمهور، وكان سيُحضر طوال دقائق قبل أن يهدم.

وعزمت في محاولة للنسيان على الانصراف إلى مشاغلي فأذهب للاستعلام عن مواعيد انطلاق القوافل ووصولها والاستماع إلى بعض الثرات. بيد أنّي كنت كلما تقدّمت ازداد ثقل رأسي. وكنت كالمبهور أهدم على غير هدى من شارع إلى شارع، ومن سوق إلى سوق، مُغمى عليّ نصف إغماء، مستنشقا رائحة الزعفران والجين المقلّي، سامعاً كما في جلبة بعيدة أصوات البائعين الذين كانوا يلحون في اجتذابي. وأخذ حماري المحروم من سائسه، وكان هذا لا يزال يتابع المشهد الجنائزي، يجول على هواه وعاداته. وقد دام ذلك إلى اللحظة التي أخذ فيها أحد التجّار، وقد لاحظ توعّكي، الرسن من يدي وقدم إليّ كوباً من الماء المحلّى المعطر بالياسمين كان من حُسن أثره أن حلّ عقدة أحشائي، لقد كنت في خان الخليلي، وكان المحسن إليّ أحد أغني التجّار العجم في المحلّة، رجلاً يدعى أكبر، أفاء الله عليه نعمه! وأجلسني مُقسماً أنّه لن يدعني أذهب قبل أن أمالك نفسي تماماً.

كنت هنالك منذ ساعة ولا ريب، وكان ذهني قد بدأ يخرج رويداً من ضبابه عندما دخلت الجركسيّة. ولا أدري ما الذي استرعى انتباهي أولاً. أكان وجهها الصبوح السافر، إذ لم يكن يغطي شعرها الأشقر سوى خمار من الحرير الأسود؟ أيكون قدّها الدقيق في هذه المدينة التي لا يُقدّر فيه حقّ القُدّر غير النساء الطاعمات إلى حدّ الكظّة؟ أم قد تكون الطريقة الغامضة الجميلة - ولكن من غير ملاطفة - التي قال بها أكبر: «أيتها الأميرة!».

لم يكن موكبها يتميز بشيء عن موكب أدنى ثرية: خادمة واحدة، قروية ذات حركات غنجة ومحمياً دائم الانبساط، كانت تحمل شيئاً مسطحاً ملفوفاً لفناً رديئاً في قماش عتيق بال.

كانت نظراتي ملحاحة ولا شك لأن الجركسية أدارت وجهها علانية، الأمر الذي حمل أكبر وقد لاحظته على الاقتراب مني والقول بنبرة أراد أن تكون احتفالية:

«إنها صاحبة السمو الملكي الأميرة نور أرملة الأمير علاء الدين ابن أخي مولانا السلطان التركيّ المعظم».

وجهدت في النظر بعيداً، ولكن فضولي ما كان إلا ليزداد. فلم يكن أحد في القاهرة يجهد مأساة علاء الدين ذلك. فقد اشترك في حرب الإخوة التي تَوَاجَهَ فيها ورثة السلطان بايزيد. حتى إنه بدا منتصراً في وقت من الأوقات حين استولى على مدينة بورصة وهدد بالاستيلاء على القسطنطينية. ولكن عمه سليماً هو الذي انتصر في النهاية. وإذا لم يكن قلب السلطان العثماني الجديد يعرف الرحمة فقد جعل أعوانه يخنقون أشقائه ويبيدون عائلاتهم. ومع ذلك تمكن علاء الدين من الفرار واللجوء إلى القاهرة حيث استقبل بما يليق به من الترحاب. وقد أعطي قصرًا وخدمًا، وقيل إنه يستعد لإثارة انقلاب على عمه بسند من الإمبراطورية المملوكية وملك العجم وقبائل تركية قوية من قلب الأناضول بالذات.

فهل كان بإمكان هذا التحالف النبل من سليم المهروب الجانب؟ لن يُعرف ذلك قط، فما انقضت أربعة أشهر على وصول علاء الدين حتى قضى بالطاعون. ولم يكن قد بلغ الخامسة والعشرين، وكان قد تزوج من عهد قريب جركسية جميلة تدلّه بهواها، وكانت ابنة ضابط الحق بحرسه. ويقال إن سلطان مصر الذي أحزنه موت الأمير قد أمّ بنفسه صلاة الغائب. وقد تمت مراسم الجنائز بفخامة، إذ جرت حسب الأعراف العثمانية التي لم تكن معروفة جيداً في القاهرة: كانت خيول علاء الدين تسير في المقدمة مقصوصة الأذيال مقلوبة السروج؛ ووضعت فوق الخيالة التي رُفِعَ عليها الجسد عمامته وأقواسه التي كانت قد كُسرت.

وما إن انقضى شهران حتى استعاد صاحب القاهرة قصر علاء الدين فاستحق
لوم الشعب على قراره. وأسكنت أرملة العثماني بيتاً متواضعاً ومُنحت دخلاً بلغ
من قَلته أن حملها على بيع الأشياء الثمينة القليلة التي خلفها لها زوجها في سوق
الدلالة.

لقد نُقِلت إليّ هذه الوقائع في حينها، ولكن لم يكن لها في نفسي مغزى خاصّ.
وبينما كنت استرجعها في ذاكرتي بلغني صوت نور موجعاً، ولكن وقوراً:

«الأمير يرسم الخطط في قصره من غير أن يدري أن أصابع جرّفي تكون قد
نسجت في الوقت نفسه داخل كوخٍ قماش كَفَيْه».

نطقت بهذه الكلمات بالعربية، ولكن بلكنة جركسيّة يعرفها أهل القاهرة جميعاً
بلا عناء لأنها لكنة السلاطين والقواد المهاليك. وقبل أن أتمكّن من الإجابة كان
التاجر قد رجع عارضاً سعراً:

«خمسة وسبعون ديناراً».

وشحب لونها وقالت:

«هذه القطعة فريدة في العالم!»

كانت سجادة حائط مشغولة بالإبرة بدقّة نادرة، وقد أحاط بها إطار من
الخشب المنحوت. وكانت تمثّل قطعاً من الذئاب الراكضة نحو قمة جبل مجلّج
بالثلج.

وأشهدني أكبر قائلاً:

«إنّ ما تقوله صاحبة السموّ هو الحقيقة بعينها، ولكنّ مخزني غاضّ بالأشياء
النفيسة التي أنا مرغم على إرخاص أثمانها. فالمشترون نادرون».

وهزرت رأسي بشكل غير ملحوظ بدافع التأدّب. وإذا ازداد ثقة بالنفس فقد
استطرد قائلاً:

«كم تأملين أن تحصلي بها؟»

«هذه السنة هي أسوأ سنة منذ بدأت العمل قبل ثلاثين عاماً. فالناس لا يجرؤون على إظهار أطراف دنائيرهم خوفاً من أن يُتهموا بإخفاء غناهم ويؤتى لمصادرتهم منهم. ولقد اعتُقلت مغنية في الأسبوع الماضي لمجرد وشاية، وقام باستجوابها السلطان بنفسه بينما كان الحرس يضغطون قديمها. وبلغ ما سُلِب منها مئة وخمسين قطعة ذهبية».

واستدرك قائلاً:

«لاحظ جيداً أي أدرك تماماً ما يُجبر سلطاننا حفظه الله على التصرف هكذا. فعائدات الموانئ هي التي شحّت عليه، إذ لم تستقبل جُدة سفينة واحدة منذ عام بسبب القراصنة البرتغاليين. وليست الحال أحسن في دمياط. وأما الاسكندرية فقد هجرها التجار الطليان الذي لا يجدون فيها عملاً يقومون به. ويتذكّر المرء أنه كان في هذه المدينة فيما مضى ستمئة ألف ساكن، واثنا عشر ألف دكان بقالة تطلّ مفتوحة الأبواب حتى الليل، وأربعمون ألف يهودي يدفعون الجزية الشرعية اليوم، وهذا واقع، تغلّ الاسكندرية للخزينة أقلّ مما تكلفها. والنتيجة نراها كلّ يوم: لم يحصل الجيش على اللحم منذ سبعة أشهر، وأفواجه في غليان، والسلطان يبحث عن الذهب حيثما يظنّ أنه يظفر به».

وقطع دخول زبون خطابه. فإذا لم يكن القادم الجديد يحمل في يده شيئاً فقد ظنّ أكبر أنه مُشترٍ وطلب إلينا أن نعذره بعض الوقت. وتهيأت الأميرة للذهاب، غير أنني استوقفتها بقولي:

- ثلاثمئة دينار، لا أقلّ».

وسألته أن تُريني القطعة. وكان قراري قد اتُّخذ، بيد أنني ما كنت أستطيع اقتناءها من غير أن أنظر إليها خوفاً من أن يبدو الشراء وكأنه صدقة. ولم أكن راغباً أيضاً في تفحصها عن كثب لئلا يُظنّ أنني أسعى إلى تحقيق عمل تجاري. وهكذا ألقيت عليها نظرة خاطفة قبل أن أعلن بلهجة لا تشوبها سائبة:

«ثلاثمئة، يبدو لي السعر جيداً؛ اشتريت».

ولم تنخدع فقالت:

«لا تقبل المرأة هدية من رجل لا تستطيع إظهار عرفانها له» .
كانت الكلمات جازمة، ولكنّ النبرة لم تكن أقلّ جزمًا، فأجبت متظاهراً بأنّ
كرامتي أهينت:

«ليست هذه هدية . إني اشتري هذا الشيء لأنّي متمسك به!

- ولم تمسك به؟

- إنه تذكّار .

- لكنك تراه للمرة الأولى!

- تكفي لمحة أحياناً لكي يغدو الشيء غير قابل لأن يُستبدل» .

واحمر وجهها، والتقت نظراتنا، وانفرجت شفاهنا . كنّا قد أصبحنا صديقين .
وكانت الخادم التي بدت أكثر بشراً من أيّ وقت مضى تجول بيننا حريصة على
استقاء همساتنا . وضرب الموعد: الجمعة ظهراً في ميدان الأزيكية أمام مُرقص
الحمير .

لم أكن قد فوّت صلاة الجمعة الجامعة مرّة واحدة منذ وصولي إلى مصر . وأمّا
في ذلك اليوم ففعلت غير نادم؛ وعلى كلّ حالٍ فإنّ الخالق هو الذي فطر هذه
المرأة بذلك الجمال وهو الذي وضعها في طريقي .

وكان ميدان الأزيكية يزدحم بالتدريج كلّما خلت المساجد لأنّه كان من عادة
القاهريين أن يتجمّعوا فيه بعد الصلاة للعب النرد وسماع قصص القصّاصين، أو
للاختفاء أحياناً في الأزقة المجاورة لبعض الحانات التي كانت تعرض على الناس
طريقاً مختصراً إلى جنّات عدن .

لم أكن قد رأيت جركسيتي بعد، ولكنّ مُرقص الحمير كان واقفاً تحيط به ثلّة
متزايدة من المتسكّعين . وانضمت إليهم وأنا ألقى نظرات متكرّرة على الوجوه
المحيطة بي، وعلى الشمس أملاً في أن تتحرّك بضع درجات .

كان المشعوذ يرقص مع بهيمته من غير أن يُعَلِّمَ مَنْ كان يحاكي منها الآخر. ثم إنه أخذ يكلم حمارة فأخبره أن السلطان كان قد نوى أن يشرع في بناء كبير، وأنه وجب مصادرة جميع حمير القاهرة لنقل الجير والحجارة. وعلى الفور ارتقى الحمار أرضاً وانقلب على ظهره رافعاً قوائمه في الهواء ونفخ بطنه وأغمض عينيه. وشكا الرجل إلى الحاضرين أن حمارة قد مات، وأخذ يجمع منهم النقود لشراء حمارة آخر. وإذا جمع بضع عشرات القطع فقد قال:

«لا تصدّقوا أن حماري قد أسلم الروح. إنه شرٌّ، ولما كان عالماً بفقرى فإنّه يمثّل الموت لأكسب بعض المال وأشتري له طعاماً».

وأخذ عصا غليظة وأنهال بها على الهيمة وهو يقول:

«هيا انهض الآن!».

لكنّ الحمار لم يتحرّك، فتابع المشعوذ:

«يا أهل القاهرة، لقد أذاع السلطان منشوراً: على جميع الناس أن يخرجوا غداً لحضور دخوله المظفر إلى المدينة. وسوف تُصادر الحمير لحمل سيّدات الطبقة العليا».

وعليه قفز الحيوان واقفاً على قوائمه وأخذ يختال مُبدياً سروراً كبيراً. وأخذ صاحبه يقهقه مثلما كان الجمهور يقهقه وقال:

«وهكذا فانت تحبّ النساء الجميلات! لكنّ هنا كثيرات منهنّ فأيهنّ تحبّ أن تحمّل؟»

ودار الحمار على الحاضرين وتظاهر بالتردد ثم توجه رأساً إلى مُشاهدة طويلة القامة كانت تقف على بضع خطوات مني. وكانت تغطّي وجهها بمنديل صفيق استحالته معه رؤيته. غير أنّي عرفت على الفور مشيتها. وإذا كانت الضحكات والأنظار قد أفرعتها فقد تشبّنت بذراعي. وبادرت الحمار قائلاً بنبرة مزاح: «لا، لن تحمّل امرأتى!» قبل أن أبتعد وإياها رافع الرأس.

«ما كنت أتوقّع رؤيتك محجّبة. ولولا الحمار لما كنت عرفتك».

- لقد تحجبت بالفعل كيلا يعرفني أحد. فنحن معاً في الشارع وسط جمهور فضوليّ ثرثار، وما من أحد سيدرك أنني لست امرأتك».

وأضافت مداعبة:

«أسفر عن وجهي إذا رغبتُ في إعجاب جميع الرجال بي، وأسدل الحجاب إذا شئتُ ألا أعجب غير رجل واحد.

- أكره بعد الآن أن تكوني سافرة.

- ألا تريد أبداً أن تتأمله؟»

الحقُّ أنه ما كان بإمكاننا أن نكون معاً في بيت، لا بيتي ولا بيتها، وأنه كان علينا أن نكتفي بالتجول في المدينة جنباً إلى جنب. وقد ألت نور في يوم موعداً الأول على أن نذهب لزيارة الحديقة المحرّمة. وأوضحت قائلة:

«يُطلق عليها هذا الاسم لأنه تكتنفها أسوار عالية، ولأن السلطان منع دخولها للحفاظ على إحدى عجائب الطبيعة: الشجرة الوحيدة في العالم التي تعطي صمغ البلسم الحقيقي».

وأتاحت لنا قطعة فضية رُميت في يد الحارس أن ندخلها. وانحنت نور فوق شجرة البلسم وأزاحت نقابها وظلت برهة طويلة جامدة مذهولة حاملة. ورددت وكأنها تحدّث نفسها:

«ليس في العالم أجمع سوى هذه الشتلة. وهي دقيقة جداً وهشة جداً، ومع ذلك فإنها ثمينة جداً!»

وكانت الشجرة تبدو لعينيّ عادية جداً. فأوراقها شبيهة بأوراق الكرمة وأصغر منها. وكانت مغروسة في قلب عين من الماء.

«يقال إنها إذا سُقيت بماء غيره يبست في الحال».

وبدت متأثرة بهذه الزيارة من غير أن أدرك سبب ذلك التأثر. ولكننا كُنّا منذ اليوم التالي معاً من جديد، وبدت لي مرحلة شديدة الاهتمام. ومذاك أصبحت

نزهاتنا يومية أو تكاد لأنها لم تكن قطً طليقةً يومي الاثنين والثلاثاء. وعندما
أشرت إلى ذلك بعد مرور شهر كان ردّها حاداً:

«كان من الممكن ألا تراني قطً، أو أن تراني مرّة في الشهر. والآن وأنا معك
يومين أو ثلاثة أو خمسة في الأسبوع تعتب عليّ غيابي.

- أنا لا أحسب الأيام التي أراك فيها. والأيام الأخرى هي التي تبدو لي وكأنها
لا تنتهي».

كان اليوم يوم أحد وكنا بالقرب من مسجد ابن طولون أمام حمام النساء
وكانت نور تنهياً لدخوله. وبدت مترددة وقالت:

«هل أنت مستعدّ لمرافقتي من غير أن تطرح أدنى سؤال؟»

- إلى الصين إذا اقتضى الأمر!

- انتظري إذن غداً صباحاً ومعك جملان وقربٌ ملأى أمام جامع الجيزة».

وإذ كنت قد عزمت على الوفاء بوعدني فإنني لم أسألها عن وجهتنا، حتى إننا لم
نكن قد تبادلنا بعد ساعتين من المسير سوى بضعة كلمات. ولكنني لم أحكم مع
ذلك بأن من المخالف لاتفاقنا أن ألاحظ قائلاً:

«لا أظن أن الأهرام بعيدة من هنا.

- بالضبط!»

وإذ شجعتني هذا الإيضاح فقد تابعت:

«هل نحن ذاهبان إليها؟»

- بالضبط!

- أمن أجل رؤية هذه الأبنية المدوّرة تأتي كل أسبوع إلى هنا؟»

واستولى عليها ضحك خالص غير مشجع لم أستطع معه إلا الشعور بأنني

جُرحت. ولكي أسجل استهجائي نزلت عن جملي ووقفت سيره، فلم تلبث أن رجعت إليّ وقالت:

«اعذري على أن ضحكْتُ، وذلك لأنك قلت إنها مدوّرة.

- أنا لم اخترع ذلك، فابن بطوطة الرحّالة العظيم يقول بالحرف إن الأهرام «مستديرة الأشكال».

- ذلك لأنّه لم يرها قطّ، أو إذا كان قد رآها فمن بعيد، وفي الليل، سامحه الله! لكن لا تُلْمه. فعندما يقصّ مسافر مآثره يغدو سجين تهليلات سامعيه. وهو لا يجرؤ على القول «لست أدري» أو «لم أشاهد» خوفاً من أن يفقد مكانته. وهناك أكاذيب تتحمّل أوزارها الأذان أكثر ممّا يتحمّلها الفم».

واستأنفنا مسيرتنا فاستطردت قائلة:

«وماذا يقول ابن بطوطة هذا غير ذلك عن الأهرام؟

- يقول إنّ الذي بناها عالم خبير بحركات النجوم، وأنه كان قد تنبأ بالطوفان؛ ولذلك فإنّه بنى هذه الأهرام التي صوّر عليها كل الفنون والعلوم لحفظها من التلف والنسيان».

وإذ خشيتُ تهكمات أخرى فقد أسرعت أضيف:

«إنّ ابن بطوطة يؤكّد على كلّ حال بأنّ هذه ليست إلا افتراضات، وأنه ما من أحد يعرف حقّاً ما الذي نُذرت هذه المباني له.

- أمّا عندي فالأهرام لم تُبنَ إلا لتكون جميلة وجميلة، لتكون أولى أعاجيب العالم. ولا ريب في أنّه عُهد إليها بعملٍ ما، ولكنّه لم يكن إلا ذريعة تدرّع بها أمير ذلك الحين».

كنا قد بلغنا تلّة، وكانت الأهرام قد أخذت يفصل بعضها عن بعض بجلاء عند الأفق. ولجمت راحلتها ومدّت يدها نحو الشرق في حركة بلغ من تأثرها أن غدت حركة احتفالية:

«سوف تبقى هذه الأهرام طويلاً بعد أن تندثر منازلنا وقصورنا وندثر نحن -
أفلا يعني هذا أنها أنفع الأشياء في عين الحيّ الباقي؟»

ووضعت يدي فوق يدها وقلت:

«إننا الآن أحياء . ونحن معاً . ووحيدان» .

وقالت بغتة بنبرة كيّسة وهي تجيل نظراتها حواليتها:

«إيه ! الحقّ أننا وحدنا!»

وألصقت راحلتها براحتي وأزاحت نقابها وطبعت قبلة على شفطيّ . يا لله ! كان
من الممكن أن أبقى على تلك الحال إلى يوم الحشر!

لم أكن أنا الذي ترك شفتيها، ولا كانت هي التي انفصلت عنيّ . كان الذنب
ذنب جَمَلَيْنَا اللذين ابتعد كلّ منهما عن الآخر بسرعة مهذّدين بإفقادنا توازننا .

«لقد تأخر الوقت . ماذا لو استرحنا؟»

- فوق الأهرام؟ -

- لا ، أبعد قليلاً . فعلى بُعد بضعة أميال قرية صغيرة تُقيم فيها الحاضنة التي
ربّتي . إنها تنتظرنى مساء كل اثنين» .

وبعيداً قليلاً من القرية كان يقوم كوخ فلاح غائصاً في الوحل في نهاية درب
صغير سلّكته نور وهي تناشدني ألا أتبعها . وغابت في المسكن . وانتظرتها مستنداً
إلى نخلة . وكانت الدنيا قد أدغشت عندما رجعتُ بصحبه فلاجحة عجوز بدينة
طيّبة .

«أقدّم لك زوجي الجديد يا خضراً» .

وأجفّلتُ . والتقت عيناى الجاحظتان تقطية من حاجبي نور فيما كانت الحاضنة
تتضرّع إلى السماء قائلة :

«أرملة في الثامنة عشرة! أرجو أن يكون حظّ أميرتي أحسن هذه المرّة» .

وصحّت تلقائياً:

«أرجو ذلك أنا أيضاً!»

وابتسمت نور، وتمتت خضراً دعاءً قبل أن تقودنا إلى بناء من اللين قريب من بيتها وأضيق منه .

«ليس هذا قصراً، ولكنه بقي من الرطوبة، ولن يوقظكما فيه أحد. وإذا احتجتما إليّ فنادياني من الشباك».

لم يكن هناك سوى حجرة واحدة مستطيلة تضيئها شمعة مترنحة. وكانت رائحة بخور خفيفة تسبح من حولنا. ومن النافذة التي لا مصراعين لها كان يتراعى إلينا خوار جاموسة طويل. وأزلجت جركسيّتي الباب واستندت إليه بظهرها .

وسقط أول ما سقط شعرها المحلول ثم ثوبها. وكان يحيط بنحرها عقد من الياقوت تترجح واسطته بفخار بين ثدييها؛ وحول خصرها العاري حزام دقيق من خيوط الذهب المصفورة. ولم تكن عيناى قد تأملتنا قط امرأة عريها بمثل هذا الثراء. وأقبلت تهمس في أذني:

«يحدث أن تعرض نساءً غيري أول ما يعرضن حليهن الخاصة. وأما أنا فأحتفظ بها. البيوت والأثاث تناع، وأما الجسد وزينته فلا».

وضممتها إليّ وقلت:

«كُتبت عليّ منذ هذا الصباح أن انتقل من مفاجأة إلى مفاجأة. الأهرام، وقبلك، وهذه القرية، والإعلان عن زواجنا، ثم هذه الغرفة، وهذه الليلة، وحليّك، وجسدك، وشفتك...»

وأخذت أقبلها فاقد الرشد، الأمر الذي أعفاها من الاعتراف بأنني لم أكن قد سمعت من المفاجآت بعد غير «بسم الله...»، وأن بقية الدعاء آتية .

لكن ذلك لم يحدث إلا آخر الليل الذي طال وطال بشكل لذيذ للغاية. وكنا مستلقين جنباً إلى جنب، قريين إلى حدّ أن شفتيّ كانتا ترنجاناً لهمساتها. وكانت

ساقاها المطويتان تشكلاان هَرَمًا؛ وكانت ركبناها المتصقتان قَمْتَه . ولستهما
فانفرجتا وكأنهما كانت قد تشاجرتا .

جركسيّتي! إن يديّ ما تزالان حتى الآن تنحتان في بعض الأحيان أشكال
جسدها . ولم تنسَ شفّتاي شيئاً .

عندما استيقظت كانت نور واقفة مستندة بظهرها إلى الباب كما في بداية الليل .
غير أنّ ذراعيها كانتا ثقيلتين، وكانت الضحكة في عينيها مصطنعة .

«ها هوذا ابني بايزيد الذي أحبّته وكأنّه ابن العارا»
وتقدّمت فوضعتّه، وكأنه قربان، فوق راحتيّ المستسلمتين .

عام العصابة

٩٢١ هـ (١٥ شباط «فبراير» ١٥١٥ م -

٤ شباط «فبراير» ١٥١٦ م)

لم يكن ذلك الابن من دمي، ولكنّه كان قد ظهر ليبارك صنيع لحمي أو ليلعنه. وعلى هذا كان ابني، وكان عليّ أن أتمتع بشجاعة إبراهيم لأضحّي به باسم الدين. أليست الأديان السماوية موجودة في نصل الخنجر الذي كان خليل الله ينتضيه فوق محرقة؟ وما جرؤت على ارتكاب هذه الجريمة المقدسة التي احتفل بذكراها كل عام في عيد الأضحى. ومع ذلك فإنّ الواجب كان يقتضي مني في ذلك العام أن ارتكبتها من غير موارد لأن امبراطورية إسلامية كانت تولد أمام ناظريّ، وكان هذا الطفل يهدّها.

«سوف يززع بايزيد بن علاء الدين عرش العثمانيين في يوم من الأيام. فهو وحده القادر، بوصفه آخر الأحياء من سللته، على إثارة قبائل الأناضول. وهو وحده القادرة على أن يجمع حوله المهالك الجراكسة والصفويين الفرس للقضاء على السلطان التركيّ المعظم. هو وحده. إلا إذا خنقه جواسيس السلطان سليم».

كانت نور منحنية فوق مهد ابنتها من غير أن تدري بالعذاب الذي تُكبّدي إياه أقوالها. فتلك الإمبراطورية التي كانت تنبأ بتحطيمها على هذا النحو كنت أدعو لها حتّى من قبل أن أتعلّم الصلاة لأنّي كنت انتظر طوال حياتي خلاص غرناطة على يديها.

والحقّ أنّها كانت هنا في طريق تكوّنها تحت بصري. وكانت قد فتحت القسطنطينية وبلاد الصرب والأناضول؛ وكانت تستعدّ لاجتياح بلاد الشام والعراق وبلاد العرب من قاحل ومزروع وصخري، وكذلك مصر. وغداً تكون صاحبة بلاد البربر والأندلس وربّما صقلية. وسيصبح جميع المسلمين متّحدين من

جديد كما في أيام الأمويين في ظلّ خلافة واحدة مزدهرة مرهوبة الجانب تفرض شريعتها على الكافرين . فهل أكون في خدمة تلك الامبراطورية، حلم أحلامي وأمل آمالي؟ هل أسهم في بروزها؟ أبداً . لقد حُكِم عليّ أن أحاربها أو أفرّ منها . ففي مواجهة سليم الفاتح وقد ذبح أباه وإخوته وذريتهم من غير أن تردّه يد الله، ولن يلبث أن يضحي بأبنائه الثلاثة، في مواجهة هذا السيف من سيوف الغضب الإلهي، كان هناك طفل كنت قد صمّمت على حمايته وتغذيته من صدري حتى يغدو رجلاً وأميراً ودافن امبراطورية، وحتى يقتل بدوره تبعاً لقانونٍ عرقه . ولم أكن قد اخترت شيئاً من كل ذلك؛ كانت الحياة هي التي اختارت عني، كما اختار عني مزاجي .

كان عليّ مَدَاك أن أترك مصر حيث كان بايزيد وأمه في خطر . فقد احتفظت نور بحملها سرّاً لا يعرفه غير خُضْرَا التي ساعدتها على الوضع ورعت الطفل منذ اليوم الأوّل لولادته . ويكفي أن تموت الحاضنة، وهي اليوم عجوز، لينتحم إعادة الطفل إلى القاهرة فلا تلبث هويّته أن تُكتشف . وعندها يصبح تحت رحمة جواسيس سليم وهم كَثُر في مصر؛ وقد يسلمه السلطان قانصوه بالذات، فهو إذ يجاذر كل المحاذرة من العثمانيين أخوف من أن يرفض تسليمهم رأس طفل .

وكان حلّ مشكلتي جاهزاً: الزواج من نور والرحيل مع الطفل إلى فاس حيث في وسعي تقديمه على أنه ابني لأتمكّن من العودة إلى مصر عندما يكبر ولا يكون ممكناً أن يفضح عمره أصله .

جرى الزواج بيسر وبساطة لأنّ نوراً كانت أرملة . فقد التقى في منزلي لتناول الطعام بعض الأصدقاء والجيران وفيهم كاتب بالعدل من أصل أندلسي . وفي لحظة كتابة العقد لاحظ هذا وجود الأيقونة والصليب على الجدار ورجاني أن انزعها فقلت :

«لا أستطيع ذلك . فقد وعدت صاحب هذا المنزل بأن لا أمسّها حتى يعود» .

وبدا الحرج على الرجل وسائر المدعويين إلى أن تدخلت نور قائلة :

«إذا كنّا لا نستطيع نزع هذين الشئيين فلا ما يمنع من تغطيتها» .

ومن غير أن تتنظر جواباً قرّبت من الجدار ساتراً مكسوّاً بالدمقس فسُرَّ الكاتب بالعدل وبدأ عمله .

لم نغكث أكثر من ليلتين في المنزل الذي غادرته أسفاً . فقد منحنيته الصدفة وتركته في عهدي سنتين لأنّ القبطي لم يظهر قطّ ولا أعلم بأخباره . ولكنني كنت قد علمت بأنّ وباء الطاعون حلّ بأسويوط ومنطقتها مهلكاً قسماً كبيراً من السكّان ، وتمسّورت أنّ المحسن إليّ كان قد ذهب ضحيته ولا ريب . وإنّي لأرجو الله أن أكون مخطئاً ، بيد أنّي لا أرى تفسيراً آخر لغيابه ، ولا على الأخصّ لصمته . ومع ذلك فقد عهدت قبل رحيلي بالمفاتيح إلى صائغي داود الحلبي . وإذ كان شقيق يعقوب صاحب بيت المال ومقرباً من السلطان فقد كان في وسعه أكثر من أيّ شخص آخر منّع بعض الماليك من امتلاك المنزل الحالي .

بدأت رحلتنا في شهر صفر عشية عيد الفصح المسيحي . وكانت المرحلة الأولى كوخ خضراً بالقرب من الجيزة حيث قضينا ليلة قبل أن نعود بيازيد ، وكان عمره حينذاك ستة عشر شهراً ، باتجاه بولاق ميناء القاهرة النهريّ الكبير . وتمكّننا بفضل حلوانٍ سخّيّ من الإقلاع بلا إبطاء على متن جرم كان يحمل إلى الإسكندرية شحنة من السكر النقيّ الخارج من مصنع السلطان الشخصيّ . وقد كانت المراكب كثيرة في بولاق ، وكان بعضها مريحاً للغاية ، غير أنّي أصررت على الوصول إلى ميناء الإسكندرية تحت راية السلطان ، إذ كان بعض الأصدقاء قد حدّروني من الصعوبات التي تعترض المرء في الجمارك . فقد كان موظفون مُدقّقون يفتشون بعض المسافرين حتى يصلوا إلى سراويلهم ، ولا يكتفون بالمكوس على البضاعة وإنما يفرضونها أيضاً على الدنانير .

وإذ تفاديت هذا الإزعاج فقد ازداد إكباري لعظمة تلك المدينة القديمة التي أنشأها الإسكندر الكبير ، وهو ملك يذكره القرآن بعبارات حسنة وقبره مزار لأهل الثقي . والحق أنّ المدينة ليست إلا طيفاً لما كانت عليه من قبل . فما يزال السكّان يتذكرون الأيام التي كانت ترسو فيها على الدوام في هذا الميناء مئات السفن قادمة من بلاد الفلاندر ومن إنكلترا ويسكاية والبرتغال وبولوية وصقلية ، وعلى الأخصّ

من البندقية وجنوة ورجوسة وبلاد اليونان التركية . وفي ذلك العام كانت الذكريات وحدها لا تزال تزدحم على المرسى .

تقوم في وسط المدينة قبالة الميناء تلة يقال إنها لم تكن موجودة في عهد الأقدمين وأنها لم تتشكل إلا من تراكم الأطلال . ويُعثر فيها لدى التنقيب في كثير من الأحيان على الأواني وغيرها من الأشياء النفيسة . وقد بُني على هذا المرتفع برج صغير يقيم فيه ليل نهار متربصٌ مهمته مراقبة السفن المارة . وفي كل مرة يعلن فيها لموظفي المكوس عن واحدة ينال مكافأة . وعليه في المقابل إذا نام أو ترك مكانه ووصلت سفينة ولم يُعلن عن وصولها أن يدفع غرامة قدرها ضعفا مكافأته .

وفي وسع المرء أن يرى كذلك في ظاهر المدينة أطلالاً ذات شأن يرتفع في وسطها عمود ضخم جداً وعالٍ جداً تقول الكتب القديمة إن عالماً اسمه بطليموس كان قد بناه . وقد وضع في أعلاه مرآة كبيرة من الفولاذ كانت تُحرق على ما يقال كل سفينة معادية تحاول الاقتراب من الساحل .

وكان هناك بالطبع أشياء كثيرة للزيارة ، بيد أننا كنا جميعاً نستعجل السفر على أمل العودة يوماً إلى الإسكندرية ناعمي البال . وعليه فقد أبحرنا في سفينة مصرية منطلقة إلى تلمسان التي استرحنا فيها أسبوعاً كاملاً قبل أن نسلك طريق البر .



كنت قد عدت إلى ارتداء ملابس المغربية ، وإذ كنا نجتاز أسوار فاس فقد غطيت وجهي بطيلسان . فما كنت أريد أن يعرف أحد بقدمي قبل أن ألتقي ذوي . وأعني بذوي أبي وأمي ووردة وثروة بنتي ذات الأعوام الستة ، وكذلك هارون ومريم اللذين لم أكن أرجو لقاءهما وإنما تسقط أخبارٍ عنهما .

ومع ذلك فإني لم أستطع الامتناع عن التوقف أمام ورشة بناء قصر ي . وقد كانت كما تركتها بالضبط ، إلا أن العشب كان قد نما مغطياً الجدران التي لم تكتمل . وسرعان ما أدرت ناظري وناظرين أكثر جفافاً هما ناظرنا بغلتي التي وجهتها نحو بيت خالي على بضع خطوات من هناك . وقرعت الباب فأجابني من الداخل صوت امرأة لم أعرفه . وناديت أمي باسمها فقال لي الصوت :

«إنها لم تعد تسكن هنا!»

وكان الانفعال قد خنق صوتي فلم أتمكن من طرح سؤال آخر. وانطلقت إلى منزل أبي.

كانت سلمى عند الباب فضمتني إلى صدرها كما ضمت نوراً وبايزيد الذي غمرته بالقبلات من غير أن تخفي دهشتها من أن أطلق على ابني اسماً قلماً سمع به أحد، وأن أورثه بشرة بهذا البياض. ولكنها لم تقل شيئاً، وكانت عينها وحدهما هما اللتان تتكلمان، وفيهما رأيت أن أبي كان قد مات. وأكدت لي الأمر بدمعة. بيد أنها لم تكن تريد أن تبدأ من هنا:

«أمامنا قليل من الوقت. ويجب أن تصغي إلى ما سأقوله لك قبل أن ترحل.

- لكن ليس في نيتي أن أرحل!

- اصغري إليّ فتفهم».

وهكذا تكلمت أكثر من ساعة، بل ربما ساعتين، من غير أن تتلغم أو تتوقف، وكأنها كانت قد راجعت ألف مرة ما كانت ستقوله لي في يوم عودتي.

«لا أود أن ألعن هارون، ولكن أعماله جلبت علينا جميعاً اللعنة. إن أحداً في فاس لم يلمه على موت الزروالي. غير أن أعماله لم تقف مع الأسف عند هذا الحد»

وشرحت لي أن السلطان كان قد أرسل بعد طردي بقليل مئتي جندي للقبض على «المنقب»، بيد أن أهل الجبل تضامنوا معه. وقد قُتل ستة عشر من العسكر في كمين. وعندما ذاع الخبر تلي في شوارع فاس وألصق في ميادينها بلاغ يعلن عن ثمن لرأس هارون. ووضعت منازلنا تحت رقابة الشرطة. وكان هناك ليل نهار جواسيس يطرحون الأسئلة عن كتب على كل زائر، حتى تردّد أقرب الأصدقاء في إعلان صلة القرابي بينهم وبين المبعّد. ومذّك يُتلى كل أسبوع بلاغ جديد يتهم هارون وعصابته بمهاجمة ركب، أو بنهب قافلة، أو بذبح مسافرين.

وقلت مستنكرة: «هذا غير صحيح! إنني أعرف هارون. فمن الممكن أن يكون

قد قَتَلَ للانتقام أو للدفاع عن نفسه، وأما للسَّرقة فلا!

- ما هو صحيح لا يهَم غير الله؛ وأما نحن فالمهَم عندنا هو ما يعتقدُه الناس. لقد فكَّر أبوك في أن يهاجر من جديد إلى تونس أو إلى غيرها من المدن حين سكت قلبه فجأة في رمضان من العام الماضي».

وتنفَّست سلمى طويلاً قبل أن تتابع قائلة:

«كان قد دعا بعض الناس للإفطار معه، لكنَّ أحداً لم يتجرأ على اجتياز هذا الباب. وأصبحت الحياة في نظره ثقيلة لا تُطاق. وفي اليوم التالي استيقظت من القيلولة على صوت شيء يسقط. وكان عمداً على الأرض في الفناء الذي كان يذرعه ضيق الصدر منذ الصباح. وقد اصطدم رأسه بحافة البركة، ولم يكن يتنفَّس».

واجتاح صدري حرَّ فظيع، وأخفيت وجهي. وتابعت أُمِّي من غير أن تنظر إليَّ:

«عند الخصومة تخضع النساء وينكسر الرجال. لقد كان أبوك أسير كبريائه. وأما أنا فكانوا قد علّموني الخضوع».

- ووردة؟

- لقد تركتنا بعد موت محمّد. فلم يكن لها أحد في هذا البلد من غير زوجها ومن غير ابنتها. وأظنّ أنها عادت إلى قريتها في قشتالة لتنهى حياتها بين ذويها».

ثم أضافت بصوت خافت:

«ما كان ينبغي أبداً أن تغادر غرناطة».

- ربّما عدنا إليها».

لم تكلف نفسها الإجابة. وكنست يدها الريح من أمام عينيها وكأنها تطرد ذبابة ملحاحة وقالت:

«أسألني بالبحري عن أخبار ابنتك».

وأشرق وجهها وأشرق معه وجهي وقلت:

«كنت أنتظر أن تحدّثيني عنها، ولم أجسر على سؤالك. لقد تركتها صغيرة جداً!
- إنها ممتلئة الوجه ووقحة. وهي الآن عند سارة التي تأخذها أحياناً للعب مع
أحفادها».

ووصلتا كلتاها بعد ساعتين. وخلافاً لما كنت أتوقّع كانت المبرقشة هي التي
تعلّقت بعنقي في حين ظلّت بنتي على مسافة لا بأس بها. وتوجّب على هذا
اللجوء إلى التقديم. وإذ كانت أُمّي شديدة التأثر فقد تولّت العملية سارة فقالت:
«ثروة، هذا أبوك».

وخطت البنت نحوي خطوة ثم توقّفت وقالت:

«كنت في تومب...»

- لا، لم أكن في تومبكتو، وإنما في مصر، وقد أتيتك بأخٍ صغير».

وأجلستها على ركبتيّ وغمرتها بالقبلات مستنشقاً بعمق عبق شعرها الأسود
الناعم، مداعباً نحرها وأنا أحلم. وخامرني شعور بأنّي أكرّر على وجه التقريب
مشهداً كنت قد رأيته بحذافيره مئة مرة: أبي فوق طنفسة ومعه أختي.

«هل هناك أخبار عن مريم؟»

وكانت سارة هي التي أجابت:

«يقال إنّها شوهدت ويدها سيف إلى جوار زوجها. لكنّ هناك أساطير كثيرة
عنها...»

- وأنت، هل تصدّقين أن هارون نصّ؟

- في كلّ طائفة عصاة يُلعنون في العلن ويُدعى لهم في السرّ. حتى من اليهود.
ففي هذا البلد من لا يدفعون الجزية ويركبون الخيل ويشهرون السلاح. ونحن
نسمّهم «الكرايم». أنت تعرف ذلك ولا ريب».

وأكدت قائلاً:

«يُعدّون بالمشات، وهم منظمون وكانهم جيش ويعيشون في جبال دمنسرة وهنتاتة بالقرب من مراكش».

بيد أني كنت راغباً في العودة إلى ما كان يشغل بالي أولاً فقلت:

«أتظنّ حقاً أنّ في فاس من يدعو بالسرّ لهارون ومريم؟»

وكانت سلمى هي التي انفجرت قائلة:

«لو لم يكن هارون إلا لصاً لما كانوا هاجوا عليه إلى هذا الحدّ بلاغاً إثر بلاغ. فقد كاد يصبح بطلاً عندما هاجم الزوراليّ فأرادوا إظهاره على أنّه لصّ. فالذهب أكثر تدنيساً من الدم في نظر العامة».

ثم قالت بصوت أكثر تمهلاً وكأنّ شخصاً آخر يتكلّم فيها:

«إنّ تبرير نسيبك لا يفيد شيئاً. وإذا سعيت إلى الدفاع عنه عوملت مرّة أخرى بوصفك متواطئاً معه».

كانت أمي نخشى أن تدفعني رغبتني في مساعدة هارون ومريم إلى ارتكاب حماقات جديدة. ولا ريب في أنّها كانت على حقّ، ولكنّ كان عليّ أن أحاول. وكانت الطريقة التي تقرّر بها طردي هي التي تدفعني بالذات إلى الاعتقاد بأن سلطان فاس سوف يصغي إليّ الآن.

كان السلطان يقود في ذلك الحين حملة على البرتغاليين ناحية «بولعوان». وقد طفت البلاد خلال أشهر اتبّع الجيش السلطانيّ حاملاً السلاح في بعض الأحيان ومشاركاً في بعض المناوشات. وكنت مستعداً للقيام بكلّ شيء في سبيل انتزاع عفو. وكنت أقابل بين معركتين العاهل وإخوته وعدداً من مستشاريهم. ولكنّ لماذا الدخول في التفاصيل عندما تكون النتيجة مخيبة إلى هذا الحدّ؟ فقد انتهى الأمر بأحد المقرّبين من السلطان إلى الاعتراف لي بأنّ كثيراً من الجرائم نُسبت ظلماً إلى هارون. ثم أضاف بنبرة إخلاص جعلتني يسقط في يدي:

«حتى لو استطعنا أن نغفر لنسيبك ما صنع، فكيف نستطيع أن نغفر له ما
نتهمه به؟»

وذاث يوم عزمت بغتة على وقف مساعي. ولم أكن قد حصلت بالطبع على ما
كنت أرجوه، غير أنني كنت قد تلقت مصادفة في أثناء محادثاتي خبيراً رغبت في
التحقق منه. ورجعت إلى فاس وأخذت سلمى ونوراً وثروة وبايزيد من غير أن
أكشف لهم عن نياتي وسلكت طريق السفر من غير أن ألتفت خلفي. فما كنت
أملك في فاس غير ورشة، غير طلل عامر بالحشرات خالٍ من الذكريات.

وامتدّت رحلتنا أسابيع من غير أن أكتشف عن الغاية التي لم تكن مكاناً بل
كانت رجلاً: عروج القرصان المدعوّ ذو اللحية الحمراء. فلقد كنت سمعت في
الواقع أنّ هارون كان إلى جانبه. وعليه فقد توجهت توّاً إلى تلمسان ثم تابعت
الطريق الساحلية صوب الشرق متحاشياً المرور بالمدن التي يمتلأها القشتاليون
كوهران والمرسى الكبير، متوقفاً في الأماكن التي استطع أن ألتقي فيها بغرناطين،
في مدينة الجزائر مثلاً، وعلى الأخصّ في «شرشل» التي يتكوّن سكانها أو معظمهم
من اللاجئين الأندلسيين.

وكان ذو اللحية الحمراء قد اتخذ قاعدة له مدينة «جلجل» الصغيرة الشعبية
بعد أن انتزعها من أيدي الجنويين في العام السابق. ومع ذلك فقد علمت قبل أن
أبلغها أنّه كان يحاصر حامية «بوجي» القشتالية. وإذا كانت تلك المدينة على
طريقي فقد عزمت على الذهاب إليها تاركاً أهلي مع هذا على بُعد بضعة أميال من
«منك» في عهدة إمام مسجد صغير في قرية، واعدت نفسي بالعودة لأخذهم بعد
القيام بمراقبة ساحة القتال.

ولقد التقيت ذا اللحية الحمراء في «بوجي» كما أذكر في كتابي «وصف
إفريقية». وبالفعل كانت لحيته شديدة الشقرة بلونها الطبيعي، ولكن من جرّاء
الحناء كذلك لأن الرجل كان قد تجاوز الخمسين من العمر، ويبدو أكثر من ذلك
أيضاً، وما كان يبقيه واقفاً على ما يظهر غير جنون الانتصار على أعدائه. وكان

يطلع في مشيته حتى ليلا مس الأرض، وكانت يده اليسرى من فضة. فلقد فقد ذراعه في «بوجي» بالذات خلال حصار سابق انتهى بكارثة. وكان يبدو أن المعركة أعدت هذه المرة خيراً مما في السابق. ولقد احتل قلعة المدينة العتيقة واستعد لمهاجمة قلعة أخرى قريبة من الشاطئ كان القشتاليون صامدين فيها.

في يوم وصولي كان القتال متوقفاً لبعض الوقت. وكان أمام خيمة القيادة حراسٌ أخذهم من أصل مالقي. وهو الذي جرى ينادي هارون باحترام فهمت منه أن «المنقب» كان معاون ذي اللحية الحمراء. وبالفعل فقد جاء يحفّ به تركيان أبعدهما بحركة واثقة قبل أن يرتمي عليّ. وظللنا برهة طويلة متعانقين نتبادل تربيئات قوية كانت تُفصح عن كل ما بيننا من مودة ودهشة وألم ناجم عن الفراق. وأدخلني هارون أولاً الخيمة وقدمني إلى عروج على أيّ شاعر وسفير ذائع الصيت، الأمر الذي لم أفهم الدافع إليه إلا فيما بعد. فقد كان القرصان يتكلم وكأنه ملك، بعبارات قصيرة وجازمة معناها الظاهر مبتذل ومغزاها الخفيّ تصعب الإحاطة به. وعلى هذا النحو ذكر انتصارات سليم العثماني وصلّف القشتاليين المتزايد، ملاحظاً بأسى أن شمس الإسلام تُشرق من المشرق وتغرب في المغرب.

وبعد أن استأذنا قادي هارون إلى خيمته الخاصة، وهي أقلّ اتساعاً وزينة، وإن كانت مؤهلة على كل حال لاستيعاب عشرة زوّار ومزودة جيّداً بالأشربة والفاكهة. ولم أحتج إلى طرح أسئلي لكي يبدأ «المنقب» بالإجابة عنها.

«لم أقتل سوى قتلة ولا نهبت سوى لصوص. وما انقطعت لحظة عن خشية الله. لقد انقطعت فقط عن الخوف من الأغنياء والمتنفذين. وهنا أقاتل الكفرة الذين يجاملهم أمراؤنا وأحمي المدن التي يُخلّونها. ورفاقي من المطرودين والمبغدين والمشغبين من جميع الأنحاء. ولكن ألا يخرج العنبر البحري من أحشاء الحوت؟»
لقد نطق بهذه الكلمات على التوالي وكأنه يقرأ فاتحة الكتاب. ثم قال بنبرة مختلفة:

«لقد كانت أختك رائعة. لبوة من الأطلس. إنها في منزلي في جلجل على بُعد ستين ميلاً من هنا مع ابنتائنا الثلاثة، واسم أصغرهم حسن.»

ولم أسع إلى إخفاء تأثري وقلت:

«ما شككت لحظة في أمرك».

لقد طالما بادرت إلى التسليم لهارون خلال مناقشاتنا مُد كُنَّا صبيين. لكنني كنت مجبراً هذه المرة على أن أشرح له كيف أساءت أعماله إلى قرابتنا، فارتد وجهه وقال:

«في فاس كنت مصدر عذاب لهم. أما هنا فسأكون حاميمهم».

وبعد أسبوع كنا جميعاً في جلجل. وقد التّم شعث أسرتي، عشرة لاجئين تحت سقف قرصان. ومع ذلك فإني أتذكر الأمر تذكري لحظة سعادة نادرة وددت مختاراً لو أطيّلها.

عام السلطان التركي المعظم

٩٢٢ هـ (٥ شباط «فبراير» ١٥١٦ م -

٢٣ كانون الثاني «يناير» ١٥١٧ م)

وجدت نفسي في ذلك العام، أنا الذي كان يجول العالم لتجنيب بايزيد انتقام العثمانيين، مع امرأة وطفل في قلب القسطنطينية بالذات، وفي موقف من المواقف التي لا يمكن قط أن تصدق: منحني على يد سليم الرهيب وهو يُنعم عليّ بهزة رأس مُطمئنة وبطيف ابتسامة. ويُقال إن الفريسة كثيراً ما تجذبها المخالب التي تتهبأ لتمزيقها. وربما كان هذا تفسيراً لجسارتي الجنونية. غير إنني لم أكن أراها كذلك في تلك اللحظة. فقد اكتفيت بأن أتبع حسب خيره وجوه تفكيري مجرى الأحداث، جاهداً في إعادة تنظيم حياتي على القليل من الأرض التي لم أكن أشعر فوقها بأي مطرود. ولكن عليّ أن أقول كيف.

كان ذو اللحية الحمراء يزدهر على امتداد البصر، كما كان هارون يزدهر في ظلّه. وكان الهجوم على «بوجي» قد أخفق، بيد أن القرصان كان قد نجح في الأيام الأولى من العام في الاستيلاء على مدينة الجزائر بعد أن قتل بيده صاحبها الأول بينما كان جسده يُدلك في حمامه.

لم تكن مدينة الجزائر بالطبع في مثل اتساع وهران أو «بوجي»، ولا كانت لتشكّل حياً واحداً من أحياء تلمسان، ولكن مظهرها كان مع ذلك مظهر مدينة بأصوائها الأربعة آلاف، وأسواقها المنظمة بحسب المهّن، وجاداتها التي تحفّ بها البيوت الجميلة، وحماماتها، وفنادقها، ولا سيّما بأسوارها الرائعة المبنية بحجارة ضخمة والامتدّة من جهة الشاطئ بشكل فناء فسيح. وقد اتخذ منها ذو اللحية الحمراء عاصمة له كما اتخذ لقباً ملكياً وانتوى أن يُعرّف جميع أمراء المسلمين بنفسه.

وأما أنا فقد استأنفتُ السفر بعد اجتماع الشمل في جلجل . وإذ كنت قد تعبت من الضرب على غير هدى وأرهفتني تجربتي القاهرية التي انبثت بشكل مفاجيء فقد رجوت أن القي مرساتي في تونس لبضع سنوات على الأقل . وتهدمت على التوجهندام البلد واعتمرت عمامة فوقها منديل وأخذت أطمعُ البزان، وحتى البسيس في بعض الأحيان، وذهبت إلى حدّ ازدراء أكلة مؤذية اسمها الحشيش، وهي خليط من المخدر والسكر يُغليق على متذوقه النشوة والمرح والشهوة إلى الطعام . وهي كذنت منشط للشهوة إلى الجماع يقدره أبو عبدالله عاهل تونس أيما تقدير .

وقد تمكنت من العثور بسهولة على منزل في ضاحية باق البحر بفضل هارون الذي كانت له علاقات وثيقة ببعض شخصيات المدينة، ومن بينهم المزوار أمير الجند، وبدأت أتصل ببعض صانعي القماش بقصد إقامة متجر صغير .

ولم يتح لي الوقت قطّ لذلك . فبعد أقل من شهر على وصولي جاء هارون يقرع الباب يصحبه ثلاثة آخرون من معاوني ذي اللحية الحمراء بينهم تركي كنت قد حييته في خيمة القرصان في «بوجي» . وكان «المنقب» وقوراً مثل قاضٍ . وقد قال :

«معنا رسالة لك من صاحب العظمة المظفر القائم بأمر الله» .

كان ذلك هو اللقب الذي استحقّه ذو اللحية الحمراء عندما ذبح أمير مدينة الجزائر . وقد طلب مني أن أذهب إلى القسطنطينية لحمل رسالة إلى السلطان ينهيه فيها بقيام مملكة الجزائر ويعاهده على الطاعة والإخلاص ويناشده الدعم في محاربة القشتاليين الذين لا يزالون يحتلون حصناً بحرياً عند مدخل ميناء الجزائر .

«إنّ هذا القدر من الثقة ليشرّفي . لكنكم منذ الآن أربعة، فما حاجتكم إليّ؟»

- لا يرضى السلطان سليم أن يستقبل سفيراً لا يكون شاعراً يقول فيه أبيات المديح والشكر .

- في وسعي نظم قصيدة تُشيدُها بنفسك .

- لا، نحن جميعاً هنا محاربون، في حين أنه سبق لك أن قمت بمهمات سفير.
وفي مقدورك أن تقدم خيراً مما تقدم، وهذا مهم: ينبغي أن يظهر سيدنا بمظهر
الملك لا بمظهر القرصان».

وسكت مفتشاً عن ذريعة أتلص بها من سُخرة بمثل هذا الخطر، بيد أن
هارون كان يحترق بلا هوادة. وبدا صوته وكأنه صادر رأساً عن وجداني أنا
بالذات.

«لا يحقّ لك أن تتردد. إنّ إمبراطورية إسلامية تولد في المشرق، ونحن في
المغرب علينا أن نمُدّ لها يدنا. ولقد خضعنا حتى الآن لشريعة الكفار الذين
استولوا على غرناطة ومالقة، ثم على طنجة ومليلة ووهران وطرابلس وبوجي؛
ولسوف يستحذون غداً على تلمسان والجزائر وتونس. ونحن بحاجة لكي
نواجههم إلى مولانا السلطان المعظم. وإننا نطلب إليك مساعدتنا في هذه المهمة
ولا يسعك أن ترفض. وأياً يكن ما ستقوم به هنا فلن يكون أهمّ مما نطلب.
وأسرتك في أمان. أضف إلى ذلك أننا سنقوم بكامل نفقاتك ونرتب لك أجزل
العطاء».

ولم يفتّه أن يضيف وعلى أطراف شفّته ابتسامة قرصان:

«لا أنا بالطبع ولا رفاقي ستجاسر على أن نقول لذي اللحية الحمراء إنك
رفضت».

لقد كان لي من حرية التصرف ما لعصفور صغير يطارده صقر. وإذ لم يكن في
وسعي الكشف عن سبب ترددي الحقيقي من غير أن أهتك سرّ نور فإني لم أتمكن
من الحجاج.

«متى ينبغي أن أبحر؟»

- في هذه الليلة بالذات. ينتظرنا الأسطول في القناة، وقد درنا هذه الدورة
لأخذك».

وطلبت، وكأنّني انطق بآخر ما يرغب فيه محكوم عليه بالإعدام، أن اتحدث إلى
نور.

وكان ردّها رائعاً، فلم يكن ردّ زوجة الرجل الميسور التي كانت قد أصبحتها بفعل زواجنا، وإنما ردّ ابنة الجنديّ التي كانتها طوال حياتها. وردّ أمّ السلطان التي كانت ترجو أن تصير إليها. وكانت واقفة في غرفتنا مكشوفة الوجه والشعر مرفوعة الرأس مستقيمة النظرات. قالت:

«وهل ينبغي أن تذهب إلى هناك؟»

كان قولها في منتصف الطريق بين السؤال والتقرير، فقلت فقط: «أجل».

- أتظنّ أن في الأمر أحبولة؟

- على الإطلاق. وأنا مستعدّ للمراهنة على قطع رأسي!

- هذا بالضبط ما ينبغي تحاشيه. لكنّ إذا كنت واثقاً كلّ هذه الثقة بهارون فلنذهب جميعاً إلى هناك».

لم أكن متأكّداً من أنني فهمت. وشرحت لي بصوت جازم.

«ينبغي أن تتمكّن عينا بايزيد من تأمل مدينته وقصره. فربّما لم تسنح له فرصة أخرى في شبابه. إنّ السفر في البحر ينطوي بالتأكيد على مخاطر، لكنّ يجب على ابني أن يألفها. ويرجع إلى الله أن يحفظه أو أن يُميتّه».

وكانت واثقة من نفسها إلى حدّ أني لم أجرؤ على مناقشة أسبابها، وفضّلتُ المواربة قائلاً:

«لن يقبل هارون قطّ أن يصحب امرأة وصيباً».

- إذا قبلت طلبه فلا يستطيع رفض طلبك. كلمه، باستطاعتك أن تجهد الكلمات».

وفي الفجر كنّا قد قطعنا قمار. ولقد ساعد دوار البحر على أن يستحوذ عليّ الشعور بأنني كنت أبحر في قلب كابوس.

مدينة غريبة هي القسطنطينية. إنها مثقلة جداً بالتاريخ، وهي مع ذلك جديدة جداً بحجرها وبشرها. ففي أقل من ستين سنة من الاحتلال التركي كان وجهها قد تغير تماماً. لا تزال هناك بالطبع آيا - صوفيا التي تحولت من كاتدرائية إلى مسجد من عادة السلطان الذهاب إليه في موكب يوم الجمعة. غير أن معظم المباني كان الفاتحون الجدد قد أزالوها، وهناك مبانٍ ترتفع كل يوم قصوراً ومساجد ومدارس، بل حتى مجرد أكواخ خشبية يتكؤم فيها آلاف الأتراك القادمين حديثاً من السهوب التي كانوا يترحلون فيها.

وعلى الرغم من هذا النزوح فقد بقي الشعب الغازي في عاصمته أقلية بين أقليات أخرى، وليست أكثر الأقليات يُسرأ، باستثناء الأسرة الحاكمة. ففي أجمل الدارات، وفي أكثر دكاكين الأسواق رواجاً، يُرى على الأخص الأرمن واليونان والطلبان واليهود الذين كان بعضهم قد أتى من الأندلس بعد سقوط غرناطة. ولا يقل عددهم عن أربعين ألفاً، وهم متوافقون على امتياع عدل مولانا السلطان. وفي الأسواق تراصف عمائم الأتراك مع قلنسوات المسيحيين واليهود بلا ضغينة ولا بغضاء. وشوارع المدينة باستثناء بعضها القليل ضيقة موحلة إلى حد أن عالية القوم لا يستطيعون التجول إلا محمولين على الظهر البشرية. وآلاف من الناس يمتهنون هذه المهنة الشاقة، ومعظمهم من القادمين الجدد الذين لما يجدوا عملاً خيراً من هذا العمل.

في يوم نزولنا كان التعب قد أنهكنا جميعاً إلى حد عجزنا معه عن اجتياز حيز الميناء. فقد تمت الرحلة في الفصل الرديء لأنه كان ينبغي بلوغ القسطنطينية قبل أن يغادرها السلطان من أجل حملة الربيع. وعلى هذا فقد أمضينا الليلة الأولى في فندق يديره يوناني من قنديئة هو ابن عم بعيد لذي اللحية الحمراء. ومن الغد مثلنا في السراي مقر السلطان. وقد ظلت نور خارج السياج تتحدث بصوت خافت في أذن بايزيد غير مبالية بسنه، ولا بنخراته بين الفينة والفينة، ولا بضحكاته الصادرة لغير ما سبب. واني لأرتاب في أنها كانت تقص عليه بجد في ذلك اليوم حكاية سلالة الدموية والمجيدة حتى يوم ولادته قبل عامين.

أما أنا فكنت على بُعد خطوات من الجهة الأخرى للباب الأعظم وعليّ بُرد من الحرير الموشى بالذهب وأنا أقرأ بعينيّ وأعيد القصيدة التي كان عليّ إنشادها في حضرة السلطان، وكنت قد نظمتها في البحر بين دُورَيْن. وكان حوي الوف من الجنود والموظفين وأهل المدينة من مختلف الرُتب، وكانوا جميعاً صامتين إجلالاً لشخص السلطان. وانتظرت أكثر من ساعتين وأنا مقتنع بأنهم سيطلبون مني الرجوع فيما بعد.

وكان ذلك سوء تقدير لأهمية ذي اللحية الحمراء وللاهتمام الذي كان يكنّه العثمانيّ له. فسرعان ما حضر غلام فأخذني وهارون وصحبه وقادنا عبر باب الوسط إلى فناء الديوان، وهو حديقة فسيحة زاهرة رأيت فيها نعاماتٍ تجري. ورأيت عن كتب مني صفاً من الفرسان بلا حراك فوق جيادهم المطهّمة. وغامت عيناي بغتة وأخذت أذناي بالطنين وانطبق حلقي بشدّة شعرت معها بالعجز عن نطق أدنى كلمة. أهو الخوف؟ أهو عناء السفر؟ أم هو القرب فقط من السلطان؟ ولم أكن أرى وأنا اجتاز بالصف غير شرر. وجهدت في الاحتفاظ بخطوط طبيعي حاكيت فيه خطوط الغلام الذي كان يتقدمني، لكنني شعرت بأنني كنت على وشك التعثّر والانهيار؛ وكان أخشى ما أخشاه أن أجد نفسي أبكم عند قدّمي سليم الرهيب.

كان هناك، جالساً أمامي هَرَمَماً من الحرير على زرابيّ من الديداج، وظهوراً متوقّعاً، وهو مع ذلك مبالغت بدّد بنظرة باردة الضباب من عينيّ من غير أن يفرخ روعي. ولم أكن غير إنسان مسلوب الإرادة وإن كان يعمل بإيماءات محدّدة بدا أن السلطان الهادىء كان يملئها عليه. وعندها انبثقت قصيدتي من حافظتي من غير بلاغة، ولكن من غير فافأة، مصحوبة في أبياتها الأخيرة ببعض الحركات الخجولة التي كلفتني جهوداً وعرقاً. وكان السلطان يهزّ رأسه متبادلاً من حين إلى حين كلماتٍ مع بعض خاصّته. ولم تكن له لحية بل شاربان طويلان كان لايني يفتلها؛ وبدت لي بشرته بلون الرماد وعينه كبيرتين جدّاً بالقياس إلى وجهه ومشدودتي الطرفين قليلاً. وكان فوق عمامته الصغيرة المشدودة ياقوتة ترصّع زهرة من الذهب. وكانت تتدلى من أذنه اليمنى لؤلؤة بشكل إجماسة.

وإذ انتهيت من قصيدتي انحنيت على اليد الجليلة وقبّلتها. وكان في إصبع سليم خاتم فضة غير متقن الصنع قيل لي إنه هدية من منجمه. وبينما كنت أنهض خلع عليّ غلام عبادة من وبر الحمل ودعاني إلى اللحاق به. كانت المقابلة قد انتهت، وكان في الإمكان بدء المحادثات في غرفة أخرى مع المستشارين. ولم أشارك فيها إلا بالنزر اليسير، إذ كان عليّ أن أعرض لا أن أفاوض على الإطلاق، لأنّ المحادثات التي كانت قد بدأت بالعربية لم تلبث أن استُكملت بالتركية، وهي لغة لم أكن أجيدها قبل إقامتي في رومة.

وقد تمكّنت مع ذلك من التقاط نبأ في غاية الخطورة بفضل خطأ ارتكبه أحد المستشارين. فلقد قال عليّ كرم الله وجهه: «ليس شرّاً للإنسان من لسان زلول». وكان لسان ذلك الوجيه لا ينفكّ يزلّ. فبينما كان الحديث عن قلعة الجزائر التي يمتلئها الكفار لم يفتأ ذلك الرجل يقول «قلعة القاهرة»، وقد بلغ به الأمر إلى الكلام على الجراكسة بدلاً من القشتاليين، حتّى كان أن حدّجه مستشار آخر أصغر منه سنّاً بكثير بنظرة بلغ من غضبها أن بهت الآخر وقد شعر برأسه يترجّح فوق كتفيه. ولقد كان من أمر تلك النظرة وذلك الشحوب أن أفهماني أكثر ممّا أفهمتني زلات اللسان أنّ أمراً خطيراً جدّاً كان قد كُشف. والحقّ أن السلطان سليم كان يريد في ذلك العام أن يوهم بأن استعداداته للحرب كانت موجهة لصاحب فاس؛ بل إنّه دعا صاحب القاهرة إلى الانضمام إليه لمحاربة الهراطقة. في حين أنّ العثمانيّ كان قد عزم في الحقيقة على منازلة الإمبراطورية المملوكية.

ما إن انتهت المحادثات حتى أسرعْتُ أخبر نور بما جرى، الأمر الذي كان منيّ شرّاً من زلة لسان. وكما كان عليّ أن أتوقّع فقد التهبّت جركسيّتي ناراً، لا في الظاهر وإنّما من داخل القلب. فلقد أرادت مهما كلف الأمر تحذير إخوتها في العرق من الخطر المحيّق بهم.

«السلطان قانصوه عجوز مريض متردّد، وسوف يظلّ يستمع مغتبطاً إلى وعود سليم الودّية إلى اليوم الذي يجرّ فيه السيف العثمانيّ رقبتة ورقبة جميع الجراكسة. لقد كان ولا ريب جنديّاً باسلاً في أيام شبابه، وأمّا اليوم فليس ما يشغله غير العناية بأجفانه، وغير سلب رعيّته أموالهم. وينبغي تحذيره من نيات

القسطنطينية؛ ونحن وحدنا القادران على ذلك لأننا وحدنا العارفان بها.

- أتعلمين ما الذي تقترحينه عليّ؟ أن أقوم بالتجسس، أن أخرج من ديوان سليم وأذهب فأقصّ على قانصوه ما قيل فيه. أتعلمين أن ما يدور بيننا هنا في هذه الغرفة كافٍ لقطع رأسينا؟

- لا تحاول إخافتي! إنني وحدي معك، وأنا أتكلّم بصوت خافت.

- لأجلك تركت مصر، وها أنت تطلين مني العودة إليها!

- كان ينبغي أن نرحل للحفاظ على حياة بايزيد؛ واليوم ينبغي أن نعود لإنقاذ إخوتي ومستقبل ابني. لسوف يُباد جميع الجراكسة. ولسوف يفاجئهم السلطان سليم ويستولي على أراضيهم ويقيم امبراطورية من القوّة والاتّساع بحيث لا يمكن أن يطعم فيها ولدي قطّ. وإذا كان هناك ما يمكن محاولته فعليّ أن أفعل ولو كلّفني ذلك حياتي. في وسعنا الذهاب إلى «غلاطة» واستقلال أوّل سفينة إلى الإسكندرية. وبعدُ فإنّ الامبراطوريتين لما تشنّا الحرب، بل يفترض أنّهما حليفتان.

- وإذا قلت لك لا؟

- قل لي: «لا، لن تسعّي إلى إنقاذ بني قومك من الذبح»، «لا، لن نجاهدي ليصبح ابنك يوماً سيّد القسطنطينية»، قل لي هذه الكلمات وسوف أطيع. غير أنّي سأفقد طعم الحياة والحبّ.

ولم أقل شيئاً. وأضافت:

«من أيّ طينة أنت لكي ترضى بفقد مدينة بعد أخرى، بفقد وطن بعد آخر، بفقد امرأة بعد أخرى، من غير أن تنافع أبداً، ومن غير أن تندم أبداً، ومن غير أن تلتفت وراءك أبداً؟»

- ليست الحياة بين الأندلس التي غادرتها والجنّة التي وعدّتها غير رحلة. وأنا لا أقصد أيّ مكان ولا أطمع في شيء ولا أتشبّث بشيء، وأنا مطمئنّ إلى شهوتي للعيش، إلى غريزتي للسعادة، كما أنّي مطمئنّ لعدل السماء. أليس هذا هو الذي

جمع بيننا؟ إني لم أتردد في ترك مدينة ومنزل وعيش لأسلك سبيلك واعتنق عنادك .

- والآن، لماذا توقفت عن اللحاق بي؟

- لقد أضنتني الهواجس . ولن أدعك بالطبع هنا محاطة بالأعداء . وسوف أقودك إلى قومك لتتمكن من إنذارهم، بيد أن طريقنا سيفترقان عند هذا الحد .

لم أكن واثقاً من أنني عقدت اتفاقاً حسناً، ولا من أنني أملك الشجاعة للوفاء به . غير أنني اعتقدت على الأقل أنني حددت لذاتي حدود المغامرة التي تركت نفسي أخوضها . وأما نور فبدت لي مشرقة كل الإشراق . وما كانت تحفظاتي لتهمم ما دامت لا تعترض سبيلها . ولم تسمع من كل كلامي المفصل غاية التفصيل سوى «نعم» التي لم أكن حتى قد لفظتها . ومن غير أن تنتظر، وفيما كنت أنسج في ذهني الكذبة التي سأقدمها إلى هارون للتخلي عنه، كانت قد أخذت في الحديث عن السفن والمراسي والأمتعة .

عندما سألني، لدى عودتي إلى بلاد النيل، عامل المكوس في ميناء الاسكندرية بين تفتيشين عمياً إذا كان صحيحاً أن العثمانيين يستعدون لاجتياح بلاد الشام ومصر أجبته لاعتناً جميع نساء الأرض، ولا سيما الشقراوات الجركسيات، الأمر الذي وافق عليه لدهشتي الكبرى مخاطبي، وكأن ذلك كان التفسير البديهي للمصائب القادمة .

ولقد كان على نور أن تتحمل طوال الرحلة إلى القاهرة مآخذي وتهكماتي . ولكن ما إن مرّ اليوم الثالث على وجودنا في العاصمة حتى كان عليّ أن أوافق على أنها لم تكن مخطئة تماماً في مساعها الخطير . فالشائعات السارية كانت من التناقض بحيث كانت البلبلة الكاملة تسود خواطر الناس، لا من العامة وحسب، وإنما في القلعة كذلك . فالسلطان كان قد عزم على الذهاب إلى بلاد الشام لملاقاة الجيوش العثمانية، ثم ألغى الحملة بناء على معلومات مطمئنة . وكان قد طلب من الفيالق التي أمرت بالاستعداد للسفر أن تعود إلى ثكناتها . وطلب كذلك مرتين إلى الخليفة والقضاة الأربعة أن يستعدوا لمرافقة السلطان إلى حلب؛ وسلك موكبهم مرتين

طريق القلعة تمهيداً للرحيل الأكبر؛ وقيل لهم مرّتين إنّ عليهم أن يعودوا إلى منازلهم .

وقد زاد في الطين بلةً مجيء مفوضٍ عثماني مطلق الصلاحية لتجديد عهد السلام والصدّاقة مقترحاً مرّةً أخرى جلفاً حيال الهراطقة والكفار . وكان من شأن مثل هذا الانتظار وتلك الحيرة أن يُفصلاً من روح القتال لدى الجيش، وهذا ولا ريب هو ما كان يهدف إليه مولانا السلطان المعظم من وراء كلامه المعسول . وعلى هذا كان مهماً أن تفتح عيون المسؤولين شهادةً قادمة من القسطنطينية . ولكنّ كان ينبغي نقلها بطريقة توحى بالثقة من غير أن يكشف عن مصدرها .

وفكرت نور في كتابة رسالة والذهب لإيداعها محتومة في منزل الأمير طومان باي ، الرجل الثاني في السلطنة وأكثر قادة مصر شعبية . وقالت في نفسها إنّ رسالة من امرأة جركسية سوف تنقل بلا إبطاء إلى المملوك الكبير .

وفي الليلة نفسها قرع باي . كان طومان باي قد جاء وحده، وهذا أمر لا يُصدّق في هذه المدينة التي لم يكن أصغر أمرٍ لعشرة أنفار يفكر فيها بالتنقل من غير أن تواكبه ثلّة كبيرة وصاخبة من الحرس . وكان رجلاً في الأربعين من عمره، طويلًا أنيقاً أبيض البشرة، طويل الشاربين على الطريقة الجركسية، قصير اللحية مقصوصها بعناية . وما إن رحبت به حتى تجهم وجهه إذ رابته لكتني لأنّ جماعة المغاربة في القاهرة كانوا معروفين بولاّتهم للعثمانيين . وبادرت إلى استدعاء نور إلى جانبي فتقدّمت سافرة الوجه . وعرفها طومان باي . وإذ كانت أختاً من قومه وأرملة مناوئء لسليم فما كان من الممكن إلا أن توحى له بالثقة التامة .

جلس الأمير إذن من غير احتفال يسمع قصّتي . وكرّرت عليه ما كنت قد سمعته من غير تنميق، ومن غير أن أغفل أيّ تفصيل . وعندما صمّت شرع يطمئنني قائلاً :

« ليست المسألة مسألة شهادة أذكرها . فالهم هو اقتناع الحكّام الشخصي . وأما أنا فقد حصل اقتناعي ، وسأناضل بعد الذي سمعته بعزم يفوق عزمي السابق لكي أجعل السلطان يشاطرنى إيّاه » .

وبدا عليه أنه مغروق في التفكير، وارتسمت برطمة على شفثيه وقال وكأنه يُتَم حديثاً دار داخل ذاته :

«لكن لا شيء سهل أبداً مع سلطان. فإن الحجت عليه كثيراً قال في نفسه إنني أسعى لإبعاده عن القاهرة، ولم يشأ قط أن يسير». وشجعتني بوجه فقالت :

«لم لا تسير أنت نفسك بالجيش؟ ألا يقل عمرك ثلاثين عاماً عن عمره؟ - إذا أنا ظفرت نخشي رجوعي على رأس الجيوش».

لمح الأمير وهو يجيل ناظره حوله الأيقونة والصليب القبطي على الجدار فابتسم وهو يحك رأسه بشكل ظاهر. وكان له ملء الحق في أن يثور فضوله : مغربي بزّي مصري متزوج من جركسية أرملة أمير عثماني يزّين منزله على الطراز المسيحي ! وهمت بأن أقص عليه كيف حصلت على هذه الدار عندما قاطعتني قائلاً :

«إن منظر هذين الشيئين لا يضايقني . وإذا كان صحيحاً أنني مسلم بفضل من الله فإنني ولدت مسيحياً وعمدت مثلي مثل السلطان وجميع المماليك». وإذا قال هذه الكلمات فقد هبّ واقفاً واستأذن مكرراً شكره .

لم تكن نور الجالسة في زاوية مظلمة من الحجرة قد شاركت في الحديث. بيد أنها بدت راضية عنه إذ قالت :

«لو لم يكن مجيئي من ذلك المكان البعيد إلا لهذه المقابلة ما ندمت عليه».

وسرعان ما بدا من سير الأحداث أنها كانت مُحققة. فقد علم بالفعل أن السلطان قد عزم في النهاية على السير، ورؤيت كتيبته تخرج من المضمار وتجتاز ميدان الرميّة قبل أن تمرّ بطلعة الثيران وشارع الصليبية حيث كنت قد ذهبت لاستطلاع المشهد. وعندما مرّ السلطان تحت وابل من الهتاف على بضع خطوات مني لاحظت أن عصفور الذهب المخرم، شعار المماليك، قد استبدل به في قمة مظلمته هلال من الذهب، وكان يهمس من حولي بأنّ التبديل كان قد أمر به على أثر رسالة من العثماني تشكك في حمية قانصوه الدينية.

كان يتقدّم الموكب السلطانيّ الذي لا نهاية له خمسة عشر جملاً مزينةً بخصلات من الخيوط الموشاة بالذهب، وخمسة عشر أخرى مزينة بخصلات من خيوط غملمية متعدّدة الألوان؛ مرّت بعد ذلك الخيالة مؤلّفة من مئة فرس للقتال مجلّلة بسروج فولاذية مرصّعة بالذهب. وأبعد من ذلك كانت ترى هوداج فوق بغال مجلّلة بأغطية من الحرير الأصفر ومعدّة لنقل الأسرة السلطانية.

وكان طومان باي قد عُيّن في العشيّة قائماً عامّاً بشؤون مصر كامل الصلاحيات؛ لكنّ الشائعات كانت تسري بأنّ السلطان حمل معه جميع أموال الخزينة، وهي بضعة ملايين من الدينار، كما حمل النفائس المكدّسة في المخازن السلطانية.

وكنّت قد سألت نوراً أن تصحبني لحضور الحدث الذي سعت لتحقيقه. ورجتني أن أذهب وحدي مؤكّدة أنّها لم تكن على ما يُرام. وأظنّ أنّها كانت راغبة في تفادي الظهور أمام الناس ما أمكن؛ ولم يطل بي الأمر لمعرفة أنّها كانت حاملاً. ولم أجسر على السرور كثيراً لأنني وإن كنت راغباً رغبة عارمة وأنا على أبواب الثلاثين في أن يكون لي ابن من صليبي فإنّي لم أكن لأجهل أن حال نور سوف تمنعني بعد الآن من تركها، أو حتى من الهرب من القاهرة بصحبتها، وهذا ما كانت الحكمة تقضي بأن أفعله.

ومرّت ثلاثة أشهر كانت تترامى إلينا فيها الأخبار عن تقدّم السلطان: غزّة وطبرية ثم دمشق التي سُجّل فيها حادث مؤسف. فقد ألقى خازن بيت المال كما هي العادة قطعاً فضية حديثة السكّ عند قدمي السلطان وقت وصوله المظفر إلى المدينة. وعندها هجم حراس قانصوه للمّ النقود هجمة كاد السلطان معها يقع عن جواده لشدّة الزحام عليه.

وعلم أنّ السلطان ذهب من بعد دمشق إلى حماة ثم إلى حلب. ثم ساد الصمت. أكثر من ثلاثة أسابيع. صمت لم تعكّره في البدء أدنى شائعة. واستمرت الحال إلى يوم السبت السادس عشر من شعبان (الرابع عشر من أيلول «سبتمبر» ١٥١٦ م) عندما وصل رسول إلى القلعة لاهناً معفراً: جرت معركة في مرج دابق غير بعيد من حلب. وقد شارك فيها السلطان معتمراً طاقيته الصغيرة

مرتدياً عباءة بيضاء رافعاً بلطته على كتفه وحوله الخليفة والقضاة وأربعون من حملة القرآن. وكانت الغلبة في البداية للجيش المصري فاستحوذ من العدو على سبع رايات ومدافع كبيرة محمولة على عربات. ولكنَّ خيانة ارتكبت بحق السلطان، ولا سيما من خاير بك حاكم حلب الذي كان متواطئاً مع العثمانيين. فبينما كان يقود الميسرة استدار، ولم يلبث صنيعة أن أثار الحَوْر في الجيش بأسره. وإذ أدرك قانصوه ما كان يجري فقد أصيب بفالج شقيّ ووقع عن حصانه ومات للتوّ. حتى إنّه لم يُعثر في الهرج على جثته.

ودبّ الملح في قلوب أهل القاهرة إذ سرعان ما توالى الشائعات عن تقدّم العثمانيين الذين كانوا يسلكون بالاتجاه المعاكس طريق سير الجيش المصري، وهكذا سقطت في أيديهم حلب ثم حماة. وفي خان الخليلي نهبت بعض المخازن العائدة إلى أتراك من آسية الصغرى وإلى مغاربة، بيد أنّ النظام ما لبث أن أعيد بقوة على يد طومان باي الذي أعلن بقصد التخفيف من وطأة هذه الأخبار المفجعة إلغاء جميع المكوس والضرائب، وأرخص أسعار السلع الضرورية ضرورة قصوى.

وعلى الرغم من تمكّن الأمير من الإمساك بزمام الموقف فقد انتظر شهراً قبل أن يعلن نفسه سلطاناً. وفي ذلك اليوم سقطت دمشق بدورها في يد سليم، وما لبثت أن تبعثها غزّة. وإذ كانت تنقص طومان باي القوات النظامية فقد أمر بإنشاء فرق شعبية مسلّحة للدفاع عن العاصمة؛ ولقد أخلى السجون وأعلن أن العفو سيصدر عن جميع الجرائم، بما فيها القتل، لمن ينخرطون في تلك الفرق. وعندما اقتربت الجيوش العثمانية في الأيام الأخيرة من العام جمع السلطان المملوكي جيوشه في مخيم الريدانية شرقيّ العاصمة؛ وضمّ إليها عدداً من الأفيال ومدافع صُهرت حديثاً؛ وحفر خندقاً طويلاً وعميقاً على أمل الصمود لحصار طويل.

لكنّ مثل هذا لم يكن وارداً في حسابان العثمانيّ. فبعد أن ترك سليم لرجاله مدّة يومين للراحة من رحلة سيناء الطويلة أمر بهجوم عامّ يقبض كبير من المدافع وغالبية عديدة ساحقة بحيث تشبّت شمل الجيش المصري في بضع ساعات.

وعلى هذا دخل مولانا السلطان المعظم القاهرة في اليوم الأخير من العام دخول

الفاطحين يتقدمه المنادون واعدن أهل المدينة بالأمان والاطمئنان، داعين إياهم للعودة من غدي إلى أعماهم. وكان اليوم يوم جمعة، وكان الخليفة الذي أسر في بلاد الشام واعد في حاشية الفاتح هو الذي أمر بأن يُخطب في جميع مساجد العاصمة باسم «السلطان ابن السلطان مالك البرين والبحرين وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه».

كانت عينا نور بلون الدم. فقد غمها انتصار السلطان العثماني إلى حد أنني خفت على حياة الجنين الذي كانت حاملة به. وإذا كانت على بضعة أيام من الوضع فقد حلفتها أن تبقى هادئة في فراشها. وأما أنا فقد هدأت نفسي بالوعد بأن أغادر هذا البلد عندما تتعافى بعد الوضع. وكان جميع الأعيان الساكنين في الشارع الذي كنت أقيم فيه قد خبأوا ما عندهم من النفائس والأقمشة في أقبية بيوتهم خوفاً من النهب.

ومع هذا فقد حضر في ذلك اليوم إلى بابي سائسي وحمارة كالعادة لحملي إلى المدينة. وروى لي الصبي مقهقها أنه عثر وهو قادم إليّ برأس ضابط مملوكي مقطوع. وإذا رأي لا أضحك قط فقد أجاز لنفسه أن يقول لي إنني أحمل الأمور كثيراً على محمل الجد، الأمر الذي استحقّ عليه صفقة من ظاهر يدي. ووبخته قائلاً بنبرة أبوية:

«لقد احتلت مدينتك، واجتاحت بلادك، وحكّماها جميعاً بين قتيل وهارب، وقد حلّ محلهم آخرون جاءوا من آخر الدنيا، وأنت تأخذ عليّ أني أحمل الأمور كثيراً على محمل الجد؟»

وكان ردّه الوحيد هزة من كتفيه وهذه العبارة الدالة على خضوع أبدي: «كلّ من تزوج أمي أصبح عمي».

ثم عاد إلى الضحك.

ومع ذلك فإن رجلاً ظلّ لا يستسلم أبداً. إنه طومان باي. وكان يتهيأ لكتابة أعظم الصفحات بطولة في تاريخ القاهرة.

عام طومان باي

٩٢٣ هـ (٢٤ كانون الثاني «يناير» ١٥١٧ م -

١٢ كانون الثاني «يناير» ١٥١٨ م)

كان السلطان العثماني وقد أصبح مالك القاهرة يطوف فيها وكأنه يريد أن يطمس بطفه الذي لا يَمحي كل مكان مقدس وكل حي وكل باب وكل نظرة مذعورة. وكان يتقدمه الرسل الذين لم يكونوا ينفكون عن الإعلان للناس أن يطمثوا إلى سلامتهم وسلامة أرزاقهم، في حين كانت تتواصل المذابح وعمليات السلب والنهب، وعلى بضع خطوات من الموكب السلطاني في بعض الأحيان.

وكان الجراكسة أول الضحايا. وسواء كانوا مماليك أو من نسل المماليك فقد كانوا يُطاردون بلا هوادة. وعندما كان يُقبض على أحد الأعيان من العهد القديم كان يُركب على حمار ووجهه إلى مؤخرته وعلى رأسه عمامة زرقاء وحول عنقه عدد من الجلاجل. وكان يُطاف به بهذا الزي في الشوارع قبل أن يُفصل رأسه. ثم يُعلق الرأس على عصا طويلة في حين يرمى بالجسد إلى الكلاب. وكانت مئات العصي الطويلة قد زرعت في أرض كل مخيم من المخيمات العثمانية على هذا النحو الواحدة بجانب الأخرى مؤلفة غابة جنائزية كان سليم يحب الطواف فيها.

ولم يلبث الجراكسة الذين خُدعوا بعض الوقت بالوعود العثمانية أن تخلصوا بالطبع مما كانوا يعتمرونه من عمام خفيفة وطواقي واعتمروا عمام كبيرة ليدوبوا في مجموع الشعب. وبعد ذلك أخذ الجنود العثمانيون يعقلون جميع المائة بلا تمييز متهمين إياهم بأنهم جراكسة متنكرون مطالبينهم بدفع جزية لإخلاء سبيلهم. وعندما كانت الشوارع تخلو كانوا يكبسون البيوت ويقومون، بحجة إخراج الجراكسة الهاربين من مخائبهم، بالنهب واغتصاب النساء.

وفي اليوم الرابع من ذلك العام كان السلطان سليم في ضاحية بولاق حيث

نصب عسكره أكبر مخيماته . وكان قد شهد إعدام بعض الضباط ثم أمر بأن يُلقى بمئات الجثث التي فصلت رؤوسها وكانت تزحم المعسكر في النيل على الفور . ثم انتقل إلى الحتام ليتطهر قبل الذهاب لصلاة المغرب في مسجد قريب من الميناء . وما إن خيم الليل حتى عاد إلى المعسكر واستدعى إليه بعض معاونيه .

كان الاجتماع قد بدأ للتو عندما تعالی صخب غير مألوف : كانت مئات الجمال المحملة بمشاقات مشتعلة قد هجمت على المواقع العثمانية مُضرمة النار في الخيم . وكان الظلام قد أسدل ستاره فاجتاح آلاف من المسلحين المعسكر يساعدهم على ذلك الذعر الذي دب فيه . وكان على رأسهم طومان باي . وكان عسكره يضم جنوداً بالطبع ، لكنه كان يضم على الأخص أناساً من العامة والبجارة والسقائين وبعض الذين كان قد حُكم عليهم والتحقوا بالفرق الشعبية المسلحة . وكان بعضهم يحمل خناجر ، ولم يكن مع بعضهم الآخر سوى المقاليع أو الهراوات . ومع ذلك فقد زرعوا الموت في صفوف العثمانيين يساعدهم على ذلك الليل والمباغته . وفي خضم المعركة حوَصر سليم نفسه من كل صوب وكانت ضراوة حرسه وحدها هي التي أتاحت له شق طريق إلى الخارج . وأمسى المعسكر في يدي طومان باي الذي أمر أنصاره من غير أن يضيع لحظة واحدة بأن يلاحقوا عسكر الاحتلال في جميع أحياء القاهرة ، وبالأخص يأخذوا أسيراً واحداً .

ولقد استعيدت العاصمة شارعاً بعد شارع . وأخذ الجراكسة يطاردون الجنود العثمانيين بمساعدة الشعب النشطة . وإذ غدا الضحايا جلادين فقد بدوا بلا رحمة . ولقد رأيت بنفسي غير بعيد من منزلي مصرع سبعة من الأتراك كانوا قد احتموا بالمسجد . فإذا كان حوالي العشرين قاهرياً يلاحقونهم فقد لجأوا إلى أعلى المئذنة وشرعوا يطلقون نار بنادقهم على الحشد . لكنهم ما لبثوا أن قبض عليهم وذبحوا ورُموا مسربلين بدمائهم من أعلى المبنى .

كانت المعركة قد بدأت مساء الثلاثاء . ويوم الخميس نزل طومان باي في جامع شيخو بشارع الصليبية وأتخذ منه مقراً لقيادته . وبدا أنه غدا سيد المدينة ، حتى إنه حُطب له مجدداً في الغداة من فوق المنابر .

بيد أن وضعه لم يكن أقل هشاشة من ذي قبل . فما إن انقضى هول المباغته

حتى كان العثمانيون قد تمالكوا أنفسهم فاستعادوا بولاق وتسرّبوا إلى القاهرة القديمة حتى أطراف الشارع الذي أنا فيه وملكوا شبراً فشبراً ما كانوا قد فقدوه . وكان طومان باي يسيطر بشكل أساسي على الأحياء الشعبية في الوسط، وقد منع الوصول إليها بحفر خنادق على عجل وبإقامة السواتر والحواجز .

كان يوم الجمعة ذاك هو اليوم الذي اختارته نور من جميع الأيام التي خلقها الله للإحساس بالأمم المخاض . وكان عليّ أن أخرج زاحفاً واندسّ عبر حديقتي لاستدعاء قابلة من الجوار رفضت الانتقال إلا بعد ساعة من التضرّع وبذل أجر مرتفع : ديناران إذا كان المولود أنثى وأربعة إذا كان ذكراً .

وإذ شاهدت الشقّ الهزيل الورديّ بين ساقَي المولود المتفتختين فقد صرخت محنقة : «ديناران!»

وأجبتها قائلاً : «إذا تمّ كل شيء بسلام فسوف تحصلين رغم ذلك على أربعة!» ووعدت وقد غمرها الفرح لهذا القدر من السخاء بأن تعود بعد بضعة أيام للختان بلا مقابل . ورجوتها ألا تفعل شيئاً شارحاً لها بأنه لا وجود لهذه العملية في بلدي، الأمر الذي أدهشها وأمضها .

وبدت لي ابنتي في جمال أمها وبياضها . وأسمايتها «حياة» إذ لم أكن أتمنّى لها، كما لجميع أسرتي، خيراً من الخروج سليمة من عريضة القاهرة القاتلة التي كانت تتواجد فيها إمبراطوريتان، إحداهما نشوى بنصرها والثانية معاندة في الصمود للموت .

وفي الشوارع كان القتال لا يزال ضارياً . وكان العثمانيون يحاولون وقد استردوا السيادة على معظم الضواحي أن يسيروا نحو القلب، لكنهم لم يكونوا يتقدّمون إلا ببطء وهم يتلقون أفدح الخسائر . ومع ذلك فإنه لم يكن هناك من ريب في نتيجة المعركة . فقد أخذ العسكر والمسلّحون من الفرق الشعبية يفرون شيئاً فشيئاً من معسكر طومان باي، بينما ظلّ السلطان المملوكي يقاتل نهراً بطوله على رأس حفنة من المخلصين وبعض رماة البنادق والجراكسة من حرسه الخاص . وعزم ليل السبت على مغادرة المدينة من غير أن يفقد مع ذلك شيئاً من تصميمه على

الصمود. وأشاع أنه سوف يعود عما قريب بمزيد من القوى لإخراج المجتاهين.

كيف السبيل إلى وصف ما فعله العثمانيون عندما تمكّنوا من النفاذ مجدداً إلى أحياء القاهرة؟ فلم يكن الأمر في نظرهم كما كان عند انتصارهم الأول، أي شلّ العسكر الجراكسة الذين قاوموهم، بل كان بعد الآن معاقبة جميع أهل القاهرة. فقد انتشر جنود السلطان العثماني في الشوارع حاملين أمراً بقتل كل ما يتنفس. ولم يكن في وسع أحد مغادرة المدينة الملعونة لأن جميع الطرق كانت مقطوعة؛ ولا كان في وسع أحد أن يجد ملاذاً لأن المقابر نفسها والجوامع تحوّلت إلى ساحات قتال. وقد أرغم الناس على الاختباء في منازلهم ريثما يهدأ الإعصار. وسقط في ذلك اليوم من الفجر إلى الهزيع الأخير من الليل أكثر من ثمانية آلاف قتيل. وكانت الشوارع ملأى بجثث الرجال والنساء والأطفال والخيول والحمير مختلطة في موكب دموي لا نهاية له.

وفي الغداة نصب سليم في معسكرة رايتين إحداهما بيضاء والأخرى حمراء وهي إشارة لرجاله بوقف الاقتصاص ورفع السيف عن أهل المدينة. وكان الوقت قد حان لذلك لأنه لو امتدّ الشار بضعة أيام أخرى بالعنف نفسه لما كان السلطان العثماني استولى في ذلك البلد على غير مدفن عظام كبير.

لم تنقطع نور طوال تلك الأيام الدامية عن الدعاء لطومان باي بالنصر. ولم تكن مشاعري الخاصة لتختلف. فإذا كنت قد استقبلت السلطان المملوكي في بيتي ذات يوم فقد كنت متحمساً لإقدامه. ولا سيّما أنه كان هناك بايزيد. فلسوف تُسلمه وجميع أفراد أسرته إلى العثمانيين عاجلاً أو آجلاً ريبة أو وشاية أو ثرثرة. وكان ينبغي لسلامة الطفل الشريد وسلامتنا أن ينتصر طومان باي. وعندما أدركت يوم الأحد أنه كان قد خسر المعركة إلى الأبد انفجرت غضباً عليه بدافع الحية والخوف والغیظ المكبوت معلناً أنه ما كان ينبغي قطّ أن يندفع في عمل بهذا التهور، وأن يجرّ الشعب إلى صفّه ويجرّ عليه نقمة سليم.

وبالرغم من أن نوراً كانت لا تزال متعبة فإنها انتصبت واقفة وكأنها استيقظت

من حلم مزعج ، ولم يكن يُرى في وجهها المتقنع سوى عينيها اللتين لم تكونا تنظران إلى شيء .

«تذكر الأهرام! كم من رجل ماتوا في سبيل بنائها وكان في وسعهم العيش سنين أطول يفلحون الأرض ويأكلون وينجبون الأولاد! وربما ماتوا بعدئذٍ بالطاعون ولم يتركوا أثراً. ولقد بنوا وفقاً لرغبة فرعون نُصباً سوف يخلد طيفه إلى الأبد ذكرى عملهم وآلامهم وأشرف تطلعاتهم. ولم يفعل طومان باي غير ذلك. ألا تساوي أربعة أيام من البسالة والكرامة والتحدّي أكثر من أربعة قرون من الخضوع والاستسلام والدناءة؟ لقد قدّم طومان باي للقاهرة وشعبها أجمل هدية ممكنة: نار مقدّسة سوف تنير الليل الطويل الذي بدأ وتدفعه» .

ولم تقنعني كلمات نور سوى نصف إقناع ، لكنني لم أسع إلى معارضة أقوالها ، واكتفيت بإحاطتها برفق بذراعيّ لإعادتها إلى الاستلقاء . فلقد كانت تتحدّث لغة قومها ، ولم يكن لي من طموح سوى البقاء على قيد الحياة أنا وذويّ لأحكي ذات يوم على ورق صقيل قصّة سقوط القاهرة ، وسقوط إمبراطوريتها ، وسقوط آخر أبطالها .

لم يكن في مقدوري مغادرة المدينة قبل عدّة أسابيع ، الوقت الكافي لتمكّن نور من السفر . وابتظار ذلك كانت الحياة في القاهرة قد أصبحت أصعب فأصعب . فقد قلّت السلع إلى حدّ الندرة . ولم يكن يُعثر على الأجبان ولا الزبد ولا الفواكه ، وكان ثمن الخنطة إلى ارتفاع . وكان يقال إنّ طومان باي قرّر إجاعة الحامية العثمانية بمنع وصول المؤن إلى المدينة من طريق الأقاليم التي كانت لا تزال تحت سيطرته ؛ وأنه تفاهم علاوة على ذلك مع قبائل البدو الرّحل العربية التي لم تخضع يوماً لأيّ نفوذ مصري على الإتيان إلى نواحي العاصمة لغزوها ونهبها . وكان الناس يؤكّدون في الوقت نفسه أنّ طومان باي استقدم من الإسكندرية عتاداً حربياً من سهام وأقواس وبارود ، وأنه حشد عساكر لم ينهكها القتال ، وأنه يستعدّ لهجوم جديد . والحقّ أن المواجهات تضاغت ، ولأسيما من ناحية الجيزة ، بحيث تعدّر سلوك طريق الأهرام التي كان علينا سلوكها لاستعادة بايزيد .

هل كان علينا مع ذلك كله أن نحاول الهرب معرضين أنفسنا لخطر الوقوع في قبضة دورية عثمانية أو بعض المماليك الفارين أو عصابة من النهابين؟ وتردّدت في القيام بذلك إلى أن علمت أنّ السلطان سليم كان قد عزم على ترحيل عدّة آلاف من السكّان إلى القسطنطينية. ودار الحديث أولاً عن الخليفة والمماليك الأعيان وأسّرههم. لكنّ اللائحة لم تنفكّ تطول: بناؤن ونجارون وقاطعو رخام وبلّاطون وحدّادون وعمّال من جميع الاختصاصات. ولم ألبث أن علمت بأنّ الموظفين العثمانيين كانوا بصدد إعداد لوائح اسمية بجميع المغاربة واليهود في المدينة لترحيلهم.

وصدر قراري. وإذ منيتّ النفس بالرحيل في الأيام الثلاثة القادمة فقد قمت بجولة أخيرة في المدينة لتنظيم بعض الأمور، وإذ بي أسمع أنّ طومان باي قد أُسر بسبب خيانة من زعيم قبيلة بدوية.

وحوالي الظهر دوت صيحات مختلطة بأصوات الأذان للصلاة. ولُفِظ اسم بالقرب مني، باب زويلة. وبالفعل فقد كان آلاف الأهالي، رجالاً ونساءً، شبّاناً وشيباً، يهرعون باتجاه ذلك الباب. وفعلت فعلهم. وكان جمع غفير لا ينفكّ يتزايد ويلفت النظر بصمته شبه التام. وفجأة انشقتّ الجموع فاتحاً الطريق لرتل عثمانيّ ضمّ نحو مئتي خيال وضيعفهما من المشاة. وأداروا ظهورهم للناس مشكلين ثلاث دوائر بعضها داخل بعض وفي الوسط رجل على حصان. ولم يكن من اليسير التعرف في ذلك الطيف على طومان باي. فقد كان حاسر الرأس أشعث اللحية، ولم يكن عليه من الثياب سوى مزق من القماش الأحمر تُسيء سترها عباءة بيضاء. ولم يكن في قدميه غير لفاقتين من جوخ أزرق.

ونزل السلطان عن حصانه بناء على طلب من ضابط عثمانيّ. وحلّ وثاق يديه، غير أنّ اثني عشر جندياً لم يلبثوا أن أحاطوا به شاهري السيف. مع أنّه لم يكن يبدو عليه أنه يفكر في الهرب. وحيّاً بيديه الطليقتين الناس الذين هتفوا له بشجاعة. واتّجهت جميع الأنظار، بما فيها نظره، ناحية الباب الشهير الذي كان الجلاد يديّ من فوقه حبلاً.

وبدت الدهشة على وجه طومان باي، بيد أن البسمة لم تفارق شفّتيه. وأمّا

نظراته فكانت وحدها التي فقدت اتقادها. وهتف بالناس قائلاً: «اقرأوا لي سورة الفاتحة ثلاث مرّات!»

وتعالّت آلاف الغمغميات وكأنها دويّ يزداد زلزلة في كل لحظة: «الحمد لله ربّ العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين...»

وكان لفظ «أمين» صرخة ممدودة حانقة ثائرة. ثم لا شيء، وران الصمت. وبدا العثمانيون أنفسهم مشدوهين، وكان طومان باي هو الذي حرّكهم بقوله:

«أيها الجلّاد، قم بعملك!»

ولفّ الجبل حول عنق المحكوم عليه، وشدّ من الطرف الآخر. وارتفع السلطان مقدار قدم ثم سقط على الأرض. لقد انقطع الجبل. وأعيد ربطه وشدّه الجلاد ومعاونوه من جديد، وكرة أخرى انقطع. ولم يُعدّ التوتّر ليُحتمل. وبدا السلطان وحده مرحباً وكأنّه يشعر بأنّه أصبح في مكان آخر، مكان يُجزى فيه الإقدام جزاء يختلف اختلافاً تاماً عن هذا الجزاء. وأعاد الجلاد ربط الجبل للمرّة الثالثة، ولم ينقطع. وتعالّت صرخة ممزوجة بالدموع والنحيب والدعاء. فلقد قضى آخر أباطرة مصر، أبسل من حكم وادي النيل طراً، مشنوقاً على باب زويلة وكأنّه سارق خيول وضيع.

ظلّت صورة المشنوق ماثلة طوال الليل أمام ناظريّ. بيد أنّي سلكت في الصباح طريق الأهرام تهبّ بي اللوعة والأرق وعدم الإحساس بالأخطار.

ومن غير أن أعلم كنت قد اخترت أحسن وقت للفرار. فقد تخلّى العثمانيون عن حذرهم يحدوهم الاطمئنان الناتج عن القضاء على عدوّهم، في حين هام أصدقاء طومان باي على وجوههم وقد نالت منهم هزيمتهم. ولا ريب في أنّه كان علينا أن نتوقّف خمس مرّات أو ستاً للإجابة عن بعض الأسئلة النائمة عن الارتياب. بيد أنّنا لم نُرهق ولم نُسلب، ووجدنا أنفسنا في الليل نائمين بسلام عند خضراً في كوخ غرامنا الأول.

وهناك انقضت شهور من الهناء اليسير غير المأمول. فلم تكن قرية الحاضنة
لصغرها وبؤسها لتستثير الأطماع، وكانت تعيش على همامش الحروب
والانقلابات. غير أن هذا العيش الهادئ الرتيب ما كان ليكون عندي سوى واحة
وارفة الظلال بين مرحلتين طويلتين من السفر. وكانت أصوات البعيد تناديني،
وكان مكتوباً لي ألا أصبم أذنيّ طويلاً عن إغراءاتها.

عام الاختطاف

٩٢٤ هـ (١٣ كانون الثاني «يناير» ١٥١٨ م) -
٢ كانون الثاني «يناير» ١٥١٩ م)

برزت غير متيقن من شيء من عزلتي الريفية الطويلة الموشاة مع ذلك بالتأملات والنزهات الصامتة. فجميع المدن قابلة للهلاك؛ وجميع الإمبراطوريات ضارية، والعناية الإلهية لا تُسبر أغوارها. وكان فيضان النيل ودورة النجوم وولادة صغار الجاموس الموسمية هي وحدها التي تشد من عزيمتي.

وعندما أزفت ساعة الرحيل وجّهت وجهي نحو مكة. وكان حجّ يفرض نفسه على حياتي. وإذ كانت نور تحذر من السفر بصحبة طفلين أحدهما في العام الأول من العمر والثاني في الرابعة فقد طلبت من خضراً مرافقتنا، الأمر الذي سرّها كثيراً مُقسمة أنها ما كانت لتتوقع أجراً خيراً من إسلام الروح في البلاد المقدسة.

والتقّطنا مركب شراعي على الضفة الإفريقية من النهر على مسيرة نصف يوم من الجيزة نحو الجنوب. وكان يملكه صانع طحين غنيّ بجمل بضاعته بأتجاه مصر العالية، متوقفاً يوماً أو يومين في كل مدينة على شيء من الأهمية. وهكذا زرنا على التوالي بني سويف والمنية ومنفلوط حيث انضمّ إلينا رجل. وفي الليلة نفسها جلست للكتابة على نور شمعدانٍ مستفيداً من السكون ومن نوم الطفلين فناداني الراكب الجديد قائلاً:

«هيه! أنت! اذهب وأيقظ أحد البحريين. إنّي أرى في الماء قطعة كبيرة من الخشب سوف تنفعنا غداً في صنع طعامنا!»

ولم تعجبني لكتته الإنكشارية ولا صوته الأجنس ولا عرضه في منتصف الليل. ومع ذلك فقد أجبته من غير ما فحّة نظراً لسنته:

«إنه منتصف الليل، ومن الخير عدم إيقاظ أحد. ولكن في وسعي ولا شك أن أعاونك أنا نفسي».

ووضعت قلمي جانباً بشيء من الأسف وخطوت بضعة خطوات من الرجل. لكنه قال لي بنزق:

«لست بحاجة إلى أحد. يمكنني عمل ذلك وحدي!»

وكان قد انحنى من فوق المركب ممسكاً بيده حبلاً حاول أن يربط به اللوح العائم عندما برز بغتة من الماء ذنب طويل فالتفت عليه ورماه في النيل. وشرعت أصرخ منتزعاً بقسوة من النوم الركب والبحريين. وطوي الشراع لوقف المركب الذي احتفظ به مربوطاً ساعة كاملة إلى الضفة فيما ألقى بعض البحارة البواسل أنفسهم في الماء. ولكن بلا جدوى. وأجمعوا كلهم على أن تمساحاً قد افترس المنكود.

وحكى لي خلال ما تبقى من الرحلة أعجب القصص عن هذه الحراذين الضخمة التي ترهب مصر العليا. ويبدو أنه في أيام القراعنة، ثم في أيام الرومان، وحتى في بداية الفتح الإسلامي كانت أضرار التماسيح قليلة. بيد أنه في القرن الثالث الهجري جرى حدث من أعجب الأحداث: عُثر في مغارة قريبة من منفلوط على تمثال من الرصاص يمثل أحد هذه الحيوانات بالحجم الطبيعي تغطيه كتابات فرعونية. وإذ قدر والي مصر في تلك الأيام، واسمه ابن طولون، أن التمثال وثن من الأوثان فقد أمر بإتلافه. وبين ليلة وضحاها انقلبت التماسيح مهاجم الناس بحقد زارعة الهلع والموت. وعندها فهم أن التمثال كان قد رُفع تبعاً لقران بين النجوم لترويض تلك الحيوانات. ولحسن الحظ أن البلاء لم يُصب إلا مصر العليا. فالتماسيح هبوا إلى القاهرة لم تكن تغتذي قطً بلحوم البشر، وذلك ولا ريب لأن التمثال الذي يمنعها من أن تفعل لم يُعثر عليه قطً.

ومررنا بعد منفلوط بأسبوع من غير أن نتوقف فيها لأنه أعلن عن انتشار طاعون جديد. وكانت محطتنا التالية في المنشية التي زرت فيها الأمير البربري الذي يحكمها. ثم كان دور الخيام، وهي مدينة صغيرة سكاها جميعهم نصارى باستثناء صاحب الشرطة. وبعد يومين كنا في قنا، وهي بلدة كبيرة يحيط بها سور من اللبن

يتدلّى منه بأبهة ثلاثمئة رأس من رؤوس التماسيح . ومن هناك سلكنا طريق البرّ إلى ميناء القُصير على البحر الأحمر مزوّدين بقرب ملأى بالماء لأنه لا يُعثر من النيل إلى الساحل على عين ماء واحدة . ولم نحتج إلى أكثر من أسبوع لبلوغ يُنبع ميناء بلاد العرب القفراء حيث دَنَوْنَا من الشاطئ مع ظهور هلال ربيع الثاني وقد شارف موسم الحج السنوي على نهايته ؛ وما هي إلا ستة أيام حتى كنا في جُدّة .

وفي هذا الميناء الذي بينه وبين الازدهار خصام ، قليلة هي الأشياء التي تستحقّ الزيارة . فمعظم البيوت أكواخ خشبية باستثناء مسجدين قديمين وبعض الفنادق . وتنبغي الإشارة أيضاً إلى قبة متواضعة يُزعم أنّ أمنا حواء قضت فيها بضع ليالٍ . وكان يحكم المدينة في تلك السنة أميرُ بحرِ عثمانيّ كان قد تخلّص من الوالي القديم المخلص للماليك برميّه من مركبٍ حرّبيّ في منطقة مليئة بأسماك القرش . وكان الأهالي ، وهم فقراء في مجموعهم ، ينتظرون من الحكم الجديد أن يسطش بالكفّار الذين كانوا يزعجون التجارة في البحر الأحمر .

ولم نمكث في جُدّة غير يومين ، أي الوقت اللازم للاتّصال بقافلة ذاهبة إلى مكة . وفي منتصف الطريق ليست ثوب الإحرام وشفناتي تردّدان بلا انقطاع هتاف الحجاج : «لبيك اللهم ، لبيك اللهم» . وبحثت عيناى عن مكة عند الأفق ، ولكنني لم أر المدينة المقدّسة إلا في نهاية نهار جديد من السفر ، وعندما حاذيت أسوارها فقط . فمسقط رأس النبي صلى الله عليه وسلّم قائم في الواقع عند أسفل وإد تحيط به جبال تحفظه من الأنظار .

ودخلتها من باب العمرة ، وهو أكثر أبوابها الثلاثة عبوراً . وبدت لي الشوارع ضيقة جداً والمنازل ملتصقة بعضها ببعض ، وإن تكن أحسن بناء وأشدّ غنى من منازل جُدّة . وكانت الأسواق ملأى بالفاكهة الطازجة على الرغم من جفاف الأرض في الجوار .

وكنت كلّما تقدّمت شعرت بأنني انتقلت إلى عالم من الأبحام : إنّ هذه المدينة المبنية على هذه الأراضي الجذباء يبدو أنّها لم يكن لها يوماً من مصير غير الخشوع ؛ ففي وسطها الحرم الشريف بيت إبراهيم ؛ وفي القلب حول الحرم الكعبة ، هذا البناء المهيب الذي بوّدي الطواف حوله إلى حدّ الإنهاك والذي يحمل كل ركن من

أركانها اسماً: ركن العراق وركن الشام وركن اليمن والركن الأسود، وهو أكثرها جلالاً وموجّه جهة الشرق. وفي هذا الركن يقوم الحجر الأسود. وكانوا قد علموني أنه بلمسه إنما ألمس يمين الخالق. ويتهالك عليه الناس في العادة بحيث يستحيل تأمله طويلاً. غير أنه ما إن مرّت موجات الحجاج الكبيرة حتى تمكّنت من الاقتراب على هواي من الحجر الأسود وغمره بالقبلات والدموع.

عندما أصبح عليّ أن أخلي المكان لنور التي كانت تتبعني على مسافة معيّنة، ذهبت أشرب تحت قبة قريبة من الكعبة من ماء زمزم المبارك. وإذ لاحظت أن باب الكعبة قد فتح لزائر مرموق فقد أسرعت في ولوجه لإقامة صلاة. كانت الكعبة مفروشة بالمرمر الأبيض المشرب بالحمرة والزرقة، وقد علّقت على طول الجدران ستائر من الحرير الأسود.

وعدت في اليوم التالي إلى الأمكنة عينها وقمت بالمناسك نفسها في حماسة وحمية، ثم جلست ساعات مستنداً بظهري إلى حرم المسجد غير شاعر بما حو لي. ولم أكن أسعى إلى التفكير. فقد كان عقلي متفتحاً ببساطة للتفكير في الله فتفتح وردة لندی الصباح، وكنت من الهناء والرغد بحيث غدت كلّ كلمة وكلّ حركة وكلّ نظرة بلا قيمة. وكنت أنهض أسفاً عند زوال كلّ نهار وأرجع جدلان في كل غداة.

وكثيراً ما كانت تعاودني في أثناء تأملي آيات من القرآن، ولا سيّما آيات سورة البقرة التي تستفيض في ذكر الكعبة. ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً، واتخذوا من مقام إبراهيم مُصلًى﴾. وكانت شفتاي تتمتان بكلمات الله تعالى، كما في أيام ختم القرآن من غير تلثم ولا تحوير. ﴿قولوا آمناً بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾.

وتركت مكة بعد شهر انقضى بأسرع مما تنقضي ليلة غرام. وكانت عيناوي لا تزالان ممتلئتين سكينه، وكانت نور تبعد عني صخب الطفلين. وكنا قد توجهنا شمالاً لزيارة قبر رسول الله في المدينة قبل أن نبلغ تبوك فالعقبه فغزة حيث عرض علينا تاجر من سوس أن يُقلنا على مركبه، وهو مركب سريع راس في خليج صغير

غريباً المدينة . وكنت قد التقيت هذا الرجل خلال المرحلة الأخيرة من الرحلة، وكنا كثيراً ما نُخَيِّلُ جنباً إلى جنب . وكان اسمه عبّاد، وهو في مثل عمري وقامتني وحياتي للتجارة والأسفار، بيد أنه حينما كنت أشعر بالكرب لم يكن يُبدي غير راحة بال وطمأنينة . والحق أنه كان قد قرأ قليلاً من الكتب واحتفظ بجهل مطبق لبعض الأمور التي كنت قد فقدت الجهل بها في سنّ مبكرة جداً .

كنا قد اصبحنا في عُرض البحر عندما سألتني نور للمرة الأولى : «إلى أين نحن ذاهبون؟»

وكان ينبغي أن يكون الجواب بديهاً لي ولها . أفلم أكن أملك منزلاً في تونس تنتظري فيه أمي وابنتي الكبرى؟ ومع ذلك فقد ظلت صامتاً وعلى وجهي ابتسامة ملغزة . وألحت جركسيّتي :

«ماذا قلت لصديقك؟»

- سوف يجتاز مركبه البحر المتوسط بأسره قبل النزول بعد طنجة على طول الساحل الأطلنطيقي . وسوف تنزل حينها يجلو لنا» .

وبدلاً من أن تكشف نور عن قلقها اتخذت صوتاً مترنماً وقالت :

«لا في مصر، ولا في الشام، ولا في قنينة . . .»
وتابعت فرحاً بهذه اللعبة :

«ولا في مملكة فاس، ولا في سوس . . .»

- ولا في بورصة، ولا في القسطنطينية . . .

- ولا في الجزائر . . .

- ولا في بلاد الجركس . . .

- ولا في الأندلس . . .»

وانطلقتا كلانا في ضحكه طويلة مصطنعة يرقب فيها كل منا من طرف عينه الآخر ليعرف أيننا سوف يستسلم أولاً لشعور المنفيّ بالحنين المكتوم . وكان عليّ أن انتظر عشرة أيام أخرى قبل أن أرى دموعاً سوداء من الغبار وكبريت الرصاص تفضح مخاوف نور وهلعها ..

كنا قد توقفنا في الإسكندرية لتجديد مؤننا، وفي اللحظة التي كنا نتأهب فيها

للإقلاع صعد إلى متن المركب ضابط من الحامية العثمانية لإجراء تفتيش أخير، الأمر الذي لم يكن بحد ذاته شيئاً غير مألوف. وما كان الرجل ليفكر بالتأكد في غير الشكوك التي تتطلبها وظيفته. بيد أنّ طريقته في التفرّس في الوجوه كانت تُشعر كلّ أحد بأنه قد أذنب وأنه فآر وأنه قد ضُبط.

وبغتة أفلت ابن نور من خَصْرَا التي كانت تمسك به وجرى رأساً نحو العسكري وصرخت الحاضنة: «بايزيد!»

وإذ سمع العثماني هذا الاسم فقد انحنى على الطفل ورفع به بذراعيه إليه وشرع يديره متفحصاً بإلحاح شعره ويديه وعنقه. وسأله:

«ما اسمك؟»

- بَيزيد.

- ابن من؟»

وهتفتُ في نفسي قائلاً: «لقد قلت لك ذلك كثيراً آيتها المنكودة!» فلقد كنت قد فاجأت نوراً مرتين وهي تعلّم ابنها أنه بايزيد بن علاء الدين العثماني، ولتها لوماً شديداً وأنا أشرح لها أنه من الممكن في عمره أن يفضح نفسه. ومن غير أن نَحْطَنِي رَدَّتْ بأنه ينبغي أن يعرف الطفل هويته ويتهيأ لتحمل مصيره، وأنها تخشى أن تموت يوماً من غير أن تكون قد أخبرته بسرّه. وفي هذه اللحظة كانت ترتعد وتتصّبب عرقاً، وأنا كذلك.

وأجاب بايزيد: «ابن علاء الدين».

ومدّ في الوقت نفسه اصبعاً متردداً نحو المكان الذي كنت جالساً فيه. ووقفت لدى إشارته وتقدّمت من الضابط وعلى شفّتي ابتسامة عريضة ويدي ممدودة وقلت: «اسمي علاء الدين حسن بن الوزان، تاجر من فاس ومولدي في غرناطة أعادها الله إلينا بسيف العثمانيين!»

وارتمى بايزيد عليّ وقد عراه الخجل، وخبأ رأسه في كتفي. وتركه الضابط قائلاً لي:

«طفل جميل! إنّ اسمه اسم ولدي البكرا لم أراه منذ سبعة أشهر»

وارتجف شارباه. ولم يكن في نظرتة ما يُرعب. واستدار وسلك العبّارة وهو يشير إلى عبّاد بأنّ في وسعه الإقلاع.

وما إن أصبحنا على بُعد نصف ميل من الرصيف حتى دخلت نور قمرتنا وذرفت جميع الدموع التي كانت قد حبستها حتى ذلك الحين.

وبعد شهر من هذا عرفت نور دُعورها الثاني، وكان ذلك في جربة. بيد أنني لم أرها تبكي في هذه المرة.

كنا قد توقفتنا لقضاء الليل، وغادرتُ مسروراً الألواح المترجحة لأسير بعض الوقت مع عبّاد فوق اليابسة. ثم إنني كنت متشوّقاً إلى التعرف قليلاً على هذه الجزيرة التي كثيراً ما أشادوا لي برغد العيش فيها. فقد ملكها طويلاً ملوك تونس، لكنّ أهلها قرّروا في نهاية القرن أن يستقلّوا بها وأن يدمروا الجسر الذي كان يربطهم بالقارة. وكان لديهم ما يقوم بأودهم بتصدير الزيت والصوف والزييب، ولكنّ سرعان ما اندلعت حرب أهلية بين مختلف العشائر وأدمت الجزيرة عمليات القتل المتتابة. وفقدت شيئاً فشيئاً كل سلطة.

غير أنّ ذلك لم يمنع عبّاداً من التوقّف فيها أكثر ما أمكن من المرّات. وقد قال ملاحظاً: «سريعاً ما تتزوج الفوضى والفرح بالعيش!».

وكان يعرف حانة للبحارة لطيفة جداً. «يقدمون فيها الحّم ما في الساحل من سمك وأجودّ الخمر».

ولم يكن في نيتي قطّ أن أطمع، وكانت رغبتني في السكر بعد الرجوع من الحجّ أقلّ من ذلك أيضاً. ولكنّ حفيظة كانت تفرض نفسها بعد أسابيع طويلة من ركوب البحر.

وما كدنا ندخل ونبحث بأعيننا عن ركن نحتله في إحدى الموائد حتى أجفلتُ لنهاية عبارة. وأصخت السمع. فقد كان بحار يحكي أنه رأى رأس عروج ذي اللحية الحمراء مقطوعاً ومعروضاً في ميدان بوهران، وأنّ القشتاليين هم الذي قتلوه وأخذوا ينتقلون بغنيمتهم الجنائزية من ميناء إلى ميناء.

وبعد أن جلسنا شرعت أقصّ على عبّاد ذكرياتي عن القرصان ، والزيارة التي
قمت بها إلى معسكره، والسفارة التي تولّيتها باسمه إلى القسطنطينية . وبغنة أشار
إليّ رفيقي بأن أخفض صوتي . وهمس لي قائلاً:

«خلفك بحاران صقلّيان، شاب وعجوز، يُصغيان إليك بأكثر مما ينبغي من
الاهتمام» .

واستدرت بشكل خاطف . ولم تكن هيئة جارينا لتطمّنين على الإطلاق . وعندها
غيّرنا مجرى الحديث . ونعمنا بالألّ ونحن نراهما يذهبان .

وما هي إلا ساعة حتى خرجنا بدورنا مرحين شبعاين سعيدين بالمشي على طول
الشاطئ ، فوق الرمل المبلول وتحت قمر متألق .

وما كدنا نجتاز ببضعة من أكواخ الصيادين حتى رأينا فجأة ظلالاً تمتدّ أمامنا .
وفي لحظة كان يحيط بنا زهاء عشرة رجال مدجّجين بالسيوف والخناجر عرفت منهم
بيسر جارينا على المائدة . وبصق أحدهما بعض عبارات التعجّب بعربية رديئة؛
وفهمت مع ذلك أنه كان ينبغي عدم الكلام أو الحراك إذا كنّا لا نريد أن نُطعن .
وفي اللحظة التالية كنا طريحين على الأرض .

وأخر صورة ما زلت احتفظ بها صورة قبضة انهالت أمام ناظري على نحر
عبّاد . ثم غبت في ليل طويل مضطرب خانق مُغرّق .

أكان بوسعي أن أحنّ أن أغرب رحلاتي كانت قد بدأت على هذا النحو؟

كتاب رومة

لم أكن الأرض ولا البحر ولا السماء ولا نهاية الرحلة. وكان لساني شديد الحرارة، ورأسي حافلاً بالغثيان والضباب والالام. وكانت تتصاعد من قعر القبو الذي رميت فيه رائحة الجرذان الميتة والأواح التبطين العفنة وأجساد الأسرى الذين عمّروه قبلي.

وهكذا كنتُ عبداً يا بني، وقد سرى العار في دمي. فأنا الذي وطئتُ أقدامُ أجداده أرض أوروبا فاتحين سوف أبيع إلى أمير من الأمراء، إلى تاجر ثري من تجار بالرمو أو نابولي أو راغوسة، أو - وذلك أشنع - إلى واحد من قشتالة يجرعني في كل لحظة جميع حوان غرناطة.

وبقرب كان عبّاد السوسي مُقيّداً بمثل قيودي وفي قدميه مثل ما في قدمي من أُنقال، وكان ملقى على الغبار شأنه شأن أحقر الخدم. وتأمّلتُه، لقد كان مرآة انحطاطي أنا. فبالأمس كان لا يزال يرعد مزهواً على متن مركبه السريع موزعاً الضحكات والركلات، ولم يكن البحر بأسره فسيحاً بالقدر الذي يكفيه، ولا اصطخاب الموج جاعاً بالقدر الذي يُرضيه.

وزفرت بصوت مسموع فردّ رقيق بؤسي الذي كنت أظنه نائماً، من غير حتى أن يفتح عينيه وقال: «الحمد لله. الحمد لله! لِنُحْمِدِ الله على جميع نِعَمه!»

لم يكن الوقت في نظري وقت تجديف قطّ. وعليه فقد اكتفيت بالقول: «لِنُحْمِذُه في كل حين. ولكنّ علامَ تريد أن تحمده في هذه اللحظة بالذات؟»

- على أنه أعفاني من التجديف كهؤلاء المنكسودين المحكوم عليهم بالتجديف وأسمعُ زفيرهم المتحبب. وأحمده كذلك على أنه تركني أحياء، وقدر لي صحبة طيبة. أليست تلك ثلاثة أسباب واضحة للقول: «الحمد لله!».

واعتدل جالساً وقال :

«لا أطلب قطّ من الله أن تجبني المصائب؛ أطلب إليه فقط أن يجنبني القنوط. اطمئن، فعندما يتخلّى الله عنك بيدٍ يمسكك بالأخرى».

كان عبّاد يقول الحقّ يا بنيّ، بل كان يقول أصدق ممّا كان يعتقد، أفلم أكن قد تركت في مكّة يمين الله؟ ولسوف أعيش في رومة في قبضة يسراه!

عام القديس أنجلو

٩٢٥ هـ (٣ كانون الثاني «يناير» ١٥١٩ م -

٢٢ كانون الأول «ديسمبر» ١٥١٩ م)

كان لحاطفي شهرة وتحوّفات ورعة. فالقرصان الصقليّ الجليل «بيترو بوفاديليا» الذي أصبح في الستين من عمره، وكان قد ارتكب القتل عدّة مرات ويحشى أن تفيض روحه وهو يسلب وينهب، شعر بالحاجة إلى إصلاح جرائمه بتقديم قربان إلى الله. أو بالبحري تقديم هدّية إلى ممثله على هذا الشاطئ من البحر المتوسط، ليون العاشر حَبْر رومة الأعظم وأمير النصارى.

وكانت الهدّية إلى البابا أنا نفسي، وقد قُدِّمَتْ باحتفال يوم الأحد ١٤ شباط (فبراير) بمناسبة عيد القديس «فالنتينو». وكنتُ قد أُخِطِرْتُ بالأمر في العشيّة فبقيتُ إلى الفجر مستنداً بظهري إلى جدار زنزاني لا أجد إلى النوم سبيلاً وأصيح إلى أصوات المدينة العاديّة، ضحكة حارس، أو سقوط شيء في نهر التيبر، أو صرخات وليد متقطّعة في هدأة الظلام. وكنتُ أعاني الأرق في كثير من الأحيان منذ وصولي إلى رومة، وانتهى بي الأمر إلى تخمين ما كان يجعل الساعات مضنية إلى هذا الحدّ: كان ذلك أشدّ من غياب الحرّيّة، وأشدّ من غياب المرأة، كان غياب المؤدّن. فلم يسبق لي قطّ أن عشت هكذا، أسبوعاً تلو أسبوع، في مدينة لا يرتفع فيها النداء داعياً إلى الصلاة محدّداً الزمان مالئاً الفضاء مُطمئناً الناس والجدران.

كان قد مرّ شهر على حبسي في القصر. وبعد الرحلة الشاقّة ووقفات لا تُحصى أنزلت من غير عبّاد على أحد أرصفة نابولي أكثر المدن الإيطاليّة ازدحاماً. ثم اقتادوني وحيداً إلى رومة بطريق البرّ. ولم يقدر لي أن أرى رفيقي كرتة أخرى إلا بعد ثلاث سنوات في ظروف عجيبة.

وكنت لا أزال مُوثقاً، لكنَّ «بوفاديليا» رأى، ويا لدهشتي الكبيرة، أن من المناسب أن يعتذر عن ذلك بقوله:

«إننا في أرض إسبانية. ولو رأى الجنود عربياً غير مقيّد فإنهم سوف ينقضون عليه».

وجعلتني نبرة الاحترام أمل في أن أعامل بعد اليوم معاملة أقلّ قسوة. وهو شعور تأكّد منذ وصولي إلى قصر القديس أنجلو، وهو قلعة أسطوانية ضخمة أوصلوني إليها عبر درج حلزوني. وأجلست في حجرة صغيرة مؤثثة بسرير وكرسي وصندوق خشبي، وكان القضية قضية فندق متواضع لا قضية سجن، إذا استثنينا الباب الثقيل المحكم الإزلاج من الخارج.

وبعد عشرة أيام استقبلت زائراً. وإذا رأيت الإجلال الذي أبداه الحرس عند استقباله فقد أدركت أنه أحد المقرّبين من البابا. وحياتي باحترام وقدم نفسه. وكان فلورنسياً اسمه السيد «فرانشسكو غويتشارديني»، حاكم «مودين» وسفير في خدمة قداسته. وصرّحت بدوري باسمي وألقابي ونشاطاتي البارزة من غير أن أغفل أية سفارة، مهما كانت معرّضة للخطر، من تومبكتو إلى القسطنطينية. وبدا مسروراً لذلك. وتحدّثنا باللغة القشتالية التي كنت أفهمها إلى حدّ ما وإن كنت أعبرها بصعوبة. واقتضاني الأمر أن اتحدّث على مهل، وإذا كنت أبدي بأدب أسفي لعدم اللياقة الناجمة عن جهلي فقد أجاب بكثير من المجاملة:

«أنا نفسي أجهل العربية، مع أنها محكيّة حول البحر المتوسّط. وعلّي كذلك أن أقدم لك الأعذار».

وإذ شجّعني موقفه فقد تلفّظت على خير ما أمكنني ببعض الكلمات الطليانية العامية، أي التوسكانية، ضحكنا لها معاً. ووعده بعد ذلك بلهجة تحدّ ودي قائلاً:

«سوف اتحدّث لغتك قبل نهاية العام. ولن أجيدها كما تجيدها، ولكن بما يكفي لإفهام مرادي».

وسجّل ذلك بهزة من رأسه، في حين تابعت قائلاً:

«وهناك مع ذلك عادات يلزمني وقت لاكتسابها. ولا سيما تلك الخاصة بتوجه الأوروبيين إلى مخاطبتهم بقولهم «أنتم» وكأنه عدّة أشخاص، أو «هي» وكأنه امرأة غائبة. ففي العربية يقول المرء «أنت» لكل الناس، أمراء كانوا أو خدماً».

وتوقّف السفير عن الكلام، ولم يكن الدافع إلى توقّفه على ما بدا لي هو التفكير بقدر ما كان إحاطة الكلمات التي سيتلفظ بها بهالة من الفخامة. وكان يجلس على الكرسي الوحيد في الغرفة معتمراً قلنسوة حمراء على قدّ رأسه كانت تضفي عليه هيئة متأمر. وكنت جالساً فوق الصندوق على قيد خطوة منه. وانحنى موجهاً إليّ أنفاً مخاتلاً وقال:

«يا سيّد حسن، إنّ قدومك إلى هنا مهمّ، مهمّ للغاية. وليس في وسعي أن أقول لك أكثر من هذا لأنّ السرّ يعود إلى الأب الأقدس، وهو وحده يستطيع كشفه عندما يرى الأمر مناسباً. ولكن لا تظنّ أنّ حكايته مردها إلى الصدفة الخالصة، أو إلى نزوة قرصان».

واستدرك قائلاً:

«لا أريد أن أقول إنّ «بوفاديليا» الطيب هذا قد جاب البحار بحثاً عنك. لا، على الإطلاق. بيد أنّه كان يعرف أيّ نوع من العرب عليه أن يقدم للأب الأقدس: رحالة مستنير. ولقد عثر فوق ذلك على سفير. وما كنّا لندرجو كلّ هذا».

هل كان عليّ أن أفخر بأنّي صيد بهذا القدر من الجودة؟ وعلى كل حال فلنّني لم أبدي فرحاً ولا امتعاضاً. فقد كنت على الأخصّ متحيراً ومصمماً على أن أعرف المزيد. غير أنّ «غويتشارديني» كان قد نهض.

وما إن خرج حتّى أقبل ضابط من الحرس على زنزاتي يسألني إذا كنت في حاجة إلى شيء. وطالبت بشجاعة بملابس نظيفة ومنضدة صغيرة ومصباح وأدوات للكتابة، وقد حصلت عليها جميعاً في اليوم نفسه. وفي المساء كان الغذاء المألوف قد تبدّل، فعوضاً عن الفول والعدس قُدّم إليّ لحم ولازانيا ونبيد أحمر مصنوع في

«تريباتو» شربت منه دوغما إفراط .

لم يبطنى الفلورانسى فى أن يوصل إلى الخبر الذى كنت أرجوه: سوف يستقبلنى البابا من يديّ «بيترى بوفاديليا» .

وفى يوم القدّيس «فالتينو» حضر القرصان والسفير معاً إلى زمرانتي . وكان البابا ينتظرنا فى القصر بالذات، فى المكتبة . وارتمى «بوفاديليا» على قدميه بحمّة فأعانه «غويتشارديني» على النهوض، مكتفياً هو بتقبيل يد البابا بإجلال وإن بشكل مختصر . واقتربت بدوري . وكان البابا ساكناً فوق أريكته ووجهه أمرّد مستدير ومعجب، وذقنه تحفره غمّازة، وشفته ملهمتان، ولا سيّما السفلى، وعينه مضمّبتان ومتسائلتان فى آن معاً، وأصابعه ملساء مثل أصابع من لم يسبق له قطّ أن عمل بيديه . وقد وقف خلفه كاهن اتضح أنه ترجمان .

ووضع البابا يديه على ظهري المنحني، علامة على الحنان أو الامتلاك، لست أدري، قبل أن يخاطب القرصان ببعض كلمات الشكر . وكنت لا ازال جائياً وقد ابقاني مولاي الجديد على هذه الحال عمداً، ولم يسمح لي بالنهوض إلا عندما جرّ الفلورنسيّ خاطفي إلى الخارج . وكانت المقابلة فيما يخصّها قد انتهت، وفيما يخصّني كانت قد بدأت للتوّ . ونقل إلىّ الترجمان بعريّة يشوبها كثير من التراكيب القشتالية ما يلي :

«إن رجلاً يملك الفنّ والمعرفة هو دائماً على الرحب والسعة عندنا، لا بوصفه خادماً بل بوصفه محمّياً . والحقّ أنّ قدومك إلى هذا المنزل قد تمّ خلافاً لإرادتك وبوسائل لا يمكننا أن نُقرّها . بيد أنّ العالم مخلوق هكذا بحيث كثيراً ما تكون الرذيلة ساعداً الفضيلة، وكثيراً ما تتمّ أجلّ الأعمال لأسوأ الأسباب، وأسوأ الأعمال لأجلّ الأسباب . وعلى هذا لجأ سلفنا البابا يوليوس إلى الفتح لتزويد كنيستنا المقدّسة بملكيّة تشعر فيها بأنّها فى أمان . . .»

وتوقّف وقد أدرك أنّه سوف يُحيل على جدل كنت أجهل أوّل كُمة فيه . واستغللت الفرصة مجازفاً بإبداء رأيٍ خجول فقلت :

«ليس في هذا ما يشين في رأيي . فخلفاء النبي طالما قادوا جيوشاً وأداروا دُولاً .»

واستمع إلى ترجمة ما قلت بعناية غير متوقّعة ، وبادر إلى سؤالني :

«هل كان الأمر يجري هكذا على الدوام؟»

- إلى الوقت الذي حلّ فيه محلّهم السلاطين . وعندها فُرض على الخلفاء أن لا يتعدّوا حدود قصورهم .

- وهل هذا حسن؟» .

وبدا أنّ البابا علّق أهمية كبرى على رأيي . وفكّرت ملياً قبل أن أقول :

«لا أظنّ أنّ ذلك كان خيراً . فطالما كان الخلفاء هم الحكّام كانت دار الإسلام تتألّق ثقافة . وكان الدين يتحكّم بوداعة في أمور هذه الدنيا . ومذّك أصبحت القوّة هي الحاكمة ، ولم يعدّ الدين في معظم الأحيان غير سيف في يد السلطان» .

وكان مخاطبي راضياً إلى حدّ أنّه أشهد ترجماني على ما قلت ، وقال بدوره :

«لقد كنت أفكّر على الدوام بأن سلفي المجيد كان على حقّ . فالبابا كان سيظّل من غير جيش خاصّ به مجرّد كاهن عند الملك الذي هو الأقوى . والمرء مضطرّ أحياناً إلى استخدام أسلحة خصومه نفسها . والتلوّث بما يلوّثهم» .

وأشار بسبّابته إليّ وقال :

«إنّ ما تقوله يعزّينا . لقد كانت يد «بوفاديليا» مباركة . فهل أنت مستعدّ لخدمتنا؟» .

وغمغمت عبارة تدلّ على الموافقة . وسجّل ذلك راسماً على شفثيه تكشيرة ساخرة وقال :

«فلنخضع لأحكام العناية الإلهية!»

ثم أضاف بكلام متسارع شقّ على الترجمان متابعته :

«لقد قال لك مستشارنا السيد «غويتشارديني» بضع كلمات عن أهمية ما نتوقعه منك. ولسوف نعود إلى محادثتك به عندما يحين وقته. اعلم فقط أنك وصلت إلى هذه المدينة المقدسة في أحلك ساعات تاريخها. فرومة مهددة بالدمار. وستشعر غداً عندما تجوب هذه المدينة بأنها تتنامى وتَحَلُّوْني كما تنمو على غصن شجرة عتيقة جليلة، لكنها يابسة، بضعة براعم وبضع أوراق خضراء وبضع أزهار متألفة بالنور. ففي كل مكان يُتَبَّحُ أفضل الرسامين، وأفضل النحاتين، وكتاب وموسيقيون وجرقيون في كنفنا أجمل الروائع. وها قد بدأ الربيع للتو، ولكن الشتاء يقترب. وقد بدأ الموت يتربص. إنه يتربص بنا من كل صوب. فمن أي جهة سوف يُصيبننا؟ وبأي سيف سوف يضر بنا؟ الله وحده يعلم، إلا إذا شاء أن يُبعد عن شفاهنا كأساً بمثل هذه المرارة».

وقلت تلقائياً: «الله أكبر!».

وأمن البابا وقد انفرجت أسارير وجهه بغتة:

«وقانا الله من جميع السلاطين!»

لم تذهب المقابلة في هذا اليوم إلى أبعد من ذلك. ولقد وعد ليون العاشر باستدعائي من جديد. وإذا بلغت زناتي فقد اكتشفت أن تعليمات جديدة قد أعطيت بشأني: لا يُزَلج بابي قبل هبوط الليل، وأستطيع أن أجول في حرم القصر على هواي.

وعندما قابلت البابا بعد أسبوع كان قد حضر لي برنامجاً حافلاً: سوف أقسمُ وقتي بعد اليوم بين الدراسة والتعليم. فلسوف يعلمي كاهن اللاتينية، وآخر التعليم المسيحي، وثالث الإنجيل واللغة العبرية؛ وسوف يتولى كاهن أرمني إعطائي في كل صباح درساً في اللغة التركية. وكان عليّ أن أعلم بدوري سبعة طلاب اللغة العربية. وسأتقاضي عن هذا العمل أجراً مقداره «دوكا» ذهبية في الشهر. ومن غير أن أكون قد عبرت عن أدنى احتجاج أعترف ولي نعمتي ضاحكاً أن الأمر كان صيغة ملطفة عن الأشغال الشاقة، مُضيفاً مع ذلك أن هذا البرنامج

يُعبّر عن حماسه حيالي. وشكرته ووعده ببذل ما في وسعي كيلا أقصر في استحقاق فضله.

وكان أن أخذ يستدعيني مذّاك كلّ شهر، وحيداً أو مع معلّمٍ للتحقّق من معلوماتي، ولا سيّما في التعليم المسيحي. والحقّ أنّ موعد تعميدي والاسم الذي سوف أحمله كانا قد تحدّدا في ذهنه.

كان عام أسري إذن بلا مشقّة على جسدي ونافعاً جدّاً لعقلي. وأخذت أشعر يوماً بعد يوم باتّساع معارفي، لا في الموادّ التي أدرّسها فحسب، وإنّما بفضل احتكاكي أيضاً بأساتذتي وطلّابي، وكان اثنان منهم اراغوثيين، واثنان فرنسيين، واثنان من البندقيّة، وواحد المانياً من الساكس. وكان هذا أوّل من ذكر أمامي الخصام المتفام الذي كان بين ليون العاشر والراهب لوثر، وهو حدث كان قد بدأ يهدّد بإغراق أوروبا بأسرها بالنار والدم، ولسوف يجرّ على رومة أبشع الكوارث.

عام الهراطقة

٩٢٦ هـ (٢٣ كانون الأول «ديسمبر» ١٥١٩ م -

١٢ كانون الأول «ديسمبر» ١٥٢٠ م)

ما نفع البابا؟ وما نفع الكرادلة؟ وأي إله يُعبد في مدينة رومة هذه المنصرفه إلى بذخها ولذاتها؟

تلك كانت كلمات تلميذي الألماني هانز، واسمه في الدين الأخ أوغسطين، الذي كان يلحق بي إلى الردهة المؤدية إلى حجرة ليون العاشر ليكسبني إلى عقيدة الراهب لوثر، في حين كنت أتوسل إليه أن يصمت إذا لم يكن يريد أن يقضي فوق محرقة.

وكان هانز الأشقر النحيل العنيد يُخرج من جعبته بعد كل درس مقالة نقدية أو كتيباً فيتجشّم ترجمتهما والتعليق عليهما مُلحفاً عليّ بلا هوادة لمعرفة رأيي فيهما. وكان جوابي هو إياه على الدوام:

«مهما يكن شعوري فليس في استطاعتي خيانة من يحميني».

وكان هانز يبدو أسفأ، بيد أنه لم يكن قطّ لُيسَقَط في يده، وكان يعود إلى ما هو فيه منذ الدرس التالي.

وذلك لأنه أدرك أنّي كنت لا أمتعض من الإصغاء إلى أحاديثه. وكان بعضها على الأقلّ يعيد إلى ذاكرتي أحياناً بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلّم! ألم يكن لوثر يوصي برفع جميع التماثيل من أمكنة العبادة معتبراً أنها أشياء وثنية؟ وقد قال رسول الله في الصحيح: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة». ألا يؤكد لوثر أنّ العالم المسيحي هو جماعة المؤمنين وأنه ينبغي ألا يخضع لتراتب كنيسة؟ ألا يؤكد أنّ الكتاب المقدّس هو وحده أساس الدين؟ ألا يهزأ بعدم زواج

الكهنة؟ ألا يُعلم أنه ليس في مقدور إنسان أن يفرّ بما قدره له خالقه؟ إن النبي لم يقل غير ذلك للمسلمين.

وعلى الرغم من هذه التوافقات فإنه كان يستحيل عليّ أن أتبع في ذلك نزعات فكري. فقد كانت مبارزة ضارية قد نشبت بين لوثر وليون العاشر، ولم يكن في مقدوري أن أوافق مجهولاً على حساب الرجل الذي أخذني إلى كنفه وكان يعاملني مذكاً وكأنه قد أنجبني.

ولم أكن بالطبع الوحيد الذي كان البابا يقول له «ابني»، لكنه كان يقوها لي بشكل مختلف. وكان قد أعطاني اسميه، يوحنا وليون، واسم عائلته المهيبة، آل مدتشي، كل ذلك بفخامة وأبهة في السادس من كانون الثاني (يناير) عام ١٥٢٠ م، وكان اليوم يوم جمعة في كاتدرائية القديس بطرس الجديدة التي لم يكن بناؤها قد اكتمل. وكانت هذه تغصّ بالكرادلة والمطارنة والسفراء وعدد من محمّبي ليون العاشر من الشعراء والرّسامين والنحاتين متألّقين في الديباج واللآلئ والأحجار الكريمة. حتى رافاييلو الأوروبيني، رفايلو السماري كما كان يلقبه المعجبون بفته، كان هناك من غير أن يبدو قطّ مُوهناً بفعل المرض الذي سوف يقضي عليه بعد ذلك بثلاثة أشهر.

كان البابا مزدهياً تحت تاجه وهو يقول:

«في عيد الغطاس هذا الذي نحتفل فيه بعمادة المسيح بيدي يوحنا المعمدان، رنحتفل أيضاً، بحسب السنّة المتبعة، بالمجوس الثلاثة الذين أتوا من بلاد العرب لعبادة ربّنا، آية سعادة تفوق سعادة استقبالنا في حضن كنيستنا المقدّسة مرزباناً جديداً قادماً من أطراف بلاد البربر لتقديم قربانه في بيت بطرس!»

وإذ كنت جاثياً قبالة المذبح مرتدياً عباءة طويلة من الصوف الأبيض فقد أذهلتني رائحة البخور وسحقتني كل هذا التشریف الذي لا استحقّه. فجميع الأشخاص المحتشدين في هذا المكان ما كانوا ليجهلوا أنّ هذا «المرزبان» كان قد أسر ذات ليلة صيفية على يد قرصان على شاطئ «جربة» واقتيد عبداً إلى رومة. وكان كل ما يقال بحقي وما يحدث لي عجبياً جداً ومُفِرطاً جداً ومضحكاً جداً! ألم

أكن ضحية حلم مزعج ، أو ضحية سراب؟ ألم أكن كما في كل جُمعة في مسجد من مساجد فاس أو القاهرة أو تومبكتو وأفكاري مبللة من جرّاء سهر ليل طويل؟ وبغته ارتفع من قلب شكّي صوت الخبر يخاطبني من جديد قائلاً:

«وأنت يا ابنا الحبيب، أنت يا يوحنا - ليون الذي أشارت به العناية الإلهية من بين جميع الناس...»

يوحنا - ليون يوهانس ليو! لم يسبق يوماً أن دُعي شخص من أُسرتي على هذا النحو! وظللت طويلاً بعد انتهاء الاحتفال أقلب وأقلب الحروف والمقاطع في رأسي وفي فمي ، باللاتينية تارة والإيطالية طوراً . ليو، ليوني . ما أعجب عادة البشر في التسمّي هكذا بأسماء الضواري التي ترهبهم، ونادراً بأسماء الحيوانات المُخلصة لهم . فالمرء يرغب جيداً في أن يُسمّى ذئباً، وأمّا أن يُسمّى كلباً فلا . فهل يأتي عليّ يوم أنسي فيه «حسناً» وأنظر إلى المرأة وأنا أقول لفسّي: «عينك غائرتان با ليون»؟ ولكي أروض اسمي الجديد لم ألبث أن عربته فغدا يوهانس ليو «يوحنا الأسد» . وذلك هو التوقيع الممكن رؤيته في ختام الأعمال التي كتبها في رومة وبولونية . غير أن المترددين على البلاط البابوي الذين أدهشهم أن يولد متأخراً واحد من آل مدتشي أسمر جعد الشعر لم يلبثوا أن أضافوا إلى اسمي لقب «الإفريقي» لتمييزي من أبي المقدّس بالتبني . وربما ليتجنبوا أيضاً تسميتي بالكردينال مثل سائر أبناء عمّه ، وبعضهم منذ بلوغهم الرابعة عشرة .

واستدعاني البابا مساء يوم التعميد . وبدأ بأن أعلن أنّي أصبحت بعد اليوم حرّاً، بيد أنّ في وسعي الاستمرار بالعيش في القصر إلى أن أجد مسكناً في الخارج ، وأضاف أنّه يُصرّ على أن أتابع دروسي وتدريسي بالمواظبة عليها . ثم تناول من على منضدة كتاباً منمنماً وضعه في راحة يدي المبسوطة وكأنّه قربان . وإذ فتحته فقد وجدته مكتوباً بالعربية .

«اقرأ بصوت مرتفع يا بني!»

ونفّذت الأمر وأنا أقلب الصفحات بحيطه وحذر كبيرين :

«كتاب دعاء الأيام.. انجز في ١٢ أيلول «سبتمبر» ١٥١٤ م... في مدينة فانو
في كنف قداسة البابا ليون...»

وقاطعني حامي بصوت مرتجف غير واثق بقوله:

«هذا أول كتاب باللغة العربية خرج من مطبعة. وعندما ترجع إلى أهلك أمله
معك بعناية فائقة.»

ورأيت في عينيه أنه يعلم أنني سأرحل ذات يوم. وبدا من التأثر بحيث لم
أتمكن من منع دموعي أن تسيل. ونهض. وانحنيت لتقبيل يده، فضمّني إليه بقوة
ضمّة أب حقيقي. والله لقد أحببته منذ تلك اللحظة على الرغم من الاحتفال
الذي فرضه عليّ قبل قليل. فلأن تهتزّ مشاعر رجل بهذا النفوذ، وبهذا الإجلال
من نصارى أوروبا والبلاد التي خارجها، لرؤية كتاب صغير بالعربية وقد خرج
من تحرّف طباع يهودي، فذاك ما بدا لي جديراً بخلفاء ما قبل عصور
الانحطاط، كالمأمون بن هارون الرشيد تغمّدهما الله برحمته!

وعندما خرجت غداة هذه المقابلة حراً طليق اليدين للمرة الأولى من نطاق
سجني ومشيت على جسر القديس أنجلو باتجاه حي «الجسر»، لم أكن أحتفظ من
أسري بأيّة مرارة ولا بأيّ غلّ. فما هي إلا بضعة أسابيع من القيود الثقيلة،
وبضعة أشهر من العبودية الناعمة، حتى عدت رحالة، مخلوقاً مهاجراً، كما في
جميع البلدان التي أقمت فيها وحصلت زمناً على اللذات والأجساد. فكم من شارع
وكم من نُصّب وكم من رجل ومن امرأة كنت متعطشاً لأن اكتشف أنا الذي لم
يكن قد عرف من رومة خلال عام غير طيف قصر القديس أنجلو الأسطواني
والرواق الذي يربطه بالقاتيكان ولا يكاد ينتهي!

لقد أخطأت ولا ريب في أن أصحب في زيارتي الأولى هانز الذي لا يوصف.
وتوجّهت أول ما توجّهت إلى شارع المصارف القديمة قبل أن أدخل على اليسار
شارع «بليغرينو» الشهير لأتأمل فيه واجهات الصاغة ومعروضات باعة الحرير.
وكان من الممكن أن أبقى فيه ساعات لولا نفاذ صبر صاحبي الألماني. فقد انتهى

به الأمر إلى أن شدّني من ردي شأن طفل متضوّر من الجوع. واحتملت عنقه، بل ذهبت إلى حدّ الاعتذار عن طيشي وخفتي. ألم يكن بجوارنا كثير من الكنائس والقصور والأنصاب التي تستحق التفرّج؟ أم أنه قد يكون أراد أن يقودني إلى ساحة «نافونا» القريبة حيث يقال إنّ الألعاب لم تكن لتنتقطع في جميع الفصول، وعلى الأقلّ ألعاب الحواة والمشعوذين؟

ما كان هانز يفكر في كلّ ذلك. فقد جرّني عبر أزقة ضيقة لم يكن بالإمكان المرور فيها من غير القفز فوق أكوام النفايات. ثم إنّه توقف في أحلك الأمكنة وأكرهها روائح. وكان قد أحاط بنا متسكّعون قدرون شديدي الهزال. ونادتني امرأة من إحدى النوافذ لملاقاتها لقاء بعض «الرُبُعيّات». وشعرت بأنّي على أسوأ حال، غير أن هانز لم يتحرّك. وإذ نظرت إليه شزراً فقد ظنّ أنّ من المناسب أن يوضح لي الأمر فقال:

«أردت أن يبقى ماثلاً لعينيك على الدوام مشهد البؤس هذا عندما ترى كيف يعيش أمراء الكنيسة، جميع أولئك الكرادلة الذين يملك كلّ منهم ثلاثة قصور يتنافسون فيها جاهاً ومجوناً ويقيمون وليمة إثر وليمة من اثني عشر طبقاً من السمك، وثمانية أطباق من السلّطة، وخمسة أنواع من الحلوى. والبابا نفسه؟ أرايته يعرض أمام الناس بفخر الفيل الذي أهده إياه ملك البرتغال؟ أرايته ينثر قطع الذهب على مهرّجيه؟ أرايته يصيد في أرضه الشاسعة في «ماليانا» متعلّاً حذاءين طويلين من الجلد، مخيّلاً وراء دبّ أو خنزير برّي وحوله ثمانية وستون كلباً؟ أرايت صقوره وبزاته المجلوبة بأغلى الأثمان من قنّدية وأرمينية؟

كنت أدرك انفعاله وتأثره بيد أنّ وسيلته كانت تُخجّفتني، فقلت:

«أرني بدلاً من ذلك أنصاب رومة القديمة التي تحدّث عنها شيشرون وتيت- ليف!»

وبدا على صديقي الشاب أنه فاز. ومن غير أن يقول شيئاً عاد يسير بخطى ثابتة وجدت معها عناء في اللحاق به. وعندما قرّر أن يتوقّف للاستراحة بعد

نصف ساعة كُنَّا قد خَلَفْنَا بعيداً آخر الشوارع الماهولة. كُنَّا في وسط أرض مشاع فسيحة.

«هنا كان ميدان رومة القديمة تحيط به أحياء مكتظة بالسكان؛ ويُدعى اليوم حقل البقر! وهل ترى أمامنا جبل «بالاتان»، وهناك إلى الشرق جبل «أسكويلان» خلف «الكوليزيه»؟ لقد أُخْلِيَتْ كُلُّهَا منذ قرون! ولم تُعد رومة سوى بلدة كبير قائمة على خُطَّة مدينة مهيبة. هل تعرف ما عدد سُكَّانها اليوم؟ ثمانية آلاف أسرة، تسعة آلاف على الأكثر».

كان ذلك العدد أقلَّ ممَّا في فاس أو تونس أو تلمسان.

ويعودتنا إلى القصر لاحظت أنَّ الشمس كانت لا تزال مرتفعة في السماء، وعليه فقد ظننت من الخير أن أقترح على مرافقي أن نقوم بجولة باتجاه كنيسة القديس بطرس مروراً بحي «بورغو» الجميل. وما كدنا نصل إلى الكنيسة حتى انطلق هانز من جديد في نقد لاذع مجنون:

«أتعرف بأيِّ وسيلة يريد البابا إنجاز بناء هذه الكنيسة؟ بأخذ مال الألمان». وكان بغض المارة قد تجمَّعوا حولنا فقلت متضرِّعاً:

«لقد زرنا ما فيه الكفاية من الأنصاب اليوم! سوف نعود مرةً أخرى».

ومن غير أن انتظر هرعت ألوذ بسكون سحبي القديم مُقسِّماً بالآأ أننزَه قَطُّ في رومة برفقة دليل لوثريّ.

وكان من حسن حظِّي أن صحبني في زيارتي التالية «غويتشارديني» الذي كان قد عاد من إقامة طويلة في «مودين». وأخبرته بخيبة أمني العميقة، ولا سيَّما بعد زيارتي لحقل البقر. ولم يبدُ عليه أيُّ تأثر، وقال باستسلام حكيم:

«مدينة خالدة هي رومة، ولكنَّ مع بعض النواقص».

واستطرد:

«مدينة مقدَّسة، ولكنَّ مع بعض الزندقات؛ مدينة متعطِّلة، ولكنها تقدِّم إلى العالم كلَّ يوم رائعة من الروائع».

كان لذة للنفس السير إلى جانب «غويتشارديني» وتلقف أحاسيسه وتعليقاته وبنوحه بأسراره. وكان هناك مع ذلك بعض المزعجات: فللذهاب مثلاً من قصر القديس أنجلو إلى قصر الكردينال «فرنيز» الجديد الكائن على بُعد أقل من ميل لزمانا من الوقت ساعتان لفرط وجاهة رفيقي. وإذا كان بعضهم قد حياه تحيةً عابرة فإن آخرين كانوا يترجلون للدخول معه في حديث طويل على انفراد. وكان الفلورنسي يعود إليّ في كل مرة يتخلّص فيها ويعتذر قائلاً: «إنه مواطن لي جاء حديثاً للإقامة في رومة»، أو: «هذا مؤرّخ وثائق كبير النفوذ»، «هذا صاحب بريد ملك فرنسا»، أو حتى، وقد قالها في مناسبتين: «هذا نغل الكردينال فلان».

ولم أبداً أية دهشة. فقد سبق له انز أن أخبرني أن لعشيقات أمراء الكنيسة في خاصمة البوابات الغاصة برجال الدين والراهبات والحجاج من جميع البلاد قصوراً وخدماء، وأن نسلهّن كان منذوراً لأرفع المناصب، وأن لأقلّ الكهان رتبة عشيقات أو مومسات يظهرون معهنّ بلا حرج في الشارع.

وقد قال «غويتشارديني» وكأنه كان يتابع أفكاره:

«إن العار في الشبق أقلّ مما هو في الترف».

وأضاف:

«إن نمط حياة أساقفة رومة يكلف مبالغ طائلة في حين لا يُنتج شيء في مدينة رجال الدين هذه! وجميع الأشياء تُشترى من فلورنسة والبندقية وميلانو ومن الخارج. ولكي يمّول البوابات حماقات هذه المدينة فقد شرعوا يبيعون المناصب الكهنوتية: عشرة آلاف، عشرون ألفاً، ثلاثون ألف «دوكا» للكردينال الواحد. وهنا يُباع كل شيء، حتى منصب نائب البابا! ولما كان ذلك لا يكفي أبداً فقد أخذوا يبيعون الرأفة للمساكين الألمان! فإنّ دفعتْ عُفرت لك خطاياك! وباختصار فإنّ الأب الأقدس يسعى إلى بيع الجنة. وهكذا بدأ الخصام مع لوثر».

- لقد كان ذلك الراهب على حقّ إذن.

- بمعنى ما، أجل. لكنني لم أتمالك عن التفكير في أن المال المجموع بطريقة مريبة جداً ينبغي أن يُستعمل لإنجاز كنيسة القديس بطرس، وأن جزءاً منه

مخصّص لأنبسل المتدعسات البشرية، لا للقصف والشراب. فمئات الكتاب والفنانين هم الآن في رومة بصدد إنتاج روائع كان من الممكن أن يشحب القدماء أمامها من الحسد. إنَّ عالماً في طريقه إلى الانبعاث والنهضة بنظرة جديدة وطموح جديد وجمال جديد. إنّه في طريقه إلى الانبعاث والنهضة هنا، الآن، في رومة هذه الفاسدة الزنديقة التي تُباع وتُستري، وذلك بالمال المسلوب من الألمان. أليس في هذا تبذير مفيد جداً؟»

لم أكن أدري كيف أفكر. فقد كان الخير والشر، والصدق والكذب، والجمال والعفن، مختلطةً جداً في ذهني! ولكنّ ربّما كانت ذلك كلّهُ رومةً ليون العاشر، رومةً ليون الإفريقي. وردّدت بصوت مرتفع عبارات «غويتشارديني» لأحفرها في ذاكرتي:

«المدينة المتعطّلة... المدينة المقدّسة... المدينة الخالدة...» وقاطعني بصوت أضحى بغتة مرهقاً:

«المدينة المعلونة أيضاً».

وفيما كنت أنظر إليه متوقّعاً بعض التوضيح سحب من جيبه ورقة مدعوكة وقال:

«لقد نسختُ للتوّ هذه الأسطر التي كتبها لوثر لبابانا».

وقرأ بصوت خافت:

«إيه يا ليون، يا أتعس الناس، إنك جالس على أخطر العروش. لقد كانت رومة فيما مضى باباً من أبواب الجنّة، وها هي ذي اليوم هاوية الجحيم الفاغرة».

عام «الزّنة»

٩٢٧ هـ (١٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٢٠ م -
٣٠ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٥٢١ م)

كان السادس من نيسان (إبريل) من ذلك العام يوم سَبَبَ طافحٍ بالسعادة من أيام حياتي! ومع ذلك فقد كان البابا غاضباً. وكان يُرعد إرعاداً شديداً جعلني أظُلُّ طويلاً بلا حراك في الممرّ المؤدي إلى حجرته يحميني من صياحه ومصراعا الباب الثقيلان المنقوشان. بيد أن الحاجب الذي كان يرافقني كان مزوداً بالأوامر. فقد فتح باب المكتب من غير أن يقرعه ودفعني تقريباً دفعا إلى الداخل وأغلقه ورائي.

وما إن رأني البابا حتى توقّف عن الصراخ. لكنّ حاجبيه ظلّا مقطبين، وكانت شفته السفلى لا تزال ترتجف. وأشار إليّ بأصابعه الملساء التي كانت تقرع الطاولة بعصيّة أن أقترّب. وانكبت على يده ثم على يد الشخص الذي كان واقفاً إلى يمينه.

«أتعرف يا ليون ابن عمنا الكردينال يوليوس؟»

- كيف كان من الممكن أن أعيش في رومة من غير أن أعرفه؟»

لم يكن هذا خير جواب في المناسبة. فقد كان «يوليوس دومدشي» ولا ريب أكثر أمراء الكنيسة تألقاً، وكان موضع ثقة البابا. بيد أن هذا كان يأخذ عليه منذ بعض الوقت تصرفاته الطائشة وجبه للتباهي وغرامياته الصاخبة، الأمور التي جعلت منه غرض اللوثريين الأفضّل. وكان «غويتشارديني» قد أثنى بالمقابل على يوليوس قائلاً: «إنّ يوليوس يتحلّى بجميع صفات النبيل الكامل ونصير الأدب والعلم والمتسامح والعشير. فلماذا يصرون بحقّ الجحيم على أن يجعلوا منه رجل دين؟»

كان ابن عم البابا بطيلسانه وقلنسوته الأحمرين وخصلة من شعره الأسود على امتداد جبينه يبدو غارقاً في تفكير شاق.

«إن على الكردينال أن يحدثك يا بني. اجلسا معاً على ذينك المقعدين هناك. أما أنا فلدي بريد أقرأه».

ولا إخالني مخطئاً إذا أكدت أنه لم يفت البابا في ذلك اليوم كلمة واحدة من حديثنا لأنه لم يقلب صفحة واحدة من النص الذي كان بين يديه.

وبدا يوليوس منزعجاً باحثاً في عيني عن شيء من وميض التواطؤ. وتنحنح بتكتم وقال:

«لقد دخلت شابّة في خدمتي، وهي فاضلة وجميلة وذكيّة. ويرغب الأب الأقدس في أن تتخذها زوجة. إن اسمها مادالينا».

وإذ تُلَفِّظ هذه الكلمات التي بدا جلياً أنها كانت تُرهِقه فقد انتقل إلى موضوعات أخرى فسألني عن ماضي وأسفاري وعيشتي في رومة. واكتشفت فيه ما لابن عمّه من شهوة إلى المعرفة، والحبور نفسه لدى سماع أسماء تومبكتو وفاس والقاهرة، والإجلال نفسه لأموال الفكر. وحلّفتني أن أدون يوماً قصّة أسفاري واعدأ بأن يكون أشدّ قرائي تحمّساً.

ومع ذلك فإنّ السرور البالغ المتحصّل من هذه المحادثة لم يقلل شيئاً من ارتياحي العميق حيال العرض الذي عرض عليّ. ولكي أعبر عن الأمور كما كنت قد فكّرت فيها أقول إنّي لم تكن بي رغبة قطّ في أن أجد نفسي زوجاً متأخراً لمراهقة سوف يكون حملها المبكر حديث مدينة رومة بأسرها. ومع هذا كان من العسير عليّ قول «لا» بكلمة واحدة للبابا وابن عمّه. وعليه فقد صُغْتُ رديّ بعبارات يكفي التواؤها لاستشفاف مشاعري فقلت:

«إنّي أعهد إلى قداسته وإلى نيافته اللذين يعرفان أفضل ممّا أعرف ما هو خير لجسدي وروحي».

وأجفلتني ضحكة البابا. فقد التفت بكليته صوبنا تاركاً بريده وقال:

«سيدهب ليون لرؤية هذه الفتاة اليوم بالذات بعد القدّاس المخصّص للصلاة لراحة الموتى».

وبالفعل كان يجب أن يُحتفل في ذلك العام في كنيسة «سكستين» بالذكرى الأولى لوفاة رافاييلو المولود في «أوربينو» الذي كان ليون العاشر يحبه أكثر من جميع تحمّيه. وكان كثيراً ما يتذكّره بتأثر غير مُضطّع، جاعلاً إيّاي آسف لأنّي لم أعرفه حقّ المعرفة.

والواقع أنّ طول انزوائي لم يُتِح لي لقاء رافاييلو إلا مرتين: الأول سريع في أحد أروقة الفاتيكان، والثاني يوم تعمّيدي. فقد جاء بعد الحفلة شأنه شأن الآخرين يقدّم التهاني إلى البابا الذي أجلسه بجانيبي. وكان سؤالٌ يحرق شفّتيه.

«أصحيح أنه ليس في بلادك رسّامون ولا نحّاتون؟»

- يحدث أن يرسم بعض الناس أو ينحتوا، لكنّ أية صورة محكوم عليها ومذمومة. وتعتبر تحدياً للخالق.

- إنه لشرف كبير لفنّنا أن يُعتقَد بأنّه ينافس الخليقة».

وكانت قد ارتسمت على شفّتيه برطمة متعجّبة قليلة التعجرف بعض الشيء. وشعرت بأنّي مُجبر على الردّ:

«أليس صحيحاً أنّ مايكلو أنجلو بعد أن نحت تمثال موسى أمره بأن يمشي ويتكلم؟»

وابتسم رافاييلو بخبث وقال:

«لقد روي هذا».

- وهذا ما يحاول أهل بلادي تجنّبه. أن يطمح إنسان إلى الحلول محلّ الخالق.

- والامير الذي يقرّر الحياة أو الموت، ألا يحلّ محلّ الله بشكل أشدّ كُفراً من الذي يعمد إليه الرّسام؟ والمولى الذي يملك عبداً ويبيعهم ويشترهم؟»

كان صوت الرسّام قد ارتفع درجة. وجهدت في تهديته بالقول:
«أودّ زيارة مرسمك ذات يوم.

- وإذا قرّرتُ أن أرسّم رسمك. فهل يكون ذلك تهادياً؟

- أبدأ. في رأيي أنّ ذلك سيكون كما لو نظم أبلغ شعرائنا قصيدة في مدحي».

لم أكن قد وجدت خيراً من هذا التشبيه. ولقد رضي به.

«حسناً جداً. تعال إلى منزلي متى شئت».

وكنّت قد عاهدت نفسي على أن أفعل، ولكنّ الموت كان الأسرع. ولم يكن قد
تبقي لي من رافاييلو سوى بعض الكلمات، وغير برطمة وابتسامة ووعد. وكان من
واجبي أن أفكر في ذلك في يوم الذكري هذا. ولكنّ سرعان ما اتّجهت أفكاري،
وقبل انتهاء الحفل بكثير، إلى مادالينا.

وحاولت تخيلها، شعرها، صوتها، قامتها؛ وتساءلت في آية لغة سوف أكلّمها،
وبآية كلمات سأبدأ. وكنّت أحاول كذلك أن أحزر ما يمكن أن يكون قد قاله كلّ
من ليون العاشر وابن عمّه للأخر قبل أن يستدعياني. إنّ البابا كان قد عرف ولا
ريب أنّ الكردينال قد ضمّ إلى حاشيته الكبيرة امرأة شابة جميلة، وإذ كان يخشى
فضيحة جديدة فقد أمره بالتخلّص منها سريعاً وبشكل لائق. وهكذا لن يكون في
مقدور أحد الادّعاء بأن الكردينال يوليوس ينظر إلى تلك الفتاة نظرات أئيمة؛
فهّمه الأوحاد كان أن يجيد امرأة لابن عمّه ليون الإفريقي!

وقدّم إليّ كاهن من معارفي لمّحتّه وأنا خارج من الكنيسة عناصر أخرى قوّت
من افتراضاتي: لقد عاشت مادالينا طويلاً في أحد الأديرة. وكان الكردينال قد
لاحظ وجودها خلال إحدى زيارته، وفي لحظة رجوعه في آخر النهار كان قد حملها
معه ببساطة ضمن أمتعته. ولقد أحدثت الوسيلة صدمة، ووصلت الشكوى إلى
مسمع ليون العاشر، فما لبث أن ثار بوصفه زعيم الكنيسة ورئيس آل مديتشي.

وهكذا ظننت أنّي حصلت على لبّ الحقيقة، بيد أنّي لم أكن أمسك منها بغير
قشرة رقيقة.

«أصبح أنك مثلي من غرناطة؟ وأنت مرتد مثلي؟»

لقد كنت قد عوّلت كثيراً على قواي وعلّ دَعَيْتِي . وعندما نفذت بخطى بطيئة إلى غرفة الاستقبال المغروشة بالبلد التي أجلسني الكردينال فيها فقدت للحال كلَّ رغبة في مساءلتها خشية أن تُضطرَّني كلمة منها إلى الابتعاد . فلقد كانت الحقيقة عن مادالينا إذاك هي مادالينا . ولم تكن بي سوى رغبة واحدة هي الرغبة في أن أتأمَّل إلى الأبد حركاتها وألوانها . فقد كانت تتفوّق على جميع نساء رومة فتوراً في المشية والصوت ، وكذلك في النظرة التي كانت غازية ومستسلمة للألم في آن . وكان شعرها أسود حالكاً من ذلك السواد الذي تعرف الأندلس وحدها كيف تصفّيه بكيمياء من الظلِّ البارد والأرض المحروقة . وبانتظار أن تصبح امرأتى كانت قد أصبحت أختي ، وكنت قد ألفت أنفاسها .

وقبل أن تجلس بدأت تقصّر قصتها ، كلَّ قصتها . وكانت قد قررت أن تحيب عن الأسئلة التي كنت قد عدلت عن طرحها . فجدها كان ينتمي إلى فرع افتقر ونسي من عائلة يهودية هي عائلة «أبرابانل» . وإذ كان حدّاداً متواضعاً في ضاحية نجد جنوبي المدينة التي وُلدت فيها فإنه لم يكن يعي أبداً الخطر الذي كان يهدّد ذويه إلى أن كانت اللحظة التي سُنَّ فيها مرسوم الطرد . وعندها هاجر مع أولاده الستة إلى تطوان حيث عاش على شفير البؤس ، ولم تكن له من فرحة في الوجود غير رؤية ابنائه يكتسبون بعض المعرفة وبناته يتعرعن في ظلِّ الجمال . ولسوف تكون إحداهنَّ أمَّ «المرثدة» .

وشرحت لي قائلة : «كان والداي قد قرّرا أن يأتيا للإقامة في «فيرارني» حيث كانت أحوال بعض أبناء العم قد ازدهرت . غير أن الطاعون كان قد ظهر على المركب الذي أقلنا فاتكأ بالبحارة والركاب . وعندما حاذينا ساحل «بيزا» وجدت نفسي وحيدة ، إذ كان أبي وأمِّي وأخي الصغير قد هلكوا . وكان عمري ثمانى سنوات . واحتضنتني راهبة عجوز واصطحبتني إلى دير كانت رئيسته وبادرت إلى تعميدي مطلقاً عليَّ اسم مادالينا ، في حين كان أبي قد سَمَّاني جوديث . وعلى الرغم من فقدي أعزَّ الناس فقد تمنعت عن لعن القدر لأنني كنت أكل حتى

الشبع وأتعلّم القراءة ولا أنال من الجلد إلا ما كان مُسَوَّعاً. إلى أن كان اليوم الذي ماتت فيه مَنْ أَحَسنت إليّ. وكانت التي حَلَّت محلّها ابنة غير شرعية لأحد أمراء إسبانيا. وقد حُبست هناك للتكفير عن خطيئة والديها، ولم تكن ترى في ذلك الدير الجميل غير مُطَهَّر لها وللأخريات. ومع ذلك فقد كانت تهيمن عليه هيمنة مطلقة موزعة فيه النعم والنكبات. وكانت تحتفظ لي بشرّ ما في قلبها. ولقد كنت خلال سبع سنوات مسيحية تزداد حماسة واندفاعاً. ومع ذلك فإنني لم أكن في نظرها إلا «مرتدة» غير نقيّة الدم سوف يجلب وجودها على الدير شرّ اللعنات. وأحسست تحت وابل الإهانات التي كانت تنهال عليّ ظلماً بأنني عدت إلى ديانتي الأصلية. فبدأ لحم الخنزير الذي كنت أكله يصيبني بالغثيان وأمست ليلالي مضطربة من جرّاء ذلك. وبدأت أرسم الخطط للهروب. غير أنّ محاولتي الوحيدة انتهت بشكل يُرثى له. فلم يسبق لي أن ركضت بمثل هذه السرعة، ولا سيّما في ثوب راهبة. وقد قبض البستاني عليّ وأعادني إلى الدير وهو يلوي ذراعي وكأني سارقة دجاج. ثم رُميت في زنزانه وُجِلِدْتُ حتى سال دمي».

ولقد احتفظت ببعض آثار الضرب، غير أنّها لم تنقص شيئاً من جمالها ولا من كمال جسدها اللطيف.

«وعندما سُمح لي بالخروج بعد أسبوعين كنت قد قرّرت تبديل سلوكي. فأبديت ندماً شديداً وأظهرت ورعاً وطاعة وعدم تأثر بالمدّة. وكنت أترقب ساعتني. وقد حانت بزيارة الكردينال يوليوس. فلقد كانت الرئيسة مُجَبّرة على تلقيه بالإجلال على الرغم من أنّها كانت تُرسل به إلى المحرقة لو ملكت القدرة على ذلك. فقد كانت تجعلنا نصلي أحياناً من أجل توبة أمراء الكنيسة، ولم تكن تتحفّظ في انتقاداتها «حياة آل مديتشي المنحلة»، لا في العلن، وإنّما أمام بعض الراهبات من حاشيتها، بيد أنّ هؤلاء ما كنّ يتأخرون في نقلها. ولا ريب في أنّ ما كان الكردينال متهماً به من المثالب هو الذي جعلني أعقد أملي عليه».

ووافقتها قائلاً:

«تغدو الفضيلة مرضاً إن لم تُلطف ببعض الحيد، ويصبح الإيمان جائراً إن لم تخفّف بعض الشكوك من حدّته».

ولمست مادالينا كتفي لمساً خفيفاً أماراً على الثقة قبل أن تتابع قصتها قائلة :

«عندما وصل الأسقف حضرنا صفّاً لتقبيل يده . وكنت انتظر دوري بفارغ الصبر . وكانت خطّتي جاهزة ، وكانت أصابع الكردينال المزيّنة بخاتميين ممدودة بسموّ إليّ . وتناولتها وضغطت عليها بقوة أكبر ممّا ينبغي وحبستها بزيادة ثانيتين عن الوقت اللازم . وكان ذلك كافياً لاسترعاء انتباهه . ورفعت رأسي ليتمكن من تأمل وجهي . «إني بحاجة إلى الاعتراف لك» . قلت هذا بصوت مرتفع ليكون الالتباس رسمياً ومسموعاً من حاشية الكردينال والرئيسة . وأخذت هذه نبذة متلاطفة وقالت : «ابتعدي يا صغيرتي ، إنك تزعجين نيافته ، وأخواتك ينتظرن» . ومرّت لحظة من التردد . هل أجد نفسي من جديد في زناينة الانتقام؟ هل أستطيع التشبّث بيد منقذ؟ كان تنفسي قد توقّف ، وكانت عينايا ضارعتين . ثم هبط الحكم : «انتظري هنا ! سوف أسمع اعترافك!» وسال دمعني فاضحاً سعادتني . غير أنّي حين جثوت في قفص الاعتراف كان صوتي قد استعاد ثباته فلفظت بلا خطأ الكلمات التي كنت قد ردّتها مئة مرّة . وأصغى الكردينال بصمت إلى صرخة القنوط الطويلة التي أطلقتها مكثفياً بهزّ الرأس لتشجيعي على المتابعة . وعندما سكّت قال لي : «لا أظنّ يا ابنتي أن حياة الدير قد جعلت لك» . وكنت قد تحرّرت» .

وسالت دموعها من جديد لتذكّر الأمر . ووضعت يدي فوق يدها وضغطت بحنان ، ثم سحبتها عندما عادت إلى خيوط حكايتها :

«لقد حملني الكردينال معه إلى رومة . وكان ذلك منذ شهر . ولم تكن الرئيسة راغبة في تركي أرحل . لكنّ حاميّ لم يُعبر اعتراضاتها انتباهاً . ولقد دبّرت دسيسة للانتقام منه فتدخلت عند الكرادلة الإسمبان الذين توجّهوا بدورهم إلى البابا . وقد شاعت أبشع التُّهم بحقّ نيافته وحقّي . . .»

وتوقّفت إذ نهضت واثباً . فلم أكن أريد سماع الكلمة الأولى من تلك الافتراءات ، حتّى من فم مادالينا الشهيّ . فلم يعدّ بهمّ بعد الآن سوى الحبّ الذي وُلد في قلبي وقلب «المرتدة» . وعندما نهضت لوداعي كان في عينيها قلق .

فلقد أفرعها رخيلى المتعجل بعض الفزع . وكان عليها أن تتغلب على حيائها
لتقول لي :

«هل يرى أحدنا الآخر بعدُ من حين إلى آخر؟»

- حتى آخر عمري» .

ولامست شفتاي شفتيها . وكانت عيناها مفزعتين من جديد، ولكن من جرّاء
السعادة وجرّاء دُوار الرجاء .

عام أدريان

٩٢٨ هـ (أول كانون الأول «ديسمبر» ١٥٢١ م -
١٩ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٥٢٢ م).

مات البابا ليون من قرحة في اليوم الأول من هذا العام، وظننت لبعض الوقت أن عليّ مغادرة رومة التي أصبحت فجأة غير مضيافة من غير هذا العراب المتيقظ، من غير هذا الحامي السمح، الذي أغدقت عليه الساعات نِعْمها بلا حساب على مثل ما كان هو على الدوام!

ولم أكن الوحيد الذي نوى الرحيل، فقد نفى الكردينال يوليوس نفسه إلى فلورنسا، ولأذ «غويتشارديني» بـ «مودين»، وأخذ من حولي مئات من أشهر الكتاب والرّسامين والنحاتين والتجار يفرون من المدينة وكأنها أصيبت بالطاعون. والواقع أنه حدث وباء قصير الأمد، لكنّ الطاعون الحقيقي كان غير ذلك. وقد جُهر باسمه من «بورغو» إلى ساحة «نافوني» مُرفقاً بنعت لا يتغيّر: «أدريان البربري».

وكان الكرادلة قد انتخبوه وكانّما للتكفير والتوبة. فقد كبل كثير من التُّهم للبابوية في عهدها الأخير، حتى إنّ أقاليم المانيّة كاملة كانت قد اعتنقت أطاريح لوثر، واعتُبر ليون العاشر مسؤولاً عن كلّ ذلك. وعليه فقد أُريدَ تغيير وجه الكنيسة: وهكذا أتوا بعد الفلورنسي، بعد المديتشي الذي أصبح بابا وهو في الثامنة والثلاثين ونقل إلى رومة حبّه للبدخ والجمال، بمتقشّف هولندي في الثالثة والستين، «رجل قديس فاضل مضجّر أصلع أبرص». والوصف صادر عن مادالينا التي لم ترحم لحظة زعيم المسيحيين الجديد.

«إنه يدكرني كثيراً برئيسة الدير التي اضطهدتني. فهو يملك النظرة الضيقة

نفسها، والرغبة نفسها في جعل الحياة، حياته وحياة الآخرين، صوماً كبيراً
أبدياً».

وكان رأيي في البداية أقل حسماً. وإذا كنت على الدوام مخلصاً لمن أحسن إليّ
فإنّ بعض مظاهر الحياة الرومانية كانت تصدم عقيدتي الحميمة. فلأنّ يؤكّد أحد
الباباوات، كما كان أدريان يفعل، أنّه «يستلذّ الفقر»، فما كان ذلك ليغمّي، ولا
كانت الحكاية التي أثارت سخرية الحاشية منذ الأسبوع الأوّل على ولايته لتجعلني
أهقهه. فلقد صاح الحبر الحديد بالفعل وهو يدخل كنيسة سكستين ويظالعه مشهد
القبة التي رسمها ميكلانجلو: «ليست هذه كنيسة بل غرفة تحفيّف في حمام غاصّة
بالعري!» وأضاف أنّه سوف يغطّي بالجير هذه التصاویر الناصحة بالكفر. لقد
كان من الممكن والله أن أطلق الصيحة نفسها! وكانت عشريّ للرومانيين قد
نزعت مني بعض التحفّظات بصدد الرسم والأجساد العارية والنحت. وأمّا في
أماكن العبادة فلا. تلکم كانت مشاعري عند تسنّم أدريان السادس الكرسي
البابوي. والحقّ أنّي ما كنت أعرف بعد أنّ هذا المؤدّب قديماً للإمبراطور شارلکان
قد كان قبل وصوله إلى رومة مفتشاً في «أراغون» و«نافار». وما هي إلا أسابيع حتّى
جعل منّي فرداً خالصاً من أسرة مديتشي، إن لم يكن من حيث نبل أصولي، فعلى
الأقل من حيث نبل تطلّعاتي.

وقد بدأ هذا البابا بإلغاء جميع الرواتب التي كان ليون العاشر قد أجرأها، بما
في ذلك راتيبي. وعلّقت كذلك جميع طلبات الرسوم والمنحوتات والكتب، كما أوقف
كل أعمال البناء. وكان يصبّ في كل عظة جام غضبه على الفنّ، فنّ القدماء وفنّ
المعاصرين، وعلى الاحتفالات والملذّات والنفقات. وأصبحت رومة بين ليلة
وضحاها مدينة ميتة لا يبيد فيها شيء ولا يبنى شيء ولا يباع شيء. ولكي يسوّغ
البابا قراره فقد تذرّع بالديون التي كدّسها سلفه ذاهباً إلى أن المال كان قد بُلّر.
وكان خاصّةً أدريان يقولون: «إنّه بالمبالغ التي ابتلعها إعادة بناء كنيسة القديس
بطرس كان بالإمكان تسليح حملة صليبية على الأتراك، وبالمبالغ المدفوعة إلى
رفايولو كان بالإمكان تجهيز فوج من الخيالة».

وكنت منذ وصولي إلى رومة كثيراً ما سمعت بالحملة الصليبية، حتى من فم ليون العاشر بالذات، ولكن ذلك كان بالطبع نوعاً من شعار بغير طائل يشبه إلى حد كبير ما يرفعه بعض الأمراء المسلمين عندما يتحدثون عن الجهاد لإزعاج خصم أو تهديّة مُراءٍ. وكان الأمر مختلفاً جداً مع أدريان لعنه الله وجميع المفرطين في الغيرة! فقد كان يعتقد جازماً أنه بحشد المسيحية لمحاربة الإسلام يضع حداً لانشقاق لوثر ويصالح الإمبراطور شارل وملك فرنسا.

إلغاء راتبي والدعوة إلى التذابح الشامل: لقد كان هناك بالتأكيد ما ينتزع مني كل رغبة في التهليل لهذا البابا! وما يجرّضني على مغادرة رومة بأسرع ما يمكن إلى فلورنسا حيث كان الكردينال يوليوس يشجّعني على اللحاق به.

ولقد كنت لحقت به ولا ريب لو لم تكن مادالينا حاملاً. وكنت قد استأجرت في حيّ «الجسر» منزلاً بثلاث طبقات. وكان في الأخيرة منها مطبخ، وفي الثانية غرفة جلوس بها منضدة عملي الكبيرة، وفي الأولى حجرة فسيحة تطلّ على حديقة للخضّر. وفي هذه الحجرة وُلد ذات مساء من تموز «يولية» ابني الأول الذي اسميته جوسپ، أي يوسف، على اسم ابن يعقوب واسم السلطان صلاح الدين. ولم يكن لسروري من حدود، وكانت مادالينا تسخر مني بعض الشيء، ولكن وجهها المتورّم كان يتألق بالسعادة. وكنت أظنّ ساعات أطفال الطفل وأمه وأتأمل حركاتها اليومية، ولا سيّما الرضاع الذي كان منظره لا يفتأ يهزّ مشاعري. وهكذا فإنّه لم تكن بي آية رغبة في جرّهما على دروب المنفى الشاقّة. لا إلى فلورنسا، ولا حتى إلى تونس كما اقترح عليّ ذلك العام في ظروف غريبة.

كنت في ذلك اليوم عند الكردينال يوليوس قبل رحيله إلى «توسكانا» حيث مثّل أمامه رسّام شاب. وكان اسمه على ما أظنّ «مانولو»، وكان قادماً من نابولي حيث حاز بعض الشهرة. وكان يرجو أن يبيع لوحاته قبل العودة إلى مدينته. ولم يكن من النادر أن يأتي فنّان من بعيد لرؤية المدينتي، إذ كان كلّ من يقرع بابه واثقاً من عدم الرجوع خالي الوفاض. وهكذا فكّ ذلك النابوليتاني بضع لوحات خيّل إليّ أنّها متفاوتة الجودة. وكنت أنظر إليها بعين شاردة عندما أجفّلت بغتة. فقد

مرّت أمامي صورة لشخص سرعان ما أعاد «مانولو» توضيها بحركة تدلّ على انزعاج.

وسألت:

«هل لي برؤية هذه اللوحة كرّة أخرى؟»

- بالتأكيد، ولكنّها ليست للبيع. لقد حملتها خطأ. فهي من جملة لوحات أوصاني تاجر بأن أعدها له، وعليّ أن أسلمه إليها».

تلك الاستدارات، وتلك البشرة الكامدة، وتلك اللحية، وتلك الابتسامة الدائمة الرضى... لا مجال للخطأ! وكان عليّ مع ذلك أن أسأل:

«ما اسم هذا الرجل؟»

- السيد عبّادو. إنه أحد أغنى صانعي السفن في نابولي».

عبّاد السوسي! وغمغمت لعنة خيرة، وقلت:

«أوستراه قريباً؟»

- غالباً ما يكون مسافراً من شهر أيار (مايو) إلى شهر أيلول (سبتمبر)، بيد أنه يُضي فصل الشتاء في دارته من ناحية (سانتا لوشيا)».

وأخذت ورقة وسوّدت بيد مضطربة رسالة إلى رفيقي. وبعد شهرين وصل عبّاد إلى منزلي في عربة يتبعه ثلاثة خدم. ولو كان شقيقي لما سعدت مثل هذه السعادة بضمّه إلى صدري!

«لقد تركتك مقيداً في قعر قبو؛ وها أنا ذا أجدك موسراً ومتألقاً.

- الحمدلله! الحمدلله! لقد كان الله كريماً معي!

- لا أكثر مما تستحقّ! وإنّي لأشهد بأنه لم تصدر منك كلمة سوء واحدة بحق العناية الإلهية حتى في أحلك اللحظات».

وكنت صادقاً. وما كنت لأحتفظ بفضولي كلّه غير منقوص فقلت:

«كيف نجحت في الخروج من مأزقك بهذه السرعة؟»

- بفضل أمي بارك الله تربتها! كانت تُرَدِّد عليّ دائماً هذه العبارة التي أنهيت إلى حفظها: لا يكون الإنسان معدماً قطّ ما دام في فمه لسان. صحيح أنهم باعوني عبداً مُقَيِّد اليدين مُثَقَل الرجلين، غير أنّ لساني لم يكن مُقَيِّداً. واشتراني تاجر خدمته بإخلاص مغدقاً عليه النصيحة تلو النصيحة، متيحاً له الاستفادة من تجربتي في البحر المتوسط. وقد ربح كثيراً من المال حتى إنّه أعتقني في نهاية السنة الأولى وأشركني في تجارته».

وإذ بدا أنّي دهش لسير الأمور بهذه البساطة فقد هزّ كتفيه، وقال:

«عندما يستطيع المرء أن يصبح غنياً في بلد فإنّه يسهل عليه أن يصبح كذلك مرة جديدة في أيّ مكان آخر. إنّ أعمالنا هي اليوم من أكثر الأعمال ازدهاراً في نابولي. الحمد لله! ولنا في كل ميناء وكيل وعشرة مكاتب للمشتريات أزورها بانتظام.

- وهل يحدث أن تعرّج على تونس؟

- سأذهب إليها في الصيف. وسأمرّ لرؤية ذوبك. هل عليّ أن أقول لهم إنك مسرور بالإقامة هنا؟».

وكان عليّ أن اعترف بأنني من غير أن أجمع ثروة لم أكابد قطّ مشقّات الأسر. وأنّ رومة أذاقتني سعادتين حقيقيتين: السعادة بمدينة قديمة تنبعث من جديد نشوى بالجمال؛ والسعادة بآبن كان نائماً على ركبتي المرأة التي أحبّها.

وبدا صديقي راضياً. ومع ذلك فقد أضاف قائلاً:

«إذا انقطعت هذه المدينة يوماً عن إغداق السعادة عليك فاعلم أنّ منزلي مفتوح لك ولأسرتك، وأنّ مراكبي قادرة على نقلك إلى المدى الذي ترغب في الوصول إليه».

ولم أظهر رغبة في ترك رومة، واعدأ عبّاداً باستقباله فيها لدى عودته من تونس
وبإقامة مأدبة فخمة لِقْرَاه.

لم أكن أريد إبداء الشكوى والأين لصديقي، غير أن الأشياء كانت في نظري
قد بدأت تفسد: كان أدريان قد انتوى إطلاق حملة لمكافحة المنتحين. وقد رسم
أن اللحية «لا تليق إلا بالجنود»، وأمر جميع رجال الدين بحلقها. ولم أكن معنياً
بشكل مباشر، ولكن مواظبتي في التردد على قصر الفاتيكان مع عنادي في
الاحتفاظ بهذه الحلية كان سيُظهر هذا العناد وكأنه إثبات وقح لأصولي العربية
وتحدٍ للبابا ومظهر كذلك، ولا ريب، من مظاهر عدم التقى. ولم تكن اللحية
فاشية عند من كنت ألتقيهم من الإيطاليين، بل كانت علامة على الطرافة مخصّصة
للفنانين، وهي طرافة أنيقة لدى بعضهم وفضفاضة عند بعض. وكان بعضهم
متمسكاً بهذا النعت، وكان بعض آخر مستعداً للتخلّص منه بدلاً من رؤية نفسه
ممنوعاً من دخول البلاط. وما كان للأمر عندي إلا معنى آخر. فاللحية في بلادي
مشروعة، ويُسمح في خلّو وجه منها، ولا سيما إذا كان صاحبه غريباً. وحلّقها
بعد التزيّن بها سنوات طويلاً علامة على الانحدار والمهانة. ولم يكن في نيّتي قطّ
أن احتمل مثل هذه الإهانة.

أيصدّقني أحد إذا قلت إنني كنت مستعداً في ذلك العام للموت في سبيل
لحيتي؟ وليس في سبيل لحيتي فقط لأن جميع المعارك كانت مختلطة في ذهني كما في
ذهن البابا: لحية رجال الدين، والأثداء العارية على قبة كنيسة سكستين، وتمثال
موسى بنظرته الصاعقة وشفته المرتجفتين.

ومن غير أن أسعى إلى ذلك غدوت محور مقاومة عنيدة لأدريان ورمزاً لها. فقد
كان الرومانيون، حتى المرذ منهم، يغمغمون بإعجابهم وهم يمرّون بي وأنا أمسد
شعر ذقني الكثّ بفخار. وكانت جميع المناشير المكتوبة ضد البابا تصل أولاً إلى
يدي قبل أن تُرلق تحت أبواب وجهاء المدينة. ولم تكن بعض النصوص غير نسيج
من الشتائم: «بربري، أبرص، خنزير»، وأسوأ من ذلك أيضاً. وكانت نصوص
أخرى تتوجّه إلى عزّة الرومانيين: «لن يأتي قطّ شخص غير إيطالي للترّبع على

عرش بطرس!« وكنت قد وقفت كل تعليم وكل دراسة لأخصص وقتي لهذه المعركة. والحق أني كنت أجزى على ذلك أحسن الجزاء. فقد كان الكردينال يوليوس يرسل إليّ مبالغ كبيرة من المال مرفقة برسائل التشجيع؛ ويعد بإظهار مدى امتنانه وعرفانه بجميلي ما إن يدول الزمان وتتبدل الأمور.

وكنت أنتظر هذه الساعة بفارغ الصبر إذ أصبح وضعي في رومة هتّأً. وكان كاهن من أصدقائي، وهو كاتب منشور نيراني، قد حُبس في قصر القديس أنجلو بعد ساعتين من زيارته إليّ. وكان رهبان إسبانيون قد أرهقوا صديقاً آخر. وشعرت أنا نفسي بأنني مراقب باستمرار. ولم أكن أخرج من منزلي إلا لبعض المشتريات السريعة في الحي. وكنت أحسّ كل ليلة بأنني أنام للمرة الأخيرة بجانب مادالينا. وكنت أضّمّها في كل مرة ضمّاً أشد من السابق.

عام سليمان

٩٢٩ هـ (٢٠ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٥٢٢ م -

٩ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٥٢٣ م)

في هذا العام اقتضى أن يستعيد السلطان التركي المعظم مكانته في نظري . ولم يعلم بالطبع شيئاً من ذلك قط ، ولكن ما هم؟ ففي داخلي أنا نشب الخصام ، وفي داخلي أنا كان ينبغي أن يتلاشى .

لقد كان عليّ أن أفرّ من الامبراطورية الإسلامية القويّة لأخلص طفلاً من انتقام عاهل دموي ، وعثرت في رومة المسيحية على الخليفة الذي طالما أردت أن أعيش في كنفه في بغداد أو في قرطبة . وكانت هذه المفارقة تلذّ لعقلي ، بيد أنّ وجداني ما كان ليطمئن . فهل صمّم على المجيء الزمّن الذي أستطيع فيه الفخار بدويّ من غير أن يكون فخاري تّبجحاً يستدعي الرثاء؟

ثم إنّه كان هناك أدريان . ثم إنّه كان هناك سليمان . وكان هناك على الأخصّ تلك الزيارة التي قام بها عباد . فلدى رجوعه من تونس مرّ لرؤيتي باراً بوعده ، وكانت عيناه ترثيان لي حتى قبل أن تنفرج شفّته للكلام . وإذ كان متردداً في لظمي بما كان قد عرف فقد كان عليّ أن أطمئنه بقولي :

«لا يمكن مؤاخذه الرسول بما تكون العناية الإلهية مسؤولة عنه» .

وأضفت بابتسامة متكلفة :

«عندما يكون المرء قد غادر أسرته من أعوام فليس في مقدوره أن يتوقّع أيّ نبأ سارّ . فحتى لو قلت لي إن نوراً قد أنجبت طفلاً فسيكون ذلك مصيبة» .

وإذ قدر صديقي أنّ مهمته سوف تزداد صعوبة إذا تركني أغرق في المزاح فقد عزم على الكلام :

«لم تنتظرِكَ امرأتِكَ . فهي لم تُقِم غير بضعة أشهر في بيتكَ بتونس» .

ونضححت يداي بالعرق .

«لقد رحلت وتركت لك هذا» .

وناولني رسالة ففضضتها . وكان الخط الذي كتبت به جيداً ، وهو ولا شك
خط كاتب عام ماجور . ولكن الكلمات كانت كلمات نور :

«لو كان الأمر لا يتعلّق إلا بسعادتي لانتظرتك سنوات طويلاً ، حتى وإن رأيت
شعري يمسى بلون الفضة في وحدة الليالي . ولكنني لا أحيا إلا من أجل ابني ، من
أجل مصيره الذي سيكتمل يوماً إن شاء الله . وعندها ندعوك إلينا لمشاطرتنا
الأجناد كما شاطرتنا المخاطر . وإلى أن يتحقّق ذلك فسوف أكون في فارس التي وإن
لم يكن لبازيزيد فيها أصدقاء ، إلا أنه سيكون إلى جانب أعداء لمن يطاردونه .

أترك لك «حياة» . ولقد حملت ابنتك كما حملت سرّي ، وقد آن الأوان لأن
يستعيد كل ما يخصّه . وسوف يقول بعضهم إنني أم فظة ، وأما أنت فتعرف أنّي
تركتها لأجل خيرها ، ولكي أجنبها الأخطار المرتبطة بخطاي وخطي أخيها . وإنني
لأتركها لك هدية تسلّمها لدى عودتك ، وسوف تشبهني عندما تكبر وتذكرك في
كل لحظة بأمية شقراء أحببتها وأحبّتك . وستحبّك على الدوام في أعماق منفاها
الجديد .

وسواء كان مصيري الموت أو كان المجد فلا تدع صورتي تبتهت في قلبك !»

ما إن شاهد عبّاد أول دمة تسيل من عيني حتى ارتفق النافذة متظاهراً
بالاستغراق في مشهد ما في الحديقة . وتركت نفسي أزلق إلى الأرض زائغ البصر
متجاهلاً ما يحيط بي من مقاعد . ووجهت إلى نور وكأنها كانت أمامي همسة
حائقة :

«إلامّ يحلم الإنسان بقصر إذا كان في وسعه الحصول على السعادة في كوخ عند
سفح الأهرام !»

وما هي إلا دقائق حتى كان عبّاد يجلس إلى جانبي .

«أمك وأختك بخير، وهارون يرسل إليهما في كل شهر المال والمؤن».

وبعد زفرتين مددت إليه يدي بالرسالة. وقام بحركة لدفعها، غير أنني ألححت. ومن غير أن أفكر طويلاً أصررت على أن يقرأها. فربما كنت أريد أن يستنكف عن إداثة نور. وربما كنت أريد أن أتحاشي بدافع من الكبرياء أن ينظر إليّ بشفقة وكأنني زوج من عامة الناس هجرته زوجة أضناها طول الانتظار. ولقد كنت ولا ريب في حاجة إلى أن يشاطرنني صديق سرّاً كان عليّ بعد اليوم أن أحمله وحدي.

وعليه فقد سمعتني أقصّ بالتفصيل حكاية جركسيتي بدءاً باللقاء الفجائي عند تاجر في خان الخليلي.

«ها أنا ذا أفهم الآن هلعك عندما رفع الضابط التركيّ بايزيد بين ذراعيه في ميناء الإسكندرية».

وضحكت. وتابع عبّاد وقد سرّه جداً أن يكون قد سرّى عنيّ:

«ما كنت لأجد تفسيراً لإمكان أن يخاف غرناطي إلى هذا الحدّ العثمانيين وهم الوحيدون الذين يعدون بأن يُرجعوا إليه مدينته ذات يوم.

- وما دالينا أيضاً ليس في وسعها أن تفهم. فهي تريد أن يفرح الأندلسيون، يهوداً أو مسلمين، فرحتها هي في كل مرة يرد فيه خبر عن انتصار عثماني. وإنما لتعجب من رؤيتي بارد العاطفة حيال ذلك.

- وهل ستبصرها الآن بالأمر؟»

كان عبّاد قد تكلم بصوت خافت فأجبت بالنبرة نفسها:

«سوف أخبرها بكل شيء على دفعات صغيرة. فلم يكن في مقدوري قبلاً أن أكشف لها عن وجود نور».

والتفت إلى صديقي، وكان صوتي أشدّ ضعفاً وتفكراً وقلت:

«هل لاحظت إلى أيّ حدّ تغيّرنا منذ وصولنا إلى هذا البلد؟ فما كنت لأتحدّث

هكذا في فاس عن نسائي، حتى إلى أقرب الأصدقاء. فلو فعلت ذلك لاهرّ خجلاً حتى قمة عمامته».

ووافقني عبّاد وهو يضحك.

«أنا نفسي كنت أستخدم ألف عبارة اعتذار وعبارة لأسأل جاري عن حال زوجته، وكان هو يتأكد قبل الإجابة من أن أحداً لا يسمعنا خوفاً من تعرّض شرفه لسوء».

وبعد ضحكة طويلة وبضع لحظات من الصمت بدأ رفيقي عبارة ثم توقف متردداً مُخرِجاً.

«ماذا كنت ستقول؟»

- لم يثن الأوان بعد ولا شك.

- لقد أطلعتك على كثير من الأسرار لتخفي عني هكذا نصف ما تفكر فيه!

وصدع بالأمر، وقال:

«كنت سأقول إنك حرّ بعد اليوم في أن تحبّ العثمانيين لأنّ بايزيد لم يعد ابنك، ولأنّ امرأتك لم تعد جركسية، ولأنّ حاميك في رومة قد أدخل كرسية لمفتش، ولأنّ سليم الجائر قد مات في القسطنطينية منذ سنتين وحلّ محله سليمان».

كان ما قاله عبّاد صحيحاً بمعنى من المعاني. فقد أصبحت حرّاً بعد اليوم في مشاعري وحماسي، حرّاً في الانضمام إلى جيشان مادالينا العفوي. فيا للسعادة وبإ لراحة البال في أن يستطيع المرء أن يخطّ وسط حدثان الدهر خطأً فاصلاً بين دواعي الأفرح ودواعي الأتراح! ومع ذلك فقد كنت أعلم أن هذه السعادة محظورة عليّ بفعل طبيعتي بالذات.

وأضاف عبّاد من غير أن ينظر إليّ:

«ولكنّي أعرفك. فأنت لا تعلم كيف تبلغ بالفرح إلى غايته».

وفكر لحظة وقال:

«أظنك بكل بساطة لا تحبُّ الأمراء، وأقلُّ من حبِّك لهم حبُّك للسلطين. فيما إن يتصرُّ أحدهم حتى تجد نفسك على التوّ في معسكر أعدائه، وعندما يبجلهم أحد البلهاء ترى في تبجيله سبباً يدفعك إلى مقتهم».

في هذه المرّة أيضاً كان ما قاله عبّاد صحيحاً ولا ريب. وإذ رأني لا أدافع عن نفسي فقد لاحقني بقوله:

«لماذا ستناصب سليمان العداة؟».

كان يحذّني بقدر من السذاجة المثيرة لم أتالك معه من الابتسام. وفي هذه اللحظة دخلت مادالينا الحجرة. وسمعت عبارة صديقي فبادر إلى ترجمتها لها بالإيطالية علماً منه بأنها لن تلبث أن تسأله. وهذا ما فعلته بحميّة:

«لم تناصب، بحقّ الجحيم، سليمان العداة؟»

وتقدّمت منا وهي ما تزال ملاصقة الجدار كما يفعل الطلاب وهم يرتلون سورة النساء الطويلة. واعتدل عبّاد وعلى لسانه كلمة غامضة. وظللت في مكاني متفكراً متحيراً. وكأنما أرادت مادالينا أن ترافق تفكيرني فاندفعت في مديح مشغوف للسلطان التركي المعظم:

«لقد وضع سليمان منذ تسلّمه الحكم حدّاً لممارسات أبيه الدموية، فلم يذبح أخاً ولا ابناً ولا ابن عمّ. وقد أعيد الأعيان المنفيون في مصر إلى منازلهم. واخليت السجون. والقسطنطينية تتغنّى بمدح العاهل الشابّ مشبّهة عمله بالندى الخير؛ ولم تعد القاهرة تحيا في الخوف والحديد.

- سلطان عثماني ولا يقتل!

كانت نبرتي تنضح بالشكّ فصحّ عبّاد قائلاً:

«ينبغي على كلّ أمير أن يقتل. وكلّ ما يُطلب هو ألا يجد في القتل لذّته، كما كانت الحال مع السلطان العجوز. إنّ سليمان ينتمي حقاً إلى بني عثمان، وهو لا يقلُّ في الفتح شأناً عن أبيه. إنّه يحاصر منذ شهرين فرسان جزيرة رودس بأكثر أسطول عرفه الإسلام يوماً. ومن بين الضبّاط المحيطين به نسيك هارون وابنه البكر الذي سيتزوج يوماً ابنتك ثروة، بنت خاله. وسواء شئت أو أبيت فإنّ أهلك

في المعمعة . أفلا ينبغي عليك ، حتى وإن لم تكن بك رغبة على الإطلاق في الانضمام إليهم ، أن تمنى لهم النصر على الأقل؟»
والتفتُ إلى مادالينا التي بدت مفتونة بحديث صديقي وسألتها بشيء من الفخامة :

«لو قررت أنه آن الأوان أن نسلك الطريق إلى تونس ومعنا ابنتا فماذا تقولين؟
- ليس عليك إلا أن تقول كلمة وأذهب بسرور بعيداً عن هذا البابا المفتش الذي لا يفتأ ينتظر فرصة سانحة للقبض عليك!»
كان عبّاد أكثرنا نحن الثلاثة هياجاً:
«ليس هنا ما يجبسكم . ارحلوا معي على الفور!»
وهذاته قائلاً :

- لسنا إلا في شهر كانون الأول (ديسمبر) . وإذا كان علينا أن نركب البحر فلا يمكن أن يكون ذلك قبل ثلاثة أشهر .
- تعالوا معي إلى نابولي ، ومن هناك تركبون إلى تونس في الأيام الأولى من الربيع .

قلت متفكراً : «يبدو لي هذا ممكناً» .

لكني أسرعت أضيف : «سوف أفكر!»

لم يسمع عبّاد القسم الأخير من عبارتي . ولكي يحتفل بقبولي الحجول ويتفادى أن أغير رأبي فقد نادى من النافذة اثنين من خدمه فأمر أحدهما أن يذهب لشراء زجاجتين من أفضل الخمور اليونانية ، وطلب من الآخر أن يحشوله غليوناً بالتبغ .

«هل سبق لك أن ذقت هذا السمّ اللطيف الآتي من العالم الجديد؟»

- مرّة ، منذ ستين ، عند كردينال فلورنسي .

- ألا يُباع في رومة؟

- لا يوجد إلا في بعض الحانات . بيد أن مصرفي التبغ الذين يديرونها هم أسوأ

أهل المدينة سُمعة .

- لن يلبث العالم أن يمتلئ بمصرّ في التبغ، ولن تكون سمعتهم أسوأ من سمعة البقالين أو العطارين . وأنا نفسي استورد من إشبيلية شحنات كاملة من التبغ وأبيعها في بورصة والقسطنطينية .

ومججت منه نفساً . واستنشقتُ مادالينا عقبه لكنها رفضتُ تجربته .

«أخاف كثيراً أن أختنق بدخانها!»

ونصحها السوسيّ بأن تغلي بعض الماء فتشرب التبغ مغلياً مع قليل من السكر .

عندما غادرنا عبّاد في ذلك اليوم تعلّقتُ مادالينا على الفور برقبتي وقالت: «إني سعيدة بالرحيل . لا نتأخّر هنا!

- تأهبي! وعندما يعود صديقي نساfer جميعاً» .

كان عبّاد ذاهباً إلى «أنكونه» لبعض الأعمال، وقد وعد بالرجوع قبل عشرة أيام . ووفى بوعده، غير أن الذي استقبله كان مادالينا دامعة متحبة .

كنت قد اعتُقلت في العشيّة، في ٢١ كانون الأول (ديسمبر)، وكان يوم أحد، وكنت أهل بتهوّر شديد منشوراً كان راهب فرنسي قد دسّه في جيبي لدى خروجي من كنيسة «سان جيوفاني دي فيورانيني» .

وسواء أكان الأمر مصادفة أم كان مكيدة مدبّرة فقد اقتادوني إلى قصر القديس أنجلو وجبسوني في الزنزانة التي شغلتها منذ ما يقارب الستين . بيد أنني لم أكن لأخشى في ذلك الزمن غير الأسر، في حين كان من الممكن في هذه المرّة أن أحاكم ويُحكّم عليّ بقضاء مدة عقوبة في سجن بعيد أو حتى في سفينة من السفن التي يجذّف فيها الأسرى راسفين في الأغلال .

ما كنت ولا ريب لأتأثر كل هذا التأثير لو لم أكن قد خطّطت للرحيل . ومع ذلك فقد كانت الأيام الأولى من الاعتقال أقلّ قسوة ممّا كنت أوجس . حتى إنه أمكن أن أتلقّى في شهر شباط (فبراير) هديّة من عبّاد بدت لي فخمة في ذلك

الظرف في عبادة من الصوف وكعكعة بالتمر ومعهما رسالة يجبرني فيها بشبه كنيات
عن استيلاء سليمان على رودس: «لقد حمل البحر أهلنا إلى قمة الصخرة، وزُلزِلت
الأرض من صيحات انتصارنا».

وإذ كنت أنظر إلى الحدث من زناتي فقد بدا لي وكأنه ثار شخصي من أدريان
وأحلامه الصليبية. وعندما ازداد اعتقالي في الأشهر التالية صرامة، ولم أعد أملك
ما أقرأه، ولا ما أكتب به من قلم أو مداد أو ورق، ولا حتى أدنى سراج يبذد
الظلمة التي كانت تجثم منذ العصر، وعندما فقدت كل اتصال بالعالم الخارجي،
وتظاهر حارسي بعدم فهم أية لغة، باستثناء لهجة جرمانية ما أنزل الله بها من
سلطان، أخذت أنظر إلى رسالة عبّاد وكأنها ذخيرة من عباد الله الصالحين، وأردّد
كلماتها الخاصة بالاستيلاء على رودس وكأنها أنشودة دينية.

وحلمت ذات ليلة بسليمان وتحت عمامته وجه طفل، وجه بايزيد. وكان ينحدر
من فوق جبل قادماً لإطلاق سراحني، لكنّه قبل أن يتمكّن من الوصول إليّ كنت
قد استيقظت فوجدت أنّي لا أزال في زناتي عاجزاً عن العودة إلى النوم لعلّي أدرك
نهاية الحلم.

الظلام، البرد، الأرق، القنوط، الصمت... ولكيلا أصاب بالجنون فقد
استرجعت عادة الصلاة، خمس مرّات في اليوم، لربّ طفولتي.

وكنت انتظر قدوم اليد التي ستحرّرني من القسطنطينية. بيد أنّ مخلصي كان
أقرب من ذلك بكثير، كان الله تعالى بعونه في المحنة التي هي اليوم من نصيبه!

العام الرحيم

٩٣٠ هـ (١٠ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٥٢٣ م -

٢٨ تشرين الأول «أكتوبر» ١٥٢٤ م)

ضجّة خطى وحشد أصوات، ثم مئة قعقة صلبة باردة لمفتاح يدور وباب يصير رويداً على مفضلاته الصدئة. ووقفت بقرب سريري أدعك عينيّ متربصاً بالأطراف التي سوف تلوح على النور المنبعث من الخارج.

ودخل رجل. وإذا عرفت فيه «غويتشارديني» فقد خطوت نحوه متهيئاً للتعلق برقبته، بيد أنّي توقفت للتو. بل تأخرت وكأني مدفوع بقوة خفية. لعله وجهه الرخامي، أو ربّما هو صمته بضع لحظات طويلة، أو صرامة مظهره غير المعهودة. وخيل إليّ أنّي أرى في العتمة تباشير ابتسامة على شفتيه، غير أنّه عندما تكلم كان صوته متحفّظاً، بل إنه بدا لي بالغ الندم:

«يرغب قداسته في رؤيتك».

أكان عليّ أن أتشكى أم أن أعتبط؟ لماذا يريد أدريان أن يراي؟ لماذا أرسل إليّ «غويتشارديني» بعينه؟ ومنعني وجه الفلورنسي المقطب من أن أسأله. ونظرت إلى السماء. لا بدّ أنها السادسة أو السابعة صباحاً، ولكن من أيّ يوم؟ ومن أيّ شهر؟ وسألت عن ذلك أحد الحراس ونحن نعبر الرواق باتجاه القاتيكان. وكان «غويتشارديني» هو الذي أجاب بأفسي ما يمكن من جفاء:

كان قد بلغ أحد الأبواب. وقرع ودخل مشيراً إليّ أن أتبعه. وكان كل الأثاث ثلاثة مقاعد همراء خالية. وجلس من غير أن يدعوني إلى أن أحذو حذوه.

كنت عاجزاً عن تفسير سلوكه. هو الذي كان صديقاً قريباً جداً وباتحاً بالأسرار، هو الذي كنت متأكداً من أنّه يقدر رفعتي، والذي بادلني المزاح والنقد اللاذع...

ونفض فجأة وقال :

«أيها الأب الأقدس، ها هو ذا السجين!»

كان البابا قد دخل بلا ضجة من الباب الصغير الذي خلفي . والتفت لأراه .

«يا لعدل السماء! يا لعدل السماء! يا لعدل السماء!»

كنت عاجزاً عن النطق بغير هذه الكلمات . وجثوت على ركبتي، وبدلاً من أن أقبل يد الحبر الأعظم تناولتها وضغطت بها على جبيني، وعلى وجهي المبلل بالدمع، وعلى شفتي المرتجفتين .

وتخلص من غير خشونة وقال :

«عليّ أن أذهب لإقامة القداس سوف أعود بعد ساعة» .

وخرج تاركاً إياي على الأرض . وانفجر «غويتشارديني» ضاحكاً . ونهضت وتقدمت منه بهيئة من يتوعد وقلت :

«أعليّ أن أقبلك أم أن أنهال عليك ضرباً؟»

وضحك من صميم فؤاده . وتهاكت على أريكة من غير أن يدعوني إلى ذلك .

«قل لي يا فرانسسكو، هل كنت أحلم؟ أهو الكردينال يوليوس حقاً الذي مرّ في هذه الحجرة متلفعاً بالبياض؟ أهى حقاً يده التي قبلتها؟

- لم يعد للكردينال يوليوس دو مديشي من وجود . لقد انتخب أمس لعرش القديس بطرس واختار اسم كليان، وهو سابع من تسمى بهذا الاسم .

«يا لعدل السماء! يا لعدل السماء!»

كانت دموعي تفيض بلا انقطاع . وتمكّنت مع ذلك من القول بين انتحابين :

«وأدريان؟»

- ما كنت لأظنّ أن غيابه سيؤثر فيك إلى هذا الحدّ!

وضربتته بقبضتي على كتفه ضربة لم يحاول حتى تفاديها لفرط علمه بأنه كان يستحقّها .

«لقد فارقنا البابا أدريان منذ شهرين. ويقال إنه مات مسموماً. وعندما شاع خبر موته علّق مجهولون جبال الزينة على باب طبيبه لشكره على أن أنقذ رومة».

وغمغم عبارة إنكار لا بدّ منها قبل أن يتابع قائلاً:

«وعندها اندلع خصام في مجمع الكرادلة بين الكردينال «فرنيز» والكردينال يوليوس وبدا أنّ الأول يتمتع بعدد أكبر من الأصوات، غير أنّ أمراء الكنيسة كانوا راغبين بعد المحنة التي اجتازوها في استعادة سباحة فرد من آل مديتشي على رأس هذه المدينة. وبعد عدد من دورات الاقتراع انتُخب صديقنا. وعلى الفور قام العيد في الشوارع. ومن بين الحواظر الأولى التي مرّت ببال الحُبر الأعظم تفكيره فيك، وأنا على ذلك شهيد. فقد كان يرغب في الإفراج عنك بلا إبطاء، ولكنني استأذنته في القيام بهذا الإخراج المسرحي. فهل تغفر لي؟

- بصعوبة!

وضممته إلى صدري في عناق حارّ.

«لم تحتج مادالينا ولا جوسپ إلى شيء. وكان بودّي أن أقول لك أن تذهب لرؤيتهما، ولكنّ ينبغي انتظار البابا».

ما كاد الفلورنسي ينتهي من إخباري بكلّ ما حدث منذ اعتقالي حتى كان كليمان السابع قد عاد. وقد طلب أن لا يزعجه أحد وجلس بأبسط ما في الدنيا من طرق على الأريكة التي كنّا قد حفظناها له.

«كنت أظنّ أنّ أفضل الدعابات في رومة هي دعابات المأسوف عليه الكردينال «بيينا». غير أنّ اكتشافات السيد «غويتشارديني» ينبغي أن تُحفظ».

واعتدل قليلاً في جلسته وغدا وجهه ساهماً على حين غرة. وحلّق بي وقال:

«لقد تحدّثنا طويلاً الليلة الماضية أنا وفرانشسكو. إنه ليس في استطاعته أن يُسدي إليّ كثيراً من النصح في موضوع الدين، ولكنّ العناية الإلهية قد أضافت إلى منصبى أمر إدارة «دولة» والحفاظ على عرش بطرس من تطاولات القوى الزمنية. ونصائح فرانشسكولي في هذا المجال ثمينة، كما هي ثمينة نصائحك يا ليون».

وبنظرة نقل مهمة الكلام إلى السفير فقال:

«لقد طالما تساءلت يا ليون عن سبب إبعادك الحقيقي إلى رومة، ولماذا قررنا ذات يوم أن نجعل «بيترو بوفاديليا» يخطف مستتيراً عربياً على سواحل بلاد البربر. لقد كان هناك مخطط لم يُنحَ قطً للمرحوم البابا ليون أن يكشف لك عنه. وها قد حانت الساعة اليوم للكشف عنه».

وصمت «غويتشارديني» وعقب كليمان وكأتهما يتلوان النص نفسه:

«لتلاحظ هذا العالم الذي نحيا فيه. في الشرق إمبراطورية مهولة يحدوها دين ليس ديننا، إمبراطورية مبنية على النظام والانضباط الأعمى وماهرة في صهر المدافع وبناء الأساطيل. وجيوشها تتقدم نحو قلب أوروبا. و«بودا» و«پست» مهددتان، وستكون «فيينا» مهددة عما قريب. وفي الغرب إمبراطورية مسيحية ولكنها ليست أقل هولاً لأنها قد أخذت تمتد من العالم الجديد إلى نابولي وتحلم بالهيمنة الشاملة. وتحلم على الأخص بإخضاع رومة لمسيحتها. وعلى أراضيها الإسبانية تزدهر عاكم التفتيش، وعلى أراضيها الألمانية تزدهر هرطقة لوثر».

وأكد السفير تُشجَّعه انحناءات رأس البابا المؤمنة على كلامه:

«من جهة سليمان السلطان وخليفة المسلمين، وهو شاب طموح يتمتع بنفوذ مطلق، ولكنه حريص على أن يحو من الأذهان ذكرى جرائم أبيه، وعلى الظهور بمظهر الرجل الخير. ومن الأخرى شارل ملك إسبانيا، وهو أكثر فتوة وليس أقل طموحاً، وقد بذل ثمناً فادحاً لكي يُنتخب لعرش الإمبراطورية المقدسة. وفي وجه هذين الرجلين اللذين هما أقوى رجال الدنيا، هناك الدولة البابوية بالصليب العملاق والسيف القزم».

وأضاف بعد استراحة قصيرة:

«ليس الكرسي البابوي بالطبع الوحيد الذي يخاف هذه المزاجية. فهناك الملك فرانسوا الذي يكافح كيلا تنقطع أوصال مملكة فرنسا. وهناك أيضاً هنري ملك إنكلترا المخلص بكليته لقداسته ولكنه بعيد جداً لكي يقدم عوناً ما».

ظلت غير مدرك لما يمكن أن يقدمه شخصي المتواضع من نفع في هذه الجوقة

من المتوجين. بيد أنّي تحاشيت مقاطعة الفلورانسى.

«إنّ هذا الوضع الدقيق الذي لمّح إليه الأب الأقدس ليون أمامك كان موضوع مناقشات عدّة بيني وبين الكردينال يوليوس. ونحن مقتنعان اليوم كما في الأمس بضرورة العمل في مختلف الاتجاهات لإبعاد الأخطار. وينبغي قبل كل شيء مصالحة فرانسوا، وهو أمر ليس باليسير. فمئذ ثلاثين عاماً وملوك فرنسا يسعون لغزو إيطاليا. ويُعتبرون بحقّ مسؤولين عن المصائب النازلة بشبه الجزيرة، وجيوشهم متهمّة بنقل الأوبئة والحرب. ويجب كذلك إقناع البندقية وميلانو وفلورنسا بتتاسي خصوماتها للوقوف جهة في وجه الإمبراليين».

وأخذ صوتاً أكثر نعومة وانحنى إلى أمام كما يفعل في كل مرّة يودّ فيها البوح بسرّ
وقال:

«لقد قدّرنا كذلك أنّه ينبغي فتح محادثات مع العثمانيين. بأيّة طريقة؟ لسنا ندرى. ونجهل أكثر من ذلك ما يمكن أن نحصل عليه. التخفيف من تدفق الإنكشارية على الأراضي المسيحية في أوروبا الوسطى؟ وقف أعمال السلب والتخريب التي يقوم بها القراصنة؟»

وأجاب عن تساؤلاته ببرطمة تفيد الشكّ. وقفى كليان قائلاً:

«إنّ ما هو مؤكّد أنّه أنّ الأوان لإقامة جسر بين رومة والقسطنطينية. بيد أنّي لست سلطاناً. وإذا أرثأيت أن أتعجل الأمور أحاطت بي ألوف الانتقادات من إسبانيا وألمانيا، ومن زملائي أنفسهم».

وابتسم لزلة لسانه وقال:

«أقصد من الكرادلة. يجب العمل بحذر شديد وانتظار الفرص المؤاتية والنظر إلى كيفية تصرف الفرنسيين والبنادقة والقوى المسيحية الأخرى. ولسوف تؤلفان كلاهما فريقاً. إنّ ليون يعرف الآن التركيّة بالإضافة إلى العربية؛ ويعرف على الأخصّ العثمانيين وطريقة تفكيرهم وتصرفهم؛ بل إنّه كان في سفارة إلى القسطنطينية؛ وفرانشيسكو يعرف كل شيء عن سياستنا وفي وسعه المفاوضة باسمنا».

وأضاف وكأنه يحدث نفسه :

«لوددت فقط لو كان أحد المبعوثن كاهناً . . .»

ثم بصوت أعلى وشيء من التهكم :

«لقد رفض السيد «غويتشارديني» دائماً دخول الكهنوت . وأما أنت يا ليون فياني لأعجب أن لا يكون ابن عمنا الغالي وسلفنا المجيد قد أوحى أبداً إليك بأن تكرس حياتك للدين» .

وتحيرت : لماذا طرح عليّ الرجل الذي قدمني إلى مادلينا مثل هذا السؤال؟ وتطلعت صوب «غويتشارديني» فبدأ لي ساهماً . وخلصت إلى أنّ البابا كان يسعى إلى التحقق من قناعاتي الدينية قبل أن يعهد إليّ بمهمة عند المسلمين . وإذا رأي أبطىء في الجواب فقد الحّ قائلاً :

«لم يكن الدين أفضل السبل لرجل من رجال المعرفة وسعة الاطلاع مثلك؟»
وراوغت في الجواب :

«الحديث عن الدين في حضرة قداسته كالحديث عن خطية بحضور الوالد» .

وابتسم كليان ، من غير أن يُفَلتني مع ذلك :

«وماذا كنت تقول عن الخطية لو لم يكن الوالد هنا؟»

واخترت عدم المخاتلة :

«لو لم يكن زعيم الكنيسة يُصغي إليّ لقلت إنّ الدين يُعلّم الناس التواضع ، غير أنه هو لا يملك أيّ تواضع . ولقلت إنّ جميع الأديان قد انتجت قديسين وقتلة بالمستوى نفسه من حسن الإدراك . وإنّ في حياة هذه المدينة سنوات كليانتيّة (رحيمة) وسنوات أدريانية (قاسية) لا يسمح الدين بالاختيار بينها .

- أتسمح الديانة الإسلامية باختيار أفضل؟

وكدت أقول «نحن» ، ولكنني استدركت في الوقت المناسب :

«يتعلّم المسلمون أنّ «خير الناس أنفعهم للناس» بيد أنه على الرغم من هذا

القول يحدث لهم أن يمجدوا المرائين أكثر من تمجيدهم المحسنين .

- والحقيقة في كل هذا؟

- هذا سؤال لا أطرحه على نفسي أبداً: لقد سبق لي أن اخترت بين الحقيقة والحياة .

- لا بد من إيمان حقيقي .

- ليس ما يوحد بين المؤمنين هو الإيمان المشترك بقدر ما هي الأعمال التي يشتركون في القيام بها .

- هل الأمر هكذا؟»

لم يكن من الممكن سبر غور النبرة التي استخدمها البابا . فهل كان يفكر في إعادة النظر في المهمة التي عهد بها إلي؟ لقد خشي غويتشارديني ذلك فأسرع بالتدخل بأكثر الابتسامات انبساطاً:

«يريد ليون أن يقول إن الحقيقة لا تخص إلا الله، وأنه لا يمكن إلا أن يشوهها الناس ويحطوا من شأنها ويخضعوها لإرادتهم» .

وهست بما يكفي لأن أسمع، وكأنا لأوافق على ما قال:

«لُفْرِجْ عن الحقيقة من يسكون بزمامها!»

وضحك كليان ضحكة مرتبكة ثم استدرك قائلاً:

«لنختصر ما قلنا . إن الأخ ليون لن يدخل في الدين؛ سوف يدخل فقط في أمور السفارة كالأخ فرانشسكو» .

وإذ أطمأن هذا الأخير فقد شبك يديه وأخذ هيئة ورعة وقال بصوت مضحك:

«إذا كان الأخ ليون يقشعر من الحقيقة فليفرخ روعه: إنه لن يصادفها كثيراً في أخوتنا» .

وختمتُ بالنبرة نفسها: «آمين» .

اجتمع في منزلي أصدقاء كثيرون للاحتفال بالإفراج عني، وكان قد شاع خبره منذ الفجر. وتوافق الجيران والتلاميذ والأصدقاء جميعاً على القول بأنني كنت قد تغيرت قليلاً في عام واحد من الحبس. جميعاً إلا جوسپ الذي أبي في عناد أن بتعرف عليّ واستغرق في الحرد ثلاثة أيام كاملة قبل أن يقول لي للمرة الأولى «أبي»!

وما لبث عبّاد أن وصل من نابولي ليحيّي عودتي، ولكن ليحيطني كذلك على ترك رومة بلا إبطاء. ولم يكن ذلك وارداً في خاطري على الإطلاق.

«أمتأكد أنت من أنك لو أردت الرحيل في المرّة القادمة فلن تكون سجيناً في قصر القديس أنجلو؟

- سيختار الله أن يدعني هنا أو يجعلني أرحل».

وغدا صوت عبّاد صارماً بغتة:

«لقد سبق أن اختار الله. ألم يقل إنه ينبغي عدم البقاء طوعاً في دار الكفر؟

والقيت عليه نظرة مثقلة بالعتاب. وأسرع يعتذر:

«أعرف أنه ليس من حقّي أن أعظك أنا الذي يعيش في نابولي ويقدم الهدايا مرتين في السنة إلى كنيسة «سان جانفويه» التي يشرف على أمورها البسكاويون والقشتاليون. ولكنني أخاف عليك وحقّ القرآن! إني لأشعر أنك انخرطت في خصومات لم تُجعل لنا. إنك تنطلق في حرب مع أحد الباباوات ولا تنجو إلا بموته.

- هذه المدينة هي اليوم مدينتي، ولأنّ أكون قد عرفت فيها السجن فلا أراي إلا ازددت تعلقاً بمصيرها ومصير الناس الذين يصرفون شؤونها. إنهم ينظرون إليّ كصديق، وليس في وسعي أن أعاملهم على أنهم ليسوا سوى «روم».

- لكنّ أهلك في مكان آخر، وأنت تتجاهلهم وكأنّ ثلاثين عاماً من حياتك وحياتهم لم تكن قطّ».

وانخذ استراحة قصيرة قبل أن يصفعني بهذا الخبر:

«لقد ماتت أمك هذا الصيف» .

وإذ وضع أن مادالينا كانت على علم بالأمر فقد أقبلت تدقّء يدي بقبلة
مواسية . وتابع عبّاد :

«كنت في تونس أثناء مرضها الأخير . وقد طالبتُ بحضورك .

- هل قلت لها إنني كنت في الحبس؟

- أجل! لقد فضّلتُ أن تحتفظ لك بجزعها الأخير على أن تحتفظ بملامتها
الأخيرة» .

* * *

ولكي يطلب عبّاد الصفح عن كونه مرة جديدة نذير شؤم فقد أحضر لي من
تونس صندوقاً صغيراً يحتوي على الأوراق الكبيرة الحجم التي كنت قد دَوّنت فيها
ملاحظاتي عن أسفاري ، والتي سوف أتمكن بها من كتابة العمل الذي كثيراً ما
طلبت به منذ وصولي إلى رومة : وصف لإفريقية وما فيها من أشياء مهمّة .

ولم أكن قد خططت السطر الأول بعد حين استحوذ على ساعاتي المخصّصة
للكتابة مشروع غير معقول ولكنّه خلّاب كان قد اقترح عليّ أثناء زيارة قام بها إليّ
تلميذي القديم هانز بعد عام من خروجه من السجن . فإذا كان قد عزم على
العودة إلى ساكس فقد جاء يودّعني ويردّد على مسامعي عرفانه وتقديره للتعليم
الذي كنت قد اغدقته عليه ويقدم لي بالمناسبة أحد أصدقائه ، وهو طبّاع ساكسوني
مثله ولكنّه مقيم في رومة منذ خمسة عشر عاماً .

وبالعكس من هانز لم يكن الرجل لوثيرياً . وكان يقول إنه يريد لمفكر هولندي
كان «غويتشارديني» قد حدّثني عنه : «أيرزّم» . وكان هذا الأخير هو الذي أوحى
إليه بهذه الفكرة المجنونة التي جعلها فكرته .

ويتلخص الموضوع في معجم ضخم ثبت فيه كل كلمة بعدد من اللغات من
بينها اللاتينية والعربية والعبرية واليونانية والمانيّة ساكس والإيطالية والفرنسية
والقشتالية والتركية وغيرها كثير . وتعهّدت من جهتي بأن أقدم الأقسام الخاصة
بالعربية والعبرية بناء على قائمة طويلة بالكلمات اللاتينية .

وعبر الطَّبَّاع عن رأيه بحمّية مؤثرة قائلاً:

«لا ريب في أن هذا المشروع لن يرى النور قطّ، في حياتي على الأقل وبالشكل الذي أطمح إليه. ومع هذا فأنا على استعداد لأن أخصّص له وجودي ومالي. فَلَآنُ يعمل المرء على أن يتمكّن جميع الناس من أن يتفاهموا، أفليس هذا أشرف المثل؟»

ولقد سمى الطَّبَّاع الساكسوني هذا الحلم الضخم، هذا الجنون الرائع: «عكس بابل».

عام ملك فرنسا

٩٣١ هـ (٢٩ تشرين الأول «أكتوبر» ١٥٢٤ م -

١٧ تشرين الأول «أكتوبر» ١٥٢٥ م)

تساقط الثلج، رسول الموت والهزيمة البارد، للمرة الثالثة على طريقي في هذا العام. وكما في غرناطة في بعض فصول الشتاء أيام طفولتي، وكما في الأطلس في الخريف أيام سعدي، فقد عاد بشكل عاصفة، بشكل نفحة مدمرة، بشكل همسة مشؤومة من همسات القدر.

وكنت عائداً من «بافية» بصحبة «غويتشارديني» بعد أن أنجزنا أغرب السفارات وأكثرها سرية أيضاً لأنه من بين جميع أمراء المسيحية كان البابا هو وحده الذي ينبغي أن يعرف مضمونها، وكان ملك فرنسا وحده هو الذي أخبر بها حسب الأصول.

وفي الظاهر كان الفلورانسي مكلفاً من كليمان السابع بمهمة للمساعي الحميدة. فالشهور الأخيرة كانت دامية. فقد حاولت جيوش الإمبراطور الاستيلاء على مرسيلية صابئة على المدينة مئات قذائف المدافع. بلا جدوى. فقد ردّ الملك فرانسوا بالاستيلاء على ميلانو ومحاصرة «بافية». وكان الجيشان يهددان بالمواجهة في «لومباردية»، وكان من واجب البابا أن يقي من حدوث معركة دامية. وقد أوضح لي «غويتشارديني» أن ذلك كان من واجبه، ولكنه لم يكن في مصلحته لأن المنافسة وحدها بين القوتين المسيحيتين كانت تزود الكرسي البابويّ بحيز ما للاستقلال. «ولكي نتأكد من أن السلام لن يجلّ كان علينا أن نكون وسيطيه».

والمهمة الأخرى الأكثر شأناً هي التي كنت مَعيناً بها. فقد علم البابا أن أحد سفراء السلطان التركي المعظم كان في الطريق إلى معسكر الملك فرانسوا. أفلم تكن فرصة طاملاً تحينها لمشافهة العثمانيين؟ وكان ينبغي أن نكون أنا و«غويتشارديني» عند أسوار «بافية» في الوقت الذي يكون فيه هذا المبعوث قد

وصل إليها وأن ندنومنه وننقل إليه رسالة شفوية من كليمان السابع .

وعلى الرغم من البرد فقد بلغنا الخطوط الفرنسية في أقل من أسبوع . وكان أول من استقبلنا نبيل عجوز عالي المقام هو الماريشال «شابان» سيد «لاپاليس» الذي كان يعرف «غويتشارديني» معرفة وطيدة . وقد أبدى دهشته لزيارتنا نظراً لأن مبعوثاً آخر من البابا هو مؤرخ الوثائق «ماتيو جيبرتي» كان قد وصل قبل أسبوع . ومن غير أن يسقط في يد ريفي أجاب بنبرة نصفها تلميح ونصفها هزل أنه من الطبيعي أن يسبق المسيح بيوحنا المعمدان .

وكانت حذقة مفيدة في الظاهر لأن الملك استقبل الفلورانس في اليوم نفسه . وأما أنا فلم يسمح لي بحضور المقابلة ، غير أنني استطعت تقبيل يد الملك ، وهذا ما لم أكد احتاج فيه إلى الانحناء لأنه كان يطاولني بشبر كامل . وانزلت عيناه عليّ انزلاق ظلّ تحدته قسبة ، وذلك قبل أن تتعثر نظراتها في ألف بريق خاطف ، فيما كانت عيناها تحدقان بافتتان في نقطة محدّدة من وجهه حيث كان الأنف الضخم يجمي الشاربين الدقيقين النازلين ببسالة من فوق الشفتين . ولا ريب في أن هذا التعقيد هو السبب في أن ابتسامه فرانسوا تبدو متهمكة حتى حين يريد أن يكون عطوفاً .

خرج «غويتشارديني» متهللاً من الخيمة المستديرة التي جرت فيها المقابلة . فقد أكد له الملك أن العثماني سيصل في اليوم التالي وأبدى اغتباطه لاتصال يتم بين رومة والقسطنطينية . وعلق الفلورانس على ذلك بقوله :

«ماذا في وسعه أن يرجو خيراً من مباركة الأب الأقدس في الوقت الذي يقيم فيه حلقاً مع الكفار؟»

ثم أضاف بإدبيّ الحبور لأنه أخذني هكذا على حين غرة :

«لقد أخبرت بوجودك معي كما بمعرفتك اللغة التركية . وقد سألتني جلالته عما إذا كنت تستطيع القيام بمهمة الترجمان» .

ومع ذلك فإنه عندما دخل المبعوث العثماني وأخذ بالكلام بقيت صامتاً عاجزاً عن فتح شفتي ، بل عاجزاً حتى عن التنحنح . ورمقني الملك بنظرة قاتلة ، واهمراً

«غويتشارديني» من الغضب والارتباك. ومن حسن الحظ أنه كان مع الزائر ترجمانه الخاص الذي كان يعرف فوق ذلك لغة فرانسوا.

رجل واحد من بين جميع الحاضرين كان قد فهم بلبالي وشاطرني إياه على الرغم من أن منصبه كان يحتم عليه ألا يدع شيئاً يُستشف، على الأقل حتى يكون قد أنجز احتفال التقديم الخطير. وما إن قرأ السفير رسالة السلطان بصوت مرتفع وتبادل مع الملك بعض الأحاديث البهيجة حتى اقترب مني وضممني بحرارة إليه وهو يقول عالياً:

«كنت أعلم أنني سأجد في هذا المعسكر أصدقاء وحلفاء، بيد أنني ما كنت أتوقع قط أن أجد فيه أخاً فقدته منذ سنوات طويلة».

وعندما نقل مترجم الوفد العثماني هذه الأقوال توجهت أنظار الحضور إليّ وتنفس «غويتشارديني» من جديد. وأما أنا فلم يكن على شفطي غير كلمة مذهولة غير مصدقة. «هارون!»

لقد قيل لي في العشيّة إن سفير السلطان التركي المعظم يدعى هارون باشا، غير أنني لم أكن قد رأيت في لحظة ما أدنى رابطة بينه وبين أعزّ أصدقائي، بينه وبين أقرب الناس صلة قربي مني، بينه وبين شبه شقيق لي.

وكان علينا أن نتنظر المساء ليتسنى لنا اللقاء وحيدين تحت الخيمة الفخمة التي نصبتّها له حاشيته. وكان سعادة «المنقب» يعتمر عمامة عالية ثقيلة من الحرير الأبيض مزينة بياقوتة كبيرة وريشة طاووس. لكنّه لم يلبث أن خلع ذلك كله بحركة تنم عن التحلّص كاشفاً عن رأس قلّ شعره وخطه المشيب.

وسعى من غير مواربة إلى إشباع فضولي البديهي بقوله:

«كثيراً ما اجترت بعد رحلتنا المشتركة إلى القسطنطينية الباب العالي مبعوثاً من عروج ذي اللحية الحمراء رحمه الله! ثم من أخيه خير الدين. وتعلّمت التركية وكلام أهل البلاط، واصطفيت لنفسي أصدقاء في الديوان وفاوضت في قضية ربط الجزائر بالسلطنة العثمانية. ولسوف أعتزّ بهذا إلى يوم الدين».

وروّحت يده الهواء بحركة رحبة وتابع:

«وهناك الآن من نخوم فارس إلى سواحل المغرب، ومن بلغراد إلى اليمن السعيد إمبراطورية إسلامية واحدة يشرفني صاحبها بثقته ورعايته».

واستطرد بهلجة عتاب غير مقنعة:

«وأنت ماذا فعلت في كل هذه السنين؟ أصبح أنك في الوقت الحاضر شخصية مرموقة في بلاط البابا؟»

واستعملت عن عمد عبارته بالذات:

«إن قداسه يشرفني بثقته ورعايته».

ورأيت من الخير أن أضيف وأنا أشدّ على كل كلمة:

ولقد أرسلني إلى هنا للقائك. فهو راغب في إقامة صلة بين رومة والقسطنطينية».

لو كنت أتوقع بعض التأثير أو بعض الفرح أو بعض الدهشة لقاء هذا الإعلان الرسمي لغدوت حانقاً أشدّ الحق. فقد بدأ هارون بغتة منشغلاً ببقعة وحل على مقلب رده الفضفاض. وبعد أن حكها ونفخ عليها لإزالة كل أثر لها تنازل فنطق بهلجة تنم عن خفة متكلفة:

«بين رومة والقسطنطينية، قلت؟ وما الغاية من ذلك؟»

- من أجل السلام. أليس رائعاً أن يتمكن المسيحيون والمسلمون حول البحر المتوسط بأسره من العيش والتجارة معاً بلا حروب ولا قرصنة، أن أستطيع أنا الذهاب من الإسكندرية إلى تونس مع أسرتي من غير أن يخطفني أحد الصقليين؟»
من جديد كانت تلك البقعة المعاندة على كفه. ودعكها دعكاً شديداً ونفضها بقوة قبل أن يوجه إليّ نظرة خلت من الكياسة ويقول:

«أصغ إليّ يا حسن! إذا كنت تريد أن تتذكر صداقتنا وسنواتنا في المدرسة وعائلتنا وزواج ابني من بنتك قريباً فلتتحدث بدعة حول مائدة حافلة، ولسوف والله أتذوق هذه اللحظة كما لم أتذوق غيرها من قبل. وأما إذا كنت مبعوث البابا وأنا مبعوث السلطان فلتتناقش عندئذٍ بشكل آخر!»

وحاولت الدفاع عن نفسي بقولي :

«ما الذي تأخذه عليّ؟ إنّي لم أتكلّم إلا عن السلام. أليس طبيعياً أن تكفّ أديان الكتاب عن التذابح؟»
وقاطعني قائلاً :

«أعلم أنّ الذي يفرّق بين القسطنطينية ورومة، وبين القسطنطينية وباريس، هو الدين، وأنّ الذي يقربّ هو المصلحة، نبيلة كانت أو خسيصة. لا تحدّثني عن السلام ولا عن الكتاب لأنّ الموضوع ليس هذا، وليس هذا ما يفكر فيه أسبائنا». لم استطع قطّ مدّ كُتّا طفلين من احتمال النقاش في وجه «المنقّب». وكان في جوابي ما ينمّ عن التسليم :

«ومع ذلك فينّي أرى مصلحة مشتركة بين سيّدك وسيّدي، فلا الواحد ولا الآخر يريد رؤية إمبراطورية شارلكان تنبسط على أوروبا بأسرها، ولا على بلاد البربر!»

وابتسم هارون وقال :

«الآن وقد أمسينا نتكلّم اللغة نفسها أستطيع أن أقول لك ما جئت أفعل هنا. إنّي أحمل إلى الملك هدايا ووعوداً، وحتىّ مئة من الخيالة البواسل الذين سيقاتلون إلى جانبه. إنّ معركتنا واحدة: أتعلم أنّ جيوش فرانسوا قد أسرت «أوغودو مونكادا»، الرجل الذي هزمته أنا نفسي أمام الجزائر بعد موت عروج؟ أتعلم أنّ اسطولنا قد تلقى الأمر بالتدخل إذا حاول الإمبريالون من جديد الاستيلاء على مرسيلىة؟ لقد عزم مولاي على عقد الحلف مع الملك فرانسوا، ولسوف يضاعف لهذه الغاية بوادر الصداقة.

- هل في مقدورك أن تعدّ الملك بالألّا يُتابع الهجوم العثمانيّ على أوروبا؟»

وبدا هارون مرهقاً من سداجتي فقال :

«إذا نحن هاجمنا المجر الذين ليس عاهلهم سوى نسيب الإمبراطور شارل فلن يفكر ملك فرنسا قطّ في مؤاخذتنا على ذلك. والأمر نفسه إذا نحن حاصرنا «قيينا»

التي يحكمها شقيق الإمبراطور.

- ألا ينتقد ملك فرنسا نظراؤه إذا سمح بغزو الأراضي المسيحية على هذا النحو؟

بلا شك، ولكن مولاى مستعد لإعطائه في المقابل حقّ النظر في مصير كنائس القدس والمسيحيين في المشرق».

وصمتنا كلانا برهة غارقين في أفكارنا. واستند هارون إلى صندوق منقوش وابتسم وقال:

«عندما قلت للملك فرانسوا إنّي حملت إليه مئة مقاتل بدا مُحرجاً. واعتقدت لحظة أنه سيرفض تركهم يقاتلون إلى جانبه، لكنّه انتهى إلى شكري بحرارة. وقد أشاع في المعسكر أن هؤلاء الخيالة كانوا من أتباع السلطان المسيحيين».

واستطرد من غير فترة انتقال:

«متى ستعود إلى أهلك؟»

وأجبت متردداً:

«في يوم من الأيام عندما تفقد رومة جاذبيّتها في نظري .

- لقد أخبرني عبّاد السوسيّ عندما رأيته في تونس أنّ البابا حبسك طوال عام في قلعة .

- لقد انتقدته من غير تحفّظ».

واجتاحت هارون بغتة نوبة من الضحك المفرط وقال:

«أنت، حسن بن محمد الغرناطي، سمحت لنفسك بانتقاد البابا في قلب مدينة رومة! بل إنّ عبّاداً قال لي إنّك أخذت على هذا البابا أنّه غريب .

- ليس الأمر هكذا بالضبط. بيد أنّي كنت أعير تفضيلي بالفعل لإيطالي، وإن أمكن فلمديتشيّ من فلورنسا».

وشدّه صديقي إذ لاحظ أنّي كنت أجيبه بأكثر ما في الدنيا من جدّ فقال:

«تقول مديتشي؟ حسناً، سوف أطلب منذ عودتي إلى القسطنطينية بأن يُسحب شرف الخلافة من العثمانيين ويُعاد إلى واحد من سلالة العباس».

وداعب بعناية عنقه ورقبته وهو يردّد وكأنّ ما يردّده لازمة مكرورة:

«تقول إنك تفضل مديتشيًا؟»

وبينما كنت أتحدّث على هذا النحو إلى هارون كان «غويتشارديني» يرسم أغرب الخطط مقتنعاً بأنّ علاقاتي بمبعوث السلطان التركي المعظم تمثّل حظاً لا يُعقل للدبلوماسية البابوية. وقد اضطررت إلى التخفيف من حدّته، وإلى إشعاره على الأخصّ بكلّ اللامبالاة التي أظهرها نسيبي. بيد أنّ الفلورانسي أراح جميع اعتراضاتي بضربة من ظاهر اليد وقال:

«لن يتوانى هارون باشا بوصفه سفيراً عن أن ينقل إلى السلطان التركي المعظم انفتاحاتنا. لقد خُطيت الخطوة الأولى، ولن نلبث طويلاً لنستقبل في رومة مبعوثاً عثمانياً. وربما ذهبنا أنا وأنت إلى القسطنطينية».

ولكنّ كان علينا قبل الذهاب إلى أبعد ممّا فعلنا أن نقدّم حساباً عن مهمّتنا إلى البابا.

كنا قد هُرعنا إلى رومة عندما فاجأتنا العاصفة الثلجية التي تحدّثت عنها على بضعة أميال من بولونية. ومنذ النديف الأول تمثّلت لحاطري مأساة الأطلس. وظننتني عائداً إلى تلك اللحظات الرهيبة التي كنت قد أحسست فيها بأنّي محاصر بالموت حصاري بذئاب جائعة، وبأنّي غير مرتبط بالحياة إلا بواسطة يد «هيتي» التي كنت أمسك بها في حنق. وأخذت أهمس بلا انقطاع باسم جاريتي الجميلة النوميديّة وكأنّه ما من امرأة خلّقتُها في فؤادي.

وتضاعفت حدّة الريح، واضطرّ الجنود الذين كانوا يواكبوننا إلى الترجّل في محاولة للاحتماء. وحذوت حذوهم، وكذلك فعل «غويتشارديني» الذي لم يطل بي الأمر أن فقدته من دائرة نظري. وخيّل إليّ أنّي أسمع صرخات ونداءات وعواءات. وكنت ألح من حين إلى حين طيفاً هارباً فأحاول اللحاق به، بيد أنّه

كان يغيب في كل مرة في الضباب . وما لبثت راحلتي أن أفلتت مني . وجريت على غير هدى فاصطدمت بشجرة فتشبتت بها مقرصاً مرتعداً . وعندما هدأت العاصفة وتقدم مني أحدهم كنت مطروحاً بلا حراك غارقاً في الثلج وقد كسر أحد الجياد الهائجة ساقي اليمينى . والظاهر أني لم ألبث غارقاً طويلاً ، الأمر الذي جنّني أن تُبتر ساقي . بيد أني كنت عاجزاً عن السير وكان صدري يشتعل ناراً .

عدنا إذن إلى بولونية حيث أنزلني «غويتشارديني» فندقاً صغيراً مجاوراً لمدرسة الإسبانيين العالية . وأما هو فقد رحل من غير أن ينسى التنبؤ بأنى سأسوتوي واقفاً بعد عشرة أيام ويكون في مقدوري اللحاق به إلى البلاط البابوي . ولكن ذلك لم يكن إلا لطمأنيتي لأنه ما إن وصل إلى رومة حتى نصح مادالينا بأن تنضم إلي هي وجوسپ ، وأن تحمل إلي أوراقى وملاحظاتي لأتمكّن من التفرير بالضجر بالكتابة . ولم أكن أتوصل في الواقع إلى التعود على عدم الحركة ، ولا كنت أنفك عن إبداء الغضب في الأيام الأولى لاعناً طوال اليوم الثلج والقدر وذلك المسكين مدير الفندق الذي كان يخدمني مع ذلك بصبر جميل .

وكان عليّ ألا أعادر حجرتي حتى نهاية ذلك العام . وكادت تقضي عليّ نزلة صدرية ، وما كدت أشفى منها حتى بدأت ساقي تسبّب لي الإزعاج . فقد كانت متجمّدة ومتورمة إلى حدّ خشيت معه البتر من جديد . وأخذت بدافع الغيظ والقنوط أعمل وأعمل ليل نهار . وهكذا استطعت أن أنجز الترجمات العربية والعبرية التي كنت وعدت بها الطّباع الساكسوني . كما تمكّنت في ذلك العام من كتابة الكتب الستة الأولى من «وصف إفريقية» . وما هي إلا بضعة أشهر حتى استسلمت إلى اللذات التي كانت توفّرها لي حالة الكاتب المقيم والرحالة الثائب والتلذذ بالأفراح اليومية التي تغدقها اسرتي الصغيرة . ولم يفتني أن أحتفظ بعين قلقة على الأحداث المُحدّقة بي .

كنت لا أزال بين حُميين عندما أخبرتني مادالينا في أوائل شهر آذار (مارس) بالأنباء التي كانت قد بدأت تهزّ إيطاليا: كانت الجيوش الإمبريالية قد سحقته جيش الملك فرانسوا عند «پافية» . وشاع خير في البداية بأن فرانسوا كان قد قُتل ؛ لكنني ما لبثت أن علمت بأنه كان فقط قد أسير . بيد أن الوضع لم يكن أقلّ بلاءً ، فمهما يكن مصير الملك فقد كان واضحاً أنه لم يكن في وسع الفرنسيين أن يقفوا

قبل زمن طويل في وجه مطامح الإمبراطور.

وفكرت في كليمان السابع. لقد أبدى كثيراً من التعاطف مع فرانسوا بحيث لم يكن من الممكن ألا يتحمل نصيبه من الهزيمة. فكيف سيتخلص من هذه الخطوة الرديئة؟ أيتصلح مع شارل كان ليتقي غضبه؟ أم أنه سوف يستخدم بالعكس نفوذه لجمع أمراء المسيحية في وجه إمبراطور أصبح شديد النفوذ والخطر على الجميع؟ لكنت بذلت كل غالٍ لو أستطيع محادثة البابا. وأكثر من ذلك محادثة «غوبتشارديني»، ولا سيما بعد أن وصلتني منه رسالة في أوائل الصيف تحمل هذه العبارة الملقزة المرعبة بسخريتها: «لم يبق لإنقاذ رومة سوى معجزة، ويود البابا أن أقوم بها أنا!»

عام «العصابات السوداء» .

٩٣٢ هـ (١٨ تشرين الأول «أكتوبر» ١٥٢٥ م -
٧ تشرين الأول «أكتوبر» ١٥٢٦ م)

انتصب أمامي تمثالاً من اللحم والحديد، من الضحكات المجلجلة وصيحات
الغضب العارمة .

«أنا مساعد الكنيسة المسلح ا»

ومع ذلك كان يُدعى «الشیطان الأكبر»، وكان محبوباً على هذا النحو جموحاً
مقداماً وثاباً مستولياً دفعة واحدة على النساء والقلاع؛ وكان مرهوب الجانب، وكان
الناس يخافون عليه ويدعون الله أن يحميه ويُبعدة .

قال كليمان السابع بحنان وإستسلام «هو ابن عمي جيوفاني الذي لا يُرجى
صلاحه» .

وكان وحده، بوصفه مرتزقاً ومن آل مديتشي، يمثّل إيطاليا بأسرها . وكانت
الجیوش التي يقودها على شاكلته تُباع وتُشترى، وكانت كريمة سخية، وطاغية ومحبة
للعدل، وغير آبهة بالموت . وكانت قد وضعت نفسها في ذلك العام في خدمة
البابا . وكانت تسمى «العصابات السوداء»، وما لبث زعيمها أن عُرف، لا بوصفه
يوحنا دو مديتشي، وإنما بوصفه يوحنا «العصابات السوداء» .

ولقد قابلته في بولونية . فلقد أصررت لدى خروجي الأول على زيارة قصر
السيد «جاكوبو سالفياتي»، وهو أحد نبلاء المدينة الأجلء، وكان قد شملني برعايته
طوال مرضي مُرسلاً إليّ بلا انقطاع المال والكتب والياب والهدايا . وكان
«غويتشارديني» قد رجاه أن يجعلني في كنفه فوفى بهذه المهمة برأفة أبوية، ولم يدع
أسبوعاً يمرّ من غير أن يرسل أحد غلماناه للاطمئنان عن صحتي . وكان «سالفياتي»
هذا أشدّ شخصيات بولونية اعتباراً، وكان يعيش بترف خليق بأكبر آل مديتشي .

والحقّ أنّ امرأته لم تكن غير أخت البابا ليون، وأنّ ابنته ماريّا كانت قد تزوّجت يوحنا «العصابات السوداء». وينبغي أن يُقال لسوء حظّها لأنّها نادراً ما كانت تراه، وكان ذلك يتمّ بين حملتين أو بين قصّتي غرام أو بين مضاجعتين.

وكان حضوره في هذا العام من أجل ابنه الذي له من العمر ست سنوات، أكثر ممّا كان من أجل زوجته. وكنت أدنو من قصر «سالفياتي» متكتّأ على كتف مادالينا عندما سُمع صوت الموكب. وكان يحيط بقائد المرتزقة أكثر من أربعين من المخلصين على جيادهم. وكان بعض المارّة يهمسون باسمه، وبعضهم الآخر يهّللون له، وكان آخرون يحثّون الخطي. أمّا أنا ففضّلت أن أفسح له الطريق نظراً لأن مشيّي كانت لا تزال بطيئة غير واثقة. وصاح من بعيد: «كوزيمو»

وظهر في الطبقة العليا طفل من خلال إحدى النوافذ. وانطلق يوحنا خيباً، وإذ أصبح تحت الطفل شهر سيفه وحدّده نحوه وصرخ: «اقفز!»

كاد يُغمي على مادالينا. وغطّت عينيها. أمّا أنا فجمدت في مكاني. ومع هذا فإنّ السيد «جاكوبو» الذي خرج للقاء صهره لم يقل شيئاً. وكان يبدو بالطبع أنّه متضايق، ولكنّ تضايّق المرء حيال بؤس يوميّ لا حيال مأساة. ولم يبذّ الصغير «كوزيمو» مندهشاً قطّ، ولا حتى متأثراً. ووضع رجلاً على الطنّف وقفز في الفراغ. وفي اللحظة الأخيرة ترك الأب سيفه وتلقّاه من تحت إبطيه ومدّ به ذراعيه ورفعته فوق رأسه وقال:

«كيف حال أميرى؟»

وضحك الطفل والأب، كما ضحك جنود المواكبة. وجهد «جاكوبو سالفياتي» في أن يتسم، وإذ رأي قادمًا فقد انتهاز الفرصة لتبديد التوتر وقدمني بكثير من الاحتفال إلى صهره قائلاً:

«السيد يوحنا - ليون، جغرافيّ وشاعر ودبلوماسيّ في البلاط البابوي».

وترجّل المرتزق، وأعاد إليه أحد رجاله سيفه فأغمده وهو يقدم نفسه إليّ بمرح مفرط: «أنا مساعد الكنيسة المسلّح!»

كان شعره قصيراً وشارباه كثيّن أسمرين مقصوصين من الطرفين، وكان يملك

نظرة اخترقتني بأشدّ مما يخترق الرمح . وبدا لي الرجل للتوّ سمجاً جداً . غير أنّي لم ألبث أن غيرت رأيي وقد فنتني كما فنتت كثيراً غيري ملكته العجيبة في التخلّي عن روح المصارع ليغدو وقد اجتاز باب غرفة من غرف الاستقبال فلورنسياً وواحداً من آل مديشي خلاّباً برهافته وثقوب فكره .

« قيل لي إنّك كنت في «باقيه» .

- لم أمكث فيها سوى بضعة أيّام بصحبة السيد «فرانشسكو غويتشارديني» .

- أنا نفسي لم أكن بعيداً من هناك . كنت أنفقد عساكري على طريق ميلانو . وعندما عدت كان المبعوث العثمانيّ قد رحل . وأنت أيضاً على ما أظنّ» .

وابتسم ابتسامة خبيثة . ولكيلا أفضح مهمّتي فقد سكّت وتحاشيت أن تلتقي عيناي عينيه . وتابع :

«علمت أن رسالة ذهبت حديثاً من باريس إلى القسطنطينية تطلب إلى الأتراك مهاجمة هنغاريا لإجبار شارلكان على تحويل نظره عن إيطاليا .

- أليس ملك فرنسا سجيناً في إسبانيا؟

- هذا لا يمنعه من مفاوضة البابا والسلطان ومن إرسال التعليقات إلى أمه ، الوصيّة على عرش فرنسا .

- ألم يُقلّ إنه برسم الموت؟

- لم يعد كذلك . لقد غير الموت رأيه» .

وإذ كنت مستنكفاً عن التعبير عن أيّ رأي شخصي ، مقتصرأ على طرح الأسئلة ، فقد سألتني يوحنا بشكل مباشر :

«ألا تعتقد أنّ في الأمر اتّلاقاً عجيبيّاً : البابا متحالفاً مع فرانسوا المتحالف مع السلطان المعظم؟»

هل كان يسعى إلى اكتناه عواطفني تجاه العثمانيين؟ أم إلى معرفة ما قد يكون دار مع هارون باشا؟

«أظنّ أنّ السلطان المعظم، على الرغم من قوّته، لا يملك تقرير مصير حرب في إيطاليا. إنّ مئة رجل حاضرين في ساحة القتال أهمّ من مئة ألف موجودين في الجهة الأخرى من الدنيا.

- من هو الأقوى في إيطاليا برأيك؟

- جرت معركة في «باقيه»، وينبغي جيّداً استخلاص نتائجها».

لقد بدا واضحاً أنّ جوابي قد سرّه. فغدت نبرته نبرة صداقة، بل حتى نبرة إعجاب وقال:

«إنّي سعيد بسماع هذه الأقوال لأنّ البابا في رومة متردّد وصديقك «غويتشارديني» يدفعه إلى محاربة شارل والتحالف مع فرانسوا، حتى في الوقت الذي يقبع فيه ملك فرنسا سجين الإمبراطور. ولا أستطيع في الوضع الذي أنا فيه أن أعبّر عن تحفظاتي من غير أن أشعر بأنّي أهاب المواجهة مع الإمبرياليين، غير أنّك ستدرك في وقت قريب أنّ يوحنا المجنون هذا ليس خلواً من الحكمة، وأنّ ذلك الحكيم الكبير «غويتشارديني» يسعى إلى ارتكاب عمل جنوني ويحمل البابا على ارتكاب عمل جنوني».

وإذ رأى أنّه قد أطال في الكلام بجدّ فقد شرع يقصّ خبر صيده الأخير الخنزير البريّ مرفقاً بعدد كبير من النكات والمُلمح، قبل أن يعود بغتة إلى ما كان فيه:

«عليك أن تقول ما تراه للبابا. لماذا لا ترجع معي إلى رومة؟».

والحق أنّه كان في نيّتي أن أضع حدّاً لإقامتي الطويلة الاضطرارية في بولونية. وأسرعت إلى قبول الاقتراح قائلاً لنفسي إنّ رحلة إلى جانب يوحنا ستكون سارة جدّاً وخالية من الخطر لأنّه ليس في وسع لصّ الاقتراب من مثل هذا الموكب. وعليه فقد وجدت نفسي منذ اليوم التالي مسافراً مع مادالينا وجوسپ محاطين بمحاربين أشداء من «العصابات السوداء» انقلبوا للمناسبة إلى رفاق في غاية اللطف.



وبعد مسيرة ثلاثة أيام بلغنا مقرّ يوحنا، وهو قصر رائع يُدعى «إيل تريسيو»،

فقضينا فيه الليل . وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي اجتزنا فلورنسة . وقال قائد المرتزقة متعجباً:

«لا بدّ أنّك المديتشيّ الوحيد الذي لا يعرف هذه المدينة!»

- كدنا نتوقّف فيها ونحن ذاهبان أنا و«غويتشارديني» إلى «بافية»، ولكننا لم نكن نملك الوقت لذلك .

- إنه لوقت بربريّ جدّاً هذا الذي يمنعك من رؤية فلورنسة!

ولم يلبث أن أضاف:

«في هذه المرة أيضاً يدهمنا الوقت، ولكنني سوف آخذ على نفسي أن لم أجعلك تقوم بجولة فيها» .

لم يسبق لي قطّ أن زرت مدينة وكان دليلي فيها جيّشاً . فمن شارع «لرغا» الطويل إلى قصر آل مديتشي الذي نفذنا بشكل عاصف إلى فناءه المعمّد كان الأمر عرضاً عسكرياً صباحياً . وحضر خادم يدعوننا إلى الدخول، بيد أنّ يوحنا رفض بجفاء .

«هل السيد «ألسندرو» موجود؟»

- أعتقد أنه نائم .

- والسيد «أبوليتو»؟

- نائم كذلك . هل عليّ أن أوقظهما؟

وهزّ يوحنا كتفيه بازدياء وأدار لجواده العنان . وقام ونحن خارجون ببضع خطوات إلى اليمين ليريني بناء قيد التشييد وقال:

«كنيسة القديس «لورنزو» . ههنا يعمل الآن ميكلانجلو بيوناروتي، غير أنّي لا أجرؤ على أخذك إليها لأنّه قد يطردنا . إنّه لا يجب آل مديتشي قطّ، ثمّ إنّه لجافي الخلق . وهذا ما جعله على كلّ حال يعود إلى فلورنسة . إنّ معظم فنّانينا يقيمون في رومة . بيد أنّ ليون العاشر الذي كان قد استدعى كثيراً من ذوي المواهب للإقامة

بالقرب منه فضل أن يُبعد ميكلانجلو ويعهد إليه بعمل هنا».

وعاد يسلك الطريق بأنجاه القبة . وعلى جانبي الطريق بدت لي المنازل حسنة التنظيم مزينة بدوق، ولكن كان قليل جداً منها يمثل فخامة منازل رومة . واعترف دليلي بأن «المدينة الخالدة حافلة بأعمال الفن، غير أن فلورنسة بأسرها رائعة من الروائع، والناس مدينون للفلورنسيين بأحسن ما في كل فن من الفنون».

وخيل إليّ أنّي أستمع إلى فاسي!

وعندما بلغنا ساحة «ديلا سينيوريا»، وفي اللحظة التي اقترب فيها وجهي متقدّم في العمر يرتدي عباءة طويلة من يوحنا ليبادلها بعض الحديث أخذت زمرة من الأشخاص تهتف بشعار التقاء آل مديتشي الذي أجاب عنه رفيقي بتحية وهو يقول لي:

«لا تظنّ على الأخصّ أنّ جميع أفراد عائلتي يُهتف لهم على هذا النحو. فأنا الوحيد الذي ما يزال يتمتّع ببعض الحظوة لدى الفلورنسيين. ولو أن ابن عمي بوليوس، أريد أن أقول البابا كليمان، قرّر مثلاً أن يأتي إلى هنا فإنه لن يُستقبل بغير الهرج والمضايقة. وعلى كلٍّ فإنه يعرف ذلك تماماً».

- أليست هذه المدينة موطنك؟

- آه يا صديقي! إنّ فلورنسة عشيقة غريبة في نظر آل مديتشي! وعندما نكون بعيدين تناديننا بصرخات عالية؛ وعندما نلتقيها تلعننا.

- وماذا تريد اليوم؟

وبدا ساهماً. وأوقف حصانه في وسط الطريق عند مدخل الجسر القديم الذي أفسح له فوقة الناس مع ذلك السبيل وكانت تصدر منه بعض الهتافات، وقال:

«إنّ فلورنسة تريد جيداً أن يحكمها أمير، شرط أن يكون حكمه جمهورياً. وفي كلّ مرة كان فيها أجدادنا يتسوّون ذلك كانوا يندمون أشدّ الندم. واليوم يمثل آل مديتشي في مسقط رأسهم هذا المغرور الشاب المدعو «السندرو». إنّهُ يكاد يكون

في الخامسة عشرة ويتصوّر أنه ما دام من آل مديتشي وابن بابا فإن فلورنسة بنسائها وخيراتها ملك له .

- ابن بابا؟»

لم تكن دهشتي مُصْطَنَعَة . وانفجر يوحنا ضاحكاً وقال :

«لا تقل لي إنك عشت سبع سنوات في رومة من غير أن تعرف أن «السندرو» هو ابن غير شرعي لكليان؟»

واعترفت بجهلي . ووجد لذة في إنارة سبيلي بقوله :

«عندما لم يكن ابن عمي بعدُ بابا ولا كردينالاً تعرّف في نابولي على جارية عربيّة فأنجبت له هذا الابن» .

وكنا قد بدأنا نصعد نحو قصر «بيتي» . وما لبثنا أن اجتزنا الباب الرومانيّ الذي هُتف عنده من جديد ليوحنا . غير أنه إذ كان غارقاً في همومه فقد أهمل الردّ على الجمهور فأسرعت أقوم بذلك بدلاً منه ، الأمر الذي أفرح ابني جوسپ فرحاً بلغ حدّ التوسّل إليّ بأن أقوم إلى ما لا نهاية بالحركات نفسها مقهقهاً جدّاً في كل مرّة .

* * *

في يوم وصولنا بالذات إلى رومة أصرّ يوحنا «العصابات السوداء» على أن نذهب معاً إلى البابا . ووجدناه مجتمعاً إلى «غويتشارديني» الذي لم يبد قطّ مسروراً لقدومنا . فلقد كان ولا شكّ قد أفتح الأب الأقدس بأخذ قرارٍ شاقّ ما وكان يخشى أن يجعله يوحنا يغيّر رأيه . ولكي يُخفي قلقه ويسبر غور نيّاتنا فقد اختار كالعادة طريقة المزاح :

«ألا يمكننا قطّ أن نجتمع بوصفنا فلورنسيين من غير أن يكون بيننا عربيّاً!»

وابتسم البابا ابتسامة مرتبكة . وأمّا يوحنا فما فكّر حتى في الابتسام . وأمّا أنا فأجبت باللهجة نفسها وبحركة انزعاج ملحّة :

«ألا يمكننا قطّ أن نجتمع بوصفنا من آل مديتشي من غير أن ينضمّ العامّة

إلينا!»

وفي هذه المرة فرقت ضحكة يوحنا كالسوط وانهالت يده على ظهري في تربيته ودّية مهولة. وضحك «غويتشارديني» بدوره واستطرد على الفور في الكلام على أحداث الساعة:

«لقد وصلنا للتوّ بريد على جانب كبير من الأهمية. سوف يغادر الملك فرانسوا إسبانيا قبل يوم الأربعاء الذي يُحتفل فيه بانحلال الجسد».

وتبعت ذلك مناقشة قدّمنا فيها أنا ويوحنا بشيء من الحياء ذرائع إلى تسوية مع شارلكان. ولكن بلا جدوى. فلقد كان البابا بكلّيته تحت تأثير صديقي «غويتشارديني» الذي كان قد أقنعه بـ «الوقوف في وجه قيصر»، وبأن يكون روح الائتلاف المناهض للإمبريالية.

في ٢٢ أيار (مايو) ١٥٢٦ م ولد «حلف مقدّس» في مدينة كونيّاك الفرنسية ضمّ بالإضافة إلى فرانسوا والبابا دوق ميلانو والبنادقة. وكانت تلك هي الحرب، إحدى أفظع الحروب التي عرفتها رومة يوماً. لأنه إذا كان الإمبراطور قد هادن بعد «بافية» فقد كان مصمماً هذه المرة على الذهاب حتى النهاية ضدّ فرانسوا الذي كان قد حرّر لقاء تعهد خطّي ما لبث أن أعلن بطلانه ما إن اجتاز جبال البرانس؛ وبعد ذلك ضدّ البابا حليف «الحانث». وكانت الجيوش الإمبراطورية قد بدأت بالتجمع في إيطاليا من جهة ميلانو وترنتو وناپولي. ولم يكن في وسع كليمان لكي يواجههم إلا الاعتماد على شجاعة رجال «العصابات السوداء» وقائدهم. وإذ قدّر هذا أن الخطر الرئيسي كان من الشمال فقد ذهب إلى «مانتوفه» مصمماً على منع العدو من اجتياز نهر «الپو».

وكان لشارلكان أيضاً ويا للأسى حلفاء داخل الدولة البابوية نفسها، عشيرة كانت تُسمى الـ «إمبريالستا». وعلى رأسها الكردينال ذو النفوذ «بومبيو كولونا». وإذ استغلّ هذا الكردينال في أيلول (سبتمبر) بعدّ «العصابات السوداء» فقد ظهر في أحياء «بورغو» و«تراستقيري» على رأس زمرة من النهابين الذين أضرموا النار في بعض البيوت وأعلنوا في الساحات العامة أنهم سوف «يخلّصون رومة من طغيان

البابا». وهُرع كليمان السابع يحتمي في قصر القديس أنجلو مخبئاً خلف الحواجز والمتاريس في حين كان رجال «كولونا» يعيشون فساداً في قصر القديس بطرس. وكدت أنا نفسي أقود مادالينا وجوسپ إلى القصر، ولكنني عدلت أخيراً إذ قدّرت أنه كان من التهور بمكان اجتياز جسر القديس أنجلو في مثل هذه الظروف. وعليه فقد قبعت في منزلي تاركاً للأحداث طوال هذه الساعات العصبية أن تأخذ مجراها.

والواقع أن البابا اضطر إلى القبول بجميع مطالب «كولونا». وقد وقع تعهداً يعد فيه بالانسحاب من الحلف ضد الامبراطور والعدول عن كل عقاب بحق الكردينال المذنب. وبالطبع فإنه ما إن ابتعد المهاجمون حتى أفهم الجميع أنه ليس في حسبانته أن يحترم معاهدة فُرضت بالإكراه والإرهاب وخرق القديسيات.

وفي اليوم التالي لذلك العدوان، وفي حين لم يكمل كليمان السابع عن التفجر غضباً على الإمبراطور وحلفائه، ورد إلى رومة نبأ الانتصار الذي حققه السلطان سليمان في «موهاك» ونبأ موت ملك المجر نسيب الإمبراطور. واستدعاني البابا يسألني عما إذا كان الأتراك سيهاجمون في رأيي فيينا، وما إذا كانوا سيدخلون المانيا عما قريب أم أنهم سيتوجهون إلى البندقية. وكان عليّ أن أعترف بأنني لم أكن أملك أدنى فكرة عن ذلك. وبدا الأب الأقدس قلقاً جداً. وكان «غويتشارديني» يقدر أنّ مسؤولية هذه الهزيمة النازلة بالمسيحيين تقع بكاملها على الإمبراطور الذي كان يتلهى بالحرب في إيطاليا ويصبّ غضبه على ملك فرنسا بدلاً من الدفاع عن الأراضي المسيحية في وجه الأتراك، وبدلاً من محاربة الهرطقة التي كانت تجتاح ألمانيا. وقد أضاف قائلاً:

«لماذا يُراد أن يخفّ الألمان لنجدة هنغاريا إذا كان لوثر يقول لهم صباح مساء: «إنّ الأتراك هم العقاب المرسل إلينا من السماء، والوقوف في وجههم وقوف في وجه مشيئة الخالق!»

ووافق كليمان السابع بهزة من رأسه. وانتظر «غويتشارديني» خروجننا ليشاطرنى سروره البالغ بقوله:

«سوف يغير انتصار العثماني مجرى القدر. ولعلّ هذا هو المعجزة التي كنا نتظرها».



وضعت في هذا العام اللمسة الأخيرة لكتابي «وصف إفريقيا». ثم قررت من غير أن استريح يوماً واحداً أن أنصرف إلى تأريخ حياتي والوقائع التي قدّرت لي أن أدانيها. وإذ رأيتني مادالينا أعمل بمثل هذا الجنون فقد رأيت في الأمر نذير شؤم. وكانت تقول: «كما لو أنّ أيامنا كانت معدودة».

ولقد وددت أنا أن أطمئنها، غير أنّ عقلي كانت تحاصره التخوفات والهواجس نفسها: رومة ثم محمد، وإقامتي الإيطالية في طريقها إلى الزوال، ولست أدري متى يُتاح لي الوقت للكتابة.

عام المرتزة الألمان

٩٣٣ هـ (٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٢٦ م -
٢٦ أيلول (سبتمبر) ١٥٢٧ م)

أقبل حينئذ عامي الأربعون، عام رجائي الأخير، عام فراري الأخير.

وكان يوحنا «العصابات السوداء» يرسل من الجبهة أكثر الأنباء طمأنة مشدداً أزر البابا وإدارته ورومة بأسرها بالشعور الخداع بأن الحرب كانت بعيدة جداً وستبقى كذلك. وكان قائد المرتزة يعيد بأن «الإمبرياليين» شمالي نهر «الپو» وأنهم لن يجتازوه على الإطلاق». وكان يملو للناس من «تراستيقيري» إلى حي «تريفي» أن يُشيدوا بسالة المديشي ورجاله. وسواء أكانوا من أصل روماني أم عابرين فإنهم كانوا يتنافسون في ازدياء «هؤلاء الجرمان البرابرة» الذين ظالمنا نظروا، كما يعرف كل إنسان، إلى المدينة الخالدة بحسد وجشع وعدم إدراك مُقيم.

كنت عاجزاً عن المشاركة في هذه الحماسة المجنونة لفرط ما كانت محصورة في ذاكرتي حكايات أيام غرناطة الأخيرة عندما كان أبي وأمي وسارة وكلّ حشد المنذرين للمنفي مقتنعين بأن الخلاص كان مؤكداً، وعندما كانوا يتعهدون في أنفسهم احتقاراً جماعياً لقشتالة المتصرة، وعندما كانوا يرمون بالريبة كل من تسوّل له نفسه الارتياح بوصول المعونات الوشيك. وإذا كنت قد تعلمت درساً من محنة أهلي فقد تعلمت أن أحذر من المسلمات. وحين يتجمع كل الناس حول رأي واحد أهرب؛ فالحقيقة هي بالتأكيد في مكان آخر.

وكانت ردود فعل «غويتشارديني» بالطريقة نفسها. فإذا عُين قائداً عاماً للجيش البابوية فقد كان في شمالي إيطاليا بصحبة يوحنا الذي كان يراقبه بخليط من الإعجاب والغضب: «إنه شديد البسالة، ولكنّه يخاطر بحياته في أقلّ مناوشة. والحق أنه لو أصابته مصيبة لاستحال علينا أن نوقف سيل الإمبرياليين». ولم تُعرف

في رومة هذه الشكوى التي ضمتها رسالة موجهة إلى البابا إلا عندما انتهى الغرض منها: كانت ساق زعيم «العصابات السوداء» قد تحطمت من جراء إصابتها بقذيفة مدفع خفيف. ولم يكن بد من البتر. وكان الظلام قد خيم وطلب يوحنا أن يسك بنفسه المشعل بينما كان الطبيب يقطع له الطرف المصاب بمنشار. وكان عذاباً من غير جدوى لأن الجريح أسلم الروح بعد قليل من إجراء العملية.

لقد كان طومان باي الجركسي ويوحنا «العصابات السوداء» أسبل من عرفت من الرجال. وقد قُتل الأول على يد سلطان الشرق، وقُتل الثاني على يد إمبراطور الغرب. ولم ينقذ الأول القاهرة؛ ولا عرف الثاني كيف يجنب رومة العذاب الذي كان مكتوباً عليها.

وما إن عُلم نبأ هذا الموت في المدينة حتى دبّ الذعر في القلوب. ولم يكن العدو قد تقدّم سوى بضعة أميال، ولكن ساد الشعور بأنه بات على أبواب المدينة، وكان فقد يوحنا كان قد محّا من الوجود الأمكنة الحصينة وجفف الأنهار وسطح الجبال.

وقد خُيل في الواقع أن ليس في إمكان شيء إيقاف التدفق. فعندما قُتل زعيم «العصابات السوداء» كان يحاول يائساً منع التقاء قوتين إمبرياليتين مسلحتين في شمال إيطاليا، تتألف إحداهما بشكل خاص من القشتاليين الذين كانوا في ميلانو، وتتألف الأخرى، وهي أخطر بكثير، من المرتزقة الألمان، وجميعهم تقريباً من اللوثريين المنتمين إلى بافاريا وساكس وفرانكونيا. وكانوا قد اجتازوا جبال الألب واجتاحوا «ترانتونو» بقناعة من تلقى تكليفاً إلهياً: معاينة البابا الذي اقترف ذنب إفساد المسيحية. عشرة آلاف هرطوقس ناثر يسيرون لملاقاة البابا تحت راية إمبراطور كاثوليكي: تلك كانت المحنة التي نزلت بإيطاليا في ذلك العام.

وقد أتاح موت يوحنا وانسحاب «العصابات السوداء» المتعجل على أثره أن يحتشد جميع الإمبرياليين ويجتازوا نهر «البو» مصممين على المسير إلى قصر القديس بطرس. وما كانوا ليقبلوا عن ثلاثين ألف جندي مهلهلي الثياب سيئي الغذاء والرواتب، وكانوا يأملون في رغد العيش وتحسين الأحوال على حساب البلاد. وقد اقربوا أول الأمر من بولونية التي اضطرت إلى دفع جزية كبيرة لتجنب الأذى ثم كان الدور على فلورنسة التي ظهر فيها الطاعون ودفعت هي أيضاً جزية باهظة

للإفلات من النهب. ونصح «غويتشارديني» الذي كان له دور في هذه الترتيبات بأن يفاوض البابا من أجل اتفاق مماثل.

ومن جديد سادت الحماسة، فقد أخذ الناس يؤكدون بأن السلام في متناول اليد. وفي ٢٥ آذار (مارس) وصل إلى رومة نائب ملك نابولي، «شارل دولانو»، مبعوثاً فوق العادة من قبل الإمبراطور لعقد اتفاق. وكنت وسط الجماهير في ساحة القديس بطرس لمشاهدة لحظة الخلاص هذه. وكان الجوّ حسناً والنهار ربيعياً رائعاً عندما ظهر صاحب المقام العالي يحفّ به حرسه. بيد أنه في اللحظة التي اجتاز فيها باب الفاتيكان حدث برق تلاه وابل من المطر انهال على رؤوسنا في ضجيج كأنه من علامات الساعة. وإذا أفقت من الدهشة فقد هرعت احتمي تحت مظلة أحد الأبواب، وما لبث أن حاصرني بحر من الأوحال.

وبجواري كانت امرأة تجار بالشكوى من نذير الشؤم هذا. وتذكّرت وأنا أسمعها طوفان غرناطة الذي كنت قد عشته في عيني أمني تغمّدها الله برحمته. أليكون ذلك في هذه المرّة أيضاً آية من آيات السماء على حلول كارثة؟ ومع ذلك لم يحصل في ذلك اليوم فيضان من نهر «التبير» ولا سيول جائحة ولا مجزرة. بل لقد وُقِع الاتفاق في الأصيل. وقد نصّ على أن يدفع البابا مبلغاً كبيراً من المال لصون مدينته من الخراب.

ودُفع المال بالفعل، وقد قيل لي إنه كان ستين ألف دوكا. ولكي يثبت كليمان السابع حسن نيّاته فقد عزم على تسريح المرتزقة الذين كان قد طوّعهم. بيد أنّ الجيش الإمبراطوري لم يقف مع ذلك تقدّمه. ومن تجرّأ على الحديث عن الانسحاب من الضباط كان نصيبه التهديد بالموت على يد عسكره بالذات؛ وفي إبان الخصام قضى زعيم المرتزقة الألمان الأعلى من سكتة دماغية وانتقلت القيادة إلى قائد بوربون الأعلى، ابن عمّ ملك فرنسا وعدوّه اللدود. ولم يكن يملك كبير سلطة، وكان يتبع الجيش الإمبراطوري أكثر مما كان يقوده. وما كان لأحد هبة على هذا الجحفل، ولا حتّى الإمبراطور الذي كان في إسبانيا على كل حال. وهكذا كان يزحف باتجاه رومة جاعماً لا يرحم ومخرباً في طريقة كل شيء، فحلّ الذعر أكثر جنوناً يوماً عن يوم محلّ الآمال بالسلام. وما كان الكرادلة على الأخصّ

يفكرون في غير التواري أو الهرب بكنوزهم .

وأما البابا فقد أصرَّ على الاعتقاد بأن اتفاقه مع نائب الملك لن يلبث أن يُحترق حتى ولو في اللحظة الأخيرة . وعندما بلغت الجيوش الإمبراطورية نهر «التير» على بُعد بضعة أميال صُعداً من المدينة في نهاية شهر نيسان (إبريل)، عندها فقط قرَّر الأب الأقدس تنظيم الدفاع . وإذ كانت الخزائن البابوية فارغة فقد رفع إلى رتبة كرينال ستّة تجار أغنياء دفعوا للحصول على هذا الامتياز مئتي ألف دوكا . وقد أمكن بهذا المال تأليف جيش من ثمانية آلاف رجل، ألفان منهم من الحرس الحجاب، وألفا جندي من «العصابات السوداء»، وأربعة آلاف متطوع من بين أهالي رومة .

لم أكن أشعر وأنا في الأربعين من العمر بالقدرة على حمل السلاح . ومع ذلك فقد عرضت خدماتي لإدارة مستودع الأسلحة والذخائر في قصر القديس أنجلو . ولكي اضطلع كأحسن ما يكون بهذه المهمة التي كانت تستوجب حضوراً يقظاً ليل نهار فقد قرَّرت أن أسكن في الحصن بعد أن تدبّرت أمر إقامة مادالينا وجومب إلى جانبي . والحقّ أنّ ذلك كان أحسن مكان في المدينة بأسرها، ولم يلبث أن تقاطر عليه اللاجئون . ولقد شغلت غرفتي القديمة، الأمر الذي جعلني أرى نفسي موسراً لأنّ القادمين الجدد كانوا مُكرهين بَعْدُ على التكوّم أسراً برمتها في الأروقة .

وفي أوائل شهر أيار (مايو) ساد جوّ غريب في هذا المعسكر المرتجل المؤاتي لأكثر الإثارات جنوناً . ولسوف أتذكّر دائماً اللحظة التي وصل فيها نافخ مزمار من الجوقة البابوية وهو يلهث ويصرخ بأعلى صوته: «قتلت البوربون! قتلت البوربون!» .

كان ذلك شخصاً يُدعى «بنفوتو شيليني» من فلورنسة . وكان أحد إخوته قد قاتل في صفوف «العصابات السوداء»، وأما هو، وكان يعمل نقاش أوسمة، فلم يكن قد شارك قطّ في أي جيش . ولقد أخبر أنه ذهب يناوش مع اثنين من أصدقائه ناحية باب «تريتوني»، وقال:

«كان هناك ضباب كثيف، بيد أنّي استطعت تمييز طيف القائد على حصانه . وأطلقت طلقة بندقية . وما هي إلا دقائق حتى انقشع الضباب في ذلك المكان ورأيت البوربوني مسجّى على الأرض، وكان واضحاً أنه مات» .

واكتفيت وأنا أسمعه بهزّ كنفّي . وكان أن زجره بعضهم بعنف، فقد كانت المعركة مستعرة على أسوار المدينة، ولا سيّما من جهة «بورغو» ولم تكن الطلقات قطّ بمثل هذه الشدّة؛ وكان ضجيج حرب وألم وخوف يتعالى من قلب المدينة؛ ولم يكن الوقت وقت مفاخرات .

ومع ذلك فلإنه قبل أن يوليّ النهار كان الخبر - وعليّ أن أقول: ويا لعظم دهشتي! - قد تأكّد: لقد قُتل البوربوني حقّاً في جوار باب «تريتوني». وعندما أعلنه لنا كردينال وقد أشرق وجهه المتطلق بابتسامة عريضة تعالت بعض صيحات النصر. وكان إلى جانبي رجل لم يعبر عن أية فرحة. كان محارباً قديماً من «العصابات السوداء»، وكان يغلي من الغيظ .

«أهذه هي الحرب إذن في أيامنا؟ إنّ أشجع الفرسان قد يقتله من بعيد نافخ في زمزمار بهذه البنادق اللعينة! إنها نهاية الفروسية! نهاية الحروب المشرقة!»

وعلى الرغم من هذا فقد غدا نافخ الزممار الفلورنسي بطلاً في نظر الجمهور. وقُدّم له الشراب، ورُجي أن يقصّ من جديد خبر صنيعه، وحُمل على الأكتاف. وكان احتفال في غير محله لأنّ موت البوربوني لم يؤخّر لحظة هجوم الإمبراليين. بل يُمكن على العكس القول إنّ اختفاء قائد الجيش لم يكن منه إلا أن زاد رجاله جموحاً. فبفضل الضباب الذي أبطل مفعول المدفعية القابعة في قصر القديس أنجلو تسلّق المرتزقة الألمان الأسوار من عدّة جهات وانتشروا في الشوارع. واستطاع بعض الناجين بلوغ القصر حاملين في أعينهم حكايات الأهوال الأولى. ثم تبعهم شهود آخرون .

وأقسم بالله الذي جعلني أجوب الدنيا الواسعة، بالله الذي جعلني أعيش عذاب القاهرة كما عشت عذاب غرناطة، أنّي لم أقارب قطّ هذا القدر من الوحشية، هذا القدر من الحقد، هذا القدر من الاندفاع الدموي، هذا القدر من المتعة في الذبح والتدمير والتدنيس!

فهل أُصدّق إذا قلت إنّ راهبات قد اغتصبهنّ على مذابح الكنائس مرتزقة يضجّون بالضحك قبل أن يخنقوهنّ؟ هل أُصدّق إذا قلت إنّ الأديرة قد خربت، وأن الرهبان قد خلعت عنهم ملابسهم وأجبروا تحت التهديد بالسوط على دومس

الصليب وإعلان أنهم يعبدون الشيطان الرجيم، وأن مخطوطات المكتبات قد غدت
إبالات كبيرة أقيمت للفرح وأخذ الجنود السكارى يرقصون حولها، وأنه لم ينبج
محراب ولا قصر ولا منزل من النهب، وأن ثمانية آلاف مدني، ولا سبياً من
الفقراء، قضوا، فيها أُخذ الأغنياء رهائن حتى يدفعوا جزية؟

ولم يكن في مقدوري وأنا أتأمل من سور القصر أعمدة الدخان الكثيفة التي
كانت تتصاعد متزايدة من المدينة أن أطرد من ذاكرتي صورة البابا ليون الذي تنبأ
لدى لقائنا الأول بهذه الكارثة: لقد انبعثت رومة لتوها، غير أن الموت يتربص بها!
وكان الموت هنا، أمامي، يستشري في جسد المدينة الخالدة.

كان بعض المسلحين وبعض الناجين من «العصابات السوداء» يحاولون في
بعض الأحيان منع الوصول إلى مفترق طريق، لكنهم سرعان ما كان يفرقهم سيل
المهاجمين. وفي حي «بورغو»، ولا سبياً في النواحي المحاذية لقصر الفاتيكان، صمد
الحرس الحجاب بشجاعة تدعو إلى الإعجاب مضحين بأنفسهم بالعشرات،
بالمئات، من أجل كل شارع وكل بناء، مؤخرين ساعات على هذا النحو تقدم
الإمبرياليين. بيد أنهم ما لبثوا أن استسلموا تحت وطأة العدد، واجتاح المرتزقة
الألمان ساحة القديس بطرس وهم يصيحون: «لوثر بابا! لوثر بابا!»

وكان كليان السابع لا يزال في مصلاه غير شاعر بالخطر. وجاء أسقف يشده
بلا تحفظ من رده قائلاً: «يا صاحب القداسة! يا صاحب القداسة! لقد وصلوا!
سوف يقتلونك!»

كان البابا جاثياً. ونهض جارياً إلى الممر المفضي إلى قصر القديس أنجلو
والأسقف ممسك بذيل ثوبه لمنع من التعثر. ومرّ في أثناء ركضه أمام إحدى النوافذ
فرشقه جندي إمبريالي ببعض الطلقات من غير أن يصيبه.

وقال له رفيقه: «إن ثوبك الأبيض صارخ جداً يا صاحب القداسة!» وأسرع
يغطيه بمعطفه هو ذي اللون البنفسجي الذي هو أقل وضوحاً في الرؤية.

ووصل الأب الأقدم إلى القصر سليماً معافى، ولكنه كان خائراً أغبر زائغ

البصر غير واضح القسبات. وأمر بإنزال الأبواب المستنثة لمنع الوصول إلى الحصن ثم احتبس وحيداً في جناحه للصلاة، وربما للبكاء أيضاً.

استمرّ النهب في المدينة المتروكة للمرتزقة ثلاثة أيام طويلة أخرى. بيد أن قصر القديس أنجلو قليلاً ما أزعج. وقد حاصره الإمبرياليون من كلّ صوب من غير أن يجازفوا أبداً بمهاجمته. فقد كانت أسواره صلبة ومدافعه متعدّدة ومتنوّعة الأحجام والأشكال، وكان المدافعون عنه قد صمّموا على الموت عن بكرة أبيهم على أن يلقّوا مصير المدنيين المنكودين.

وكان الناس في الأيام الأولى لا يزالون ينتظرون الإمدادات. وكانوا يعلمون أنّ الإيطاليين المتمين إلى الحلف المقدّس بقيادة «فرانشسكو ديلا روفيري»، دوق «أوربينو»، لم يكونوا بعيدين عن رومة. وهمس أسقف فرنسي في أذني أنّ السلطان التركي المعظم قد اجتاز جبال الألب بستين ألف رجل وأنه سوف يأخذ الإمبرياليين من خلف. ولم يتأكد الخبر، ولا جرّؤ جيش الحلف على التدخل، بينما كان في وسعه استعادة رومة بلا أدنى صعوبة وإبادة جميع المرتزقة المنصرفين إلى نهبهم ومجونهم وسكرهم. وإذ خارت عزيمة البابا بفعل تردّد الحلفاء وجبنهم فقد عزم على المفاوضة. ولقد استقبل منذ الحادي والعشرين من أيار (مايو) مبعوثاً من الإمبرياليين.

وبعد يومين تبعه مبعوث آخر في زيارة مقتضبة. وبينما كان يتسلّق درج القصر سمعت اسمه يلفظ مقروناً ببعض النعوت النائية. والحقّ أنّ الأمر كان يتعلق بأحد زعماء عائلة «كولونا»، وهو ابن عمّ الكردينال «بومبيو». وقد شرع أسقف فلورنسي بالقدح فيه، غير أنّ جميع الحاضرين ألزموه الصمت. وكان كثيرون بالفعل يعلمون مثلي أنّ هذا الرجل، وهو على قدر كبير من الاستقامة، ما كان ليُسّرّ بالكارثة التي حلت بمدينته، وأنّه كان أسفاً بالتأكيد للخيانة التي ارتكبتها عائلته، وأنّه سوف يفعل كلّ ما من شأنه لإصلاح الخطأ محاولاً إنقاذه ما يمكن إنقاذه من رومة ومن الكرامة البابوية.

لم يدهشني إذن مجيء هذا الـ «كولونا». وبالمقابل فإنّي لم أكن لأظنّ أبداً أنّ المبعوث سيتطرّق في أثناء محادثته مع البابا إلى الكلام عليّ. فما كنت قد التقيته قطّ من قبل، وعندما حضر أحد المسلّحين يدعوني إلى الذهاب إلى الجناح البابوي لم

أكن أملك أدنى فكرة عما يمكن أن يُطلب مني .

كان الرجلان جالسين في المكتبة على أريكتين متقاربتين . ولم يكن البابا كليمان قد حلق لحيته منذ أسبوعين علامة على الحداد واحتجاجاً على المصير الذي فُرض عليه . وطلب مني أن أجلس وقدمني إلى زائره على أنه «ابن عزيز جداً وصديق غالٍ ومخلص» . وكان مع «كولونا» رسالة لي سلمني إليها بشيء من التعطف قائلاً :

«لقد طلب إليّ مرشد مرتزقة ساكس أن أؤكد لك صداقته وعرفانه بجميل ذكراك» .

إن سكسونياً واحداً كان يمكن أن يعرف ليون الإفريقي . ولقد أفلت اسمه مني وكأنه صرخة نصر بدت قليلة الحشمة بعض الشيء بالمناسبة :

«هانزا!

- إنه أحد تلاميذك القدماء، إذا كنتُ قد فهمت ذلك جيداً . وهو يصّر على شكرك على كل ما علمته بكثير من الأناة، وعلى أن يظهر لك عرفانه بفضلك بمساعدتك على الخروج من هنا أنت وامراتك وابنتك» .

وقبل أن أتمكن من الردّ تدخل البابا قائلاً :

«لن أعارض بالطبع بأيّ شكل ما تتخذ من قرار مهما يكن . ولكن عليّ تحذيرك من أنّ رحيلك لن يكون من دون مخاطر كبيرة عليك وعلى أهلِكَ» .

وشرح لي «كولونا» قائلاً :

إنّ بين العساكر الذين يحاصرون القصر عدداً كبيراً من الحانقين الذين يريدون الإمعان إلى النهاية في إذلال الكرسي الرسولي . وأقصد بهم على الأخصّ الألمان الذين لَقنهم التعصبَ لوثر لاحقاً لاله بغضبه إلى قيام الساعة! وهناك بالمقابل آخرون يودّون القضاء على الكرسي وإيجاد حلّ للانتهاء من المذلة اللاحقة بالمسيحيين . وإذا سعى قداسته اليوم إلى الخروج فلنني أعرف أفواجاً لن تتردّد في الاستحواذ عليه وإنزال أشنع أنواع العقاب والتعذيب به» .

وامتقع كليمان فيما كان زائره يتابع بقوله :

«وهذا ما ليس في مقدوري، ولا حتى في مقدور الإمبراطور، منعه. فينبغي الاستمرار طويلاً في التفاوض واللجوء إلى الإقناع والحيلة وعدم ادّخار أيّ وسيلة. ولعلّ من المفيد على الأخصّ تقديم مثال على ذلك. إننا نملك اليوم حظاً غير مأمول في إمكان إخراج أحد المحاصرين بناء على طلب ملحّ من مبشر لوثري. وهو ينتظر مع مفرزة من السكسونيين جميعهم هراطقة مثله، ويقول إنه مستعدّ لمواكبتك بنفسه بعيداً من هنا. وإذا جرى كل شيء على ما يُرام، وعرف الجيش بأسره غداً أن مرشد المرتزقة السكسونيين قد حرّر أحد المحاصرين في قصر القديس أنجلو، فسيكون أسهل علينا أن نقترح بعد بضعة أيام تحرير أشخاص آخرين، بل ربّما قداسه بالذات، بشروط من الكرامة والأمان».

وتدخّل كليمان السابع من جديد فقال:

«أكرّر أنه ينبغي عدم تجاهل الأخطار. لقد قال لي نيافته إن بعض الجنود المتعصّبين قد يمزّقونك إرباً أنت وأسرّتك والذين يواكبونكم من غير حتى أن يوقروا هذا المرشد. إن القرار المطلوب منك اتّخاذه ليس هيناً. زدّ على ذلك أنك لا تملك وقتاً للتفكير، فالكردينال يتهيأ للرحيل عليك ومرافقته».

وكان من الأفضل لي بحسب مزاجي أن أتعرّض لخطر مباشر، ولكنّ قصير الأمد، من أن أظلّ إلى الأبد في هذا السجن المحاصر الذي قد يُحتاج في كل لحظة وتُضرم فيه النار وتسيل الدماء. وكان تردّي الوحيد يتعلّق بمادالينا وجوسپ. فما كان من اليسير عليّ أن أقودهما بملء خاطري وسط جحافل القتلة والنهبين. ومع هذا فإنّ تركي إيّاهما في قصر القديس أنجلو، بحضوري أو في غيابي، لن يؤمّن لهما السلامة.

وعاجلني «كولونا» بقوله:

«ما الذي اخترت؟»

- أفوض أمري إلى الله. سأقول لامرأتي أن تُعدّ المتاع القليل الذي غلّكه هنا.
- لن تأخذ معك شيئاً. إنّ أقلّ صرّة أو قفّة قد تُهيج المرتزقة كما تُهيج رائحة الدم الوحوش. سوف تذهبون كما أنتم بثياب خفيفة وأيديكم طليقة».

لم أَسْعَ إلى الحِجَاجِ . فقد كان مكتوباً أن أنتقل من موطن إلى آخر كما يُنتقل من الحياة إلى الموت بلا مال ولا زخرف ولا ثروة غير خضوعي لمشيئة الله تعالى .

وعندما شرحت الأمر لمادالينا بيضع كلمات نهضت على مهل كعادتها، ولكن بلا أدنى تردّد، وكأنّها كانت تعرف منذ القدم أنني سأدعوها إلى المنفى ذات يوم . وأمسكت بيد جوسپ ومشت خلفي لنذهب إلى البابا الذي باركنا وأشاد ببسالتنا وعهد بنا إلى رعاية الله . وقبّلت يده وعهدت إليه بكل ما كتبت باستثناء هذه الوقائع التي لم تكن قد اکتلمت، وقد لفتتها ودستها تحت حزامي .

كان هانز بانتظارنا مفتوح الذراعين عند مدخل حي «ريغولا» الذي كنّا قد تجولنا فيه معاً في الماضي ولم يكن اليوم سوى أطلال محروقة . وكان يرتدي ثوباً قصيراً ويتعل نعلين حائلين، وعلى رأسه خوذة سارع إلى رفعها قبل أن يعانقني . وكانت الحرب قد شبيته قبل الأوان، وكانت عظام وجهه أشدّ نتوءاً من أيّ يوم مضى . وكان حوله زهاء اثني عشر مرتزقاً بثياب فضفاضة وريش مبقّع، وقد قدّمهم إليّ بوصفهم إخوته .

وما كدنا نخطو بعض الخطوات حتى اعترض طريقنا ضابط قشّالي برجاله . وإذ أشار عليّ هانز بالآلا أتحرّك فقد توجه إلى الرجل العسكري بنبرة جازمة ولكنها خالية من الاستفزاز . ثم أخرج من جيبه رسالة أخلت لنا رؤيتها الطريق . تُرى كم مرّة أوقفونا على هذا النحو؟ عشرين ولا ريب، بل ربما ثلاثين . غير أنه لم يُسقط في يد هانز مرّة واحدة . فلقد سبق أن نظّم هذه الحملة بشكل يثير الإعجاب فحصل على أذن بالمرور موقّعة من نائب ملك نابولي والكردينال «كولونا» ومختلف الزعماء العسكريين . وكان يحيط به فوق ذلك «إخوته» السكسونيون الأشداء السريعون في تسديد أسلحتهم إلى الجنود الكثيرين السكارى الذين كانوا يجوبون الطرقات اقتفاء لأثر غنيمة .

وعندما اطمأن هانز لفعالية جهازه أخذ يحدّثني عن الحرب . والغريب أن أقواله ما كانت مطابقة للصورة التي كنت أحتفظ بها عنه . فلقد أخذ يشكو من الشكل الذي اتخذته الأحداث ويتذكّر بتأثر الأعوام التي قضاها في رومة ويدين تحريف المدينة . وكان يتحدّث بادية الأمر بكلمات مكشوفة، غير أنه في اليوم الثالث،

وبينما كنا نقرب من نابولي، جاء يُخَيِّل إلى جانبي مقرباً منّي حتى لامست قدمه قدمي، وقال:

«لقد أطلقنا للمرة الثانية قوى لم نتمكن من احتوائها. فهناك أولاً ثورة فلاحي ساكس المنبثقة عن تعاليم لوثر وكان ينبغي إدانتها وقمعها. وهناك الآن تدمير رومة».

وكان قد تلفّظ بالكلمتين الأوكيين بالعربية ثم أكمل بالعبرية وهي لغة يملك زمامها خيراً مما يملك زمام تلك. شيء واحد كان مؤكداً: لم يكن يريد أن يدرك الجنود الذين كانوا يرافقونه شكوكه وآثار ندمه. حتى إنه خيّل إليّ أنه كان متضيقاً جداً من دوره مرشداً لوثرانياً إلى حدّ أنّي شعرت وقد أصبحنا في نابولي بأن عليّ أن اقترح عليه مرافقتي إلى تونس. وابتسم ابتسامة مرّة وقال:

«إنّ هذه الحرب حربي. ولقد تمنّيتها وجررت إليها إخوتي وأبناء عمّي وشباب مطرانيّتي. وليس في وسعي أن أهرب منها حتى ولو أدت بي إلى اللعنة الأبدية. وأمّا أنت فإنك لم تتدخل فيها إلا بمشيئة من العناية الإلهية لا أملك لها تفسيراً».

وقادنا غلام في نابولي إلى دارة عبّاد، ولم يتركنا هانز إلا عندما جاء هذا يفتح لنا سياجه. وكدت أعبّر له عن امتنّيتي في لقائه ذات يوم، بيد أنّي لم أرّد أن أفسد بعبارات مزيفة ما كنت أشعر به من عرفان حيال هذا الرجل. وعليه فقد اكتفيت بضمّه بقوة إليّ، ثم بالنظر إليه ينطلق مصحوباً بشيء من الخنان الأبوي.

وهنا جاء دور السوسّي في معانقتي بحرارة. فقد كان يرجو منذ أشهر وصولنا في كلّ يوم. وكان قد ألغى جميع أسفاره هذا العام مُقْسِماً ألا يرحل من دوننا. ولم يُعدّ مسكه شيء بعد الآن. وما هو إلا الوقت اللازم للاستحمام، ولتناول طعام احتفالي، ولائخاذ قسط من النوم، حتّى وجدنا أنفسنا جميعاً في الميناء معطّرين رافلين بجديد الثياب. وكانت أجمل مراكب عبّاد في انتظارنا على أهبة الإقلاع إلى تونس.

رُسمت آخر كلمة على آخر صفحة وكنا قد أصبحنا عند الساحل الإفريقي.

مآذن قهّارت البيضاء، أطلال قرطاجة الشاخمة، إنّ النسيان يترئّص بي في

ظلالها، وبأعماقها يتحوّل مجرى حياتي بعد تعرّضي لعدد من حوادث الغرق .
خراب رومة بعد نكبة القاهرة، وحريق تومبكتو بعد سقوط غرناطة: أتكون
المصيبة هي التي تناديني، أم إنني أنا من استدعي المصيبة؟

مرّة جديدة يا بنيّ يجملي هذا البحر الشاهد على جميع أحوال التّيه التي قاسيت
منها، وهو الذي يملك اليوم إلى منفاك الأوّل. لقد كنت في رومة «ابن
الإفريقي»؛ وسوف تكون في إفريقية «ابن الرومي». وأينما كنت فسيرغب بعضهم
في التنقيب في جلدك وصلواتك. فاحذر أن تدغدغ غريزتهم يا بنيّ، وحاذر أن
ترضخ لوطأة الجمهورا فمسلماً كنت أو يهودياً أو نصرانياً عليهم أن يرتضوك كما
أنت، أو أن يفقدوك. وعندما يلوح لك ضيق عقول الناس فقل لنفسك أرض الله
واسعة، ورحبة هي يدها وقلبه. ولا تتردد قطّ في الابتعاد إلى ما وراء جميع البحار،
إلى ما وراء جميع التخوم والأوطان والمعتقدات.

أما أنا فقد بلغت نهاية رحلتي. فلقد أثقل خطوي ونفسي أربعون عاماً من
المغامرات. ولم يعدّ لي من رغبة غير العيش أياماً طويلة وادعة وسط أهلي
وعشيرتي. وإلا أن أكون من بين جميع من أحبّ أوّل الراحلين. إلى ذلك المشوى
الأخير الذي لا يُجسّ فيه أحد قطّ بالغبّة أمام وجه الخالق.

فهرس

١ - كتاب غرناطة

١٣	عام سلمى الحرّة
٢٩	عام التهايم
٣٩	عام «أستغفر الله»
٤٩	عام السقوط
٧٠	عام المهرجان
٧٨	عام الرحيل

٢ - كتاب فاس

٩١	عام الفنادق
١٠١	عام العرافين
١٠٩	عام النوادب
١١٥	عام هارون «المنقّب»
١٢١	عام المفتشين
١٢٨	عام الحمام
١٣٥	عام الأسدئين الهائجين
١٤١	عام ختم القرآن
١٤٨	عام الخدعة
١٥٦	عام القشة المعقودة
١٦٧	عام القافلة

١٧٥	عام تومبكتو
١٨٤	عام الوصية
١٩٢	عام المارستان
١٩٨	عام العروس
٢٠٣	عام الثروة
٢١٠	عام القصرين
٢١٧	عام الشريف الأعرج
٢٢٤	عام العاصفة

٣ - كتاب القاهرة

٢٤١	عام العين الجلييلة
٢٥٢	عام الجركسية
٢٦٥	عام العصاة
٢٧٦	عام السلطان التركي المعظم
٢٩١	عام طومان باي
٢٩٨	عام الاختطاف

٤ - كتاب رومة

٣١١	عام القديس أنجلو
٣١٨	عام الهراطقة
٣٢٦	عام «المُرتلة»
٣٣٤	عام أدريان
٣٤١	عام سليمان
٣٤٩	عام الرحيم
٣٥٩	عام ملك فرنسا
٣٦٨	عام «العصابات السوداء»
٣٧٨	عام المرتزة الألمان



أمين معلوف

ولد في بيروت عام ١٩٤٩.

درس الاقتصاد والعلوم الاجتماعية في مدرسة الآداب العليا، وجامعة القديس يوسف في بيروت.

دخل ميدان الصحافة وعمل في الملحق الاقتصادي لصحيفة «النهار» البيروتية، وبالقسم الدولي للصحيفة.

سافر إلى فرنسا وأقام فيها منذ العام ١٩٧٦.

عمل في مجلة «ايقونوميا» الاقتصادية. ثم في مجلة «جون أفريك» حيث رأس تحريرها، وعمل في مجلة «النهار العربي والدولي».

تحول بعد ذلك إلى الأدب متفرغاً لإصدار أعماله، وكان أولها:

«الحروب الصليبية كما رآها العرب» التي صدرت عام ١٩٨٣ عن دار النشر الفرنسية لاتيس وترجمت بعدها إلى العديد من اللغات.

ثم صدرت رائعته «ليون الإفريقي» عام ١٩٨٦، ونالت جائزة الصداقة الفرنسية - العربية.

عام ١٩٨٨ أصدر «سمرقند» . . .